

الخلفاء والملوك

من الصدر الأول إلى العصر العثماني

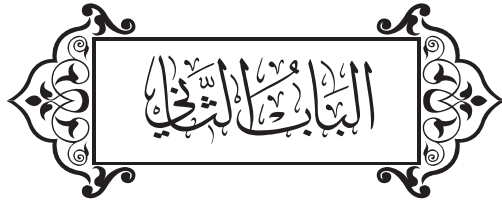
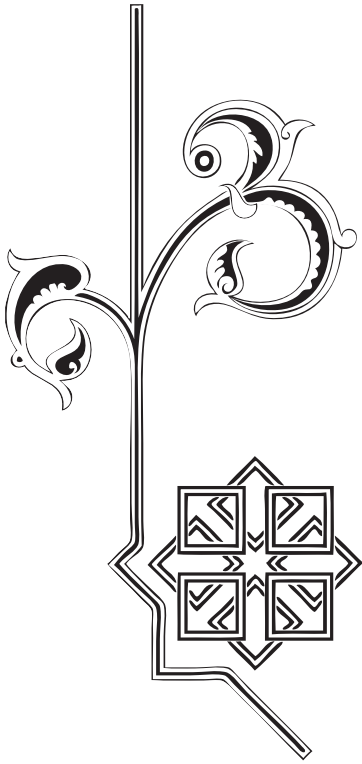


الـخلفاء والملوك

من الصدر الأول إلى العصر العثماني
قراءة في مسيرتهم ومواقفهم

الجزء الثاني

فاضل الصغار



الأمراء والخلفاء
في عهد بني أمية

الفصل الأول

عهد معاوية وحكمه
السياسة العامة

لم تمر فترة عصبية شديدة جائرة على الأمة الإسلامي أشدّ مما مرت في عهد معاوية بن أبي سفيان وحكمه، عصر السلطة الجائرة، عصر الحكم الديكتاتوري بكافة مساوئه ومفاسده.

لقد عملت السلطة بقيادة معاوية على هدم ما أسسه النبي الأعظم محمد ﷺ رسول الإنسانية والعدالة، رسول الحق والقيم والمبادئ والمثل، كما وعملت على هدم الدين وأسنه الذي تمثلت فيه الرأفة والرحمة واللين، وذلك عندما حاول بكل لؤم وحقد أن يصرف الأنظار عن شخصية تمثلت فيها كل معاني القيم الخيرة، وكل صفات الخير التي حملها الإسلام لبني البشر.

ذهب بكل ما يملك من وسائل لشراء الضمائر الدنيئة المزيفة التي لا تعرف للفضيلة معنى، ولا للرديلة حداً، فجمع الكثير معه وحوله من المرتزقة التي باعت دينها بديناها وبالثمن البخس، ونقضت المواثيق والعهود، وجعلت الباطل حقاً وبالعكس، رضيت بالدرهم المزيف والدينار المنهوب المسروق، والمال المغصوب؛ لترضي تلك السلطة الجائرة، فوضعت الأحاديث الكاذبة، واختلقت نصوصاً مزورة مكذوبة نسبتها إلى الرسول الأعظم محمد ﷺ بكل جرأة وصلابة، لا ضمير يردعها، ولا دين تتقيد به فيمنعها، حتى كثرت وأصبحت سلعة رائجة رابحة، لا يريدون بذلك سوى حرب الإسلام وهدم الدين.

وقد اعتمد الوضّاعون في نصوصهم المختلفة على ثلاثة أمور:

١- إخفاء فضائل ومناقب الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يمثل الشرعية الإسلامية، وتلخص فيه السياسة الحقة والحكومة العادلة، ووضع أحاديث كاذبة ضده.

٢- تحويل وتأويل وتفسير الآيات النازلة بمدحه عليه السلام لغيره، وذمه، ولصق الآيات التي نزلت لدم غيره فيه ومدحهم.

٣- وضع واختلاق الفضائل والصفات الحسنة التي لا أساس لها لغيره عليه السلام حتى راجت هذه السلعة، وعمت وانتشرت، فكانت حجر الأساس في ملكه، والدين لعق على اللسان، لم تتحكم فيه إلا روح الجاهلية الكافرة البغيضة. ومما كتبه إلى عماله في سائر الأقطار الإسلامية: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. ^(١)

وأمر معاوية الخطباء وغيرهم من المتكلمين بأن يسبوا علياً وأهل بيته عليهم السلام فاستجابوا لأمره مذعنين مسرعين مندفعين بكل حرارة ووقاحة وجرأة ولأدنى سبب.

فعمّ السب في كل مكان وعلى كل منبر والتبرأ منه، والمنابر التي يلعن عليها أمير المؤمنين عليه السلام ويسب لتربوا على السبعين ألف منبر ^(٢)، وذلك طيلة سيطرته على الأمة ومدة زعامته عليها، وهي لا تقل عن الأربعين سنة.

وتعمد التضيق على الشيعة بأكثر من ذلك، وجعلهم عرضة لتجاوزات أعدائهم والنيل من كرامتهم، ورفض شهادتهم وشهادة أهل البيت عليهم السلام، ومما قاله: لا تحيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة. ^(٣)

ولم يكتف بذلك، بل أمر عماله وعملائه وزبائنه من المرتزقة المأجورين، وخصص لهم جوائز وهدايا وعطايا كثيرة وكبيرة ومكانة عالية رفيعة عنده لمن يروي في عثمان بن عفان وفضائله ومناقبه وشيعته، ويأتي بها مسندة مروية منسوبة للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله افتراءً وبهتاناً وكذباً وزوراً، فانها لت عليه بشكل لا يتصوره هو، كما هي العادة في الأنظمة الديكتاتورية، حتى مل معاوية من كثيرة ما قيل في فضل عثمان وشيعته، فكتب لعماله بالتوقف.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤. إعلام الوري: ص ١١.

(٢) تاريخ الخلفاء، السيوطي، شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٥٦-٥٨، النصائح الكافية: ص ١٠٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ١٢٥، الغدير: ج ١١، ص ٢٨.

ومما كتبه:

إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر، وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقص له في الصحابة مفتعلة، فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله.^(١)

ثم أخذ الوضّاعون يتسابقون بتأليف الروايات والأحاديث الكاذبة المختلفة المبتدعة من مناقب وفضائل مفتعلة، والنيل من علي عليه السلام وشيعته، وإسنادها للنبي ﷺ كل هذا تقريباً إلى معاوية، ولتكثر الدراهم المزيفة التي باعوا بها ضمائرهم وعقولهم ودينهم، ثم تعطى تلك المرويات لذوي المنابر لتعلن على الملأ، وللمعلمي الكتاتيب ليحفظها الأطفال، ثم يحاول الضغط على شيعة علي عليه السلام بأكثر من هذا، فيأمر عماله في البلاد الإسلامية والمرزقة من عملائه بأن: انظروا إلى من قامت عليه البيعة، أنه يجب علياً وأهلاً بيته فاحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه.^(٢)

ثم يشفع هذا الكتاب بكتاب آخر أشد عنفاً وضيقةً وخنقاً وجوراً يقول فيه: من اتهمتموه بموالاته هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره.^(٣)

هذه صور من صور الحياة القاسية التي عاشتها الأمة الإسلامية في عهد معاوية بن أبي سفيان، ظلم وجور وإهانة، لا حرمة لعرض ومال ودم، ولا عزة ولا كرامة، الخطر محقق بهم، والضرب والقتل والتنكيل لأنفه الأسباب، وقد ولّى على الناس أشدهم قسوة وجوراً.

روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب «الأحداث» كما في شرح النهج قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٥. الغدير: ج ١١، ص ٢٩.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ج ١١، ص ٤٥.

الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته.

فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حيتنذ أهل الكوفة؛ لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليها ابن سمية، وضم إليه البصرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدبر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم، وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق، ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة.

فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته فيلقي إليه سره، ويخاف من خادمه ومملوكه، ويحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه.

وأضاف ابن أبي الحديد: فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض.

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام، وولي عبد الملك بن مروان، فاشتد على الشيعة، وولّى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والدين يبغض علي وموالاة أعدائه وموالاة من يدعي من الناس أنهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من البغض من علي عليه السلام وعيبه والطعن فيه والشنآن له.

حتى إن إنساناً وقف للحجاج - ويقال إنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب - فصاح به: أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني علياً، وإني فقير وبائس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج، فتضحك له الحجاج وقال: للطف ما توسلت به، قد وليتك موضع كذا. (١)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤ - ٤٦.

وقد روى ابن عرفة المعروف (بنفطويه) وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم في تاريخه قائلاً: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون بها أنوف بني هاشم.^(١)

وقدم معاوية بن أبي سفيان مكافأة - للصحابي - سمرة بن جندب مبلغ (٤٠٠٠٠٠) أربعمائة ألف درهم على أن يروي هذه الآية ويقول إنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۚ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(٢) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٣) وَإِنَّ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ نَزَلَتْ فِي حَقِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَلْجَمٍ قَاتِلِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٤).

فرواهما واستلم المبلغ مكافأة وأجرة.

وأما أبو هريرة فولاه معاوية المدينة مكافأة؛ لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قدح علي وذمه، ومدح بني أمية ما سر به ولائم ذوقه.^(٥)

وإليك نموذجاً من الآلاف من المرويات والأحاديث المختلفة المتعلقة في تمجيد بني أمية وعثمان ومعاوية خاصة.

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله ائتمن علي وحيه ثلاثاً: أنا وجبرئيل ومعاوية».^(٥)

وقال أيضاً: إن النبي صلى الله عليه وسلم ناول معاوية سهماً فقال له: «خذ هذا حتى تلقاني في الجنة».^(٦)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ٤٦ - ٤٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٤ - ٦٩.

(٥) البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٣١، أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

(٦) تاريخ مدينة دمشق: ج ٥، ص ٩٥.

وقال أبو هريرة أيضاً - ينسبها للنبي ﷺ -: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، ومعاوية حلقتها»^(١).

وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «وتلقون من بعدي اختلافاً وفتنة» فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «عليكم بالأمين وأصحابه» يشير بذلك إلى عثمان^(٢).

وقال أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي خليلاً من أمته، وإن خليلي عثمان»^(٣).

وقال أيضاً: «عن رسول الله ﷺ: لكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي عثمان»^(٤). قال أبو هريرة أيضاً - وذلك يوم عام الجماعة عندما قدم معاوية إلى العراق - : فلما رأى كثرة المستقبليين له، جثا على ركبتيه ثم أخذ يضرب صلعته بكفه مراراً، وقال: يا أهل العراق، تزعمون إنني أكذب على الله ورسوله، وأحرق نفسي بالنار، والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل نبي حرماً، وإن المدينة حرمي، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» وأشهد أن علياً أحدث فيها، فلما بلغ معاوية ذلك أجازته وأكرمه وولاه إمارة المدينة^(٥).

ولم يكتف معاوية بهذا بل ولى على البلاد الإسلامية أشخاصاً لا يتورعون عن منكر، ولا يتدينون بدين، ولا ضمير حي لهم يوبخهم ويؤنبهم، كل ذلك زيادة في الضغط على الشيعة.

(١) الغدير: ج٧، ص١٩٨، كشف الخفاء: ج١، ص٢٠٤.

(٢) مسند أحمد: ج٢، ص٣٤٥، المستدرک: ج٤: ص٤٣٣ - ٤٣٤.

(٣) تاريخ دمشق: ج٣٩، ص١٢٥. الغدير: ج٥، ص٣١١.

(٤) كنز العمال: ج١١، ص٥٨٧، ح٣٢٨٠٨. تاريخ دمشق: ج٣٩، ص١٠٥. سنن ابن ماجه: ج١، ص٤٠.

(٥) قال الشيخ محمود أبو ريه في كتابه (شيخ المضيرة) ص٢٣٦: وأثبت أنه في طليعة الوضاعين والمحرفين للسنة النبوية المقدسة. فراجع كتابه.

كنز العمال: ج١٤، ص١٢٩، ح٣٨١٣٢. شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٦٧. حياة الإمام الحسين: ج٢، ص١٥٧.

من ولاية معاوية

سمرة بن جندب، وزياد بن أبيه، وبسر بن أرطأة، وشيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي. وكثير من أضراهم، وهالك لمحات سريعة عنهم واحداً واحداً.

سمرة بن جندب

ولاه معاوية على البصرة، كان جائراً ظالماً شقيماً منافقاً متمرداً، قتل الأبرياء، وأراق الدماء. ويروى أنه زاحم أحد الأنصار في نخل كانت له في بستان ذلك الأنصاري، فشكا أمره إلى رسول الله ﷺ فاستدعى سمرة، فلما مثل بين يديه قال له ﷺ: «بع نخلك من هذا وخذ ثمنه» قال: لا أفعل. قال له النبي ﷺ: «خذ نخلًا مكان نخلك» قال: لا أفعل. قال له النبي ﷺ: «فاشتر منه بستانه». قال: لا أفعل. فقال له ﷺ: «فاترك لي هذا ولك الجنة» قال: لا أفعل. ولما رأى رسول الله ﷺ عناد سمرة وشره وخبثه وضراره وإضراره للأنصاري، التفت ﷺ إلى الأنصاري والاستياء باد عليه. قائلاً: «اذهب فاقطع نخله فإنه لا حق له فيه».^(١) وفي رواية زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال للأنصاري اذهب: «اذهب فاقطعها وارم بها إليه، فإنه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام».^(٢)

(١) شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٧٨.

(٢) الكافي: ج٥، ص٢٩١، بحار الأنوار: ج٢٢، ص١٣٤، ح١١٧.

ومن جرائمه أنه كان يبيع الخمر بعدما حرمها الإسلام، وله سجل حافل بالمخالفات والموبقات والجرائم. روى بعضها ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج ومصادر أخرى كثيرة.^(١)

زياد بن أبيه

كان من أشد ولاية معاوية جوراً وظلماً، يعاقب الناس على الظن، ويقتل على الشبهة، أول من مشي بين يديه بالأعمدة الحديدية، وأول من اتخذ العسس والحرس، وأول من شدد السلطة وأكد الملك لمعاوية بالسيف، فكافأه معاوية فوسع سلطانه، وولاه البصرة والكوفة وسجستان وفارس والسند والهند.^(٢) فعم البلاء والشقاء والمحن بهذه الأقطار الإسلامية الخاضعة لنفوذه، قتل جميع المفكرين والأحرار، وقد بلغ به الإجرام أنه كان يقتل بعض الأشخاص وهو يعلم براءتهم حتى عم الهرج والمرج في البلاد، وانتزعت منها جميع الحريات، واضطربت أفكار أهلها بالخوف والفرع من تلك السلطة الجائرة التي لم تعرف الرحمة والرأفة، فقد أخذت بالظنة والتهمة، وقطعت الأيدي والأرجل، وسملت العيون حتى خيم الخوف والموت على جميع الأحرار والنبلاء، وبلغت الشدة والقسوة في الحكم إلى حد لا سبيل إلى تصويره.^(٣)

وقد بالغ هذا الظالم الأثيم بسفك دماء شيعة آل محمد ﷺ، فقتلهم تحت كل كوكب، وتحت كل حجر ومدبر، وقطع الأرجل والأيدي منهم، وصلبهم على جذوع النخل، وسمل أعينهم، وطردهم وشردهم.^(٤)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٧-٧٨. حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ١٨٦-١٩١.

(٢) حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ١٩٧. تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢١٦-٢٢٦، ذكر أحداث سنة ٤٥ للهجرة.

(٣) حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ١٩٧.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤-٤٥. شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ٢٠١-٢٠٤.

بسر بن أرطأة

هو من الولاة الجائرين - كما هو معروف - ومن الذين استعان بهم معاوية على الملك والسيطرة، فعل الأفاعيل المنكرة، من قتل الشيوخ الرقع، وذبح الأطفال الرضع، ونشر الجور والظلم والإرهاب في البلاد الإسلامية.

ولما وجهه معاوية إلى اليمن بجيشه فعل بها ما يندى له الجبين، ولم يشهد التاريخ له نظيراً لقسوة وفضاعة ما عمل، وقد زاد على معاوية جوراً وظلماً عندما أوصاه بتلك الوصية المعروفة التي تضمنت ترويع المسلمين وقتلهم وإذلالهم، وهذا نصها: سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس.. وأخف من مررت به، وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم إنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أنه لا بلاء لهم عندك ولا عذر، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم، ثم سر حتى تدخل مكة ولا تعرض فيها لأحد، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شرداً حتى تأتي صنعاء والجند، فإن لنا بها شيعة وقد جاءني كتابهم.^(١)

امتثل بسر بن أرطأة لوصية معاوية، فروع النساء والأطفال، وأدخل الخوف والفرع في قلوب المسلمين، وأشاع الفساد والقتل. فقد سبى نساء همدان، وأقمن في الأسواق فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشترت، فكن أول مسلمات سبين في الإسلام.^(٢)

شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي

كان عاشقاً للهرة مولعاً بحبها حتى لقب بها، حياته كانت حياة بؤس وفقر، متسول جائع عريان، يستأجر نفسه لخدمة البيوت ليشبع بطنه.^(٣) راضياً بهذا الهوان والضعفة.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٧. الإمام علي بن أبي طالب: م ٤، ج ٨، ص ١٨٢.

(٢) الاستيعاب: ج ١، ص ١٦١، حرف الباء، حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ١٩١.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٤، ص ٢٠٩، باب ترجمة أبي هريرة الدوسي. حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ١٩٣.

ولما انبثق نور الإسلام دخل في الإسلام، فكان على وضعه الأول من يؤس وفقره، وكان يعيش بفضلات البيوت وصدقات المسلمين، وقد وصف فقره بقوله: كنت امرأً مسكيناً من مساكين الصفة - أي الموضع المظلل من مسجد النبي ﷺ كان أضياف الإسلام يبيتون به.^(١)

وكان يتصل برسول الله ﷺ ليشبع بطنه ويسد خلته.^(٢) وبقي مدة طويلة على هذه الحالة، فلما انتهى أمر الخلافة إلى عمر بن الخطاب تفضل عليه عمر فأنقذه من فقره، فاستعمله والياً على البحرين سنة ٢١ للهجرة وفي سنة ٢٣ للهجرة عزله عمر لأنه ظهرت منه الخيانة، ولم يكتف بعزله حتى استنقذ ما اختلسه من أموال المسلمين، فقال له عمر: هل علمت من حين آتيتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وستائة دينار؟ فقال أبو هريرة مدافعاً عن نفسه خائفاً: يا أمير، كانت لنا أفراس تناجت وعطايا تلاحت، فقال عمر وهو غضبان: حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل فأده، فقال أبو هريرة: ليس لك ذلك، فقال عمر: بلى والله وأوجع ظهرك، ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه، ولما أخذ الألم منه مأخذاً عظيماً وافق على إرجاعها.

قال: ائت بها واحتسبها عند الله، فانبرى إليه عمر مبطلاً زعمه في هذا الاحتساب، قائلاً: ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعاً، أجتت من أقصى حجر بالبحرين يجبي الناس لك، لا لله ولا للمسلمين، ما رجعت بك أميمة إلا لرعية الحمير (وأميمة أم أبي هريرة)، ثم أخذ الأموال التي اختلسها.^(٣) وفي حديث عن أبي هريرة قال: لما عزلني عمر عن البحرين قال لي: يا عدو الله وعدو كتابه، سرقت مال الله!! قال أبو هريرة، فقلت: ما أنا عدو الله ولا عدو كتابه ولكنني عدو من عاداهما، ما سرقت مال الله، قال عمر: فمن أين لك عشرة آلاف. قلت: خيل

(١) القاموس: ص ١٠٧٠، مادة صف. تاريخ دمشق: ج ٦٧، ص ٣٣١. فتح الباري: ج ١، ص ٢٧.

(٢) الإصابة: ج ٤، ص ٢٠٩.

(٣) العقد الفريد: ج ١، ص ٤٥ - ٤٦. حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ١٩٤.

تناجحت، وعطايا تلاحقت وسهام تبايعت. قال: فقبضها مني.^(١)
 ورجع أبو هريرة إلى حاله الأول، قابلاً في زوايا الخمول وقد وصم بالاختلاس
 والخيانة، ولما انتهى الأمر إلى عثمان بن عفان انضم إليه وأصبح من أعوانه، وأخذ
 يخترع الأحاديث في فضله ومناقبه.
 فقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي خليلاً من أمته وإن خليلي
 عثمان».

ذكر في ميزان الاعتدال للذهبي في ترجمة إسحاق بن نجیح وجزم ببطلانه.^(٢)
 وقال أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «لكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي عثمان»^(٣).
 ذكر في المصدر السابق، وعده من منكراته، وغيرهما من مئات الأحاديث المزورة
 المكذوبة في عثمان والأمويين.

ولما قتل عثمان وانتقلت الخلافة لعلي بن أبي طالب رجع إلى سابق عهده من الذبول
 والانزواء، فهاجر إلى دمشق الشام، فعقد صلة مع معاوية وأخذ يتزلف إليه،
 ويعمل على إرضائه بكل طريق.

ومما رواه لأهل الشام في فضل معاوية قائلاً لهم: قال رسول الله ﷺ: «إن الله
 أثنى على وحيه ثلاثاً، أنا وجبرائيل ومعاوية».^(٤)
 وقد مرّ عليك نماذج أخرى من مروياته.

وانهالت الأحاديث الكاذبة المختلقة المزورة في فضل معاوية والأمويين وبعض
 الصحابة؛ ليتقرب إلى معاوية وينال بها من دنياه، وقد أصدق عليه الأموال الطائلة،
 ورفع من شأنه، فكساه الخبز وألبسه الكتان المشبق. ولما أكثر الكذب وأكرمه وولاه
 إمارة المدينة.

(١) العقد الفريد: ج ١، ص ٤٦.

(٢) ميزان الاعتدال: ج ١، ص ٢٠١.

(٣) كنز العمال: ج ١١، ص ٥٨٧، ح ٣٢٨٠٨، تاريخ دمشق: ج ٣٩، ص ١٠٥. سنن ابن ماجه:
 ج ١، ص ٤٠.

(٤) البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٣١، أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

لقد استحق أبو هريرة هذا المنصب العظيم؛ لأنه افتعل الحديث ضد أمير المؤمنين علي عليه السلام تقريباً لمعاوية، وسعيًا وراء منفعه وأطماعه. لقد فتك أبو هريرة بالإسلام فتكاً ذريعاً بسبب مروياته المختلقة الكاذبة التي شوهدت الشريعة الإسلامية، وألصقت بها الخرافات والأوهام، وشتت شمل المسلمين، وأدخل في الدين ما ليس من الدين. وقد تناوله الشيخ محمود أبو ريه في كتابه (شيخ المضيرة) وأثبت هو أنه في طليعة الواضعين والمحرفين للسنة الإسلامية المقدسة.

وقد روى سفيان الثوري: أن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية كان يجلس بالعشيات بباب كندة، ويجلس الناس إليه، فجاءه شاب من الكوفة - لعله الأصبع بن نباتة - فجلس إليه فقال: يا أبا هريرة، أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي بن أبي طالب: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»؟ فقال: اللهم نعم. قال: فأشهد بالله، لقد واليت عدوه وعاديت وليه. ثم قام عنه وانصرف. ^(١) هؤلاء كانوا نماذج لولاية معاوية وعماله الذين نصبهم على رؤوس المسلمين، وكانوا يسبون علي بن أبي طالب عليه السلام ويلعنونه، حتى أصبح السب واللعن سنة عندهم في الصلاة والدعاء والخطب.

فكان إذا سهى الخطيب أو إمام الجماعة عن لعن الإمام عليه السلام علت الأصوات من كل مكان تطالبه، تقول: السنة السنة، فيعرف أنه قد ارتكب خطأ فيعود ويلعن. وكانت خطب الجمعة تحتتم: «اللهم إن أبا تراب قد ألد في دينك، وصد عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً». ^(٢)

وبقي السب واللعن مستمراً بأمر معاوية بن أبي سفيان حتى عصر عمر بن عبد العزيز، ولكن يظهر من المقريري أن سنة اللعن دامت في مصر من حين فتحها مروان وإلى سنة ١٣٣ هـ. ^(٣)

وإليك بعض الشواهد والأدلة التي يذكرها التاريخ وكتب الحديث والسنن:

- (١) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٨. شيخ المضيرة: ص ٢٣٧. المناقب للخوارزمي: ص ٢٠٥.
- (٢) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٥٦-٥٧. الغدير: ج ٢، ص ١٠٢. والإمام الحسن بن علي: ج ٢، ص ٣٣٣.
- (٣) خطط المقريري: ج ٢، ص ٣٣٨، باب ذكر مذاهب أهل مصر ونحلهم.

معاوية يأمر بسب علي عليه السلام ولعنه

ذكر عن طريق عامر بن سعيد بن أبي وقاص، قال: أمر معاوية سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلن أسبه، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، فذكر حديث المنزلة، والراية، والمباهلة. وأخرجه الحاكم وزاد: فلا والله ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة.^(١)

وفي رواية أخرى ذكرها ابن عساكر في تاريخه عن طريق بن أبي نجيح. قال: لما حج معاوية طاف بالبيت ومعه سعد، فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة، فأجلسه معه على سرير، ووقع معاوية في علي وشرع في سبه، فزحف سعد، ثم قال: أجلسني معك على سريرك ثم شرعت في سب علي، والله لأن تكون لي خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس (إلى آخر الحديث). وقال سعد في آخر الحديث: وإيم الله لا دخلت لك داراً ما بقيت ونهض.^(٢)

وبعث معاوية إلى عبد الله بن عمر، فلما وصل الشام عبد الله بن عمر أتى إلى معاوية فقال له: يا ابن أخي، إن لك اسم أبيك فانظر بملء عينيك وتكلم بملء فيك، فأنت المأمون المصدق، فاصعد المنبر واشتم علياً، واشهد عليه أنه قتل عثمان، فقال يا أمير المؤمنين: أما شتمه فإنه علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما عسى أن أقول في حسبه، وأما بأسه فهو الشجاع المطرق، وأما أيامه فما قد عرفت، ولكن نلزمه دم عثمان.

فقال عمرو بن العاص: إذاً والله قد نكأت القرحة.^(٣)

(١) المستدرک: ج ٣، ص ١٠٨ - ١٠٩. صحيح مسلم: ج ٥، ص ٢٣ - ٢٤، ح ٢٤٠٤. صحيح الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٨، ح ٣٧٢٤. الغدير: ج ١٠، ص ٢٥٧.

(٢) مروج الذهب: ج ٣، ص ٢٣. البداية والنهاية: ج ٧، ص ٣٧٦، ذكر أحداث سنة ٣٨ للهجرة تاريخ دمشق: ج ٤٢، ص ١١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ١٠١. الغدير: ج ١٠، ص ٢٦١. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٣١٣، ذكر أحداث سنة ٣٤ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٥٧، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة.

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إنَّ علياً قد قطعك وأنا وصلتك، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر، قال عقيل: أفعل، فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ: أيها الناس، إنَّ معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن العن علي بن أبي طالب، فالعنوه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ثم نزل، فقال له معاوية: إنَّك لم تبين من لعنت منهما بيّنه، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام على نية المتكلم.^(١)

وبينما معاوية جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس وفيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن علياً، فقال الأحنف: يا أمير، إنَّ هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله، ودع عنك علياً فلقد لقي ربه، وأُفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرر سيفه، الطاهر ثوبه، العظيمة مصيبتته، فقال له معاوية: يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى، وقلت ما ترى، وايم الله لتصعدن المنبر فلتعنه طوعاً أو كرهاً، فقال الأحنف: يا أمير، إن تعفني فهو خير لك، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا يجري شفتاي به أبداً، فقال له: قم فاصعد المنبر. قال الأحنف: أما والله لأنصفنك في القول والفعل. قال معاوية: وما أنت قائل إن أنصفتني، قال: أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلي على نبيه ﷺ ثم أقول: أيها الناس إنَّ أمير المؤمنين معاوية أمر أن ألعن علياً، وأنَّ علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا، فادعى كل واحد منهما أنه بغي عليه وعلى فنته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول:

اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منها على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعناً كثيراً، آمنوا رحمكم الله. يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحي، فقال معاوية: إذا نعفيك يا أبا بحر.^(٢)

(١) العقد الفريد: ج٤، ص٢٩. المستطرف: ج١، ص٦٩. الغدير: ج١٠، ص٢٦٠-٢٦١.

(٢) المستطرف: ج١، ص٦٩. الغدير: ج١٠، ص٢٦١-٢٦٢.

وكان المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة يقوم على المنبر ويخطب، وينال من علي عليه السلام ويلعنه ويلعن شيعته، وقد صح أن المغيرة لعنه على منبر الكوفة مرات لا تحصى، وكان يقول: إن علياً لم ينكحه رسول الله ﷺ ابنته حباً ولكنه أراد أن يكافئ بذلك إحسان أبي طالب إليه.

وصح عند الحاكم والذهبي أن المغيرة سب علياً، فقام إليه زيد بن أرقم، فقال: يا مغيرة ألم تعلم أن رسول الله ﷺ نهى عن سب الأموات، فلم تسب علياً وقد مات؟^(١)

ويروي اليعقوبي في تاريخه أنه: كان حجر بن عدي الكندي وعمرو بن الحمق الخزاعي وأصحابها من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام إذا سمعوا المغيرة وغيره من أصحاب معاوية - وهم يلعنون علياً على المنبر - يقومون فيردون اللعن عليهم، ويتكلمون في ذلك.

فلما قدم زياد الكوفة خطب خطبة مشهورة لم يحمد الله فيها، ولم يصل على النبي ﷺ، وأرعد فيها وأبرق، وتوعد وتهدد، وأنكر كلام من تكلم، وحذرهم ورهبهم، وقال: لقد سميت الكلبة على المنبر الصلعاء، فإذا أوعدتكم أو وعدتكم فلم أف لكم بو عدي ووعيدي فلا طاعة لي عليكم، وكانت بينه وبين حجر بن عدي مودة، فوجه إليه فأحضره، ثم قال له: يا حجر، رأيت ما كنت عليه من المحبة والموالاتة لعلي؟ قال: نعم.

قال: فإن الله قد حوّل ذلك بغضة وعداوة، أو رأيت ما كنت عليه من البغضة والعداوة لمعاوية؟ قال: نعم. قال: فإن الله قد حوّل ذلك محبة وموالاتة، فلا أعلم منك ما ذكرت علياً بخير، ولا أمير المؤمنين معاوية بشر.

ثم بلغه أنهم يجتمعون فيتكلمون، ويدبرون عليه وعلى معاوية، ويذكرون مساويهما، ويحرضون الناس، فوجه صاحب الشرطة إليهم، فأخذ جماعة منهم

(١) وقريب من هذا المعنى رواه أحمد في مسنده: ج ١، ص ١٨٨، باب مسند سعيد بن زيد. المستدرك: ج ١، ص ٣٨٤ - ٣٨٥، باب النهي عن سب الأموات. شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧١. الغدير: ج ١٠، ص ٢٦٣.

فقتلوا، وهرب عمرو بن الحمق الخزاعي إلى الموصل وعدة معه. وأخذ زياد حجر بن عدي الكندي وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه، فأشخصهم إلى معاوية، فكتب فيهم أنهم خالفوا الجماعة في لعن أبي تراب، وزوروا على الولاية، فخرجوا بذلك من الطاعة، وأنفذ شهادات قوم، أولهم بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري.

فلما صاروا بمرج عذراء من دمشق على أميال أمر معاوية بإيقافهم هناك، ثم وجه إليهم من يضرب أعناقهم، فكلمه قوم في ستة منهم فوقف عنهم، فقتل سبعة، منهم: حجر بن عدي الكندي، وشريك بن شداد الحضرمي، وصيفي بن فسيل الشيباني، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، ومحرز بن شهاب التميمي، وكدام بن حيان العنزي.

ولما أراد قتلهم قال حجر بن عدي: دعوني حتى أصلي، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم أقبل عليهم فقال: لولا أن تظنوا بي خلاف ما بي لأحببت أن تكونا أطول مما هما، وإني لأول من رمى بسهم في هذا الموضع، وأول من هلك فيه، فقبل له أجزعت؟ فقال: ولما لا أجزع، وأنا أرى سيفاً مشهوراً وكفنناً منشوراً، وقبراً محفوراً، ثم ضربت عنقه وأعناق القوم، وكفنوا ودفنوا، وكان ذلك في سنة ٥٢ للهجرة.^(١)

كما أن عبد الرحمن بن حسان العنزي أبى أن يلعن علياً في مجلس معاوية، فأرسله إلى زياد، فأمره أن يقتله قتلة ما قتل بها أحد في الإسلام، فدفنه زياد حياً.^(٢) لقد بالغ الولاية في لعن أمير المؤمنين علي عليه السلام حتى جعلوا سبه من أجزاء صلاة الجمعة.

وبلغ الحال أن بعضهم نسي اللعن في خطبة الجمعة، فذكره وهو في السفر فقضاه، وبنوا مسجداً لذلك سموه (مسجد الذكر).

(١) تاريخ البيهقي: ج ٣، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(٢) راجع الأغاني: ج ١٨، ص ٦٤٣٩، باب مقتل حجر بن عدي. تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٧٦ - ٢٧٧، أحداث سنة ٥١ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٨٥ - ٤٨٦، أحداث سنة ٥١.

وخطب هشام بن عبد الملك بعرفة، فلم يتناول الإمام بسوء، فأنكر عليه عبد الملك بن الوليد قائلاً: يا أمير المؤمنين، هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب، فقال له هشام: ليس لهذا جئنا.

ولما ولي عبد الملك بن مروان جعل في طليعة مهامه سب أمير المؤمنين علي عليه السلام وتعميم لعنه على جميع الأقطار الإسلامية، وقد رمي بالفجور في مجلسه.

وكان خالد بن عبد الله القسري - أمير العراقيين ومكة من قبل هشام بن عبد الملك مدة طويلة، ثم عزله هشام؛ لأنه ارتكب جرائم كبيرة، ومنها أنه أكره امرأة مسلمة على الزنا، وقتله في أيام الوليد؛ وكان يجاهر في لعن علي عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام ويبالغ في العناد، ويقول: اللهم العن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته وأبا الحسن والحسين، ثم يلتفت إلى الناس ويقول لهم (هل كنيت).^(١)

وأخرج الحاكم عن طريق طاووس: قال كان حجر بن قيس المدري من المختصين بخدمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له علي عليه السلام يوماً: يا حجر، إنك تقام بعدي، فتؤمر بلعني فالعني ولا تتبرأ مني.^(٢)

قال طاووس: فرأيت حجر المدري وقد أقامه أحمد بن إبراهيم خليفة بني أمية في الجامع، ووكل به ليلعن علياً أو يقتل، فقال حجر: أما إن الأمير أحمد بن إبراهيم أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله.

فقال طاووس: لقد أعمى الله قلوبهم حتى لم يقف أحد منهم على ما قال.^(٣) وعن شهر بن حوشب أنه قال: أقام فلان - يقصد معاوية - خطباء يشتمون علياً (رضي الله عنه وأرضاه) ويقعون فيه، حتى كان آخرهم رجل من الأنصار أو

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٥٧. النصائح الكافية: ص ١٠٥.

(٢) عن سلمة بن كهيل عن أبي صادق قال: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ستعرضون على سبي فسبوني، فإن عرضت عليكم البراءة مني، فلا تتبرأوا مني فإني على الإسلام، مستدرك الحاكم، ج ٢، ص ٣٥٨. الغدير: ج ١٠، ص ٢٦٥.

(٣) مستدرك الحاكم: ج ٣، ص ٣٥٨. الغدير: ج ١٠، ص ٢٦٥.

غيرهم يقال له أنيس: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنكم قد أكثرتم اليوم في سب هذا الرجل وشتمه، وإنِّي أقسم بالله أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنِّي لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على الأرض من مدر وشجر، وأقسم بالله ما أحد أوصل لرحمه منه. أفترّون شفاعته تصل إليكم وتعجز عن أهل بيته؟^(١)

وعن الأصمعي قال: سمع عامر بن عبد الله بن الزبير ابنه ينال من علي، فقال: يا بني إياك وذكر علي فإن بني أمية تنقصته ستين عاماً فما زاده الله بذلك إلا رفعة.^(٢)

وتواترت الأخبار عن النبي ﷺ في أن الإمام علي أخوه ووصيه وخليفه وباب مدينة علمه، ولولا جهاده ودفاعه عن دين الله لما قام الإسلام، ولما بقي للإسلام اسم، وما عبد الله عابد، ولا وحده موحد حتى قال الشاعر:

أعلى المنابر تعلنون بسبه وبسيفه نصبت لكم أعوادها
ومن الروايات التي ينقلها العامة بهذا الشأن ما ورد عن أبي حيان التيمي، عن أبيه، عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ: «رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار».^(٣)

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلي هذا وليكم بعدي إذا كانت فتنة».

وقد أخرج الحديث الحاكم في الكنى، وأورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة.^(٤)

وعن أبي سعيد الخدري، قال: كنا جلوساً ننتظر رسول الله ﷺ، فخرج علينا من بعض بيوت نساءه، قال: فقمنا معه فانقطعت نعله، فتخلف عليها علي

(١) الإصابة: ج ١، ص ٧٧. أسد الغابة: ج ١، ص ١٣٤. الغدير: ج ١، ص ٢٦١.

(٢) المحاسن والمساوي: ص ٧٧-٧٨.

(٣) المصدر نفسه: ٦١، وقيل في الحاشية: أشار إليه السيوطي في الجامع الصغير: ج ٢، ص ٩، بأنه حديث صحيح. صحيح الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٣، ح ٣٧١٤.

(٤) انظر المحاسن والمساوي: ص ٦١.

يخصفها، فمضى رسول الله ﷺ ومضينا معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه، فقال: إنَّ بينكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله، فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر، فقال: لا، ولكنه خاصف النعل. قال: فجئنا نبشره وكأنه قد سمعه، وقد أخرجهُ أيضاً أحمد بن حنبل. (١)

وقد أخرج الترمذي في مسنده باب (المناقب) عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحب علياً منافق، ولا يبغضه مؤمن». (٢)
وعن ابن عباس أنه قال: لقد سبق لعلي سوابق لو أنَّ سابقة منها قسمت على الناس لوسعتهم خيراً. (٣)

(١) المحاسن والمساوي: ص ٦١، الحاشية. مسند أحمد: ج ٣، ص ٨٢، باب مسند أبي سعيد الخدري.

(٢) المحاسن والمساوي: ص ٦٢، صحيح الترمذي: ج ٥، ص ٦٣٥، ح ٣٧١٧.

(٣) المحاسن والمساوي: ص ٦٨.

معاوية وسياسة الإرهاب

واتبع معاوية سياسة أخرى لا تقل ظلماً وجوراً عما ذكرناه، بل ربما أشد عنفاً، وهي سياسة القتل والإرهاب والتجويع.. فأوعز إلى عماله وأمر عملائه في البلاد الإسلامية أن يتخذوا طريقة الإرهاب المتمثل بأعلى أنواع العنف من التعذيب حتى الموت. وكان كل هذا منصباً على الموالين لعلي عليه السلام وشيعته وكل من خالف سياسته. وإليك بعض تلك الأحداث حسبما ذكره التاريخ وكتب السير. ذكر ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة حديثاً لسفيان بن عوف الغامدي، وهو أحد القواد العسكريين لمعاوية، قال: دعاني معاوية فقال: إني باعثك بجيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت^(١) فتقتطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار^(٢)، فإن لم تجد جنداً فامض حتى توغل في المدائن^(٣). إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كل من له هوى فينا منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل كل من لقيته ممن هو

(١) هيت: بلدة قرب مدينة الرمادي بالعراق.

(٢) الأنبار: محافظة بالعراق مركزها الرمادي تقع على أطراف سوريا- الشام..

(٣) المدائن: قرب بغداد وفيها قبر الصحابي الجليل سلمان الفارسي «رضوان الله عليه».

ليس على مثل رأيك، واخرب كل ما مررت به من القرى، وحرب الأموال فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب.^(١)

كما واستدعى معاوية بن أبي سفيان بسر بن أرطأة، وأرسله للحجاز واليمن، ومما قاله له: سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس، وأخف من مررت به، وانهب أموال كل من أصبت له مالا ممن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم إنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أن لا بلاء لهم عندك ولا عذر، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم، وارهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شرداً.^(٢) وقال له أيضاً: لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك، حتى يروا أنهم لا نجاة لهم، وأنتك محيط بهم، ثم اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبي فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا.^(٣)

ثم سار وأغار على مكة والمدينة فقتل ثلاثين ألفاً عدا من أحرق بالنار.^(٤) وأيضاً أرسل معاوية خلف الضحاك بن قيس الفهري، وأمره بالتوجه لجهة الكوفة، وقال له: من وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه، فأقبل الضحاك بن قيس فنهب الأموال، وقتل من لقي من الأعراب، حتى مر بالثعلبية فأغار على حجاج بيت الله الحرام فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقي عمر بن عميس بن مسعود الذهلي، وهو ابن أخ عبد الله بن مسعود، فقتله في طريق الحاج عند القططانة، وقتل معه أناساً من أصحابه.^(٥)

وذكر المؤرخون أن الخوف والإرهاب الذي قام به معاوية وزبانيته بلغ حداً

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٨٥-٨٦. أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٢٠١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٦. حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ١٩١. أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٢١١-٢١٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٧. الغارات: ٤٠٩، توجيه معاوية بسر بن أرطأة. أعيان الشيعة: ق ١، ص ٥٢٩.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٦. أعيان الشيعة: ق ١، ص ٥٣٠.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١١٦-١١٧. أعيان الشيعة: ج ١، ص ٥١٩، باب سيرة الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام. أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٩٧-١٩٨.

من العنف، بحيث يفضل الشيعي أن يقال عنه أنه زنديق أو كافر، ولا يقال عنه أنه من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، لكي لا يفضح سره فيقتل. كما أن معاوية والأمويين منعوا الناس من أن يسموا أبناءهم باسم علي عليه السلام كما كانوا يخافون النطق باسمه حتى فيما يختص ويتعلق بالأحكام الشرعية دون ذكر الفضائل والمناقب التي يخشى الأمويون شيوعها. وكانت أكثر البقاع الإسلامية بلاء وخوفاً وعرضة لجور معاوية وظلمه الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام ومحبيه.

فولى عليهم زياد بن سمية، فكان يلاحق ويتبع شيعة علي عليه السلام من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق.^(١) حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته، فيلقي إليه سره، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان المغلظة ليكتمن عليه.^(٢)

فلم يزل الأمر كذلك حتى استشهد الإمام الحسن بن علي عليه السلام فازداد البلاء وكثر وعمت الفتنة، فلم يبق أحد من الشيعة إلا وهو يخاف على دمه وعرضه وماله، أو طريد في الأرض.^(٣)

ومما قاله الإمام محمد الباقر عليه السلام في وصف الحالة التي عاشتها الشيعة وعانت منها في عهد معاوية: «وقتل شيعةنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكل من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن، أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبید الله بن زياد قاتل الحسين بن علي عليه السلام». ^(٤)

(١) شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٤، وحياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام: ج ٢، ص ٣٤٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤. حياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام: ج ٢، ص ٣٤٨.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٣ و ٤٤. حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٢، ص ٣٤٩.

كما ولى معاوية سمرة بن جندب على البصرة، فأسرف هذا الظالم في القتل إسرافاً لا يوصف ولا يجد.

قال أبو سوار العدوي: قتل سمرة بن جندب من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن.

ومكث سمرة بن جندب في المدينة شهراً، وهدم دور أهلها، وأخذ يستعرض وجوه الناس، فلا يقال له عن أحد أنه شرك في دم عثمان إلا قتله.

وذكر في الاستيعاب أن سمرة بن جندب سبى نساء همدان، وهمدان من شيعة علي عليه السلام، وأقمن في الأسواق، فكن أول مسلمات سبين واشترين في الإسلام.

بهذا الأسلوب الحاقداً للجائر الظالم، وهذه السياسة الرعناء التي أدخلت البكاء والعيول في كل بيت من بيوت المسلمين، وزرعت الخراب والدمار والموت في ديارهم، وصادرت أموالهم ونهب كل ما يملكون حتى قطعت مصادر أرزاقهم وثرواتهم.

بهذه الكيفية الجائرة وهذا الأسلوب الحاقداً المتعمد سيطر معاوية على مقدرات المسلمين، وتم له السلطان على البلاد الإسلامية.

بعد هذا الإذلال والاضطهاد وقف وأعلن طبيعة حكمه وسياسته، في كلمة هذا نصها: يا أهل الكوفة، أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون، ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وآلي رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون، ألا إن كل دم أصيب في هذه مطلوب، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين.... إشارة إلى الصلح الذي تم بينه وبين الإمام الحسن بن علي عليه السلام، وكان قد قال قبل ذلك لما تم الصلح (رضينا بها ملكاً).

إن ما ذكرناه يعطينا نتيجة صريحة واضحة رغم الاختصار، إن معاوية بن أبي سفيان لم يكن مسلماً إلا بالاسم فقط، واتخذ الإسلام طريقاً للسيطرة على مقدرات المسلمين.^(١)

(١) للتوسع والاستقصاء لحياة معاوية وسياسته في الحكم والمال والإدارة عليك بالكتب الموسعة في التاريخ والسير، كالطبري وابن الأثير وغيرهما..

وبنو أمية بشكل عام كانوا من ألد أعداء النبي ﷺ وأخطر الناس على الإسلام، واعتنقوا الإسلام مرغمين، ثم نجحوا في تحويل ثمرة حكم الدين والإسلام لصالحهم، ساعدهم على ذلك ضعف عثمان، وحسن استخدام نتائج قتله في مجتمع مهزوم ومخدوع.

وكان معاوية لا يتورع وعملاؤه في مناوئة المبادئ الإنسانية في الإسلام، ليحولها إلى مؤسسة تخدم مآربه الشخصية، ولكن الإمام علي وأبناءه ؑ وأصحابهم وشيعتهم أخذوا يدافعون ويردون عنه شر تلك الهجمات الشرسة اللإنسانية، ويردعون من يريد تحريف مبادئ الإسلام وأهدافه السامية.

كان هذا هو عمل علي بن أبي طالب ؑ طيلة حياته إلى يوم استشهاده. ألم يقل قائلهم: «قاتلناكم على التنزيل ونقاتلكم على التأويل؟».

ومن بعده خلفه ابنه الإمام الحسن ؑ ثم الحسين ؑ وباقي الأئمة ؑ من ولده.

الفصل الثاني

سيرة مهاوية وسياسته

لم يكد معاوية يستولي على حكومة الدولة الإسلامية حتى أشاع الظلم والجور والفساد في الأرض، يقول المؤرخون: إنه ساس المسلمين سياسة لم يألفوها من قبل، فكانت سياسته تحمل شارات الموت والدمار، كما كانت تحمل أساليب الهدم لجميع القيم الأخلاقية والإنسانية، وقد انتعشت في عهده الوثنية بجميع مساوئها التي نفر منها الناس. يقول السيد مير علي الهندي:

ومع ارتقاء معاوية الخلافة في الشام عاد حكم التوليغارشية الوثنية السابقة، فاحتل موقع ديموقراطية الإسلام، وانتعشت الوثنية بكل ما يرافقها من خلاعات، وكأنها بعثت من جديد، كما وجدت الرذيلة والتبذل الخلقي لنفسها متسعاً في كل مكان ارتادته رايات حكام الأمويين من قادة جند الشام.^(١)

والشيء المؤكد أنّ حكومة معاوية لم تسند إلى رضا الأمة أو مشورتها، وإنما فرضت عليها بقوة السلاح، وقد اعترف معاوية بذلك اعترافاً رسمياً بتصريح أدلى به أمام جمهور غفير من الناس، فقال: والله ما وليتها - أي الخلافة - بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، فإن لم تجدوني أفوم مجتمعكم كله فاقبلوا مني بعضه.

ولما وقعت الأمة فريسة تحت أنيابه - بعد الصلح - خطب في (النخيلة) خطاباً قاسياً، أعلن فيه عن جبروته وطغيانه على الأمة، واستهانته بحقوقها، فقد جاء فيه: والله إنّي ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنكم لتفعلون

(١) حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ١٢١.

ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون.^(١) ومثل هذا الخطاب الاتجاهات الشريرة التي يحملها معاوية من أجل الإمرة والسيطرة على العباد، فأراق دماء المسلمين، وأشاع في بيوتهم الشك والحزن والحداد.

وهذه بعض معالم سياسة معاوية.

سياسته الاقتصادية

لم تكن لمعاوية أية سياسة اقتصادية في المال حسب المعنى المصطلح لهذه الكلمة، وإنما كان تصرفه في جباية الأموال وإنفاقها خاضعاً لرغباته وأهوائه، فهو يهب الثراء العريض للقوى المؤيدة له، ويحرم العطاء للمعارضين له، ويأخذ الأموال، ويفرض الضرائب كل ذلك بحسب ما يشتهي.

إنّ من المقطوع به أنّه لم يعد في حكومة معاوية أي ظل للاقتصاد الإسلامي الذي عالج القضايا الاقتصادية بأروع الوسائل وأعمقها، فقد عني بزيادة الدخل الفردي، ومكافحة البطالة، وإذابة الفقر، واعتبر مال الدولة ملكاً للشعب يصرف على تطوير وسائل حياته، وازدهار رخائه، وسد احتياجات أبنائه، ولكن معاوية قد أشاع الفقر والحاجة عند الأكثرية الساحقة من الشعب، وأوجد الرأسمالية عند فئة قليلة راحت تتحكم في مصير الناس وشؤونهم، وإليك بعض الخطوط الرئيسية في سياسته الاقتصادية:

الحرمان الاقتصادي

أشاع معاوية الحرمان الاقتصادي في بعض الأقطار التي كانت تضم الجبهة المعارضة له، فنشر فيها البؤس والحاجة حتى لا تتمكن من القيام بأية معارضة له، وهذه بعض المناطق التي قابلها بالاضطهاد والحرمان.

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٢، ص ٢٥٤. شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ٤٦. المصنف: ج ٧، ص ٢٥١، كتاب الأمراء وما ذكر من حديث الأمراء...

١- يثرب:

سعى معاوية لإضعاف يثرب، فلم ينفق على المدنيين أي شيء من المال، وجهد على فقرهم وحرمانهم؛ لأنهم من معاقل المعارضة لحكمه، وفيهم كثير من الشخصيات المناوئة للأسرة الأموية الطامعة في الحكم، ويقول المؤرخون: إنّه أجبرهم على بيع أملاكهم فاشتراها بأبخس الأثمان، وقد أرسل القيم على أملاكه لتحصيل وارداتها فمنعوه عنها، وقابلوا حاكمهم عثمان بن محمد، وقالوا له: إنّ هذه الأموال لنا كلها، وإنّ معاوية آثر علينا في عطائنا، ولم يعطنا درهماً فما فوقه حتى مضنا الزمان ونالتنا المجاعة، فاشتراها بجزء من مائة من ثمنها، فرد عليهم حاكم المدينة بأقسى القول وأمره.

ووفد على معاوية الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري فلم يأذن له تحقيراً وتوهيناً له فانصرف عنه، فوجه له معاوية بستمائه درهم فردها جابر، وكتب إليه:

وإني لأختار القنوع على الغنى إذا اجتمع الماء بالبارد المحض
وأقضي على نفسي إذا أمر نابني وفي الناس من يقضى عليه ولا يقضى
وألبس أثواب الحياء وقد أرى مكان الغنى ألا أهين له عرضي
وقال لرسول معاوية: قل له: والله يا ابن آكلة الأكباد، لا تجد في صحيفتك
حسنة أنا سببها أبدا.

وانتشر الفقر في بيوت الأنصار، وخيم عليهم البؤس حتى لم يتمكن الرجل منهم على شراء راحلة يستعين بها على شؤونه، ولما حج معاوية واجتاز على يثرب استقبله الناس، ومنهم الأنصار، وكان أكثرهم مشاة، فقال لهم: ما منعكم من تلقّي من بُعدٍ كما يتلقاني الناس من بُعدٍ؟ فقال له سعيد بن سعد بن عباد: منعنا من ذلك قلة الظهر، خفة ذات اليد بإلحاح الزمان علينا، وإيثارك بمعروفك غيرنا، فقال معاوية كالمعير لهم باستهزاء وسخرية: أين أنتم من نواضح المدينة؟ فسدد

له سعيد سهماً من منطقته الفياض قائلاً: نحرناها^(١) يوم بدر، يوم قتلنا حنظلة بن أبي سفيان.^(٢)

لقد قضت سياسة معاوية بنشر المجاعة في يثرب، وحرمان أهلها من الصلة والعطاء.

يقول عبد الله بن الزبير في رسالته إلى يزيد: فلعمري ما تؤتينا مما في يدك من حقنا إلا القليل، وإنك لتحبس عنا منه العريض.

كما أوعز معاوية إلى الحكومة المركزية في يثرب برفع أسعار المواد الغذائية فيها حتى تعم فيها المجاعة؛ انتقاماً من عاصمة الرسول ﷺ ومنطلق الإسلام، وقد ألمع إلى ذلك يزيد في رسالته التي بعثها للمدنيين، ووعدهم فيها بالإحسان إن خضعوا لسلطانته، وقد جاء فيها: ولهم عليّ عهد أن أجعل الحنطة كسعر الحنطة عندنا، والعطاء الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو عليّ لهم وفراً كاملاً.^(٣)

وقد جعل معاوية الولاية الغلاظ الأشداء على الحجاز، تارة مروان بن الحكم، وأخرى سعيد بن العاص، وكان يعزل الأول ويولي الثاني، وقد جهدا في إذلال أهل المدينة وفقرهم.

٢- العراق:

أما العراق فقد قابله معاوية بالمزيد من العقوبات الاقتصادية باعتباره المركز الرئيسي للمعارضة، البلد المبدئي الساخط على حكومته؛ لأنها كان خطين لا يجتمعان، فالعراق يمثل عاصمة علي عليه السلام أمير المؤمنين ومهد عدله وأمنه، بينما معاوية يجانب هذا الخط كل المجانبة، ولهذا سلط عليه أفتك الناس بالدين، والأقسى على المسلمين المغيرة بن شعبة.

فكان واليه المغيرة بن شعبة يجبس العطاء والأرزاق عن أهل الكوفة، وقد سار

(١) وفي الهامش الأصل، حرثناها.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٥، ص ١٢٤. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٢٤.

(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٠٧. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٢٤.

حكام الأمويين من بعد معاوية على هذه السيرة في اضطهاد العراق وحرمان أهله، حتى أن عمر بن عبد العزيز الذي كان يتظاهر أنه أعدلهم لم يساو بين العراقيين والشاميين في العطاء، فقد زاد في عطاء الشاميين عشرة دنانير، ولم يزد في عطاء أهل العراق.^(١)

لقد عانى العراق في عهد الحكم الأموي أشد ألوان الضيق، مما جعل العراقيين يقومون بثورات متصلة ضد حكمهم.

٣- مصر:

ونالت مصر المزيد من الاضطهاد الاقتصادي أيضاً في عصر معاوية، فقد كتب معاوية إلى عامله وردان في مصر أن تزد على كل امرئ من القبط قيراطاً، فأنكر عليه عامله وكتب إليه: كيف أزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزداد عليهم.^(٢) وشمل الضيق الاقتصادي سائر الأقطار الإسلامية ليشغلها عن معارضة حكمه؛ لأن سياسة التجويع والإفقار الاقتصادي من أفكك السياسات في تحطيم أسس النهضات في الشعوب، والعامل الأقوى في الإذلال والهزيمة المعنوية.

وأما أهل البيت عليهم السلام

فقد أسس معاوية نهج التضييق والتجويع الدائم معهم، وقد مشى عليه حتى من جاء من بعده من الحكام الأمويين، وقد بلغ اضطهاد الأمويين وعمالهم إلى بني هاشم إلى حد كانت تعد صلة الهاشمي جريمة كبرى في نظر بعض العمال، يتخذونها طريقاً للوشاية بخصوصهم والوقية بهم. يحدثنا الطبري: أن يوسف بن عمر كتب إلى هشام: أن أهل البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت همة أحدهم قوت عياله، فلما ولي خالد العراق أعطاهم الأموال.^(٣)

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٢٥.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ج ١، ص ٣٠٢. تاريخ دمشق: ج ٢، ص ٤٣١، ترجمة وردان موسى عمرو بن العاص السهمي. فتوح البلدان: ج ١، ص ٢٥٥.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٢٥٥، باب ذكر أحداث سنة ١٢٦ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٧٦، باب ذكر أحداث سنة ١٢٦ للهجرة.

الرفاه على الشام

وبينما كانت البلاد الإسلامية تعاني الجهد والحرمان نجد الشام في رخاء شامل، وأسعار موادها الغذائية منخفضة جداً؛ لأنها - آنذاك - أخلصت للبيت الأموي، وعملت على تدعيم حكمه، فكان الرفاه فيها شائعاً، ويؤيد ذلك رسالة يزيد التي ذكرناها قبل قليل، وقد حملوا أهل الشام على رقاب الناس كما ألمح إلى ذلك مالك بن هبيرة في حديثه مع الحصين بن نمير. يقول له: هلم فلنبايع لهذا الغلام - أي خالد بن يزيد - الذي نحن ولدنا أباه، وهو ابن أختنا، فقد عرفت منزلتنا من أبيه، فإنه كان يحملنا على رقاب العرب.^(١)

استخدام المال في تدعيم ملكه

وفي مقابل تجويع المسلمين استخدم معاوية الخزينة المركزية لتدعيم ملكه وسلطانه، واتخذ المال سلاحاً يمكنه من قيادة الأمة ورئاسة الدولة، يقول السيد مير علي الهندي:

وكانت الثروات التي جمعها معاوية من عمالته على الشام يبذرهما هو وبطانته على جنوده المرتزقة الذين ساعدوه بدورهم على إخفات كل همسة ضدهم.^(٢) واتسعت هذه السياسة وصارت نهجاً معروفاً بين الساسة آنذاك سار عليها من جاء بعده من خلفاء الأمويين، فاتخذوا المال وسيلة لدعم سلطانهم.

يقول الدكتور محمد مصطفى: وكان من عناصر سياسة الأمويين استخدام المال سلاحاً للإرهاب، وأداة للتقريب، فحرموا منه فئة من الناس، وأغدقوه أضعافاً مضاعفة لطائفة أخرى ثمناً لضمائرهم، وضمناً لصمتهم.^(٣)

وجعل شكري فيصل المال أحد العاملين الأساسيين الذين خضع لهما المجتمع

(١) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٥٣٥، ذكر أحداث ٦٤ للهجرة، وقعة مرج راهط. شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١٦٠.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٢٧.

الإسلامي خضوعاً عجيباً، وكان من جملة الأسباب في فتن السياسة، وسيطرة الطبقة الحاكمة من قريش، كما أنه أحد الأسباب في وقوع الخلاف ما بين العرب والعجم، بل وما بين العرب أنفسهم.^(١)

سياسة التحزب والولاء

ومنح معاوية الأموال الطائلة لأسرته فوهبه الثراء العريض^(٢) وذلك لتقوية مركزهم، وبسط نفوذهم على العالم الإسلامي، في حين أشاع البؤس والحرمان عند أغلب فئات الشعب.

ووهب معاوية خراج مصر لابن العاص، وجعله طعمة له ما دام حياً؛ وذلك لتعاونه معه على مضادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام صاحب الحق الحاكم والعدالة في الرعية.

وأغدق الأموال الهائلة على المؤيدين له المنفذين لمخططاته، وقد أسرف في ذلك إلى حد بعيد، يقول الرواة: إن يزيد بن منبه قدم عليه من البصرة يشكو له ديناً قد لزمه، فقال معاوية لخازن بيت المال: أعطه ثلاثين ألفاً، ولما ولى قال: وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى.^(٣)

لقد وهب له هذه الأموال الضخمة جزاء لمواقفه ومواقف أخيه الذي أمد المتمردين في حرب الجمل بالأموال التي نهبها من بيت مال المسلمين، وقد حفل التاريخ ببوادر كثيرة من هبات معاوية للقوى المنحرفة عن الإمام عليه السلام والمؤيدة له.

شراء الأديان

وفتح معاوية باباً جديداً في سياسته الاقتصادية، وهي شراء الأديان وخيانة

(١) المصدر نفسه.

(٢) الفخري، ص ١٤٥. حيث قال: كان مروان خليفة مبيعاً ومعه الجنود والأموال والسلاح، والدنيا بأجمعها عنده.

(٣) العقد الفريد: ج ١، ص ٢٥٨.

الذمم، فقد وفد عليه جماعة من أشرف العرب، فأعطى كل واحد منهم مائة ألف، وأعطى الحتات عم الفرزدق سبعين ألفاً، فلما علم الحتات بذلك رجع مغضباً إلى معاوية، فقال له: فضحتني في بني تميم، أما حسبي فصحيح، أولست ذا سن؟ ألت مطاعاً في عشيرتي؟
- بلى.

- فما بالك خسست بي دون القوم وأعطيت من كان عليك أكثر ممن كان لك!!

فقال معاوية بلا حياء ولا خجل: إني اشتريت من القوم دينهم، ووكلتك إلى دينك.

فقال الحتات: وأنا اشتر مني ديني.

فأمر له بإتمام الجائزة.^(١) لقد خسرت هذه الصفقة التي كشفت عن مسخ الضمائر وتحولها إلى سلعة تباع وتشتري.

ونتيجة الإسراف في الهبات أصيبت خزينة الدولة بعجز مالي خطير، ولم تتمكن الدولة من تسديد رواتب الموظفين، مما اضطر معاوية إلى أن يكتب لابن العاص راجياً منه أن يسعفه بشيء من خراج مصر الذي جعله طعمة له، فقد جاء في رسالته: أما بعد، فإن سؤال أهل الحجاز وزوار أهل العراق قد كثروا علي، وليس عندي فضل من أعطيات الجنود فأعني بخراج مصر هذه السنة.

ولم يستجب له ابن العاص وراح ينكر عليه، ويذكر أياديه التي أسداها إليه، وأجابه بهذه الأبيات:

معاوي إن تدركك نفس شحيحة فما ورثتني مصر أمي ولا أبي
وما نلتها عفواً ولكن شرطتها وقد دارت الحرب العوان على قطب

(١) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٤٢، ذكر أحداث سنة ٥٠ للهجرة. ديوان الفرزدق: ج ١، ص ٤٥.
حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٢، ص ١٥٣ - ١٥٤. تاريخ دمشق: ج ١٠، ص ٢٧٩، ترجمة بشر وهو الحتات بن يزيد.

ولولا دفاعي الأشعري وصحبه لألفيتها ترغو كراغية السقب^(١)
فلما رجع الجواب إلى معاوية تدمم، ولم يعاوده بشيء من أمر مصر.^(٢)

مصادرة أموال المواطنين

واضطر معاوية بعد إسرافه وتبذيره إلى مصادرة أموال المواطنين كسائر الحكومات المستبدة؛ ليسد العجز المالي الذي منيت به خزينة الدولة، وقد صادر موارث الحتات عم الفرزدق، فأنكر عليه الفرزدق وقال يهجوه:

تأكل ميراث الحتات ظلامه وميراث حرب جامد لك ذائبه
أبوك وعمي يا معاوية أورثا تراثاً فيحتاز التراث أقاربه
فما بال ميراث الحتات أخذته وميراث صخر جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت من المرء القليل حلابه
ولو كان في دين سوى ذا شنتم لنا حقنا أو غص بالماء شاربه
ألست أعز الناس قوماً وأسرة وأمنعهم جاراً إذا ضيم جانبه
وما ولدت بعد النبي وآله كمثلي حصان في الرجال يقاربه
وبيتي إلى جنب الثريا فناؤه ومن دونه البدر المضيء كواكبه
أنا ابن الجبال الشم في عدد الحصى وعرق الثرى عرقي فمن ذا يجاسبه
وكم من أب لي يا معاوي لم يزل أغر يباري الريح أزور جانبه
نمته فروع المالكين ولم يكن أبوك الذي من عبد شمس يقاربه^(٣)

(١) السقب: وهو ولد الناقة الذكر ساعة نفعه أمه.

(٢) الأخبار الطوال: ص ٢٢٢.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٦٨ - ٤٦٩، أحداث سنة ٥٠ للهجرة. ديوان الفرزدق: ج ١، ص ٤٥. أسد الغابة: ج ١، ص ٣٧٩. الإصابة: ج ٢، ص ٢٦. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ١٨٠، ذكر أحداث سنة ٤٩ للهجرة.

ضريبة النيروز

وفرض معاوية على المسلمين ضريبة النيروز ليسد بها نفقاته، وقد بالغ في إرهاب الناس واضطهادهم على أدائها، وقد بلغت فيما يقول المؤرخون عشرة ملايين درهم^(١) وهي من الضرائب التي لم يألفها المسلمون، وقد اتخذها الحكام من بعده سنة، فأرغموا المسلمين على أدائها.

نهب الولاة والعمال

وأصبحت الولاية في عهد معاوية مصدراً من مصادر النهب والسرقة، ومصدراً للشراء وجمع الأموال. يقول أنس بن أبي أناس لحارثة الغداني صاحب زياد بن أبيه حينما ولي على سرق وهي إحدى كور الأهواز:

أحار بن بدر قد وليت أماره فكن جرذاً فيها تحون وتسرق
وباه تميماً بالغنى أن للغنى لساناً به المرء الهيبوبة ينطق
ولا تحقرن يا حار شيئاً أصبته فحظك من ملك العراقين سرق^(٢)
ويصف عقبة بن هبيرة الأسدي ظلم الولاة واستصفاهم أموال الرعية بقوله:

معاوي إننا بشر فاسجح^(٣) فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
فهبنا أمة ذهبت ضياعاً يزيد أميرها وأبو يزيد
أتطمع في الخلافة إذ هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
ذروا حول الخلافة واستقيموا وتأمير الأرامل والعبيد

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢، ص ٢٧٦. حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ج ١، ص ٣٠٠.

الاستيعاب: ج ٣، ص ١٤٢٠، حرف الميم.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ج ١، ص ٣٠٠.

(٣) الجح: اللين والسهولة.

وأعطونا السوية لا نزرکم جنود مردفات بالجنود^(١) وقد عانى المسلمون ضرباً شاقاً وعسيرة من جور الولاية وظلم الجباة، فقد تمسوا بالسلب والنهب، ولم يتركوا عند أحد من الناس فضلاً من المال إلا صادروه.

جباية الخراج

أما جباية الخراج فكانت خاضعة لرغبات الجباة وأهوائهم، وقد سأل صاحب أئنا عمرو بن العاص عن مقدار ما عليه من الجزية، فنهره ابن العاص وقال له: لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنما أنتم خزنة لنا إن كثر علينا كثر عليكم، وإن خفف خففنا عنكم.^(٢)

وهدمت هذه الإجراءات الظالمة جميع قواعد العدل والمساواة التي جاء بها الإسلام.

وأوعز معاوية إلى زياد بن أبيه أن يصطفي له الذهب والفضة، فقام زياد مع عماله بإجبار الناس على مصادرة ما عندهم من ذلك، وإرساله إلى دمشق^(٣) وقد ضيق بذلك على الناس وترك الفقر آخذاً بخناقهم.

شل الحركة الاقتصادية

وشلت الحركة الاقتصادية في جميع أنحاء البلاد، فخربت الزراعة والتجارة، وأصيب الاقتصاد العام بنكسة شاملة نتيجة تدمير معاوية وإسرافه، وقد أعلن ذلك عبد الله بن همام السلولي، فقد كتب شعراً في رقع وألقاها في المسجد الجامع يشكو فيها الجور الهائل والمظالم الفظيعة التي صبها معاوية وعماله على الناس،

(١) حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ١٣٢.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٣٥٩. حياة الإمام موسى بن جعفر: ج ١، ص ٣٠١.

(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ج ١، ص ٣٠١ - ٣٠٢. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٣٥٩. كتب معاوية إلى زياد يقول: اصطف الصفراء والبيضاء. فكتب زياد إلى عماله بذلك وأوصاهم أن يوافوه بالمال، ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة.

وهذه هي الأبيات:

ألا أبلغ معاوية بن صخر فقد خرب السواد ولا سوادا
أرى العمال أقساء علينا بعاجل نفعهم ظلموا العبادا
فهل لك أن تدارك ما لدينا وتدفع عن رعيتك الفسادا
وتعزل تابعا أبدا هواه يخرب من بلادته البلادا
إذا ما قلت أقصر عن مداه تمادى في ضلالته وزادا^(١)

وقد صور السلوي بهذه الأبيات سوء الحالة الاقتصادية وتسلب الولاية على ظلم الرعية، ودعا السلطة إلى عزلهم وإقصائهم عن وظائفهم، فقد جهدوا في خراب السواد، وامتصوا الدماء، واتبعوا الهوى، وضلوا عن الطريق القويم.

حجة معاوية

ويرى معاوية أنّ أموال الأمة وخزینتها المركزية ملك له يتصرف فيها حيث ما يشاء، يقول: الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذ من مال الله فهو لي، وماتركته كان جائزاً إلي.^(٢)

وهذا المنطق بعيد عن روح الإسلام، لقد اعتبر الإسلام الفقر كارثة اجتماعية، ووباءً شاملاً يجب مكافحته بكل الطرق والوسائل، وليس لرئيس الدولة أن يصطفي من مال الأمة أي شيء وينمي ويحميه وإنما هو ينظمه، هذا هو رأي الإسلام، ولكن معاوية بصورة لا تقبل الجدل لم يع ذلك، فتصرف بأموال المسلمين حسب رغباته وأهوائه.

هذه بعض معالم سياسة معاوية الاقتصادية التي فقدت روح التوازن، وأشاعت البؤس والحرمان في البلاد.

(١) تاريخ دمشق: ج ٣٥، ص ٥١، ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله. أسد الغابة: ج ٣، ص ٢٨٧. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٣٣.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ج ١، ص ٣٠١. الغدير: ج ٨، ص ٣٤٩. النصائح الكافية: ص ١٣١. مروج الذهب: ج ٣، ص ٥٢، معاوية وصعصعة.

سياسة التفريق

وبنى معاوية سياسته على تفريق كلمة المسلمين وتشيت شملهم وبث روح التفرقة والبغضاء بينهم؛ إيماناً منه بأن الحكم لا يمكن أن يستقر له إلا في تفكك وحدة الأمة وإشاعة العداة بين أبنائها، يقول العقاد:

وكانت له - أي لمعاوية - حيلته التي كررها وأتقنها وبرع فيها، واستخدمها مع خصومه في الدولة من المسلمين وغير المسلمين، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائب على التفرقة والتخذييل بين خصومه بإلقاء الشبهات بينهم، وإثارة الإحن فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرباه... كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوي خطر على وفاق، وكان التنافس الفطري بين ذوي الأخطار مما يعينه على الإيقاع بهم.^(١)

لقد شتت كلمة المسلمين، وقصم عرى الأخوة الإسلامية التي عقد أواصرها الرسول الكريم ﷺ، وبنى عليها مجتمعه.

ومن مظاهر هذه السياسة أنه

بالغ معاوية في اضطهاد الموالي وإذلالهم، وقد رام أن يبدهم إبادة شاملة، يقول المؤرخون: إنه دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب وقال لهما: إنني رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وأراها قد قطعت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شرطاً منهم، وأدع شرطاً لإقامة السوق وعمارة الطريق.

ولم يرتض الأحنف وسمرة هذا الإجراء الخطير، فأخذوا يلففان به حتى عدل عن رأيه.^(٢)

لقد سن معاوية اضطهاد الموالي، وأخذت الحكومات التي تلت من بعده تشيع

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٣٥.

(٢) العقد الفريد: ج ٣، ص ٤١٣.

فيهم الجور والحرمان بالرغم من اشتراكهم في الميادين العسكرية وغيرها من أعمال الدولة، يقول شاعر الموالي شاكياً مما ألم بهم من الظلم:

أبلغ أمية عني إن عرضت لها وابن الزبير وأبلغ ذلك العربا
أن الموالي أضحت وهي عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
وانبرى أحد الخراسانيين إلى عمر بن عبد العزيز يطالبه بالعدل فيهم قائلاً له:
يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد
أسلموا من أهل الذمة يؤدون الخراج.^(١)

وكان الشعبي قاضي عمر بن عبد العزيز قد بغض المسجد حتى صار أبغض إليه من كناسة داره حسب ما يقول لأنّ الموالي كانت تصلي فيه^(٢)، وقد اضطر الموالي إلى تأسيس مسجد خاص لهم أسموه مسجد الموالي كانوا يقيمون الصلاة فيه^(٣)، ويميل «خودا بخش» إلى الظن أنهم إنّما اضطروا إلى تأدية صلاتهم فيه بعدما رأوا تعصب العرب ضدهم، وأتهم لم يكونوا يسمحون لهم بالعبادة معهم في مسجد واحد^(٤)، وكان الموالي يطفون بالرد على العرب ويدعونهم إلى الهدى قائلين: إنّنا لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلهم، ولا السيد منهم والمسود، ولا الشريف ولا المشروف، لكننا نزعم أنّ تفاضل الناس فيما بينهم، ليس بأبائهم ولا بأحسابهم ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم، وشرف أنفسهم، وبعد هممهم، فمن كان دنيء المهمة ساقط المروءة لم يشرف وإن كان من بني هاشم في ذؤابتها!! إنّنا الكريم من كرمت أفعاله، والشريف من شرفت همته.^(٥)

ولم يع الأمويون ومن سار في ركبهم هذا المنطق الذي نادى ببسط المساواة

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥١، ذكر أحداث سنة ١٠٠ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٦،

ص ٥٥٩، ذكر أحداث سنة ١٠٠ للهجرة.

(٢) الطبقات الكبرى: ج ٦، ص ١٧٥.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٣٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) العقد الفريد: ج ٣، ص ٤١٠.

والعدل بين جميع الناس من دون فرق بين قومياتهم. وعلى أي حال فقد أدت هذه السياسة العنصرية إلى إشاعة الأحقاد بين المسلمين واختلاف كلمتهم، كما أدت إلى تجنيد الموالي لكل حركة ثورية تقوم ضد الحكم الأموي، وكانوا بالتالي هم القوة الفعالة التي أطاحت بالأمويين، وطوت معالمهم وآثارهم.

العصبية القبلية

وتبعاً لسياسة التحزب والتفريق التي سار عليها الأمويون فقد أحيوا العصبية القبلية، وظهرت في الشعر العربي صوراً مريعة ومؤلمة من ألوان ذلك الصراع الذي كانت تخلقه السلطة الأموية لإشغال الناس بالصراع القبلي عن التدخل في الشؤون السياسية، وإبعادهم عما يقننه معاوية من الظلم والجور. ويقول المؤرخون: إنه عمد إلى إثارة الأحقاد القديمة ما بين الأوس والخزرج، محاولاً بذلك التقليل من أهميتهم، وإسقاط مكانتهم أمام المسلمين، كما تعصب لليمنيين على المضريين، وأشعل نار الفتنة فيما بينهم حتى لا تتحد لهم كلمة تضر بمصالح دولته.

وسار عمال معاوية على وفق منهج سياسته التخريبية، فكان زياد بن أبيه يضرب القبائل بعضها ببعض، ويؤجج نار الفتنة فيما بينها حتى تكون تحت مناطق نفوذه.

يقول المستشرق ولهاوزن: وعرف زياد كيف يخضع القبائل، بأن يضرب إحداها بالأخرى، وكيف يجعلها تعمل من أجله، وأفلح في ذلك.^(١) وحفلت مصادر التاريخ ببوادر كثيرة من ألوان التناحر القبلي الذي أثاره معاوية وعماله، مما أدى إلى انتشار الضغائن بين المسلمين، وقد عانى الإسلام من جراء ذلك أشد ألوان المحن، فقد أوقف كل نشاط مثمر له، وخولف ما كان يدعو له النبي ﷺ من التآخي والتعاطف بين المسلمين.

(١) حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ١٣٨.

سياسة البطش والجبروت

وساس معاوية الأمة سياسة بطش وجبروت، فاستهان بمقدراتها وكرامتها، وقد أعلن بعد الصلح أنه إنما قاتل المسلمين وسفك دماءهم ليتأمر عليهم، وأن جميع ما أعطاه للإمام الحسن عليه السلام من شروط ووعود، فهي تحت قدميه لا يفي بشيء منها، وقد أدلى بتصريح عبر فيه عن كبريائه وجبروته، فقال: نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع.^(١)

وسار عماله وولاته على هذه الطريقة الغادرة، فقد خطب عتبة بن أبي سفيان بمصر، فقال: يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين، إني قلمت أظفاري عنكم ليلين مسيئكم، وسألتكم إصلاحكم إذا كان فسادكم باقياً عليكم، فأما إذا أبيتم إلا الطعن على السلطان والنقص للسلف فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت أدواءكم وإلا فإن السيف من ورائكم، فكم حكمة منا لم تعها قلوبكم، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم، ولست أبخل بالعقوبة إذا جدتم بالمعصية.^(٢)

وخاطب المصريين في خطاب آخر له فقال: يا أهل مصر إياكم أن تكونوا لل سيف حصيداً، فإن لله ذبيحاً لعثمان لا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق بإحياء الفتنة، وإماتة السنن، فأطأكم والله وطأة لا رمق معها حتى تنكروا ما كنتم تعرفون.^(٣)

ومثلت هذه القطع من خطابه مدى أحقادها على الأمة، وتنكره لجميع قيمها وأهدافها.

ومن أولئك الولاة الذين كفروا بالحق والعدل خالد القسري الذي خطب في مكة وهو يهدد المجتمع بالدمار والفناء، فقد جاء في خطابه: أيها الناس عليكم

(١) نهاية الإرب: ج ٦، ص ٧. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ص ١٣٨.

(٢) حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ١٣٨.

(٣) العقد الفريد: ج ٤، ص ١٣٧.

بالطاعة ولزوم الجماعة، وإياكم والشبهات، فإني - والله - ما أوتي لي بأحد يطعن على إمامه إلاّ صلبته في الحرم.^(١)

وكانت هذه الظاهرة ماثلة عند جميع حكام الأمويين وولاتهم، يقول الوليد

بن يزيد:

فدع عنك ادكارك آل سعدى فنحن الأكثرون حصى ومالا
ونحن المالكون الناس قسراً نسومهم المذلة والنكالا
ونوردهم حياض الخسف ذلاً وما نألوهم إلاّ خبالاً^(٢)
وصورت هذه الأبيات مدى استهانتها بالأمة، فإنه مع بقية الحكام من أسرته
قد ملكوا الناس بالغلبة والقوة، وأثمهم يسومونهم الذل، ويوردونهم حياض
الخشف.

ومن أولئك الملوك عبد الملك بن مروان، فقد خطب في يثرب أمام أبناء

المهاجرين والأنصار فقال:

ألا وإني لا أداوي أمر هذه الأمة إلاّ بالسيف حتى تستقيم فئاتكم، وإنكم
تحفظوننا أعمال المهاجرين الأولين، ولا تعملون مثل عملهم، وإنكم تأمروننا
بتقوى الله وتنسون أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ
ضربت عنقه.^(٣)

وحفل هذا الخطاب بالطغيان الفاجر على الأمة، فهو لا يرى حلاً لأزماتها إلاّ
بسفك الدماء وإشاعة الجور والإرهاب، أما بسط العدل ونشر الدعة والرفاهية
بين الناس فلم يفكر به، ولا دار بخلده ولا في خلد واحد من حكام الأمويين.

احتقار الفقراء

وتبنى الحكم الأموي في جميع أدواره اضطهاد الفقراء واحتقار الضعفاء، ويقول

(١) تاريخ الطبري: ج ٦، ص ٤٦٤، ذكر أحداث سنة ٩١.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ج ١، ص ٣٠٧.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣٩١ - ٣٩٢، ذكر حوادث سنة ٧٥ للهجرة.

المؤرخون: أن بني أمية كانوا لا يسمحون للفقراء بالدخول إلى دوائرهم الرسمية إلا في آخر الناس. يقول زياد بن أبيه لعجلان حاجبه: كيف تأذن للناس؟ قال: على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الأدب. قال: من تؤخر؟ قال: الذين لا يعبأ الله بهم. قال: من هم؟ قال: الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف، وكسوة الصيف في الشتاء.^(١)

وهدمت هذه السياسة قواعد العدل والمساواة التي جاء بها الإسلام، فإنه لم يفرق بين المسلمين، بل جعلهم سواسية كأسنان المشط.

سياسة الخداع

وأقام معاوية دولته على المخاتلة والخداع، فلا راعى الحق في أي تحرك من تحركاته السياسية، فما كان مثل ذلك الضمير المطموس أن يعي الواقع، أو يفقه الحق، وقد حفل التاريخ بصور كثيرة من خداعه، وهذه بعضها:

- ١- لما دس السم إلى القائد الكبير مالك الأشتر أقبل على أهل الشام فقال لهم: إن علياً وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه^(٢)، فكان أهل الشام يدعون عليه في كل صلاة، ولما أخبر بموته أنبأ أهل الشام بأن موته نتج عن دعائهم لأئمتهم حزب الله، ثم همس في أذن ابن العاص قائلاً له: إن الله جنوداً من عسل.^(٣)
- ٢- ومن خداع معاوية وأضاليله أن جرير البجلي لما أوفده الإمام علي عليه السلام إلى معاوية يدعوه إلى بيعته طلب معاوية حضور شرحبيل الكندي، وهو من أبرز الشخصيات في الشام، وقد عهد إلى جماعة من أصحابه أن ينفرد كل واحد منهم به، ويلقي في روعه أن علياً هو الذي قتل عثمان بن عفان، ولما قدم عليه شرحبيل أخبره معاوية بوفادة جرير، وأنه يدعوه إلى بيعة الإمام عليه السلام، وقد حبس نفسه في

(١) نهاية الأرب: ج٦، ص٨٦.

(٢) الغارات: ج١، ص١٦٨. الغدير: ج١١، ص٦٢.

(٣) شيخ المضيرة أبو هريرة: ص١٧٦. تاريخ دمشق: ج٥٦، ص٣٧٦، ترجمة مالك بن الأشتر. عيون الأخبار: ج١، ص٢٠١. معجم البلدان: ج١، ص٤٥٤، مادة بعلبك. أنساب الأشراف: ج٣، ص١٦٨، مالك الأشتر.

البيعة حتى يأخذ رأييه؛ لأنَّ الإمام قد قتل عثمان، وطلب منه شرحبيل أن يمهلَه لينظر في الأمر، فلما خرج التقى به القوم كل على انفراد، وأخبروه أنَّ الإمام هو المسؤول عن إراقة دم عثمان، ينتبه الرجل إلى الخديعة وصدقهم، فانبرى إلى معاوية وهو يقول له: يا معاوية أين الناس؟ ألا إنَّ علياً قتل عثمان، والله إن بايعت لنخرجنك من شامنا ولنقتلنك.

فقال معاوية مخادعاً له: ما كنت لأخالف عليكم، ما أنا إلا رجل من أهل الشام.^(١)

بمثل هذا الخداع والبهتان أقام معاوية دعائم سلطانه، وبنى عليه عرش دولته.

٣- ومن ألوان خداعه لأهل الشام أنَّه لما راسل الزعيم قيس بن سعد يستميله ويمنيه بسلطان العراقين، وبسلطان الحجاز لمن أحب من أهل بيته إن صار معه فرد عليه قيس بأعنف القول، فأظهر معاوية لأهل الشام أنَّه قد بايع، وأمرهم بالدعاء له، واختلق كتاباً نسبه إليه، وقد قرأه عليهم، وهذا نصه:

أما بعد، إنَّ قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً، وقد نظرت لِنفسي وديني، فلم أرى سعي مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً براً تقياً، فنستغفر الله لذنوبنا ونسأل العصمة لديننا، ألا وإني قد ألقيت لكم بالسلام، وأحببت قتال قتلة إمام الهدى المظلوم، فاطلب مني ما أحببت مني من الأموال والرجال أعجله إليك.^(٢)

وبهذه الأساليب المنكرة خدع أهل الشام وزج بهم لحرب وصي رسول الله ﷺ، وباب مدينة علمه.

٤- في يوم خاطب عائشة وقال لها: يا ليتك قتلت يوم الجمل حتى أرفع قميصين

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٧٢ - ٧٣. الغدير: ج ١٠، ص ٢٩٥. وقعة صفين: ص ٤٧، لقاء جرير لشرحبيل. تاريخ دمشق: ج ٥٩، ص ١٣٤، ترجمة معاوية بن صخر بن أبي سفيان.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٦١ - ٦٢. أنساب الأشراف: ج ٣، ص ١٦٣، حث كعب بن عمرة على الطلب. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٥٥٣، ذكر أحداث سنة ٣٦ للهجرة.

ضد علي.. قميص عثمان وقميصك!!
وقد بهر ولده يزيد حينما بويع وكان الناس يمدحونه، فقال لأبيه: يا أمير
المؤمنين، ما ندري أنخدع الناس أم يخدعوننا؟ فأجابه معاوية: كل من أردت
خديعته، فتخادع له حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته.^(١)
لقد جر معاوية ذيله على الخداع وغذى به أهل مملكته حتى نشأ جيل كانت
هذه الظاهرة من أبرز ما عرف به.

(١) الكامل: ج ٢، ص ١١٠، من كلام معاوية لابنه يزيد. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٤٣.
الأملالي للمرتضى: ج ١، ص ٢٠٦.

لعبة قميص عثمان

ومن الغرابة بمكان قيام عمرو بن العاص مع عائشة يطالب بدم عثمان وهو له السهم الأوفى في التحريض عليه، حتى إنّه اعترف بقتله في قوله لما بلغه قتله: أنا أبو عبد الله قتلته وأنا بوادي السباع.^(١)

ولا ريب في أنّ الدافع لعمرو على ذلك ليس الحب لعثمان ولا لمعاوية، وإنما الدافع القوي له هو طمعه في دنيا معاوية وحبه التشنيع على أمير المؤمنين عليه السلام ولذلك قال لعائشة: لوددت أنّك كنت قتلت يوم الجمل، فقالت: ولم لا أبالك؟ قال: كنت تموتين وتدخلين الجنة، ونجعلك أكبر التشنيع على علي.^(٢)

وعمر هو الذي أشار على معاوية بنشر قميص عثمان على منبر الشام؛ ليشير بحق أهلها على من كان من أكبر المساعدين لعثمان والذابين عنه، وما زال عثمان يلجأ إليه في دفع الناس عنه، فيقوم في دفعهم القيام المحمود.^(٣)

فهم كانوا على عكس الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بين محرض على عثمان وخاذل له، وقد ذكر التاريخ كتاب عثمان إلى معاوية يستنصر فيه على الصحابة، وذكر أيضاً إخفاء معاوية الكتاب عن أهل الشام لئلا يعلموا تخاذله عن نصرته، فلا يتمكن بعدئذ من سوقهم لحرب علي واتهامه بدم عثمان والممالأة عليه. وبهذا شهد

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٦٣، ذكر أحداث سنة ٣٥ للهجرة. شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٢٩١. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٦٤، سنة ٣٦، خبر عمرو بن العاص ومبايعته معاوية.

(٢) أحاديث أم المؤمنين، للمرتضى: ج ١، ص ٣٦٤.

(٣) الفخري: ص ٨٩-٩٠.

الشهرستاني إذ قال: أنه كان أمراء جنود عثمان - معاوية عامل الشام، وسعد بن أبي وقاص عامل الكوفة، وبعده الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن عامر عامل البصرة، وعبد الله بن أبي سرح عامل مصر، وكلهم خذلوه ورفضوه حتى أتى قدره عليه. (١)

وإن معاوية وزملاءه كانوا يعلمون أن الذين قتلوا عثمان كانوا اثنين أو ثلاثة من أهل مصر، وأن اثنين منهم قتلوا في دار عثمان فوراً وأن الثالث قتل في مصر مع ابن أبي حذيفة قبل واقعة صفين (٢)، ويعلمون أيضاً براءة علي عليه السلام من دم عثمان، ولكن الإمرة والمملك العضوض وضعف التدين، هي وحدها - لا دم عثمان - التي دعته وحفزتهم لحرب من كان مع الحق في جميع أحواله يدور الحق معه حيث دار. (٣)

ولولا الاستعانة على حرب علي عليه السلام لما سخرى معاوية بمصر وجعلها طعمة لابن العاص، كما أن ابن العاص لولا ولاية مصر لم يعن معاوية تلك الإعانة المخزية في صفين، حتى أبدى سواته (٤) لينجو من ذي الفقار الذي سل عليه،

(١) الملل والنحل: ج ١، ص ٢٦.

(٢) خطط المقرئ: ج ٢، ص ٣٣٦. شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ١٥٧.

(٣) تاريخ بغداد: ج ١٤، ص ٣٢١، ترجمة يوسف بن المؤدب.

(٤) ذكر المؤرخون مبارزة عمرو بن العاص لأمير المؤمنين عليه السلام وأنه لما هم أن يعلو عمراً بالسيف كشف عمرو عن سواته، فتنحى أمير المؤمنين عليه السلام ومال بطرفه تكريماً وحياء من هذا المنظر المعيب المخجل، وكذلك فعل بسر بن أرطاة حين صرعه أمير المؤمنين عليه السلام وقد ضرب بهذه المكرمة العلوية المثل، وعد عفوه عنها من المكارم والسؤدد، وللشعراء فيها أبيات شهيرة، منها قول أبي فراس الحمداني:

ولا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يوم بسواته عمرو
وقول ابن منبر الطرابلسي في وصف عمرو:
بطل بسواته يقاتل لا بصارمه الذكر
وقول الحرث الخثعمي يخاطب معاوية:
أفي كل يوم فارس لك ينتهي وعورته وسط العجاجة باديه
يكف لها عنه علي سنانه ويضحك منها في الخلاء معاوية

وليرى ولاية مصر التي كانت تعدل بنظره الخلافة. يقول المقرئزي: وكان يقول عمرو بن العاص: ولاية مصر جامعة لعدل الخلافة.^(١)

هذه بعض أعمالهم في سبيل الملك، وهذه أنانيتهم الذميمة في الإمرة، والذي يؤكد هذه الأدلة ما رواه في العقد الفريد قائلاً: علم معاوية - والله - إن لم يبايعه عمرو بن العاص لم يتم له أمر، فقال له: يا عمرو اتبعني، قال: لماذا للآخرة، فوالله ما معك آخرة، أما للدينا فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها. قال معاوية: أنت شريكي. قال عمرو: فاكتب لي مصر كورها، فكتبها له.

وكتب في آخر الكتاب: وعلى عمرو الطاعة والسمع، قال عمرو: واكتب أتمها لا ينقصان من شرطه شيئاً، قال معاوية: لا ينظر الناس إلى هذا. قال عمرو: حتى تكتب، فكتب معاوية والله لا يجد بدأ من كتابتها.

ودخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية وهو يكلم عمراً في مصر وعمرو يقول له: إنما أبايعك بها ديني، وإلى ذلك يشير عمرو في قوله:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع^(٢)
وفي كتاب فتح الباري ما يوضح الأمر أكثر، يقول: ذكر يحيى بن سليمان الجعفي أحد شيوخ البخاري في كتاب صفين: عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً في الخلافة، أو أنت مثله؟ قال: لا، وإني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه. فأتوا علياً فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان، فأتوه وكلموه فقال الإمام عليه السلام:

فقولوا لعمرو ثم بسر ألا انظرا لنفسكما لا تلقيا الليث ثانيه
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما هما كانتا والله للنفس واقيه
بحار الأنوار: ج ٣٣، ص ٢٣٠. شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٣١٦.

- (١) الخطط: ج ١، ص ٢٧١. الدر المنثور: ج ٣، ص ١١٣، تفسير سورة الأعراف.
(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٣٤٥. الغدير: ج ٢، ص ١٣٩. شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٦٥ - ٦٦.
تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٨٦. بحار الأنوار: ج ٣٢، ص ٣٧٣.

يدخل في البيعة، ويحاكمهم إليّ، فامتنع معاوية.^(١)
 روى ابن حجر العسقلاني قال: أن علياً قال: إن بني أمية يقاتلونني يزعمون
 أنني قتلت عثمان وكذبوا، إنما يريدون الملك، ولو أعلم أن يذهب ما في قلوبهم،
 أنني أحلف لهم عند المقام والله ما قتلت عثمان، ولا أمرت بقتله، لفعلت ولكن إنما
 يريدون الملك.^(٢)

إشاعة الانتهازية

عملت حكومة معاوية على إشاعة الانتهازية والوصولية بين الناس، فلم يعد
 ماثلاً عند الكثيرين منهم ما جاء به الإسلام من إيثار الحق ونكران الذات، ومن
 مظاهر ذلك ما رواه المؤرخون: أن يزيد بن شجرة الرهاوي قد وفد على معاوية،
 وبينما هو مقبل على سماع حديثه إذ أصابه حجر عاثر فأدماه، فأظهر تصنعاً عدم
 الاعتناء به، فقال له معاوية: لله أنت ما نزل بك؟ قال: ما ذا يا أمير المؤمنين؟ قال:
 هذا دم وجهك يسيل. فقال: إن حديث أمير المؤمنين الهلاني حتى غمز فكري، فما
 شعرت بشيء حتى نبهني أمير المؤمنين. فبهر معاوية، وراح يقول: لقد ظلمك
 من جعلك في ألف من العطاء، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين، وكما أهل
 صفيين. أمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاد في عطائه ألف درهم.^(٣)

وكانت هذه الظاهرة سائدة في جميع أدوار الحكم الأموي، فقد ذكر المؤرخون
 أن اسماعيل بن يسار كان زبيري الهوى، فلما ظفر آل مروان بآل زبير انقلب اسماعيل
 عن رأيه وأصبح مروانياً، وقد استأذن على الوليد فأخره ساعة، فلما أذن له دخل
 وهو يبكي، فسأله الوليد عن سبب بكائه فقال: أخرجتني وأنت تعلم مروانيتي
 ومروانية أبي.

(١) فتح الباري: ج ١٣، ص ٧٥. تاريخ دمشق: ج ٥٩، ص ١٣٢، ترجمة معاوية بن أبي سفيان. سير
 أعلام النبلاء: ج ٤، ص ٣٠٠، ترجمة معاوية بن أبي سفيان. البداية والنهاية: ج ٨، ص ١، ذكر
 أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٣٩، ص ٤٥٢.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٤٣.

وأخذ الوليد يعتذر منه، وهو لا يزداد إلا إغراقاً في البكاء، فهون عليه الوليد وأحسن صلته، فلما خرج تبعه شخص ممن يعرفه، فسأله عن مروانته التي ادعاها متى كانت؟ فقال له: بغضنا لآل مروان، وهي التي حملت أباه يسار في حال موته أن يتقرب إلى الله بلعن مروان بن الحكم، وهي التي دعت أمه أن تلعن آل مروان مكان ما تتقرب به إلى الله من التسبيح.^(١)

ونقل المؤرخون وقابع كثيرة من ألوان هذا الخداع الذي ساد في تلك العصور، وهو من دون شك من مخلفات سياسة معاوية الذي ربي جيله على الخديعة والانحراف عن الحق.

الخلاعة والمجون

وعرف معاوية بالخلاعة والمجون، يقول ابن أبي الحديد: كان معاوية أيام عثمان شديد التهتك موسوماً بكل قبيح، وكان أيام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه، إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج، ويشرب في آنية من الذهب والفضة، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاة بها - أي بالذهب - وعليها جلال الديباج والوشي، وكان حينئذ شاباً وعنده نزق الصبا، وأثر الشيبة وسكر السلطان والإمرة، ونقل الناس عنه في كتب السيرة أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام. ولا خلاف في أنه سمع الغناء، وطرب عليه، ووصل عليه أيضاً، وتأثر به ولده يزيد فكان مدمناً خليعاً مستهتراً وتأثر بهذا السلوك خلفاء بني أمية.

يقول الجاحظ: وكان يزيد - يعني ابن معاوية - لا يمسي إلا سكراناً، ولا يصبح إلا مخموراً، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل في السماء هو أو في الماء، وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً.

وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليال ليلة، وكان هشام يشرب في كل جمعة، وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب، فأما

(١) الأغاني: ج ٤، ص ١٦٢٤، ذكر أخبار اسماعيل بن يسار ونسبه. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٤٤.

يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار، ولا يوجد أبداً إلا ومعه إحدى هاتين. وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت.^(١)

وولى هشام بن عبد الملك الوليد على الحج سنة (١١٩ هـ) فحمل معه كلاباً في صناديق، فسقط منها صندوق وفيه كلب، وحمل معه قبة عملها على قدر الكعبة ليضعها عليها، وحمل معه خمراً، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويجلس فيها فخوفه أصحابه، وقالوا له: لا نأمن الناس عليك وعلينا، فترك.^(٢)

ووفد علي بن عباس على الوليد بن يزيد في خلافته، وقد أتى بابت شراعة من الكوفة، فبادره قائلاً: والله، ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله وسنة رسوله، فضحك ابن شراعة وقال: إنك لو سألتني عنهما لوجدتني حماراً، فقال: أنا أرسلت إليك لأسألك عن القهوة - أي الخمر - أخبرني عن الشراب؟

قال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له. قال: فما تقول في الماء؟ قال: لا بد منه، والحمار شريك في. وأخذ يسأله عن المشروبات حتى انتهى إلى الخمر، فقال له: ما تقول في الخمر؟ فقال: تلك والله صديقة روعي، فقال: أنت والله صديق روعي.^(٣)

وأرسل الوليد إلى عامله على الكوفة يطلب منه أن يبعث إليه الخلعاء والشعراء الماجنين، ليستمتع إلى ما يلهو به من الفسق والمجون، وقد سخر جميع أجهزة دولته للذاتة وشهوته، وكتب إلى واليه على خراسان أن يبعث إليه ببرابط وطنابير، وقال أحد شعراء عصره ساخرًا منه:

فأبشر يا أميين الله أبشر بتباشير
بإبل يحمل المال عليها كالأنابير^(٤)

(١) حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ١٤٥.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٢٠٩، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٦٤، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة.

(٣) نهاية الإرب: ج ٤، ص ٩٣. العقد الفريد: ج ٤، ص ٤٥٦ - ٤٥٧.

(٤) الأنابير: أكداس من الطعام.

بغال تحمل الخمر حقائبها طنابير
 ودل البربريات بصوت البم والزير
 وقرع الـدف أحياناً ونفخ بالمزامير
 فهذا لك في الدنيا وفي الجنة تحبير^(١)

وسادت اللذة واللهو في المجتمع، وتهالك الناس على الفسق والفجور، ومن طريف ما ينقل في هذا الموضوع أنه أوتي بشيخ إلى هشام بن عبد الملك، وكان معه قبان وخمر وبربط، فقال: اكسروا الطنبور على رأسه، فبكى الشيخ، فقال له أحد الجالسين: عليك بالصبر، فقال له الشيخ: أتراني أبكي للضرب؟ إنما أبكي لاحتقاره البربط إذ سمّاه طنبوراً.^(٢)

لقد كانت سيرة الأمويين في جميع أدوارهم امتداداً لسيرة معاوية الذي أشاع حياة اللهو والخلاعة في البلاد للقضاء على أصالة الأمة، وسلب وعيها الديني والاجتماعي.

إشاعة المجون في الحرمين

وعمد معاوية إلى إشاعة الدعارة والمجون في الحرمين، للقضاء على قدسيتهما، وإسقاط مكانتها الاجتماعية في نفوس المسلمين. يقول العلائي: وشجع الأمويون حياة المجون في مكة والمدينة إلى حد الإباحة، فقد استأجر طوائف من الشعراء والمخثين من بينهم عمر بن أبي ربيعة؛ لأجل أن يمسخوا عاصمتي مكة والمدينة بمسحة لا تليق، ولا تجعلها صالحتين للزعامة الدينية.

وقد قال الأصمعي: دخلت المدينة فما وجدت إلا المخثين، ورجلاً يضع الأخبار والطرف.^(٣)

(١) تاريخ الطبري: ج٧، ص٢٢٥، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج٧، ص٢٠٣ - ٢٠٤، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج٥، ص٢٦٢، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج٢، ص١٤٧.

وقد شاعت في يثرب مجالس الغناء، وكان الوالي يحضرها ويشارك فيها^(١)، وانحسرت بذلك روح الأخلاق، وانصرف الناس عن المثل العليا التي جاء بها الإسلام.

الاستخفاف بالقيم الدينية

واستخف معاوية بكافة القيم الدينية، ولم يعن بجميع ما جاء به الإسلام من الأحكام، فاستعمل أواني الذهب والفضة، وأباح الربا، وتطيب في الإحرام، وعطل الحدود، وقد ألغيت معظم الأحكام الإسلامية في أغلب أدوار الحكم الأموي، وفي ذلك يقول شاعر الإسلام الكميّ:

وعطلت الأحكام حتى كأننا على ملة غير التي نتنحل
 أهل كتاب نحن فيه وأنتم على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
 كأنّ كتاب الله يعنى بأمره وبالنهى فيه الكودني المركل^(٢)
 فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم فحتى م حتى م العناء المطول
 وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا لا جور من حكامنا المتمثل^(٣)
 واستخفّ معاوية بالمقدسات الإسلامية واحتقرها، يقول الرواة أنّه لما تغلّب قيل له: لو سكنت المدينة، فهي دار الهجرة، وبها قبر النبي ﷺ فقال: قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين.^(٤)

واقتردى به في ذلك جميع بني أمية، فقد انبرى يحيى بن الحكم بن أبي العاص إلى عبد الله بن جعفر فقال له يحيى: كيف تركت الخبيثة. يعني مدينة رسول الله ﷺ؟ فأنكر عليه ابن جعفر وصاح به: سمّاها رسول الله ﷺ طيبة وتسميها خبيثة، قد اختلفتما في الدنيا وستختلفان في الآخرة. قال يحيى: والله لأن أموت وأدفن بأرض

(١) المصدر نفسه.

(٢) الكودني: البليد. نسبة إلى الكودن وهو البردون يشبه به.

(٣) الهاشميات: ص ٦١-٦٤.

(٤) شرح الأخبار: ج ٢، ص ١٦٥، ح ٤٩٧. حياة الإمام الحسين ﷺ: ج ٢، ص ١٤٨.

الشام المقدسة أحب إليّ من أن أُدفن بها، فقال عبد الله: اخترت مجاورة اليهود والنصارى على مجاورة رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار.^(١)

استلحاق زياد

ومن مظاهر استخفاف معاوية بالقيم الإسلامية استلحاقه زياد بن عبيد الرومي، من دون بينة شرعية، وإنّما اعتمد على شهادة أبي مريم المتجر بالخمير والقيادة^(٢)، وهو مما لا يثبت به نسب شرعي، وقد خالف بذلك قول رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».^(٣)

لقد قام بذلك انطلاقاً وراء أهدافه السياسية، وتدعيماً لحكمه وسلطانه.

ومن طريف ما ينقل في الموضوع أن نصر بن حجاج خصم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عند معاوية في عبد الله بن حجاج مولى خالد بن الوليد، فأمر معاوية حاجبه أن يؤخرهما حتى يكتمل مجلسه، فلما اكتمل مجلسه أمر بحجر فأدني به، وألقى عليه طرفاً من ثيابه ثم أذن لهما، فترافعا عنده في شأن عبد الله، فقال له نصر:

إن أخي وابن أبي عهد إلي أنه - يعني عبد الله - منه، وقال عبد الرحمن: مولاي وابن عبد أبي وأمته ولد على فراشه، وأصدر معاوية الحكم في المسألة، فقال يا حرسى: خذ هذا الحجر فادفعه إلى نصر بن حجاج، فقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وانبرى نصر فقال: أفلا أجريت هذا الحكم في

(١) أنساب الأشراف: ج ٢، ص ٣٠٥-٣٠٦، ذكر عبد الله بن جعفر.

(٢) قال السيد شرف الدين: كان فعل معاوية هذا، أول عمل جاهلي عمل به في الإسلام علانية، فأنكر عليه كافة الناس فلم يرعو ولم يبال بذلك، وكان يغضب إذا لم يدع زياد إلى أبيه، فأنكر عليه بعض معاصريه، فقال: أتغضب أن يقال أبوك عِفٌّ وترضى أن يقال أبوك زان. النص والاجتهاد: ص ٤٦٣-٤٦٤، المورد ٨٨.

(٣) صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٤٩٩، ح ٦٤٣٢. صحيح مسلم: ج ٣، ص ٢٥٦، ح ١٤٥٨. صحيح الترمذي: ج ٣، ص ٤٦٣، ح ١١٥٧. السنن الكبرى: ج ٧، ص ٤٠٢، ٤١٢، كتاب اللعان.

زياد؟ فقال معاوية: ذلك حكم معاوية وهذا حكم رسول الله. (١)

إنكار الإمام الحسين عليه السلام

وأنكر الإمام الحسين عليه السلام على معاوية هذا الاستلحاق الذي خالف به قول رسول الله ﷺ، فكتب إليه مذكرة تضمنت الأحداث الجسام التي اقترفتها معاوية، ومما جاء فيها: أولست المدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف، فزعمت أنه ابن أبيك، وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فتركت سنة رسول الله ﷺ تعمداً واتبعت هواك بغير هدى من الله. (٢)

الحقد على النبي ﷺ

وحقد معاوية على النبي ﷺ فقد مكث في أيام حكمه وخلافته أربعين جمعة لا يصلي عليه، وسأله بعض أصحابه عن ذلك فقال: لا يمنعي عن ذكره إلا أن تشمخ رجال بآنافها (٣)، وسمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فلم يملك أهابه، واندفع يقول: لله أبوك يا ابن عبد الله لقد كنت عالي الهمة، ما رضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين. (٤)

ومن مظاهر حقه على الرسول الأعظم ﷺ ما رواه مطرف بن المغيرة قال: وفدت مع أبي علي معاوية، فكان أبي يتحدث عنده ثم ينصرف إليه، وهو يذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، وأقبل ذات ليلة وهو غضبان فأمسك عن العشاء، فانتظرت ساعة، وقد ظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت له: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ قال: يا بني جئتك من أخبث الناس. قال: ما ذاك؟ قال:

(١) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٣١، ذكر أحداث سنة ١٦٠ للهجرة. العقد الفريد: ج ٦، ص ١٣٣ - ١٣٤، باب في الأدعياء.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٨١. بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٢١٣، باب ٢٧، في كتبه معاوية.

(٣) النصائح الكافية: ص ١٢٤. أحاديث أم المؤمنين: ج ١، ص ٢٦٠. شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ١٠١.

خلوت بمعاوية، فقلت له: إنك قد بلغت منك يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى أخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، فثار معاوية واندفع يقول: هيهات هيهات ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل أبو بكر، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمع عشر سنين، فوالله ما عد أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل عمر، ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه فعمل به ما عمل، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، وأن أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله، فأبي عمل يبقى بعد هذا لا أمل لك إلا دفناً دفناً.^(١)

ودلت هذه البادرة على مدى زعزعة العقيدة الدينية في نفس معاوية، وأنها لم تكن إلا رداء رقيقاً يشف عما تحته من حب الجاهلية والتأثر بها إلى حد بعيد، وكانت النزعة الإلحادية ماثلة عند أغلب ملوك الأمويين. يقول الوليد في بعض خمرياته منكرًا للبعث والنشور:

أدر الكأس يميناً لا تدرها ليسار
اسق هذا ثم هذا صاحب العود النضار
من كميت عتقوها منذ دهر في حرار
ختموها بالأموية^(٢) وكافور وقار
فلقد أيقنت أني غير مبعوث لنار
سأروض الناس حتى يركبوا دين الحمار
وذروا من يطلب الجن نة يسعى لتبار^(٣)
وتأثر الكثيرون من ولاتهم بهذه النزعة الإلحادية، فكان الحجاج يخاطب الله

(١) المصدر نفسه: ج ٥، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) الأموية: من أنواع الطيب.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٥٢. والتبار: الهلاك.

أمام الجماهير الحاشدة قائلاً: أرسولك أفضل أم خليفتك؟ يعني أن عبد الملك أفضل من النبي العظيم ﷺ. (١)

وكان ينقم على الذين يزورون قبر رسول الله ﷺ ويقول: تبا لهم إنهم يطوفون بأعواد ورمة بالية، هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؛ ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله؟ (٢)

وهكذا كان جهاز الحكم الأموي في كثير من أفكاره ومواقفه قد تنكر للرسول الأعظم ﷺ وازدرى برسالته.

تغيير الواقع الإسلامي

وعمد معاوية إلى تغيير الواقع الإسلامي المشرق الذي تبنى الحركات النضالية والقضايا المصرية لجميع الشعوب، فأهاب بالمسلمين أن لا يقروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، وقد تبنى هذا الشعار المقدس الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري الذي أخذ الإسلام من منابعه الصافية، فرفع راية الكفاح في وجه الحكم الأموي، وطالب عثمان ومعاوية بإنصاف المظلومين والمضطهدين.

لقد أراد معاوية قبر هذا الوعي الديني وإماتة الشعور بالمسؤولية، فأوعز إلى لجان الوضع التي ابتدعها أن تفتعل الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ في إلزام الأمة بالخضوع للظلم والخنوع للجور والتسليم لما تقترفه سلاطينها من الجور والاستبداد، وهذه بعض الأحاديث:

١- روى البخاري بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «إنكم سترون بعدي أثره، وأموراً تنكرونها، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم...». (٣)

(١) النزاع والتخاصم: ص ٩٨، الملحق. رسائل الجاحظ: ج ٢، ص ١٦ - ١٧. العقد الفريد: ج ٣، ص ٣٥٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٥، ص ٢٤٢. الغدير: ج ١٠، ص ٥١. النصائح الكافية: ص ١٠٦.

(٣) صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٥٨٨، ح ٦٦٤٤. صحيح مسلم: ج ٤، ص ١٢٢، ح ١٠٨٤٥. صحيح الترمذي: ج ٤، ص ٤٨٢، ح ٢١٩٠.

- ٢- روى البخاري بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية». (١)
- ٣- روى البخاري بسنده عن مسلمة بن زيد الجعفي: أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال له: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم، ويمنعونا حقنا، فما ترى؟ فأعرض ﷺ عنه، فسأله ثانياً وثالثاً والرسول معرض، فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا فإنّ عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم». (٢)
- ٤- روى البخاري بسنده عن عجرقة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائناً من كان». (٣)
- إلى غير ذلك من الموضوعات التي خدرت الأمة، وشلت وعيها وحركتها الجهادية، وجعلتها قابضة ذليلة تحت وطأة استبداد الحكام وجورهم..

مع أهل البيت ﷺ

وسخر معاوية جميع أجهزته للحط من قيمة أهل البيت ﷺ الذين هم وديعة رسول الله ﷺ ونور العباد وأركان البلاد، وقد استخدم أخطر الوسائل في محاربتهم لإقصائهم عن ساحة الأحداث ومجريات الأمور، وكان من بين ما استخدمه في ذلك ما يلي:

١- تسخير الوعّاظ

وسخر معاوية الوعّاظ في جميع أنحاء البلاد ليحوّلوا القلوب عن أهل البيت (٤) ﷺ ويذيعوا الأضاليل في انتقاصهم تدعيماً للحكم الأموي.

- (١) صحيح البخاري: ج٦، ص٢٥٨٨، ح٦٦٤٦، ٦٦٤٥. صحيح مسلم: ج٤، ص١٢٤، ح١٨٤٨.
- (٢) السنن الكبرى: ج٨، ص١٥٨، كتاب قتال أهل البغي. صحيح مسلم: ج٤، ص١٢٣، ح١٨٤٦.
- (٣) صحيح مسلم: ج٤، ص١٢٧، ح١٨٥٢. مسند أحمد: ج٤، ص٢٦١، حديث عرفة.
- (٤) حياة الإمام الحسن ﷺ: ج٢، ص١٦١.

٢- استخدام معاهد التعليم

واستخدم معاوية معاهد التعليم وأجهزة الكتابيب لتغذية النشء ببغض أهل البيت عليهم السلام وخلق جيل معادٍ لهم^(١)، وقد قامت تلك الأجهزة بدور خطير في بث روح الكراهية في نفوس النشء لعترته النبي صلى الله عليه وآله.

٣- افتعال الأخبار

أقام معاوية شبكة لوضع الأخبار تعد من أخطر الشبكات التخريبية في الإسلام، فعهد إليها وضع الأحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وآله للحط من قيمة أهل البيت عليهم السلام أما الأعضاء البارزون في هذه اللجنة فهم:

١- أبو هريرة الدوسي.

٢- سمرة بن جندب.

٣- عمرو بن العاص.

٤- المغيرة بن شعبة.

وقد افتعلوا آلاف الأحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وآله، وكانوا عدة طوائف مختلفة

حسب التخطيط المرسوم للدولة، وهي:

الطائفة الأولى: وضع الأخبار في فضل الصحابة لجعلهم قبال أهل البيت عليهم السلام

وقد عد الإمام الباقر عليه السلام أكثر من مائة حديث منها:

أ- أن عمر محدث (بصيغة المفعول) أي تحدّثه الملائكة.

ب- أن السكينة تنطق على لسان عمر.

ج- أن عمر يلقنه الملك.

د- أن الملائكة لتستحي من عثمان.^(٢)

إلى كثير من أمثال هذه الأخبار التي وضعت في فضل الصحابة. يقول

المحدث ابن عرفة المعروف بنفطويه: إن أكثر الأحاديث الموضوعية في فضائل

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٦١-١٦٢.

(٢) حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ١٦٢.

الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغبون به أنوف بني هاشم.^(١)

كما وضعوا في فضل الصحابة الأحاديث المماثلة للأحاديث النبوية في فضل العترة الطاهرة، كوضعهم حديث: «أن سيدي كهول أهل الجنة أبو بكر وعمر» وقد عارضوا بذلك الحديث المتواتر: «الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة».^(٢)

الطائفة الثانية: وضع الأخبار في ذم العترة الطاهرة والخط من شأنها، فقد أعطى معاوية سمرة بن جندب أربعمئة ألف درهماً على أن يخطب في أهل الشام ويروي لهم أن الآية الكريمة نزلت في علي عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۚ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٣٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٣٥)». ^(٣) فروى لهم سمرة ذلك، وأخذ العوض الضخم من بيت مال المسلمين.^(٤)

ومما روي أن النبي ﷺ قال في آل أبي طالب عليهم السلام: «إن آل أبي طالب ليسوا أولياء لي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين».^(٥)

وروي الأعمش أنه لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة (سنة ٤١) جاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه ثم ضرب صلعته مراراً. وقال: يا أهل العراق أتزعمون أنني أكذب^(٦) على رسول الله ﷺ وأحرق نفسي بالنار؟ لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن لكل نبي حرمًا، وإن حرمي بالمدينة ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٦-٤٧.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٣، ص ١٦٢. الاستيعاب: ج ١، ص ٣٩١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٤-٢٠٥.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٤.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٤، وج ١١، ص ٤٢.

(٦) علق على ذلك الشيخ محمود أبو رية في كتابه أبو هريرة ص ٢٣٦ من الحاشية بقوله: «يدل هذا على أن كذب أبي هريرة على النبي ﷺ كان قد اشتهر حتى عم الآفاق وأصبح الناس يتحدثون به في كل مكان». وقد مر نص الخبر برواية أخرى.

لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها!! فلما بلغ معاوية قوله أجازته وأكرمه وولاه إمارة المدينة.^(١)

إلى الكثير من أمثال هذه الموضوعات التي تقدح في العترة الطاهرة التي هي مصدر الخير والتدين في العالم الإسلامي.

الطائفة الثالثة: افتعال الأخبار في فضل معاوية لمحو العار الذي لحقه ولحق أباه وأسرته في مناهضتهم للإسلام، وإخفاء ما أثر عن النبي ﷺ في ذمهم، وهذه بعض الأخبار المفتعلة:

١- أنه قال ﷺ: «معاوية بن أبي سفيان أحلم أمتي وأجودها».^(٢)

٢- أنه قال ﷺ: «صاحب سري معاوية بن أبي سفيان».^(٣)

٣- أنه قال ﷺ: «اللهم علمه - يعني معاوية - الكتاب، وقه العذاب، وأدخله

الجنة».^(٤)

٤- أنه قال ﷺ: «إذا رأيت معاوية يخطب على منبري فاقبلوه»^(٥) فإنه أمين هذه الأمة^(٦) إلى غير ذلك من الأحاديث الموضوعة التي تعكس المخطط الفكري الواسع ضد الإسلام عند معاوية، وأنه حاول جاهداً محو هذا الدين والقضاء عليه.

حديث مفتعل على الحسين عليه السلام

من الأحاديث الموضوعة على الإمام الحسين عليه السلام ما روي أنه وفد على معاوية

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٧.

(٢) تطهير الجنان: ص ١٢، المطبوع في آخر كتاب الصواعق المحرقة.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٥٨.

(٤) تطهير الجنان: ص ١٦، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٣١، أحداث سنة ٦٠ للهجرة. سير أعلام

النبلاء: ج ٤، ص ٢٨٨، ترجمة معاوية بن أبي سفيان. شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٢.

(٥) وضع هذا الحديث لمعارضة الحديث الصحيح المروي عن رسول الله ﷺ إذا رأيت معاوية يخطب على منبري فاضربوا عنقه.

(٦) تاريخ بغداد: ج ١، ص ٢٥٩، وج ١٢، ص ١٨١. سير أعلام النبلاء: ج ٤، ص ٣٠٦، ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

زائراً في يوم الجمعة وكان قائماً على المنبر خطيباً، فقال له رجل من القوم ائذن للحسين يصعد المنبر، فقال له معاوية: ويلك دعني أفتخر، ثم حمد الله وأثنى عليه، ووجه خطابه للحسين قائلاً له:

- سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا ابن بطحاء مكة؟

- إي والذي بعث جدي بشيراً.

- سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا خال المؤمنين؟

- إي والذي بعث جدي نبياً.

- سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا كاتب الوحي؟

- إي والذي بعث جدي نذيراً.

ثم نزل معاوية عن المنبر، فصعد الحسين عليه السلام فحمد الله بمحامد لم يحمده الأولون والآخرون بمثلها، ثم قال: «حدثني أبي عن جدي عن جبرائيل عن الله تعالى، أن تحت قائمة كرسي العرش ورقة آس خضراء مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، يا شيعة آل محمد، لا يأتي أحدكم يوم القيامة إلا أدخله الله الجنة». فقال له معاوية: سألتك يا أبا عبد الله من شيعة آل محمد؟ فقال عليه السلام: «الذين لا يشتمون الشيخين أبا بكر وعمر، ولا يشتمون عثمان ولا يشتمونك يا معاوية».

وعلق الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث بقوله: هذا حديث منكر ولا أرى

سنده متصلاً إلى الحسين عليه السلام.^(١)

وقد امتحن المسلمون امتحاناً عسيراً بهذه الموضوعات التي دونت في كتب السنة، وظن الكثير من المسلمين أنها حق، فأضفوا على معاوية ثوب القداسة، وألحقوه بالرعييل الأول من الصحابة المتحرجين في دينهم، وهم من دون شك لو علموا واقعها لتبرؤوا منها كما يقول المدائني.^(٢)

(١) تاريخ دمشق: ج ١٤، ص ١١٤، حديث الحسين بن علي عليه السلام.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤ - ٤٦، بتصرف.

ولم تقتصر الموضوعات على تقديس معاوية والخط من شأن أهل البيت عليهم السلام وإنما تدخلت في شؤون الشريعة فألصقت بها المتناقضات والمستحيلات، مما شوهت الدين، وأفسدت عقائد المسلمين.

نقض العهود

وتماذى معاوية في جاهليته أكثر لما نقض العهود والمواثيق التي أعطاها لسيد شباب أهل الجنة عليه السلام يوم الصلح. وذلك أنها دعا الحسن عليه السلام إلى الصلح، فلم يجد الحسن بداً من إجابته، وكان التسليم أقل الشرين وأهون المحذورين المحظورين^(١)، ولا سيما بعد أن أعطاه معاوية في صلحه ما شاء من شرط يعاهد الله عليه، وقد ابتدأه في ذلك وأعلنه في كلا المصرين الشام والعراق.

وقد روى كثير من المؤرخين - فيهم ابن جرير^(٢) وابن الأثير^(٣): أن معاوية أرسل إلى الحسن عليه السلام صحيفة بيضاء مختوماً على أسفلها بخاتمه، وكتب إليه: أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك.

وأرسل كتابه هذا والصحيفة إلى الإمام الحسن عليه السلام مع عبد الله بن عامر، فلم يشأ الإمام الحسن عليه السلام أن تكون الشروط التي يشترطها على معاوية مكتوبة بخطه عليه السلام، فأملاها على عبد الله بن عامر وعبد الله بن عامر كتبها كما أملاها عليه. فكتب معاوية جميع ذلك بخطه، وختمه بخاتمه، وبذل عليه العهود المؤكدة، والأيمان المغلظة، وأشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام، ووجه به إلى عبد الله بن عامر، فأوصله إلى الحسن عليه السلام.^(٤)

وختم هذه المعاهدة بقوله: وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء بما أعطى الله من نفسه.

(١) صلح الحسن عليه السلام، الشيخ راضي آل ياسين: ص ٣٠١-٣٠٢.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ١٦٣-١٦٥، ذكر أحداث سنة ٤١ للهجرة.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٠٨-٤٠٩، ذكر أحداث سنة ٤١ للهجرة.

(٤) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٦٣-١٦٤، بتصرف.

لكن معاوية كان بالاستخفاف بما عاهد الله عليه أولى منه بالوفاء به؛ لذلك جعل العهود والمواثيق تحت قدميه، وسب علياً والحسن عليهما السلام بمحضر من سيدي شباب أهل الجنة في مسجد الكوفة، وهو إذ ذاك غاص بالمجتمعين احتفالاً بالصلح.^(١)

قتله للصالحين من عباد الله

وحسبه ظلماً وعدواناً أن قتل الحسن الزكي سيد أهل البيت في عصره وإمامهم بعد أبيه (صلوات الله وسلامه عليهما) بسم دسه إليه، فسقته إياه جعدة بنت الأشعث، والنصوص في ذلك متواترة عن أئمة العترة الطاهرة عليهم السلام وقد اعترفت به جماعة من أهل الأخبار، قال أبو الحسن المدائني: كانت وفاة الحسن سنة ٤٩، وكان مريضاً ٤٠ يوماً وكان سنه ٤٧ سنة، دس إليه معاوية سماً على يد زوجته جعدة بنت الأشعث (قال) وقال لها: إن قتلتيه بالسّم فلك مائة ألف وأزواجك يزيد، فلما مات الحسن عليه السلام وفي لها بالمال ولم يزوجها من يزيد، وقال: أخاف أن تصنعني بابني كما صنعت بابن رسول الله صلى الله عليه وآله.^(٢)

ونقل المدائني عن الحصين بن المنذر الرقاشي، أنه كان يقول: والله ما وفي معاوية للحسن بشيء مما أعطاه، قتل حجراً وأصحابه، وباع لابنه يزيد، وسم الحسن.^(٣)

وقال أبو الفرج الأصفهاني في كتابه مقاتل الطالبين: وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص فدس إليهما سماً فماتا منه.^(٤)

وروى ابن عبد البر في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من استيعابه، عن قتادة وأبي

(١) النص والاجتهاد: ص ٥١٥-٥١٧. المورد ٩٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ١١ و ٤٩. مقاتل الطالبين: ص ٨٠.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ١٧.

(٤) مقاتل الطالبين: ص ٨٠. شرح نهج البلاغة: ج ٢٦، ص ٢٩.

بكر بن حفص: أن بنت الأشعث بن قيس الكندي، سقت الحسن بن علي عليه السلام السم. (قال): وقالت طائفة: كان ذلك منها بتدسيس معاوية إليها وما بذل لها في ذلك. ^(١)

وسياتيك المزيد مما يندى له الجبين. قال السيد شرف الدين (قدس سره): ولو أردنا أن نتصدى للأحكام التي بدلها، والحدود التي عطلها، والبواقي التي ارتكبتها، والفواقر التي احتقبتها، والأحداث التي أحدثها في زمانه، والغاشمين الذين أشركهم في سلطانه، كابن شعبة وابن العاص، وابن أرطاة، وابن جندب، ومروان، وابن السمط، وزباد، وابن مرجانة، والوليد وأمثالهم، ممن فعلوا الأفاعيل، وقهروا الأمة بالأباطيل، وساموا عباد الله سوء العذاب، يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، لأفئنا المحابر، واستغرقتنا الصحف والدفاتر، وهيهات أن نبلغ غايتنا المقصودة أو نظفر (فيما بذلناه من وسع) بضالتنا المنشودة، والحمد لله رب العالمين الذي جعلنا من المستبصرين بشأن آل محمد عليهم السلام، وضلال أعدائهم. ^(٢)

سب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

وتمادى معاوية في عدائه للإمام أمير المؤمنين عليه السلام فأعلن سبه ولعنه في نواديه العامة والخاصة، وأوعز إلى جميع عماله وولاته أن يذيعوا سبه بين الناس، وسرى سب الإمام في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وقد خطب معاوية في أهل الشام فقال لهم: أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: إنك ستلي الخلافة من بعدي فاختر الأرض المقدسة - يعني الشام - فإن فيها الأبدال، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب.

(١) الاستيعاب: ج ١، ص ٣٨٩، حرف الحاء. شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ٢٩.

(٢) النص والاجتهاد: ص ٤٧٤. وانظر: شرح نهج البلاغة: ١١، ص ٤٣ - ٤٦. النصائح الكافية:

وعج أهل الشام بسب الإمام^(١)، وخطب في أولئك فقال لهم: ما ظنكم برجل - يعني علياً - لا يصلح لأخيه - يعني عقيلاً - يا أهل الشام، إنَّ أبا لهب المذموم في القرآن هو عم علي بن أبي طالب.^(٢)

ويقول المؤرخون: إنه كان إذا خطب ختم خطابه بقوله: اللهم إنَّ أبا تراب الحد في دينك، وصد عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً. وقد تجاوز الحد كثيراً، وتمادى في استهائته بالمقدسات بشكل فظيع من أجل التنقيص من أمير المؤمنين عليه السلام حتى قال معاوية لكريم الخثعمي: ما تقول في علي؟ قال: أقول فيه قولك. قال معاوية: أتتبرأ من دين علي الذي يدين الله به؟ فسكت الخثعمي.^(٣)

وكان يشاد بهذه الكلمات على المنابر^(٤)، ولما ولي معاوية المغيرة بن شعبة إمارة الكوفة كان أهم ما عهد إليه أن لا يتسامح في شتم الإمام عليه السلام والترحم على عثمان، والعيب لأصحاب علي وإقصائهم، وأقام المغيرة والياً على الكوفة سبع سنين وهو لا يدع ذم علي والوقوع فيه.^(٥)

وقد أراد معاوية بذلك أن يصرف القلوب عن الإمام عليه السلام وأن يحول بين الناس وبين مبادئه التي أصبحت تطارده في قصوره.

يقول الدكتور محمود صبحي: لقد أصبح علي - بعد رحيله - لا يزارهم في سلطانهم، ويخيفهم بشخصه، ولا يعني ذلك - أي سب الإمام عليه السلام - إلا أن مبادئه في الحكم وآراءه في السياسة كانت تنغص عليهم في موته كما كانت في حياته عليه السلام.^(٦)

لقد كان الإمام رائد العدالة الإنسانية والمثل الأعلى لهذا الدين. يقول الجاحظ:

(١) النصائح الكافية: ص ١٠٠ - ١٠٧. حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ١٦٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٧٢. حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ١٦٠.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٨٥ - ٤٨٦، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة.

(٤) النصائح الكافية: ج ١٠٠ - ١٠٧.

(٥) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤١٣ - ٤١٤، ذكر أحداث سنة ٤١ للهجرة.

(٦) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٦١. (بتصرف)

لا يعلم رجل في الأرض متى ذكر السبق في الإسلام والتقدم فيه، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الإسلام، ومتى ذكر الفقه في الدين، ومتى ذكر الزهد في الأمور التي تناصر الناس عليها، كان مذكوراً في هذه الخلال كلها إلا في علي عليه السلام.^(١)

وعن الإمام الحسن عليه السلام: والله لقد فارقكم بالأمس رجل كان سهماً صائباً من مرامي الله عز وجل، رباني هذه الأمة بعد نبينا عليه السلام وصاحب شرفها وفضلها، وذا القرابة القريبة من رسول الله عليه السلام غير مسؤول لأمر الله، ولا سروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه، فأورده رياضاً مونقة وحدائق مغدقة، ذلك علي ابن أبي طالب عليه السلام.^(٢)

لقد عادت اللعنات التي كان يصبها معاوية وولاته على الإمام عليه السلام بإظهار فضائله، فقد برز الإمام للناس أروع صفحة في تأريخ الإنسانية كلها، وظهر للمجتمع أنه المنادي الأول بحقوق الإنسان، والمؤسس الأول للعدالة الاجتماعية في الأرض، لقد انطوت السنون والأحقاب، واندكت معالم تلك الدول التي ناوأته عليه السلام، سواء أكانت من بني أمية أم من بني العباس، ولم يبق لها أثر، وبقي الإمام عليه السلام وحده قد احتل قمة المجد، وموضع إعجاب وتقديس ومهوى قلوب العالمين حتى أن الخليل بن أحمد الفراهيدي سئل يوماً ماذا تقول في علي عليه السلام؟ قال: ماذا أقول في رجل أخفى أولياؤه مناقبه خوفاً، وأخفاها أعداؤه حقداً، ومع ذلك ظهر منها ما يملأ الخافقين.

ستر فضائل أهل البيت عليهم السلام

وعلى أي حال فقد سعى معاوية حثيثاً لحجب فضائل آل البيت عليهم السلام وستر مآثرهم عن المسلمين، وعدم إذاعة ما أثار عن النبي عليه السلام في فضلهم. يقول المؤرخون: إنه بعد عام الصلح حج بيت الله الحرام فاجتاز على جماعة فقاموا إليه تكريماً، ولم يقم إليه ابن عباس، فبادره معاوية قائلاً: يا بن عباس، ما منعك من

(١) المصدر نفسه.

(٢) المناقب، لابن المغازلي: ص ١٣، ح ١٦.

القيام كما قام أصحابك إلا لموجدة عليّ بقتالي إياكم يوم صفين. يا بن عباس، إنّ ابن عمي عثمان قتل مظلوماً، فرد عليه ابن عباس ببليغ منطقته قائلاً: فعمر بن الخطاب قد قتل مظلوماً، فسلم الأمر إلى ولده، وهذا ابنه وأشار إلى عبد الله بن عمر. أجابه معاوية بمنطقه الرخيص: أنّ عمر قتله مشرك. فانبرى ابن عباس قائلاً: فمن قتل عثمان؟ فقال: قتله المسلمون. وأمسك ابن عباس بزمامه فقال له: فذلك أدحض لحجتك إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلا بحق. ولم يجد معاوية مجالاً للرد عليه، فسلك حديثاً آخر أهم عنده من دم عثمان، فقال له: إنا كتبنا إلى الآفاق ننهي عن ذكر مناقب علي وأهل بيته، فكف لسانك يا بن عباس، فانبرى ابن عباس يفيض من منطقته وبليغ حجته يسدد سهاماً لمعاوية قائلاً:

- فتنهانا عن قراءة القرآن.

قال: لا. قال: فتنهانا عن تأويله؟ قال: نعم. قال: فنقرأه ولا نسأل عما عنى الله به؟ قال: نعم. قال: فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟ قال: العمل به. قال: فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟ قال: سل عن ذلك ممن يتأوله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك. قال: إنما نزل القرآن على أهل بيتي، فاسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط؟! قال: فاقرأوا القرآن، ولا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم، ومما قاله رسول الله فيكم، وارووا ما سوى ذلك.

وسخر منه ابن عباس وتلا قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

وصاح به معاوية: اكفني نفسك، وكف عني لسانك، وإن كنت فاعلاً فليكن سراً، ولا تسمعه أحداً علانية. (١)

ودلت هذه المحاوراة على عمق الوسائل التي اتخذها معاوية في مناهضته لأهل البيت عليهم السلام وإخفاء آثارهم.

ولما ظهر عمرو بن العاص بمصر على محمد بن أبي بكر وقتله، استولى على كتبه

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٢، ص ٣٤٣.

ومذكراته، وكان من بينها عهد الإمام له، وهو من أروع الوثائق السياسية، فرعه ابن العاص إلى معاوية، فلما رآه قال لخاصته: لا نقول هذا من كتب علي بن أبي طالب ولكن نقول هذا من كتب أبي بكر التي كانت عنده.^(١) وهذه الحادثة تكشف الستار عن حقد كبير يكنه معاوية ضد الإمام عليه السلام كما يكشف الستار عن الفضائل المنسوبة لبعض الصحابة.

التحرّج من ذكر الإمام عليه السلام

وأسرف الحكم الأموي إلى حد بعيد في محاربة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد عهد بقتل كل مولود يسمى علياً، فبلغ ذلك علي بن رباح فخاف، وقال: لا أجعل في حل من سماني علياً فإن اسمي علي (بضم العين).^(٢) ويقول المؤرخون: إن العلماء والمحدثين تحرّجوا من ذكر الإمام علي عليه السلام والرواية عنه خوفاً من بني أمية، فكانوا إذا أرادوا أن يرووا عنه يقولون: «روى أبو زينب».^(٣)

وروى معمر عن الزهري عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل منع بني إسرائيل قطر السماء لسوء رأيهم وبغضهم أنبياءهم، واختلافهم في دينهم، وإنه أخذ على هذه الأمة بالسنين، ومنعهم قطر الماء ببغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام».

قال معمر: حدثني الزهري في مرضة مرضها، ولم أسمعها يحدث عن عكرمة قبلها ولا بعدها، فلما أبل من مرضه ندم على حديثه لي وقال: يا يمان، اكنتم هذا الحديث، واطوه دوني، فإن هؤلاء - يعني بني أمية - لا يعذرون أحداً في تقريض علي وذكره.^(٤)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ٧٢.

(٢) تهذيب التهذيب: ج ٧، ص ٣١٩، ترجمة علي بن رباح اللخمي.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٦٤. المناقب: ج ٢، ص ٣٥١. ما ظهر بعد وفاته.

(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٦٥.

قال معمر: فما بالك عبت علياً مع القوم، وقد سمعت الذي سمعت؟
 قال الزهري: حسبك يا هذا إنهم أشركونا مهامهم فاتبعناهم في أهوائهم.^(١)
 وقد امتحن المسلمون امتحاناً عسيراً في مودتهم للإمام عليه السلام وتخرجوا أشدَّ
 الحرج، حتى قال قائلهم:
 حب علي كله ضرب ير جف من تذكاره القلب^(٢)

مع الشيعة

واضطهدت الشيعة أيام معاوية اضطهاداً رسمياً في جميع أنحاء البلاد، وقوبلوا
 بمزيد من العنف والشدة، فقد انتقم منهم معاوية كأشد ما يكون الانتقام قسوة
 وعذاباً، وأقام دعائم حكومته على جنث الضحايا منهم. وقد حكى الإمام
 الباقر عليه السلام صوراً مربعة من بطش الأمويين بشيعة آل البيت عليهم السلام. يقول:
 «وقتل شيعةنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكان من يذكر
 بحبنا والانقطاع إلينا سجن، أو نهب ماله، أو هدمت داره».^(٣)

وتحدث بعض رجال الشيعة إلى محمد بن الحنفية عما عانوه من المحن والخطوب
 بقوله: «فما زال بنا الشين في حبكم حتى ضربت عليه الأعناق، وأبطلت الشهادات،
 وشردنا في البلاد، وأوذينا حتى لقد هممت أن أذهب في الأرض فقراً، فأعبد الله
 حتى ألقاه، لولا أن يخفى علي أمر آل محمد عليهم السلام وحتى هممت أن أخرج مع أقوام^(٤)
 شهادتنا وشهادتهم واحدة على أمرائنا فيخرجون فيقاتلون ونقيم».^(٥)

لقد كان معاوية لا يتهيب من الإقدام على اقرار أية جريمة من أجل أن يضمن
 ملكه وسلطانه، وقد كانت الشيعة تشكل خطراً على حكومته، فاستعمل معهم

(١) جواهر المطالب في مناقب علي عليه السلام: ج ١، ص ٢٤٣.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٦٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٣. بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٦٩.

(٤) الأقوام: هم الخوارج.

(٥) الطبقات الكبرى: ج ٥، ص ٩٥. تاريخ دمشق: ج ٥٤، ص ٣٤٥ ترجمة محمد بن علي بن أبي طالب.

أعنف الوسائل وأشدّها قسوة من أجل القضاء عليهم^(١)، ومن بين الإجراءات القاسية التي استعملها ضدهم ما يلي:

القتل الجماعي

وأسرف معاوية إلى حد كبير في سفك دماء الشيعة، فقد عهد إلى الجلادين من قادة جيشه بتتبع الشيعة وقتلهم حيثما كانوا، وقد قتل بسر بن أرطأة بعد التحكيم ثلاثين ألفاً عدا من أحرقتهم بالنار^(٢)، وقتل سمرة بن جندب ثمانية آلاف من أهل البصرة^(٣)، وأما زياد بن أبيه فقد ارتكب أفظع المجازر، فقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون، وأنزل بالشيعة من صنوف العذاب ما لا يوصف لمرارته وقسوته.

إبادة القوى الواعية

وعمد معاوية إلى إبادة الزعماء والعلماء من الشيعة، وقد ساق زمراً منهم إلى ساحات الإعدام، وأسكن الثكل والحداد في بيوتهم، ومنهم:

١ - حجر بن عدي: وأصحابه الذين مرت قصتهم وقد فرغ الإمام الحسين عليه السلام حينما وافته الأنباء بمقتل حجر، فرغ مذكرة شديدة اللهجة إلى معاوية، ومما جاء فيها:

«ألست القاتل حجراً أخا كندة، والمصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم.. قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة أن لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، ولا بإحنة تجدها في نفسك عليهم»^(٤) واحتوت هذه المذكرة على ما يلي:

أ - الإنكار الشديد على معاوية لقتله حجراً وأصحابه من دون أن يقترفوا

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٣ - ٤٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٧.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٣٦ - ٢٣٧، ذكر أحداث سنة ٥٠ للهجرة.

(٤) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٢، ص ٣٦٥. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٨١.

جرماً، أو يحدثوا فساداً في الأرض.

ب - أنها أشادت بالصفات البطولية في هؤلاء الشهداء، من إنكار الظلم ومقاومة الجور واستعظام البدع والمنكرات التي أحدثتها حكومة معاوية، وقد هبوا إلى ميادين الجهاد لإقامة الحق ومناهضة المنكر.

ج - أنها أثبتت أن معاوية قد أعطى حجراً وأصحابه عهداً خاصاً في وثيقة وقعها قبل إبرام الصلح، أن لا يعرض لهم بأي إحنة كانت بينه وبينهم، ولا يصيبهم بأي مكروه، ولكنه قد خاس بذلك، فلم يف به كما لم يف للإمام الحسن عليه السلام بالشروط التي أعطاها له، وإنما جعلها تحت قدميه، كما أعلن ذلك في خطابه الذي ألقاه في النخيلة، وقد كان قتل حجر من الأحداث الجسام في الإسلام.

٢ - رشيد الهجري:

في فترات المحنة الكبرى التي منيت بها الشيعة في عهد ابن سمية تعرض رشيد الهجري، لأنواع المحن والبلوى، فقد بعث زياد شرطته إليه، فلما مثل عنده صاح به: ما قال لك خليلك - يعني علياً - أنا فاعلون بك؟ فأجابه بصدق وإيمان: تقطعون يدي ورجلي وتصلبوني. وقال الخبيث مستهزئاً ساخراً: أما والله لأكذبن حديثه، خلوا سبيله. وخلت الجلاوزة سراحه، وندم الطاغية فأمر بإحضاره، فصاح به: لا نجد شيئاً أصلح مما قال صاحبك: إنك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت، اقطعوا يديه ورجليه.

وبادر الجلادون فقطعوا يديه ورجليه، ويقول المؤرخون أنه لم يأبه بما نزل به من أذى فأخذ يذكر مثالب بني أمية، ويدعو إلى إيقاظ الوعي ويجرض الناس عليهم، مما غاظ ذلك زياداً فأمر بقطع لسانه^(١)، لإسكات صوت الحق.

٣ - عمرو بن الحمق الخزاعي:

ومن شهداء العقيدة الصحابي الجليل عمرو بن الحمق الخزاعي الذي دعا له

(١) سفينة البحار: ج ٣، ص ٣٥٦، حرف الراء. حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ٣٦٩ - ٣٧٠. وقال الحافظ الذهبي: قتل زياد رشيداً الهجري لتشييعه فقطع لسانه وصلبه. تذكرة الخواص. شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٩٤. النصائح الكافية: ص ١٠٣.

النبي ﷺ أن يمتعه الله بشبابه، واستجاب الله دعاء نبيه، فقد أخذ عمرو بعنق الثمانين عاماً ولم تر في كريمته شعرة بيضاء، وتأثر عمرو بهدي أهل البيت ﷺ وأخذ من علومهم فكان من أعلام شيعتهم.

وفي أعقاب الفتنة الكبرى التي منيت بها الكوفة في عهد الطاغية زياد بن سمية شعر عمرو بتتبع السلطة له، ففر مع زميله رفاعه بن شداد إلى الموصل، وقبل أن ينتهيا إليه كمنا في جبل ليستجما فيه، وارتابت الشرطة فبادرت إلى إلقاء القبض على عمرو، أما رفاعه ففر ولم تستطع أن تلقي عليه القبض، وجيء بعمرو مخفوراً إلى حاكم الموصل عبد الرحمن الثقفي، فرفع أمره إلى معاوية، فأمر بطعنه تسع طعنات بمشاقص^(١)؛ بحجة أنه طعن عثمان بن عفان، وبادرت الجلاوزة إلى طعنه فمات في الطعنة الأولى، واحتز رأسه الشريف وأرسل إلى معاوية بدمشق فأمر أن يطاف به في الشام، ويقول المؤرخون أنه أول رأس طيف به في الإسلام.^(٢)

ثم أمر به معاوية أن يحمل إلى زوجته السيدة أمّنة بنت شريد، وكانت في سجنه، فلم تشعر إلا ورأس زوجها قد وضع في حجرها، فذعرت وكادت أن تموت، وحملت من السجن إلى معاوية، وجرت بينها وبينه محادثات، دلت على ضعة معاوية واستهائته بالقيم.

والتاع الإمام الحسين ﷺ أشد ما تكون اللوعة حينما علم بمقتل عمرو، فرفع مذكرة إلى معاوية عدد فيها أحداثه وما تعانیه الأمة في عهده من الاضطهاد والجور، وجاء فيما يخص عمراً:

«أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله ﷺ العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه، واصفر لونه بعدما أمنتته، وأعطيته من عهد الله وموآثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثم قتلتته جرأة على ربك

(١) المشاقص: جمع مفردة مشقص، وهو النصل العريض أو السهم فيه نصل عريض.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢، ص ٥٣٢-٥٣٣، ترجمة عمرو بن الحمق الخزاعي. الاستيعاب: ج ٢، ص ١١٧٣-١١٧٤، ترجمة عمرو بن الحمق الخزاعي. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٦٢، ذكر أحداث سنة ٥٠ للهجرة.

واستخفافاً بذلك العهد.^(١)

لقد خاس معاوية بما أعطاه لهذا الصحابي الجليل (بعد الصلح) من العهد والمواثيق بأن لا يتعرض له بسوء ولا مكروه.

٤- أوفى بن حصن

وكان أوفى بن حصن من خيار الشيعة (في الكوفة) وأحد أعلامهم الناهيين، وهو من أشد الناقمين على معاوية، فكان يذيع مساوئه وإحداثه، ولما علم به ابن سمية أوعز إلى الشرطة بإلقاء القبض عليه، ولما علم أوفى بذلك اختفى، وفي ذات يوم استعرض زياد الناس فاجتاز عليه أوفى، فشك في أمره، فسأل عنه فأخبر باسمه، فأمر بإحضاره، فلما مثل عنده سأله عن سياسته فعابها وأنكرها، فأمر زياد بقتله، فهوى الجلادون عليه بسيوفهم حتى تركوه جثة هامدة.^(٢)

٥- الحضرمي مع جماعته

وكان عبد الله الحضرمي من أولياء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومن خلص شيعته، كما كان من شرطة الخميس، وقد قال له الإمام عليه السلام يوم الجمل: «أبشر يا عبد الله فإنك وأباك من شرطة الخميس، لقد أخبرني رسول الله باسمك واسم أبيك في شرطة الخميس» ولما قتل الإمام عليه السلام جزع عليه الحضرمي وبنى له صومعة يتعبد فيها، وانضم إليه جماعة من خيار الشيعة، فأمر ابن سمية بإحضارهم، ولما مثلوا عنده أمر بقتلهم، فقتلوا صبراً.^(٣)

لقد كانت فاجعة عبد الله كفاجعة حجر بن عدي، فكلاهما قتل صبراً، وكلاهما أخذ بغير ذنب سوى الولاء لعتره رسول الله ﷺ.

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٨١. حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٢، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٦٢، ذكر أحداث سنة ٥٠ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٣٥ - ٢٣٦، ذكر أحداث سنة ٥٠ للهجرة.

(٣) حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ٣٧٧. بحار الأنوار: ج ٢٥، ص ١٧٦، الهامش.

إنكار الإمام الحسين عليه السلام

وفزع الإمام الحسين كأشد ما يكون الفزع ألماً ومحنة على مقتل الحضرمي وجماعته الأخيار، فأنكر على معاوية في مذكرته التي بعثها له، وقد جاء فيها: «أولست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه إليك زياد أنه على دين علي عليه السلام، فكتبت إليه: أن اقتل كل من كان على دين علي، قتلهم ومثل فيهم بأمرك، ودين علي عليه السلام هو دين ابن عمه عليه السلام، الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف»^(١) ودلت هذه المذكرة - بوضوح - على أن معاوية قد عهد إلى زياد بقتل كل من كان على دين علي عليه السلام الذي هو دين رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما دلت على أن زياداً قد مثل بهؤلاء البررة بعد قتلهم؛ تشفياً منهم لولا أنهم لعتره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٦ - جويرية العبدية

ومن عيون شيعة الإمام عليه السلام جويرية بن مسهر العبدية، وفي فترات المحنة الكبرى التي امتحنت بها الشيعة أيام ابن سمية بعث خلفه فأمر بقطع يده ورجله وصلبه على جذع كافر.^(٢)

٧ - صيفي بن فسيل

وصيفي بن فسيل الذي ضرب أروع الأمثلة للإيمان، فقد سعي به إلى الطاغية زياد، فلما جيء به إليه صاح به: قال: يا عدو الله ما تقول في أبي تراب؟ قال: ما أعرف أبا تراب.^(٣) ما أعرفك به؟ قال: ما أعرفه. قال: أما تعرف علي بن أبي طالب. قال: بلى. قال: فذاك أبو تراب. قال: كلا ذلك أبو الحسن والحسين.

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٨١. حياة الإمام الحسن: ج ٢، ص ٣٧٦.

(٢) شرح الأخبار: ج ٢، ص ٤٥٠، ح ٧٠٨. الإرشاد: ج ١، ص ٣٢٣، أخباره عن جويرية بن مصهر. شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٩١. والجذع الكافر: الجذع القصير الغليظ الذي جرد من سعفه. انظر لسان العرب: ج ٥، ص ١٤٩ (كفر).

(٣) كان الأمويون يريدون بهذه الكنية الانتقاص من مكانة الإمام عليه السلام وهي صفة مدح أشار بها النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الروايات.

وانبرى مدير شرطة زياد منكرًا عليه: يقول لك الأمير: هو أبو تراب، وتقول أنت لا. فصاح به المؤمن الشجاع مستهزئاً منه ومن أميره: وإن كذب الأمير تريد أن أكذب، وأشهد على باطل كما شهد؟

وتحطم كبرياء الطاغية، وضاعت به الأرض، فقال له: وهذا أيضاً مع ذنبك. وصاح بشرطته عليّ بالعصا، فأتوه بها، فقال له: ما قولك؟ وانبرى البطل بكل بسالة وإقدام غير حافل به قائلاً: أحسن قول أنا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين، وأوعز السفاك إلى جلادين بضرب عاتقه حتى يلتصق بالأرض، فسعوا إليه بهراوتهم فضربوه ضرباً مبرحاً حتى وصل عاتقه إلى الأرض، ثم أمرهم بالكف عنه، وقال له: إيه ما قولك في علي؟ فقال له: والله لو شرحتني بالمواسي والمدى، ما قلت إلا ما سمعت مني، وفقد السفاك إهابه فصاح به: لتلعنه أو لأضربن عنقك، وهتف صيفي يقول: إذا تضربها والله قبل ذلك، فإن أبيت إلا أن تضربها رضيت بالله وشفيت أنت، وأمر به أن يوقر في الحديد، ويلقى في ظلمات السجون^(١)، ثم بعثه مع حجر بن عدي فاستشهد معه.^(٢)

٨- عبد الرحمن العنزي

وكان عبد الرحمن العنزي من خيار الشيعة، وقد وقع في قبضة جلاوزة زياد، فطلب منه مواجهة معاوية لعله يعفو عنه، فاستجابوا له، وأرسلوه مخفوراً إلى دمشق، فلما مثل عنده قال له: إيه أخا ربعة ما تقول في علي؟ دعني ولا تسألني فيه خير لك. قال: والله لا أدعك.

فانبرى البطل الفذ يدلي بفضائل الإمام عليه السلام ويشيد بمقامه قائلاً: أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيراً، والأمين بالحق، والقائم بالقسط، والعافين عن الناس، والتاع معاوية، فعرج نحو عثمان لعله أن ينال منه ما يستحل إراقة دمه، فقال له: ما قولك في عثمان؟ فأجابه عن انطباعاته عن عثمان، فغاض ذلك معاوية،

(١) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٦٦-٢٦٧، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٧٧-٤٧٨، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٢، ص ٣٦.

وصاح به: قتلت نفسك. بل إياك قتلت، ولا ربيعة بالوادي.
 وظن عبد الرحمن أن أسرته ستقوم بحمايته وإنقاذه، فلم ينبر إليه أحد، ولما أمن
 منهم معاوية بعثه إلى الطاغية زياد، وأمر بقتله فبعثه زياد إلى (قس الناطف)^(١)
 فدفنه وهو حي.^(٢)
 وروّع معاوية طائفة كبيرة من الشخصيات البارزة من رؤساء الشيعة، وفيما
 يلي بعضهم:

- ١- عبد الله بن هاشم المرقال.
 - ٢- عدي بن حاتم الطائي.
 - ٣- صعصة بن صوحان.
 - ٤- عبد الله بن خليفة الطائي.
- وقد أرهق معاوية هؤلاء الأعلام إرهاباً شديداً، فطاردهم شرطته وأفزعتهم
 إلى حد بعيد. هذه سياسة معاوية مع معارضيه من العلماء وأهل الدين.

ترويع النساء

ولم يقتصر معاوية في تنكيله على السادة من رجال الشيعة، وإنما تجاوز ظلمه
 إلى السيدات من نسائهم، فأشاع فيهن الذعر والإرهاب، فكتب إلى بعض عماله
 بحمل بعضهن إليه، فحملت له هذه السيدات:

- ١- الزرقاء بنت عدي.
- ٢- أم الخير البارقية.
- ٣- سودة بنت عمارة.
- ٤- أم البراء بنت صفوان.

(١) قس الناطف: موضع قريب من الكوفة.

(٢) الغدير: ج ٩، ص ١٢١، عبد الرحمن بن حسان العنزى. تاريخ دمشق: ج ٨، ص ٢٦، ترجمة أرقم
 بن عبد الله الكندي. تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٧٦، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة. الكامل في
 التاريخ: ج ٣، ص ٤٨٦، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة.

٥- بكارة الهلالية.

٦- أروى بنت الحارث.

٧- عكرمة بنت الأطرش.

٨- الدارمية الحجونية.

وقد قابلهن معاوية بمزيد من التوهين والاستخفاف، وأظهر لهن الجبروت والقدرة على الانتقام، غير حافل بوهن المرأة وضعفها، لكنهن قابلنه بشهامة وشجاعة فائقتين^(١)، كما في وقائع عديدة.

هدم دور الشيعة وإفقارهم

وأوعز معاوية إلى جميع عماله بهدم دور الشيعة، فقاموا بنقضها^(٢)، وتركوا شيعة آل البيت عليهم السلام بلا مأوى يأوون إليه، ولم يكن هناك أي مبرر لهذه الإجراءات القاسية سوى تحويل الناس عن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن المآسي التي عاشتها الشيعة في أيام معاوية أنه كتب إلى جميع عماله نسخة واحدة جاء فيها: «انظروا إلى من قامت عليه البيعة، إنه يجب علينا وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه»^(٣)، وبادر عماله في الفحص في سجلاتهم، فممن وجدوه محباً لآل البيت عليهم السلام محوا اسمه وأسقطوا عطاءه.

وعمد معاوية إلى إسقاط الشيعة اجتماعياً، فعهد إلى جميع عماله بعدم قبول شهادتهم في القضاء وغيره^(٤) مبالغة في إذلالهم وتحقيرهم.

إبعاد الشيعة إلى خراسان

وأراد زياد ابن أبيه تصفية الشيعة من الكوفة، وكسر شوكتهم، فأجلى خمسين ألفاً منهم إلى خراسان المقاطعة الشرقية في فارس. وقد دق زياد بذلك أول مسمار

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٣ و ٤٥. حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٢، ص ٣٧٨.

(٢) العقد الفريد: ج ٢، ص ١٠٢ - ١٢١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٥. النصائح الكافية: ص ٩٨. بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ١٢٦.

(٤) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج ٢، ص ٣٧٨. شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٤٤.

في نعش الحكم الأموي، فقد أخذت تلك القوى المؤمنة التي أُبعدت إلى فارس تعمل على نشر التشيع في تلك البلاد حتى تحولت إلى مركز للمعارضة ضد الحكم الأموي، وهي التي أطاحت به تحت قيادة أبي مسلم الخراساني. هذا بعض ما عانته الشيعة في عهد معاوية من صنوف التعذيب والإرهاب، وكان ما جرى عليهم من المآسي الأليمة من أهم الأسباب التي سارعت في قيام الإمام الحسين عليه السلام، لينقذ الناس من الظلم ويعيد لهم الأمن والاستقرار.

الفصل الثالث

معاوية ويزيد والإمام للخلافة

ختم معاوية حياته بأكبر إثم وأفظع جريمة، فقد أقدم غير متحرج على فرض يزيد خليفة على المسلمين يعيث في دينهم ودنياهم، ويخلد لهم الولايات والخطوب، وقد استخدم معاوية شتى الوسائل المنحطة في جعل الملك وراثته في أبنائه، ويرى الجاحظ أنه تشبه بملوك الفرس والبيزنطيين فحوّل الخلافة إلى ملك كسروي، وعصب قيصري، فهتكوا الدين وأبادوا أهله.

قال السيد شرف الدين في ذلك: عهد بها إليه وإنه الصبي الجاهل، يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب والقردة، ولا يعرف من الدين موطئ قدمه، مسرف في لهوه كل الإسراف، وأبوه يعرف ليله ونهاره، وإعلانه وإسراره.

على أنه كان يوم أمره على المسلمين في المهاجرين والأنصار وبقية البدرين وأهل بيعة الرضوان جم غفير، وعدة وافرة كلهم قارئ للقرآن، عالم بمواقع الأحكام، خبير بالسياسة، حقيق - على رأي الجمهور - بالخلافة والرياسة، فلم يراع سابقتهم في الإسلام، ولا عناءهم في تأييد الدين، وأمر عليهم شريره المتهتك وسكيره المفضوح، فكان منه في طف كربلاء مع خامس أصحاب الكساء وسيد شباب أهل الجنة ما أثنى النبيين، وأبكى الصخر الأصم دماً، ورمى المدينة الطيبة بـ (مجرم بن عقبة) - بعهد إليه في ذلك من أبيه -^(١) فكانت أمور تكاد السموات يتفطرن منها،

(١) كما نص عليه الإمام ابن جرير الطبري في الصفحة الأخيرة من حوادث سنة (٦٣ هـ) من الجزء ٥ من تاريخه. وابن عبد ربه المالكي حيث ذكر وقعة الحرة في الجزء الثاني من عقده الفريد ولم يبال يزيد ولا أبوه بقول رسول الله ﷺ: «من أخاف المدينة أخافه الله عز وجل وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً». أخرجه الإمام أحمد من حديث السائب بن خلاد بطريقين إليه، من مسنده: ج ٤، ص ٥٥-٥٦. وكذلك تاريخ السيوطي: ص ١٦٧.

وحسبك أنهم أباحوا المدينة الطيبة ثلاثة أيام حتى افتض فيها ألف عذراء من بنات المهاجرين والأنصار، وقتل يومئذ من المهاجرين والأنصار وأبنائهم وسائر المسلمين عشرة آلاف وسبعمئة وثمانون رجلاً، ولم يبق بعدها بدري^(١)، وقتل من النساء والصبيان عدد كثير، وكان الجندي يأخذ برجل الرضيع فيجذبه من أمه ويضرب به الحائط حتى ينثر دماغه على الأرض وأمه تنظر إليه.^(٢)

ثم أمروا بالبيعة ليزيد على أنهم خول وعبيد، إن شاء استرق، وإن شاء أعتق، فبايعوه على ذلك وأموالهم مسلوقة، ورحالهم منهوبة، ودمائهم مسفوكة، ونسائهم مهتوكة، وبعث مجرم بن عقبة برؤوس أهل المدينة إلى يزيد، فلما أُلقيت بين يديه تمثل بقول القائل:

لقد بدلوا الحلم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان^(٣)
نص عليه السيوطي في تاريخ الخلفاء، وعلمه جميع الناس حتى قال ابن الطقطقي ما هذا نصه:

ف قيل: إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها، ويقول: لعلها افتضت في وقعة الحرة.^(٤)

وقال الشبراوي: وافتض فيها نحو ألف بكر، وحمل فيها من النساء اللاتي لا أزواج لهن نحو من ألف امرأة.^(٥)

وقال ابن خلكان حيث ذكر وقعة الحرة في ترجمة يزيد بن القعقاع القارئ المدني من وفياته: كان يزيد بن معاوية في مدة ولايته قد سير إلى المدينة جيشاً مقدمه مسلم بن عقبة المري، فنهبها، وأخرج أهلها إلى هذه الحرة، فكانت الوقعة فيها، وجرى

(١) نص على ذلك ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٢٠ وغير واحد من أهل الأخبار. الفخري: ص ١١٥-١١٦. تاريخ السيوطي: ص ١٦٧-١٦٨.

(٢) النص والاجتهاد: ص ٤٦٦ (بتصرف)؛ وانظر: الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري: ج ١، ص ٢٧٥.

(٣) الفخري: ص ١١٥-١١٦. تاريخ الخلفاء: ص ١٦٦-١٦٧.

(٤) الفخري: ١١٦. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٣٩، ذكر أحداث سنة ٦٣ للهجرة.

(٥) انظر: النص والاجتهاد: ص ٤٦٦. الغدير: ج ١٠، ص ٣٥.

فيها ما يطول شرحه، وهو مسطور في التواريخ، حتى قيل: إنَّ بعد وقعة الحرة ولدت أكثر من ألف بكر من أهل المدينة بسبب ما جرى فيها من الفجور.^(١)

ثم توجه المجرم لقتال ابن الزبير (وهو إذ ذاك في مكة) وقد بويع بالخلافة، فهلك المجرم في الطريق، وتأمّر بعده الحصين بن نمير بعهد من يزيد، فأقبل بجيشه حتى نزل على مكة المكرمة، ونصب عليها العرادات والمجانيق، وفرض على أصحابه عشرة آلاف صخرة في كل يوم يرمونها بها، فحاصروهم بقية المحرم وصفر وشهري ربيع يغدون على القتال ويروحون، حتى جاءهم موت طاغيتهم يزيد^(٢) وكانت المجانيق أصابت البيت الحرام فهدمته مع الحريق الذي أصابه.

وفضائح يزيد من أول عمره إلى انتهاء أمره أكثر من أن تحويها الدفاتر، أو تحصيها الأقلام والمحابر، وقد شوّهت وجه التاريخ، وسوّدت صحائف السير، وكان أبوه معاوية يرى كلابه وقروده، وصقوره وفهوده. ويطلع على خموره وفجوره، ويشاهد الفضائع من أموره، ويعاين لعبه مع الغواني، ويعرف لؤمه وخبثه بكل المعاني. ويعلم أنّه ممن لا يؤتمن على نكير، ولا يولّي أمر قطمير، فكيف رفعه والحال هذه إلى أوج الخلافة عن رسول الله ﷺ؟ وأحلّه عرش الملك وإمامة المسلمين؟ وملّكه رقاب الأمة؟ فغشها بذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة».^(٣)

وقال ﷺ: «من ولي من أمور المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباةً فعليه لعنة الله، لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم».^(٤)

وقال ﷺ: «ما من عبد استرعاه الله رعيته، فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة».^(٥)

(١) وفيات الأعيان: ج ٦، ص ٢٧٦، ترجمة يزيد بن القعقاع.

(٢) تاريخ السيوطي: ص ١٦٧. الفخري: ص ١١٧.

(٣) صحيح مسلم: ج ١، ص ١٧١، ح ٢٢٧.

(٤) مسند أحمد: ج ١، ص ٦، حديث أبي بكر. النص والاجتهاد: ص ٤٦٩، المورد ٨٩.

(٥) صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٦١٤، ح ٦٧٣١. صحيح مسلم: ج ١، ص ١٧١، ح ٢٢٧.

وعلى أي حال وقبل أن نعرض إلى تلك البيعة المشؤومة، وما رافقها من الأحداث نذكر عرضاً موجزاً لسيرة يزيد، وما يتصف به من المزايا الشخصية التي عجت بدمها كتب التاريخ من يومه حتى يوم الناس هذا.

يزيد في سماته الشخصية

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: أما كلمة يزيد فقد كانت من قبل اسماً لابن معاوية، أما هي الآن فإنها رمز للفساد والاستبداد والتهتك والخلاعة، وعنوان للزندقة والإلحاد، فحيث يكون الشر والفساد فثم اسم يزيد.^(١) وقد أثر عن النبي ﷺ أنه نظر إلى معاوية يتبختر في بردة حبرة وينظر إلى عطفيه فقال ﷺ: «أي يوم لأمتي منك، وأي يوم سوء لذريتي منك من جرو يخرج من صلبك يتخذ آيات الله هزواً، ويستحل من حرمتي ما حرم الله عز وجل».^(٢)

نشأته

نشأ يزيد عند أخواله في البادية من بني كلاب الذي كانوا يعتنقون المسيحية قبل الإسلام، وكان مرسل العنان مع شبابهم الماجنين، فتأثر بسلوكهم إلى حد بعيد، فكان يشرب معهم الخمر، ويلعب معهم بالكلاب. يقول العلائي: إذا كان يقيناً أو يشبه اليقين أن تربية يزيد لم تكن إسلامية خالصة، أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون متجاوزاً مستهتراً مستخفاً بما عليه الجماعة الإسلامية، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أي حساب، ولا يقيم لها وزناً، بل الذي نستغرب أن يكون على غير ذلك.^(٣) والذي نراه أن نشأته كانت نشأة جاهلية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا تحمل أي طابع من الدين مهما كان، فإن استهتاره في الفحشاء وإمعانه في المنكر والإثم مما يوحى إلى الاعتقاد بذلك.

(١) الشيعة في الميزان: ص ٤٥٥ (بتصرف).

(٢) شرح الأخبار: ج ٢، ص ١٦٧، ح ٥١٣.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٨٠.

صفاته

أما صفاته الجسمية فقد كان شديد الأدمة بوجهه آثار الجدري^(١)، كما كان ضخماً ذا سمنة كثير الشعر^(٢)، وأما صفاته النفسية فقد ورث صفات جده أبي سفيان وأبيه معاوية من الغدر والنفاق والطيش والاستهتار. يقول السيد مير علي الهندي: وكان يزيد قاسياً غداراً كأبيه، ولكنه ليس داهية مثله، كانت تنقصه القدرة على تغليف تصرفاته القاسية بستار من اللباقة الدبلوماسية الناعمة، وكانت طبيعته المنحلة وخلقه المنحط لا تتسرب إليهما شفقة ولا عدل.

كان يقتل ويعذب نشداناً للمتعة واللذة التي يشعر بها، وهو ينظر إلى آلام الآخرين، وكان بؤرة لأبشع الرذائل، وهاهم ندماءؤه من الجنسين خير شاهد على ذلك، لقد كانوا من حثالة المجتمع.^(٣)

لقد كان جافي الخلق مستهتراً بعيداً عن جميع القيم الإنسانية، ومن أبرز ذاتياته ميله إلى إراقة الدماء والإساءة إلى الناس، ففي السنة الأولى من حكمه القصير أباد عترة رسول الله ﷺ، وفي السنة الثانية أباح المدينة ثلاثة أيام، وقتل سبعمائة رجل من المهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين.

ومن مظاهر صفات يزيد ولعه بالصيد، فكان يقضي أغلب أوقاته فيه يقول المؤرخون: كان يزيد بن معاوية كلفاً بالصيد لا يزال لاهياً به، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه، ويهب لكل كلب عبداً يُخدمه.^(٤)

(١) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٨١.

(٢) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٨١.

(٣) مختصر تاريخ العرب: ص ٩٠، بتصرف.

(٤) الفخري: ص ٥٤.

شغفه بالقرد

وكان يزيد - فيما أجمع عليه المؤرخون - ولعاً بالقرد، فكان له قرد يجعله بين يديه، ويكنيه بأبي قيس، ويسقيه فضل كأسه، ويقول: هذا شيخ من بني إسرائيل أصابته خطيئة فمسخ، وكان يحمله على أتان وحشية، ويرسله مع الخيل في حلبة السباق، فحمله يوماً فسبق الخيل، فسر بذلك وجعل يقول:

تمسك أبا قيس بفضل زمامها فليس عليها إن سقطت ضمان
فقد سبقت خيل الجماعة كلها وخيل أمير المؤمنين أتان
وأرسله مرة في حلبة السباق فطرحت الریح فمات فحزن عليه حزناً شديداً،
وأمر بتكفينه ودفنه، كما أمر أهل الشام أن يعزوه بمصابه الأليم!!! وأنشأ راثياً
له:

كم من كرام وقوم ذو محافظة جاؤوا لنا ليعزوا في أبي قيس
شيخ العشيرة أمضاها وأجلها على الرؤوس وفي الأعناق والريس
لا يبعد الله قبراً أنت ساكنه فيه جمال وفيه لحية التيس^(١)
وذاع بين الناس هيامه وشغفه بالقرد حتى لقبوه بها، ويقول رجل من تنوخ
هاجياً له:

يزيد صديق القرد مل جوارنا فحن إلى أرض القرد يزيد
فتباً لمن أمسى علينا خليفة صحابته الأذنون منه قرد^(٢)

إدمانه على الخمر

والظاهرة البارزة من صفات يزيد إدمانه على الخمر، وقد أسرف في ذلك إلى حد كبير، فلم ير في وقت إلا وهو ثمل لا يعي من السكر، ومن شعره في الخمر:

(١) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ص ٣٠٤. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٨٢.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٥، ص ٣٠٠، باب أمر يزيد بن معاوية.

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم وداعي صبايات الهوى يترنم
 خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم^(١)
 وجلس يوماً على الشراب وعن يمينه ابن زياد بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام
 فقال:

اسقني شربة تروي مشاشي ثم مل فاسق مثلها ابن زياد
 صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي^(٢)
 وفي عهده طراً تحول كبير على شكل المجتمع الإسلامي، فقد ضعف ارتباط
 المجتمع بالدين، وانغمس الكثيرون من المسلمين في الدعارة والمجون، ولم
 يكن ذلك التغيير إقليمياً، وإنما شمل جميع الأقاليم الإسلامية، فقد سادت فيها
 الشهوات والمتعة والشراب، وقد تغيرت الاتجاهات الفكرية التي ينشدها الإسلام
 عند أغلب المسلمين، لأن الناس على دين ملوكها.

وقد اندفع الأحرار من شعراء المسلمين في أغلب عصورهم إلى هجاء يزيد
 لإدمانه على الخمر، يقول الشاعر ابن عرادة:

يأيا الملك المغلق بابه حدثت أمورٌ شأنهن عظيم
 قتلى بجنزة والذين بكابل ويزيد أعلن شأنه المكتوم
 أبني أمية إن آخر ملككم جسدٌ بحوارين ثم مقيم
 طرقت منيته وعند وساده كوبٌ وزقٌّ راعفٌ مرثوم
 ومرنةٌ تبكي على نشوانه بالصنج تقعد تارةً وتقوم^(٣)
 ويقول فيه أنور الجندي:

خلقت نفسه الأثيمة بالمكر وهامت عيناه بالفحشاء
 فهو والكأس في عناق طويل وهو والعار والخنا في خباء

(١) جواهر المطالب: ص ٣٠٢. حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ١٨٣.

(٢) مروج الذهب: ج ٣، ص ٧٧. أنساب الأشراف: ج ٥، ص ٣١١، باب أمر يزيد بن معاوية.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٥٤٥، ذكر أحداث سنة ٦٤ للهجرة.

ويقول فيه بولس سلامة:

وترفق بصاحب العرش مشغولاً
عن الله بالقيان الملاح
ألف «الله أكبر» لا تساوي
بين كفي يزيد نهلة راح
تتلظى في الدن بكرة فلم
تدنس بلثم ولا بهاء قراح^(١)
لقد عاقر يزيد الخمر، وأسرف في الإدمان حتى إن بعض المؤرخين يعزو سبب
وفاته إلى أنه شرب كمية كبيرة منه فأصابه انفجار فهلك منه.^(٢)

ندماؤه

واصطفى يزيد جماعة من الخلعاء والماجنين، فكان يقضي معهم لياليه الحمراء
بين الشراب والغناء، وفي طليعة ندمائه الأخطل الشاعر المسيحي الخليع، فكانا
يشربان ويسمعان الغناء، وإذا أراد السفر صحبه معه^(٣)، ولما هلك يزيد وآل أمر
الخلافة إلى عبد الملك بن مروان قربه، فكان يدخل عليه بغير استئذان وعليه جبة
خز، وفي عنقه سلسلة من ذهب، والخمر يقطر من لحيته.^(٤)

نصيحة معاوية ليزيد

ولما شاع استهتار يزيد واقترافه لجميع ألوان المنكر والفساد استدعاه معاوية
فأوصاه بالتكتم في نيل الشهوات لئلا تسقط مكانته الاجتماعية، قائلاً: يا بني،
ما أقدرك على أن تصير إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمرؤتك وقدرك؛ ثم
أنشده:

انصب نهارةً في طلاب العلا واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل أتى بالدجا واكتحلت بالغمض عين الرقيب

(١) حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ١٨٤.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٥، ص ٣٠٠. إن سبب وفاة يزيد أنه حمل قرده على أتان، وهو سكران
فركض خلفها، فاندقت عنقه فانقطع شيء في جوفه فمات.

(٣) الأغاني: ج ٨، ص ٣٠٤٧ ذكر الأخطل ونسبته. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٨٥.

(٤) الأغاني: ج ٨، ص ٣٠٦٣، ذكر الأخطل وأجباؤه ونسبه.

فباشر الليل بما تشتهي فإنما الليل نهار الأريب
 كم فاسق تحسبه ناسكاً قد باشر الليل بأمر عجيب
 غطى عليه الليل أستاره فبات في أمنٍ وعيشٍ خصيب^(١)

إقرار معاوية لاستهتار يزيد

وهام معاوية بحب ولده يزيد فأقره على فسقه وفجوره، ولم يردعه عنه، ويقول المؤرخون: إنه نقل له أنّ ولده يزيد على الشراب فأتاه يتجسس عليه، فسمعه ينشد:

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم وداعي صبايات الهوى يترنم
 خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم
 ولا تتركوا يوم السرور إلى غد فإنّ غداً يأتي بما ليس يعلم
 ألا إن أهنا العيش ما سمحت به صروف الليالي والحوادث نوم
 فعاد معاوية إلى مكانه ولم يعلمه بنفسه، وراح يقول: والله لا كنت عليه، ولا نغصت عليه عيشه.^(٢)

حقد يزيد على النبي ﷺ

وأترعت نفس يزيد بالحقد على النبي ﷺ والبغض له؛ لأنه وتره بأسرته يوم بدر، ولما أباد العترة الطاهرة جلس على أريكة الملك جذلاً مسروراً يهز أعطافه، فقد استوفى ثأره من النبي ﷺ بقتل الحسين ﷺ ریحانة النبي وسيد شباب أهل الجنة وتمنى حضور أشياخه ليروا كيف أخذ بثأرهم وانتصر لجاهليتهم، وجعل يترنم بأبيات:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

(١) البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٤٦ - ٢٤٧، ذكر أحداث سنة ٦٤ للهجرة. تاريخ دمشق: ج ٦٥، ص ٤٠٣، ترجمة يزيد بن معاوية.

(٢) حياة الإمام الحسين ﷺ: ج ٢، ص ١٨٧.

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا: يا يزيد لا تشل
 قد قتلنا القوم من أشياخهم وعدلناه ببدر فاعتدل
 لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
 لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل^(١)

بغضه للأنصار

وكان يزيد يبغض الأنصار بغضاً عارماً لأنهم ناصروا النبي ﷺ وقاتلوا قريشاً، وحصدوا رؤوس أعلامهم، كما كانوا يبغضون بني أمية، فقد قتل عثمان بين ظهرانيهم ولم يدافعوا عنه، ثم بايعوا علياً عليه السلام، وذهبوا معه إلى صفين لحرب معاوية، ولما استشهد الإمام كانوا من أهم العناصر المعادية لمعاوية، وكان يزيد يتميز من الغيظ عليهم، وطلب من كعب بن جعيل التغلبي أن يهجوهم فامتنع وقال له: أردتني إلى الإشراف بعد الإيمان، لا أهجو قوماً نصرنا رسول الله ﷺ ولكن أدلك على غلام منا نصراني كأن لسانه لسان ثور - يعني الأخطل - : فدعا يزيد الأخطل، وطلب منه هجاء الأنصار فأجابه إلى ذلك، وهجاهم بهذه الأبيات المقذعة:

لعن الإله من اليهود عصابة بالجزع بين صليصل وصرار^(٢)
 قوم إذا هدر القصير رأيتهم حمراً عيونهم من المسطار^(٣)
 خلّوا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار
 إن الفوارس يعلمون ظهوركم أولاد كل مقبح أكار^(٤)
 ذهب قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار^(٥)

(١) البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٤٢، ذكر أحداث سنة ٦٣ للهجرة. رسائل الجاحظ: ج ٤، ص ١٥، رسالة في النابتة.

(٢) صليصل وصرار: من الأماكن القريبة للمدينة.

(٣) المسطار: الخمر الصارعة لشاربها.

(٤) الأكار: الحراث.

(٥) تاريخ دمشق: ج ٣٤، ص ٢٩٧، ترجمة عبد الرحمن بن حسان. أسد الغابة: ج ٣، ص ٢٨٦، ترجمة عبد الرحمن بن حسان بن ثابت.

لقد ابتداءً الأخطل هجاءه للأنصار بدم اليهود، وقرن بينهم وبين الأنصار؛ لأنهم يساكنونهم في يثرب، وقد عاب على الأنصار بأنهم أهل زرع وفلاحة، وأنهم ليسوا أهل مجد ولا مكارم، واتهمهم بالجبن عند اللقاء، ونسب الشرف والمجد إلى القرشيين، واللؤم كله تحت عمائم الأنصار، وقد أثار هذا الهجاء المر حفيظة النعمان بن بشير الذي هو أحد عملاء الأمويين، فانبرى غضباناً إلى معاوية، فلما مثل عنده حسر عمامته عن رأسه وقال: يا معاوية، هل ترى من لؤم. قال: ما أرى إلا كرمًا. قال: فما الذي يقول فينا عبد الأرقام.

واندفع النعمان يستجلب عطف معاوية قائلاً:

معاوي ألاتعظنا الحق تعترف لحي الأزد مشدوداً عليها العمام
أيشتمنا عبد الأرقام ضلة فماذا الذي تجدي عليك الأرقام
فإلي ثأر دون قطع لسانه فدونك من ترضيه عنك الدراهم
قال معاوية: قد وهبتك لسانه.

وبلغ الخبر الأخطل فأسرع إلى يزيد مستجيراً به، وقال له: هذا الذي كنت أخافه، فطمأنه يزيد وذهب إلى أبيه، فأخبره بأنه قد أجاره، فقال معاوية: لا سبيل إلى ذمة أبي خالد - يعني يزيد - فعفا عنه^(١)، وجعل الأخطل يفخر برعاية يزيد له، ويشمت بالنعمان بقوله:

أبا خالد دافعت عني عظيمة وأدركت لحمي قبل أن يتبددا
وأطفأت عني نار نعمان بعدما أغذ لأمر عاجز وتجردا
ولما أرى النعمان دوني ابن حرة طوى الكشح إذ لم يستطعني وعردا^(٢)
هذه بعض نزعات يزيد واتجاهاته، وقد كشفت عن مسخه وتمرسه في الجريمة، وتجرده من كل خلق قويم.. وإن من مهازل الزمن وعثرات الأيام أن يكون هذا الخليل حاكماً على المسلمين وإماماً لهم.

(١) العقد الفريد: ج ٥، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٤٨، ص ١١٥، ذكر من اسمه غياث.

دعوة المغيرة لبيعة يزيد

وأول من تصدى لهذه البيعة المشؤومة المغيرة بن شعبة صاحب الأحداث والموبات في الإسلام^(١)، وقد وصفه (بركلمان) بأنه رجل انتهازي لا ذمة له ولا ذمام^(٢)، وهو أحد دهاة العرب الخمسة^(٣)، وقد قضى حياته في التآمر على الأمة والسعي وراء مصالحه الخاصة.

أما السبب في دعوته لبيعة يزيد فهو أن معاوية أراد عزله من الكوفة ليولي عليها سعيد بن العاص^(٤)، فلما بلغه ذلك سافر إلى دمشق ليقدم استقالته من منصبه حتى لا تكون حزازة عليه في عزله، وأطال التفكير في أمره فرأى أن خير وسيلة لإقراره في منصبه أن يجتمع بيزيد، فيحبذ له الخلافة حتى يتوسط في شأنه إلى أبيه، والتقى الماكر بيزيد فأبدى له الإكبار، وأظهر له الحب، وقال له: لقد ذهب أعيان محمد وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً، وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة؟

وغزت هذه الكلمات قلب يزيد، فشكره وأثنى على عواطفه، وقال له:
أو ترى ذلك يتم؟
قال: نعم.

وانطلق يزيد مسرعاً إلى أبيه فأخبره بمقالة المغيرة، فسر معاوية بذلك، وأرسل خلفه، فلما مثل عنده أخذ يحفزها على المبادرة في أخذ البيعة ليزيد قائلاً: يا أمير

(١) من موبات المغيرة أنه أول من رشى في الإسلام، كما يروي البيهقي، كما أنه كان الوسيط في استلحاق زياد بمعاوية. انظر: حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٨٨.

(٢) شيخ المضيرة أبو هريرة: ص ١٩٨، الهامش. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٩٠.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٠١-٣٠٢، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠٣، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

(٤) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٦٥. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠٣، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

المؤمنين، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف، فاعقد له، فإن حدث بك حدث كان كهفًا للناس، وخلفاً منك، ولا تسفك دماء، ولا تكون فتنة.

وأصابت هذه الكلمات الوتر الحساس في قلب معاوية، فراح يخادعه مستشيراً في الأمر قائلاً: ومن لي بهذا؟

قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك.

واستحسن معاوية رأيه فشكره عليه، وأقره على منصبه، وأمره بالمبادرة إلى الكوفة لتحقيق غايته، ولما خرج من عند معاوية قال لحاشيته: لقد وضعت رجل معاوي في غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليه فتقاً لا يرتق أبداً، ثم تمثل بقول الشاعر:

بمثلي شاهدي النجوى وغالى بي الأعداء والخصم الغضابا
ففي سبيل المغنم فتق المغيرة على أمة محمد ﷺ فتقاً لا يرتق، وأخلد لها الكوارث والخطوب.

وسار المغيرة إلى الكوفة وهو يحمل الشر والدمار لأهلها ولعموم المسلمين، وفور وصوله عقد اجتماعاً ضم عملاء الأمويين، فعرض عليهم بيعة يزيد فأجابوه إلى ذلك، وأوفد جماعة منهم إلى دمشق وجعل عليهم ولده أبا موسى، فلما انتهوا إلى معاوية حفزوه على عقد البيعة ليزيد، فشكرهم على ذلك، وأوصاهم بالكتمان، والتفت إلى ابن المغيرة فقال له: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألف درهم. فضحك معاوية وقال ساخراً: لقد هان عليهم دينهم ثم أوصلهم بثلاثين ألف درهم.^(١)

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠٣ - ٥٠٤، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة. النصائح الكافية: ص ٦٤. تاريخ دمشق: ج ٤٠، ص ٢٩٨، ترجمة عروة بن المغيرة بن شعبة.

كلمة الحسن البصري

وشجب الحسن البصري بيعة يزيد، وجعلها من جملة موبقات معاوية، وقال: أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: ابتزؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلاف ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير، ويضرب بالطناير، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وقتله حجراً وأصحابه ويل له من حجر وأصحابه.^(١)

كلمة ابن رشد والجاحظ

ويرى ابن رشد أن بيعة معاوية ليزيد قد غيرت مجرى الحياة الإسلامية، وهدمت الحكم الصالح في الإسلام، قال: إن أحوال العرب في عهد الخلفاء كانت على غاية من الصلاح، فكأنها وصف أفلاطون حكومتهم في جمهوريته الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثلاً لجميع الحكومات، ولكن معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم، وأقام مكانه دولة بني أمية وسلطانها الشديد، ففتح بذلك باباً للفتن التي لا تزال إلى الآن قائمة حتى في بلادنا هذه - يعني الأندلس -.^(٢)

لقد نقم على معاوية في بيعة يزيد أعلام الفكر وقادة الرأي في الأمة الإسلامية منذ عهد معاوية حتى يوم الناس هذا، ووصفها بأنها اعتداء صارخ على الأمة وخروج على إرادتها.

وقد فصل بعض ذلك الجاحظ في رسالته في بني أمية، فقال: استولى معاوية على الملك واستبد على بقية أهل الشورى وعلى جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار في العام الذي سموه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل عام فرقة

(١) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٧٩، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٨٧، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة.

(٢) انظر: حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٩٦.

وقهر وجبرية وغلبة، والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً والخلافة غصباً قيصرياً، ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق، ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا وعلى منازل ما رتبنا، حتى ردّ قضية رسول الله ﷺ ردّاً مكشوفاً، وجحد حكمه جحداً ظاهراً، في ولد الفراش وما يجب للعاهر مع إجماع الأمة أن سمية لم تكن لأبي سفيان فراشاً، وإنما كان بها عاهراً، فخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل حجر بن عدي وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر وبيعة يزيد الخليع والاستئثار بالفيء واختيار الولاية على الهوى وتعطيل الحدود بالشفاعة والقراة من جنس جحد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة، وسواء في باب ما يستحق من الأكفار جحد الكتاب ورد السنة إذا كانت في شهرة الكتاب وظهوره إلا أن أحدهما أعظم وعقاب الآخرة عليه أشد. وقد أربت عليهم نابذة عصرنا مبتدعة دهرنا، فقالت: لا تسبوه، فإن له صحبة، وسب معاوية بدعة، ومن يبغضه، فقد خالف السنة، فزعمت أن من السنة ترك البراءة ممن جحد السنة.^(١)

دوافع معاوية

أما الدوافع التي دعت معاوية لفرض ابنه السكير خليفة على المسلمين فكان من أبرزها الحب العارم لولده، فقد هام بحبه، وقد أدلى بذلك في حديثه مع سعيد بن عثمان حينما طلب منه أن يرشحه للخلافة، ويدع ابنه يزيد، فسخر منه معاوية وقال له: والله لو ملئت لي الغوطة رجالاً مثلك لكان يزيد أحب إلي منكم كلكم.^(٢)

لقد أعماه حبه لولده، وأضله عن الحق، وقد قال: لولا هواي في يزيد لأبصرت

(١) رسائل الجاحظ: ج ٤، ص ١٠-١٢، رسالة في النابذة. شيخ المضيرة: ص ١٦٢.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٠٥، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٨٥، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

رشدي.^(١)

وكان يؤمن بأن استخلافه ليزيد من أعظم ما اقترفه من الذنوب، وقد صرح ولده بذلك فقال له: ما ألقى الله بشيء أعظم في نفسي من استخلافك إياك.^(٢) لقد اقترف معاوية وزراً عظيماً فيما جناه على الدين والأمة بتحويل الخلافة إلى ملك عضوض بيد الفاسدين والمجرمين لا زالت الأيام تأن من ظلمه وجوره.

الوسائل الدبلوماسية في أخذ البيعة

أما الوسائل الدبلوماسية التي اعتمد عليها معاوية في فرض خليفه على المسلمين فهي:

١- استخدام الشعراء:

أما الشعراء فكانوا في ذلك العصر من أقوى أجهزة الإعلام، وقد أجزل لهم معاوية العطاء، وأغدق عليهم الأموال، فانطلقت ألسنتهم بالمديح والثناء على يزيد، فأضافوا إليه الصفات الرفيعة، وخلعوا عليه النعوت الحسنة، وفيما يلي بعضهم:

العجاج:

ومدحه العجاج مدحاً عاطراً فقال فيه:

إذا زلزل الأقسام لم تنزل
عن دين موسى والرسول المرسل
وكنت سيف الله لم يقلل
يفرع^(٣) أحياناً وحيناً يختلي^(٤)
ومعنى هذا الشعر أن يزيد يقتفي أثر الرسول موسى عليه السلام والنبى محمد صلى الله عليه وسلم
وأنه سيف الله البتار إلا أنه كان مشهوراً على أولياء الله وأحبابه.

(١) شرح الأخبار: ج ٢، ص ١٥٧، ح ٤٨٥.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٩٧.

(٣) يفرع: يعلو رؤوس الناس.

(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٩٨.

الأحوس:

ومدحه الشاعر الأحوس بقصيدة جاء فيها:

ملك تدين له الملوك مبارك كادت لهيبته الجبال تزول
يجبى لهم بلخ ودجلة كلها وله الفرات وما سقى والنيل^(١)
لقد جاءت تلك الهيبة التي تخضع لها الجباه، وتزول منها الجبال، من إدمانه على
الخمير ومزاملته للقروء، ولعبه بالكلاب واقترافه للجرائم والموبقات.

مسكين الدارمي:

ومن الشعراء المرتزقة مسكين الدارمي، وقد أوعز إليه معاوية أن يحثه على بيعة
يزيد أمام من كان عنده من بني أمية وأشرف أهل الشام، فدخل مسكين على
معاوية، فلما رأى مجلسه حاشداً بالناس رفع عقيرته:

إن ادع مسكيناً فإني ابن معشر من الناس أحمي عنهم وأذود
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنيما يبوءها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد ساعد لكل أناس طائر وجدود
فلا زلت أعلى الناس كعباً ولا تزول وفود تسامها إليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً تشيد أطناب له وعمود^(٢)
هؤلاء بعض الشعراء الذي مدحوا يزيد، وافتعلوا له المآثر؛ لتغطية ما ذاع عنه
من الدعارة والمجون.

٢- بذل الأموال للوجوه

وأنفق معاوية الأموال الطائلة للوجوه والأشراف ليقروه على فرض ولده

(١) تاريخ دمشق: ج ٣٢، ص ٢١٦، ترجمة عبد الله بن محمد.

(٢) الأغاني: ٢٣، ص ٧٨٩٠ ترجمة مسكين الدارمي. الأمالي، للمرتضى: ج ٢، ص ١٢١.

السكير خليفة على المسلمين، ويقول المؤرخون: إنّه أعطى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم فقبلها منه^(١)، وكان ابن عمر من أصلب المدافعين عن بيعة يزيد.

٣- مراسلة الولاة

وراسل معاوية جميع عماله وولاته في الأقاليم الإسلامية بعزمه على عقد البيعة ليزيد، وأمرهم بتنفيذ ما يلي:

أ- إذاعة ذلك بين الناس، وإعلامهم بما صممت عليه حكومة دمشق من عقد الخلافة ليزيد.

ب- الإيعاز للخطباء وأبواق السلطة بالثناء على يزيد، وافتعال المآثر له.

ج- إرسال الوفود إليه من الشخصيات الإسلامية حتى يتعرف على رأيها في البيعة ليزيد^(٢)، وقام الولاة بتنفيذ ما عهد إليهم، فأذاعوا ما صمم عليه معاوية من عقد البيعة ليزيد، كما أوعزوا للخطباء وغيرهم بالثناء على يزيد.

وحدث الولاة على جمع أهل الفكر والوجاهة في كل بلد وإرسالهم موفدين إلى معاوية لإظهار الميل والرغبة في تولي يزيد السلط، وسافرت الوفود إلى دمشق وكان في طليعتهم:

١- وفد من العراق بقيادة أحد زعماء العراق وهو الأحنف بن قيس.

٢- وفد من المدينة بقيادة محمد بن عمرو بن حزم^(٣).

٣- وفد من مصر أرسله عمرو بن العاص بقيادة ولده.

وانتهت الوفود إلى دمشق لعرض آرائها على عامل الشام، وقد قام معاوية بضيافتهم والإحسان إليهم.

وعقدوا مؤتمراً في البلاط الأموي في دمشق لإظهار البيعة ليزيد، وقد افتتح المؤتمر معاوية بلزوم طاعة ولاة الأمور، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة،

(١) الكامل في التاريخ: ج٣، ص٥٠٦، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٣، ص٥٠٧، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

(٣) الكامل في التاريخ: ج٣، ص٥٠٧، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

ودعاهم لبيعته.^(١)

وانبرت كوكبة من أقطاب الحزب الأموي، فأيدوا معاوية وحثوه على الإسراع للبيعة، وهم:

١- الضحاك بن قيس.

٢- عبد الرحمن بن عثمان.

٣- ثور بن معن السلمي.

٤- عبد الله بن عصام.

٥- عبد الله بن مسعدة.

وكان معاوية قد عهد إليهم بالقيام بتأييده والرد على المعارضين له.

خطاب الأحنف بن قيس

وانبرى إلى الخطابة ممثل العراق وسيد تميم الأحنف بن قيس الذي تقول فيه ميسون أم يزيد: لو لم يكن في العراق إلا هذا لكفاهم.^(٢) وتقدم فحمد الله وأثنى عليه ثم التفت إلى معاوية قائلاً:

«أصلح الله أمير المؤمنين، إن الناس في منكر زمان قد سلف، ومعروف زمان مؤتلف، ويزيد ابن أمير المؤمنين نعم الخلف، وقد حلبت الدهر أشطره. يا أمير المؤمنين، فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك، ثم اعص أمر من يأمرك، ولا يغرك من يشير عليك ولا ينظر لك، وأنت أنظر للجماعة، وأعلم باستقامة الطاعة مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حياً.^(٣)»

وأثار خطاب الأحنف موجة من الغضب والاستياء عند الحزب الأموي، فاندفع الضحاك بن قيس مندداً به، وشتم أهل العراق، وقدح بالإمام الحسن عليه السلام،

(١) المصدر نفسه: ج ٣، ص ٥٠٧، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٢٠٢.

(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٦٩.

ودعا الوفد العراقي إلى الإخلاص لمعاوية والامتنال لما دعا إليه.^(١) ولم يعن به الأحنف، فقام ثانياً فنصح معاوية إلى الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه من تسليم الأمر إلى الحسن عليه السلام من بعده حسب اتفاقية الصلح التي كان من أبرز بنودها إرجاع الخلافة إلى الحسن عليه السلام كما أنه هدد معاوية بإعلان الحرب إذا لم يف بذلك.^(٢)

فشل المؤتمر

وفشل المؤتمر فشلاً ذريعاً بعد خطاب الزعيم الكبير الأحنف بن قيس، ووقع نزاع حاد بين أعضاء الوفود وأعضاء الحزب الأموي، وانبرى يزيد بن المقفع العُدري فهدد المعارضين باستعمال القوة قائلاً: أمير المؤمنين هذا - وأشار إلى معاوية - فإن هلك فهذا - وأشار إلى يزيد - ومن أبي فهذا - وأشار إلى السيف - فاستحسن معاوية قوله وراح يقول له: اجلس فأنت سيد الخطباء وأكرمهم.^(٣)

ولم يعن به الأحنف بن قيس فانبرى إلى معاوية فدعاه إلى الإمساك عن بيعة يزيد، وأن لا يقدم أحداً على الحسن والحسين عليهما السلام، وأعرض عنه معاوية، وبقي مصرأً على فكرته التي هي أبعد ما تكون عن الإسلام. وعلى أي حال فإن المؤتمر لم يصل إلى النتيجة التي أرادها معاوية، فقد استبان له أن جماعة المسلمين لا تقره على هذه البيعة ولا ترضى بها.

سفر معاوية إلى المدينة المنورة

لذا سعى للإعداد لها في موضع آخر، وقرر معاوية السفر إلى يثرب التي هي محط أنظار المسلمين، وفيها أبناء الصحابة الذين يمثلون الجبهة المعارضة للبيعة، فقد

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٦٩.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧٠.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠٨، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧١. العقد الفريد: ج ٤، ص ٣٧١.

كانوا لا يرون يزيد نداءً لهم، وإن أخذ البيعة له خروج على إرادة الأمة، وانحراف عن الشريعة الإسلامية التي لا تبيح ليزيد أن يتولى شؤون المسلمين لما عرف به من الاستهتار وتفسخ الأخلاق.

وسافر معاوية إلى المدينة في زيارة رسمية، وتحمل أعباء السفر لتحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض لا ظل فيه للحق والعدل.^(١)

وفور وصول معاوية إلى المدينة أمر بإحضار عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعقد معهم اجتماعاً مغلقاً.^(٢) ولم يحضر معهم الحسن والحسين عليهما السلام لأنه قد عاهد الحسن عليه السلام أن تكون الخلافة له من بعده، فكيف يجتمع به، وماذا يقول له؟ وقد أمر حاجبه أن لا يسمح لأي كان بالدخول عليه حتى ينتهي حديثه معهم.

ابتدأ معاوية الحديث بحمد الله والثناء عليه، وصلى على نبيه، ثم قال: أما بعد، فقد كبر سني، ووهن عظمي، وقرب أجلي، وأوشكت أن أدعى فأجيب؟ وقد رأيت أن أستخلف بعدي يزيد، ورأيتك لكم رضا وأنتم عبادلة قريش، وخيارهم، وأبناء خيارهم، ولم يمنعي أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أتمها أولاد أبيهما علي، على حسن رأي فيها وشدة محبتي لهما فردوا علي أمير المؤمنين خيراً رحمكم الله.^(٣)

كلمة عبد الله بن عباس

أول من كلمه عبد الله بن عباس، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد، فإنك قد تكلمت فأنصتنا، وقلت فسمعنا، وإن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته، واختاره لوحيه وشرفه على خلقه، فأشرف الناس من تشرف به، وأولاهم بالأمر أخصهم به، وإنما على الأمة التسليم لنيبها إذا اختاره الله لها،

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠٨، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨، ص ٨٦، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٨٧.

(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧٢.

فإنه إنما اختار محمداً بعلمه، وهو العليم الخبير، وأستغفر الله لي ولكم.^(١) وكانت دعوة ابن عباس صريحة في إرجاع الخلافة لأهل البيت عليهم السلام الذين هم ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمسهم به رحماً، فإن الخلافة إنما هي امتداد لمركز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأهل بيته أحق بمقامه وأولى بمكانته.

كلمة عبد الله بن جعفر

وانبرى عبد الله بن جعفر فقال بعد حمد الله والثناء عليه:
أما بعد، فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٢)، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأولو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر فأبي الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإيم الله لو ولوه بعد نبينهم لوضعوا الأمر موضعه، لحقه وصدقته، ولأطيع الرحمن، وعصي الشيطان، وما اختلف في الأمة سيفان، فاتق الله يا معاوية، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية، فانظر لرعتك فإنك مسؤول عنها غداً.
وأما ما ذكرت من ابني عمي، وتركك أن يحضرهما، فوالله ما أصبت الحق، ولا يجوز ذلك إلاّ بهما، وإنك لتعلم أنّهما معدن العلم والكرم، فقل أو دع، وأستغفر الله لي ولكم.^(٣)

وحفل هذا الخطاب بالدعوة إلى الحق والإخلاص للأمة، فقد رشح أهل البيت عليهم السلام للخلافة وقيادة الأمة، وحذره من صرفها عنهم، كما فعل غيره من الخلفاء، فكان من جراء ذلك أن منيت الأمة بالأزمات والنكسات، وعانت أعنف المشاكل وأقسى الحوادث.

كلمة عبد الله بن الزبير

وانطلق عبد الله بن الزبير للخطابة، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧٢.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧٣.

أما بعد: فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنوية وأفعالها المرضية مع شرف الآباء وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية وانصف نفسك، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ابن عم رسول الله ﷺ وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمه رسول الله ﷺ وعلي خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما هما؟ فاتق الله يا معاوي، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك.^(١)

وقد رشح ابن الزبير هؤلاء النفر للخلافة، وقد حفزهم بذلك لمعارضة معاوية وإفساد مهمته.

كلمة عبد الله بن عمر

واندفع عبد الله بن عمر فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه: أما بعد، فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية، يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كان كذلك لكنت القائم بها بعد أبي، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً، وإنما هي في قريش خاصة لمن كان لها أهلاً ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم، ممن كان أتقى وأرضى، فإن كنت تريد الفتیان من قريش فلعمري إن يزيد من فتیانها، واعلم أنه لا يغني عنك من الله شيئاً.^(٢)

ولم تعبر كلمات العبادلة عن شعورهم الفردي، وإنما عبرت تعبيراً صادقاً عن رأي الأغلبية الساحقة من المسلمين الذين كرهوا خلافة يزيد، ولم يرضوا بها. وثقل على معاوية كلامهم، ولم يجد ثغرة ينفذ منها للحصول على رضاهم، فراح يشيد بابنه، فقال:

قد قلت وقلتم، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء، فابني أحب إلي من أبنائهم، مع أن ابني إن قاو لتموه وجد مقالاً، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف، لأنهم

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ج ١، ص ١٧٤.

أهل رسول الله، فلما مضى رسول الله ولي الناس أبو بكر وعمر من غير معدن الملك والخلافة، غير أئمتها سارا بسيرة جميلة، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمر منها، فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله.^(١) وانتهى اجتماع معاوية بالعبادة، وقد أخفق فيه إخفاقاً ذريعاً، فقد استبان له أنّ القوم مصممون على رفض بيعه يزيد، وعلى أثر ذلك غادر المدينة.

فزع المسلمين

وذعر المسلمون حينما وافتهم الأنباء بتصميم معاوية على فرض ابنه خليفة عليهم، وكان من أشد المسلمين خوفاً المدنيون والكوفيون، فقد عرفوا واقع يزيد، ووقفوا على اتجاهاته المعادية للإسلام. يقول توماس آرنولد: كان تقرير معاوية للمبدأ الوراثي نقلة خطيرة في حياة المسلمين الذين ألفوا البيعة والشورى والنظم الأولى في الإسلام، وهم بعد قريبون منها؛ ولهذا أحسوا - وخاصة في مكة والمدينة حيث كانوا يتمسكون بالأحاديث والسنن النبوية الأولى - أنّ الأمويين نقلوا الخلافة إلى حكم زمني متأثر بأسباب دنيوية، مطبوع بالعظمة وحب الذات، بدلاً من أن يحتفظوا بتقوى النبي وبساطته.^(٢) لقد كان إقدام معاوية على فرض ابنه يزيد حاكماً على المسلمين تحولاً خطيراً في حياة المسلمين الذين لم يألفوا مثل هذا النظام الثقيل الذي فرض عليهم بالتضليل وبقوة السلاح.

الجبهة المعارضة

وأعلن الأحرار والمصلحون في العالم الإسلامي رفضهم القاطع لبيعة يزيد، ولم يرضوا به حاكماً على المسلمين، وفيما يلي بعضهم.

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧٤. الغدير: ج ١٠، ص ٢٤٤.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٢٠٨.

١- الإمام الحسين عليه السلام:

وفي طليعة المعارضين لبيعة يزيد الإمام الحسين عليه السلام فقد كان يعرف يزيد، ويكره طباعه الذميمة، ووصفه أنه صاحب شراب وقنص، وأنه قد لزم طاعة الشيطان، وترك طاعة الرحمن، وأظهر الفساد، وعطل الحدود، واستأثر بالفيء، وأحل حرام الله وحرم حلاله.^(١) وإذا كان بهذه الصفات المنكرة فكيف يبايعه، ويقره حاكماً على المسلمين.

ولما دعاه الوليد إلى بيعة يزيد قال له الإمام:

«أيها الأمير، إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، وقاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله».^(٢)

ورفض بيعة يزيد جميع أفراد الأسرة النبوية تبعاً لزعيمهم العظيم، ولم يشذوا عنه.

وقابل معاوية الأسرة النبوية بحرمان اقتصادي عقوبة لهم لامتناعهم عن بيعة يزيد، فقد حبس عنهم العطاء سنة كاملة، ولكن ذلك لم يثنهم عن عزمهم في شجب البيعة ورفضها.^(٣)

٢- عبد الرحمن بن أبي بكر

ومن الذين نقموا على بيعة يزيد عبد الرحمن بن أبي بكر، فقد وسمها بأئنها هرقلية، كلما مات كسرى كان مكانه كسرى^(٤) وأرسل إليه معاوية مائة ألف درهم

(١) انظر: الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٤٨، ذكر أحداث سنة ٦١. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٨١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٥. حياة الإمام الحسين: ج ٢، ص ٢٠٩.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥١١، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٩٠. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٢٠٩.

(٤) الاستيعاب: ج ٢، ص ٨٢٥، باب ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر.

ليشتري بها ضميره، فأبى وقال: لا أبيع ديني.^(١)

٣- عبد الله بن الزبير

ورفض عبد الله بن الزبير بيعته يزيد، ووصفه بقوله:

يزيد الفجور، ويزيد القرود، ويزيد الكلاب، ويزيد النشوات، ويزيد الفلوات^(٢)، ولما أجبرته السلطة المحلية في المدينة على البيعة فر منها إلى مكة.

٤- المنذر بن الزبير

وكره المنذر بن الزبير بيعته يزيد، وشجبها، وأدلى بحديث له عن فجور يزيد أمام أهل المدينة فقال: إنه قد أجازني بمائة ألف، ولا يمنعني ما صنع أبي أن أخبركم خبره، والله إنه ليشرب الخمر، والله إنه ليسكر حتى يدع الصلاة.^(٣)

٥ - عبد الرحمن بن سعيد

وامتنع عبد الرحمن بن سعيد عن البيعة ليزيد، وقال في هجائه:

لست منا وليس خالك منا يا مضيع الصلاة للشهوات^(٤)

٦ - عابس بن سعيد

ورفض عابس بن سعيد بيعته يزيد حينما دعاه إليها عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: أنا أعرف به منك، وقد بعت دينك بدنياك.^(٥)

٧- عبد الله بن حنظلة

وكان عبد الله بن حنظلة من أشد الناقمين على البيعة ليزيد، وكان من الخارجين

(١) الاستيعاب: ج ٢، ص ٨٢٥-٨٢٦، باب ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٩٦، ذكر أحداث سنة ٥٨ للهجرة.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٥، ص ٣٣٧. شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ١٣٣.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٨١، ذكر أحداث سنة ٦٢ للهجرة.

(٤) الحسين بن علي عليه السلام، باقر شريف القرشي: ج ٢، ص ٢١٠-٢١١. الأخبار الطوال: ص ٢٦٥.

(٥) الحسين بن علي، باقر شريف القرشي: ج ٢، ص ٢١١.

عليه في وقعة الحرة، وقد خاطب أهل المدينة فقال لهم:
 فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء... إن رجلاً
 ينكح الأمهات والبنات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معي أحد
 من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسناً.^(١)
 وكان يرتجز في تلك الواقعة ويقول:
 بُعداً لمن رام الفساد وطغى وجانب الحق وآيات الهدى
 لا يبعد الرحمن إلا من عصى^(٢)

موقف الأسرة الأموية

ونقمت الأسرة الأموية على معاوية في عقده البيعة ليزيد، ولكن لم تكن نقمتهم
 عليه مشفوعة بدافع ديني أو اجتماعي، وإنها كانت من أجل مصالحهم الشخصية
 الخاصة؛ لأن معاوية قلد ابنه الخلافة وحرّمهم منها، وفيما يلي بعض الناقلين:

١- سعيد بن عثمان

حينما عقد معاوية البيعة ليزيد أقبل سعيد بن عثمان إلى معاوية وقد رفع عقيرته
 قائلاً:
 علام جعلت ولدك يزيد ولي عهدك، فوالله لأبي خير من أبيه، وأمي خير من
 أمه، وأنا خير منه، وقد وليناك فما عزلناك، وبنا نلت ما نلت..
 فراوغ معاوية وقال له:

أما قولك: إن أباك خير من أبيه فقد صدقت، لعمر الله إن عثمان خير مني، وأما
 قولك إن أمك خير من أمه، فحسب المرأة أن تكون في بيت قومها وأن يرضاها
 بعلها، وينجب ولدها، وأما قولك: إنك خير من يزيد، فوالله ما يسرني أن لي بيزيد

(١) الطبقات الكبرى: ج ٥، ص ٦٦، ترجمة عبد الله بن حنظلة. تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٨٠، ذكر
 أحداث سنة ٦٢ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٠٣، ذكر أحداث سنة ٦٢.
 (٢) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٩٠، ذكر أحداث سنة ٦٣ للهجرة.

ملء الغوطة ذهباً مثلك، وأما قولك: إنكم وليتموني فما عزلتموني، فما وليتموني، إنما ولاني من هو خير منكم عمر بن الخطاب فأقرتموني، وما كنت بئس الوالي لكم، لقد قمت بئارك، وقتلت قتلة أبيكم، وجعلت الأمر فيكم، وأغنيت فقيركم، ورفعت الوضيع منكم... وكلمه يزيد فأرضاه، وجعله والياً على خراسان.^(١)

٢- مروان بن الحكم

وشجب مروان بن الحكم البيعة ليزيد وتقديمه عليه، فقد كان شيخ الأمويين وزعيمهم فقال له: أقم يا ابن أبي سفيان، واهدأ من تأميرك الصبيان، واعلم أن لك في قومك نظراء، وأن لهم على منواتك وزراً، فخادعه معاوية وقال له: فأنت نظير أمير المؤمنين بعده، وفي كل شدة عضد، وإليك عهد عهده، فقد وليتك قومك، وأعظمتنا في الخراج سهمك، وأنا مجيز وفدك ومحسن رفدك.^(٢)

وقال مروان لمعاوية: جئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم.^(٣)

٣- زياد بن أبيه

وكره زياد بن أبيه بيعة معاوية لولده؛ وذلك لما عرف به من الاستهتار والخلاعة والمجون، ويقول المؤرخون: إن معاوية كتب إليه يدعوه إلى أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد، وإنه ليس أولى من المغيرة بن شعبة، فلما قرأ كتابه دعا برجل من أصحابه كان يأتونه حيث لا يأتون أحداً غيره، فقال له: إنني أريد أن أئتمنك على ما لم أئتمن عليه بطون الصحائف، أئت معاوية وقل له: يا أمير المؤمنين إن كتابك ورد علي بكذا، فماذا يقول الناس أنا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقروء، ويلبس المصبغ، ويدمن الشراب، ويمشي على الدفوف، ويحضرهم

(١) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٠٥، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة . الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥١٢، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة. حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام، باقر شريف القرشي: ج ٢، ص ٢١٢. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧٦ - ١٧٧. الغدير: ج ١، ص ٢٣٩.

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام، باقر شريف القرشي: ج ٢، ص ٢١٣.

الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر. ولكن تأمره أن يتخلق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين، فعمسنا أن نموه على الناس. وسار الرسول إلى معاوية، فأدى إليه رسالة زياد فاستشيط غضباً، وراح يتهدهه ويقول: ويلى عليّ ابن عبيد، لقد بلغني أنّ الحادي حداه له أنّ الأمير بعدي زياد، والله لأردنّه إلى أمه سمية وإلى أبيه عبيد.^(١)

إيقاع الخلاف بين الأمويين

واتبع معاوية سياسة التفريق بين الأمويين حتى يصفوا الأمر لولده يزيد، فقد عزل عامله على المدينة سعيد بن العاص، واستعمل مكانه مروان بن الحكم، ثم عزل مروان واستعمل سعيداً مكانه، وأمره بهدم داره، ومصادرة أمواله، فأبى سعيد من تنفيذ ما أمر به معاوية فعزله، وولى مكانه مروان، وأمره بمصادرة أموال سعيد وهدم داره، فلما هم مروان بتنفيذ ما عهد إليه أقبلى إليه سعيد وأطلعه على كتاب معاوية في شأنه، فامتنع مروان من القيام بما أمره معاوية، وكتب سعيد إلى معاوية رسالة يندد فيها بعمله وقد جاء فيها: العجب مما صنع أمير المؤمنين في قرابتنا له، أن يضغن بعضنا على بعض، فأمر المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره من الأخبثين، وعفوه وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء، وتوارث الأولاد ذلك.^(٢) وعلّق أبو النصر على سياسة التفريق التي تبعتها معاوية مع أسرته بقوله: إن سبب هذه السياسة هو رغبة معاوية في إيقاع الخلاف بين أقاربه الذين يخشى نفوذهم على يزيد من بعده، فكان يضرب بعضهم ببعض حتى يظلوا بحاجة إلى عطفه وعنايته.^(٣)

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٢٠، ذكر أيام معاوية بن أبي سفيان. وقريب منه في تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٠٢ - ٣٠٣، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة، والكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠٥ - ٥٠٦، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٩٣ - ٢٩٤، ذكر أحداث سنة ٥٤ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٩٧ - ٤٩٨، ذكر أحداث سنة ٥٤ للهجرة.

(٣) السياسة عند العرب، عمر أبو النصر: ص ٩٨. حياة الإمام الحسين، باقر شريف القرشي: ج ٢، ص ٢١٥.

تجميد البيعة

وجمد معاوية رسمياً البيعة ليزيد إلى أجل آخر حتى يتم له إزالة الحواجز والسدود التي تعترض طريقه، ويقول المؤرخون: إنه بعدما التقى بعبادة قريش في المدينة واطلع على آرائهم الراضية لما ذهب إليه أوقف كل نشاط سياسي في ذلك وأرجأ العمل إلى وقت آخر.^(١) واتخذ نهجاً آخر يستند إلى الإرهاب والقوة.

اغتيال الشخصيات الإسلامية

رأى معاوية أنه لا يمكن بأي حال تحقيق ما يصبوا إليه من تقليد ولده الخلافة مع وجود الشخصيات الرفيعة التي تتمتع باحترام بالغ في نفوس المسلمين، فعزم على القيام باغتيالهم؛ ليصفو له الجو، فلا يبقى أمامه أي مزاحم، وقد قام باغتيال العناصر التالية:

١- سعد بن أبي وقاص

ولسعد المكانة في نفوس بعض المسلمين، فهو أحد أعضاء الشورى وفتح العراق، وقد ثقل مركزه على معاوية، فدس إليه سمّاً فمات منه.^(٢)

٢- عبد الرحمن بن خالد

وأخلص بعض أهل الشام لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأحبه كثيراً، وقد شاورهم معاوية فيمن يعقد له البيعة بعد وفاته، فقالوا له: رضينا بعبد الرحمن بن خالد، فشق ذلك عليه، وأسرّها في نفسه، ومرض عبد الرحمن، فأمر معاوية طبيباً يهودياً كان مكيماً عنده أن يأتيه للعلاج فيسقيه سقية تقتله، فسقاه الطبيب فمات على أثر ذلك.^(٣)

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٧٤، الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠٦، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٦٠.

(٣) الاستيعاب: ج ٢، ص ٨٢٩-٨٣٠، باب ترجمة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

٣- عبد الرحمن بن أبي بكر

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر من أقوى العناصر المعادية لبيعة معاوية لولده، وقد أنكر عليه ذلك، وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم فردها عليه، وقال له لا أبيع ديني بدنياي، ولم يلبث أن مات فجأة بمكة.^(١)

٤- الإمام الحسن عليه السلام

وقام معاوية باقتراف أعظم جريمة وأكبر إثم إذ عمد إلى اغتيال سبط النبي ﷺ وريحانته الإمام الحسن عليه السلام الذي عاهده بأن يكون الخليفة من بعده... ولم يتحرج الطاغية من هذه الجريمة في سبيل إنشاء دولة أموية تنتقل بالوراثة إلى أبنائه وأعقابه، وقد وصفه (الميجر أوزبون) بأنه مخادع وذو قلب خال من كل شفقة، وأنه كان لا يتهيب من الإقدام على أية جريمة من أجل أن يضمن مركزه، فالقتل إحدى وسائله لإزالة خصومه، وهو الذي دبر تسميم حفيد الرسول ﷺ كما تلخص من مالك الأشتر قائد علي عليه السلام بنفس الطريقة.^(٢)

وقد استعرض الطاغية السفاكين ليعهد إليهم القيام باغتيال ريحانة النبي ﷺ فلم ير أحداً خليقاً بارتكاب الجريمة سوى جعيدة بنت الأشعث، فإنها من بيت قد جبل على المكر، وطبع على الغدر والخيانة، فأرسل إلى مروان بن الحكم سماً فاتكاً كان قد جلبه من ملك الروم، وأمره بأن يغري جعيدة بالأموال، ويمنيها زواج ولده يزيد إذا استجابت له، وفاوضها مروان سراً، ففرحت، فأخذت منه السم، ودسته للإمام عليه السلام وكان صائماً في وقت ملتهب من شدة الحر، ولما وصل السم إلى جوفه تقطعت أمعاؤه، والتفت إلى الخبيثة فقال لها عليه السلام: «قتلتيني قتلك الله، والله لا تصيبين مني خلفاً، لقد غررك - يعني معاوية - وسخر منك يخزيك

(١) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٨٢٥ - ٨٢٦، باب ترجمة عبد الرحمن أبي بكر. أسد الغابة: ج ٣، ص ٣٠٥، ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر.

(٢) حياة الإمام الحسين، باقر شريف القرشي: ج ٢، ص ٢١٧.

الله ويجزيه». وأخذ حفيد الرسول ﷺ يعاني الآلام الموجهة من شدة السم، وقد ذبلت نضارته واصفر لونه حتى استشهد مسموماً.

وصفا الجو لمعاوية بعد اغتياله لسبط الرسول ﷺ وريحانته، فقد قضى من كان يحد منه، واستتبت له الأمور، وخلت الساحة من أقوى المعارضين له. فكتب إلى جميع عماله أن يبادروا دونما أي تأخير إلى أخذ البيعة ليزيد، ويرغموا المسلمين على قبولها، وأسرع الولاة في أخذ البيعة من الناس، ومن تخلف عنها نال أقصى العقوبات الصارمة.

من المعارضين في المدينة

وامتنعت المدينة من البيعة ليزيد، وأعلن زعماءؤها وعلى رأسهم الإمام الحسين ﷺ رفضهم القاطع للبيعة، ورفعت السلطة المحلية ذلك إلى معاوية، فرأى أن يسافر إلى المدينة ليتولى بنفسه إقناع المعارضين، فإن أبوا أجبرهم على ذلك. واتجه معاوية إلى المدينة في موكب كبير تحوطه قوة هائلة من الجيش، ولما انتهى إليها استقبله أعضاء المعارضة، فجفاهم وهددهم، وفي اليوم الثاني أرسل إلى الإمام الحسين ﷺ، وإلى عبد الله بن عباس، فلما حضرا عنه قابلهما بالتكريم والحفاوة، وأخذ يسأل الإمام الحسين ﷺ عن أبناء أخيه والإمام يحييه، ثم خطب معاوية، فأشاد بالنبى ﷺ وأثنى عليه، وعرض إلى بيعة يزيد، ومنح ابنه الألقاب الفخمة والنعوت الكريمة، ودعاهما إلى بيعته.

خطاب الإمام الحسين ﷺ

وانبرى أبي الضيم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد يا معاوية فلن يؤدّي المادح وإن أطب في صفة الرسول ﷺ وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله ﷺ من إيجاز الصفة، والتنكب عن استبلاغ النعت، وهيئات هيئات يا معاوية!! فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضّلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجهفت،

ومنعت حتى بخلت، وجرت حتى تجاوزت، ما بذلت لذي حق من اسم حقه من نصيب، حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل.

وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأمة محمد ﷺ، تريد أن توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استفرائه الكلاب المهارشة عند التحارش، والحمام السبق لأتراهن، والقيان ذوات المعازف، وضروب الملاهي، تجده باصراً.

ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية! فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً ولعمر الله لقد أورثنا الرسول ﷺ ولادة، وجئت لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول ﷺ فأذعن للحجة بذلك وردّه الإيذان إلى النصف.

فركبتم الأعاليل وفعلتم الأفاعيل، وقتلتم كان ويكون حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله ﷺ وتأميره له، وقد كان ذلك لعمر بن العاص يومئذ فضيلة بصحة الرسول وبيعته له وما صار لعمر يومئذ حتى أنف القوم إمرته وكرهوا تقديمه وعدوا عليه أفعاله، فقال ﷺ لاجرم يا معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري.

فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول في أوكد الأحكام وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب؟ أم كيف ضاهيت بصاحب تابعاً وحولك من يؤمن في صحبته، ويعتمد في دينه وقرابته، وتتخطأهم إلى مسرف مفتون؟ تريد أن تلبس الناس شبهة يسعد بها الباقي في دنياه وتشقى بها في آخرتك، إن هذا هو الخسران المبين، وأستغفر الله لي ولكم..».

وفند الإمام ﷺ في خطابه جميع شبهات معاوية، وسد عليه جميع الطرق

والنوافذ وحمله المسؤولية الكبرى فيما أقدم عليه من إرغام المسلمين على البيعة لولده، كما عرض للخلافة وما منيت به من الانحراف عما أَرادها الله من أن تكون في العترة الطاهرة، إلا أن القوم زووها عنهم، وحرفوها عن معدنها الأصيل.

وذهل معاوية من خطاب الإمام عليه السلام، وضافت عليه جميع السبل فقال لابن عباس: ما هذا يا ابن عباس؟ فقال ابن عباس: لعمر الله إنَّها لذرية رسول الله ﷺ وأحد أصحاب الكساء ومن البيت المطهر، فأسأله عمّا تريد فإنَّ لك في الناس مقنعاً حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين.^(١)

ونضض أبي الضيم وترك معاوية يتميز من الغيظ، وقد استبان له أنه لا يتمكن أن يخدع الإمام الحسين عليه السلام ويأخذ البيعة منه.

إرغام المعارضين:

وغادر معاوية المدينة متجهاً إلى مكة وهو يطيل التفكير في أمر المعارضين، فرأى أن يعتمد على وسائل العنف والإرهاب، وحينما وصل إلى مكة أحضر الإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعرض عليهم مرة أخرى البيعة إلى يزيد، فأعلنوا رفضهم، فانبرى إليهم مغضباً وقال: إنِّي أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، إنِّي كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإنِّي قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه...

ودعا صاحب حرسه بحضرتهم، فقال له: أقم على رأس رجل من هؤلاء رجلين، ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما، ثم خرج وخرجوا معه فرقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم، ولا

(١) الإمامة والسياسة: ج١، ص١٨٦ - ١٨٧. حياة الإمام الحسين، باقر شريف القرشي: ج٢، ص٢١٩ - ٢٢١. النصائح الكافية: ص٦٩.

يقضى إلا عن مشورتهم، وإثمهم رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله.^(١) فبايع الناس، ثم ركب رواحله، وغادر مكة، وقد حسب معاوية أن الأمر قد تم لولده، واستقر الملك في بيته، ولم يعلم أنه قد جر الدمار على دولته، وأعد المجتمع للثورة على حكومة ولده.

موقف الإمام الحسين عليه السلام

كان موقف الإمام الحسين عليه السلام مع معاوية يتسم بالشدة والصرامة، فقد أخذ يدعو المسلمين بشكل سافر إلى مقاومة معاوية، ويحذرهم من سياسته الهدامة الحاملة لشارات الدمار إلى الإسلام.

وأخذت الوفود تترى على الإمام من جميع الأقطار الإسلامية وهي تعج بالشكوى إليه، وتستغيث به مما ألم بها من الظلم والجور، وتطلب منه القيام بإنقاذها من الاضطهاد، ونقلت العيون في المدينة إلى السلطة المحلية تجمع الناس واختلافهم على الإمام الحسين عليه السلام^(٢) وكان الوالي مروان، ففرع من ذلك، وخاف إلى حد بعيد.

فرفع مذكرة لمعاوية سجل فيها تخوفه من تحرك الإمام عليه السلام واختلاف الناس عليه، وهذا نصها: فقد كثر اختلاف الناس إلى حسين، والله إنني لأرى لكم منه يوماً عصيباً.^(٣)

وأمره معاوية بعدم القيام بأي حركة مضادة للإمام، فقد كتب إليه: اترك حسيناً ما تركك، ولم يظهر لك عداوته، ويبد صفحته، واكمن عنه كمون الثرى إن شاء الله والسلام..^(٤)

(١) الكامل في التاريخ: ج٣، ص٥١٠-٥١١، ذكر أحداث سنة ٥٦ للهجرة. وقريب منه في الإمامة والسياسة: ج١، ص١٩٠. والعقد الفريد: ج٤، ص٣٧٢.

(٢) أنساب الأشراف: ج٣، ص٣٦٦، موقف الحسين بن علي من صلح الحسن ومعاوية.

(٣) أنساب الأشراف: ج٣، ص٣٦٧. سير أعلام النبلاء: ج٤، ص٤١٢، وقد رواه بطريق آخر وأسلوب آخر.

(٤) أنساب الأشراف: ج٣، ص٣٦٧. موقف الحسين بن علي من صلح الحسن ومعاوية.

لقد خاف معاوية من تطور الأحداث، فعهد إلى مروان بعدم التعرض للإمام عليه السلام بأي أذى أو مكروه.

واقترح مروان على معاوية إبعاد الإمام عليه السلام عن المدينة، وفرض الإقامة الجبرية عليه في الشام؛ ليقطعه عن الاتصال بأهل العراق، ولم يرتض معاوية ذلك، فرد عليه: أردت والله أن تستريح منه وتبتليني به، فإن صبرت عليه صبرت على ما أكره، وأن أسأت إليه قطعت رحمه. (١)

رسالة معاوية للإمام الحسين عليه السلام

واضطرب معاوية من تحرك الإمام عليه السلام واختلاف الناس إليه، فكتب إليه رسالة وقد رويت بصورتين: الأولى رواها البلاذري وهذا نصها: أما بعد فقد أنهيت إلي عنك أمور إن كانت حقاً فإني لم أظنها بك رغبة عنها، وإن كانت باطلة فأنت أسعد الناس بمجانبتها، وبحظ نفسك تبدأ، وبعهد الله توفي، فلا تحملني على قطيعتك والإساءة إليك، فإني متى أنكرك تنكرني، ومتى تكذني أكدك، فاتق الله يا حسين في شق عصا الأمة، وأن تردهم في فتنة. (٢)

الثانية رواها ابن كثير وهذا نصها: أن من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء، وقد أنبت أن قوماً من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق، وأهل العراق من قد جربت، قد أفسدوا على أبيك وأخيك، فاتق الله، واذكر الميثاق فإنك متى تكذني أكدك. (٣)

واحتوت هذه الرسالة حسب النص الأخير على ما يلي:

١- أن معاوية قد طالب الإمام عليه السلام بالسكوت وفاء لما شرط في الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام وقد وفي له الإمام بذلك إلا أن معاوية لم يف بشيء مما أبرمه على نفسه من شروط الصلح.

(١) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٢.

(٢) أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٣٦٧. الأخبار الطوال: ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٧٥، ذكر سنة ٦٠ للهجرة. وقريب منه أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٣٦٧.

- ٢- أن معاوية كان على علم بوفود أهل الكوفة التي دعت للإمام عليه السلام للخروج عليه، وقد ستمهم بأنهم أهل الشقاق، وأنهم قد غدروا بعلي والحسن عليهما السلام من قبل.
- ٣- التهديد السافر للإمام بأنه متى كاد معاوية فإنه يكيدته. (١)

جواب الإمام عليه السلام

ورفع الإمام إلى معاوية مذكرة خطيرة كانت جواباً لرسالته، حملة مسؤوليات جميع ما وقع في البلاد من سفك الدماء، وفقدان الأمن وتعريض الأمة للأزمات، وهي من أروع الوثائق الرسمية التي حفلت بذكر الأحداث التي صدرت من معاوية، وهذا نصها: «أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور أنت عنها راغب وأنا بغيرها عندك جدير، وإن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى.

أما ما ذكرت أنه رقي إليك عني فإنه إنما رقاها إليك الملاقون المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، وكذب الغاؤون، ما أردت لك حرباً، ولا عليك خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك. ومن حزبك القاسطين المحلين، حزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم.

ألست قاتل حجر، وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفزعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعدما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة، جراءة على الله واستخفافاً بعهده؟ أو لست بقاتل عمرو بن الحمق، الذي أخلقت وأبليت وجهه العبادة، فقتلته

من بعدما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم نزلت من رؤوس الجبال؟ أو لست المدعي زياداً في الإسلام، فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله ﷺ: «أن الولد للفراش وللعاهر الحجر»، ثم سلطته على أهل الإسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل، سبحان الله يا معاوية! لكأنك لست من هذه الأمة، وليسوا منك؟.

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٢٢٤.

أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد أنه على دين علي، ودين علي هو دين ابن عمه عليه السلام، الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا، منة عليكم، وقلت فيما قلت: لا ترد هذه الامة في فتنة، وإني لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها، وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد، وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قرابة إلى ربي، وإن لم أفعله فاستغفر الله لديني، وأسأله توفيقه لإرشاد أمري.

وقلت فيما قلت: إني إن أنكرتك تنكرني، وإن أكدك تكديني فكديني ما بدا لك، فإني أرجو أن لا يضرني كيدك، وأن لا يكون على أحد أضر منه على نفسك، لأنك قد ركبت جهلك، وتحرصت على نقض عهدك.

ولعمري ما وفيت بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان والعهود والمواثيق، فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا وقتلوا، ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا؛ مخافة أمر لعلك لو لم تقتلهم مت قبل أن يفعلوا، أو ماتوا قبل أن يدركوا.

فأبشر يا معاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم أن الله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليس الله بناس لأخذك بالظنة، وقتلك أولياءه على التهم، ونفيك إياهم عن دورهم إلى دار الغربية، وأخذك الناس ببيعة ابنك الغلام الحديث يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك، وأهلكت دينك، وأضعت الرعية والسلام»^(١).

لا أكاد أعرف وثيقة سياسية في ذلك العهد عرضت لعبث السلطة وسجلت الجرائم التي ارتكبتها معاوية والدماء التي سفكها والنفوس التي أربعها غير هذه الوثيقة، وهي صرخة في وجه الظلم والاستبداد، والله كم هي هذه الكلمة رقيقة شاعرة (كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك) هذه الكلمة المشبعة بالشعور

(١) الإمامة والسياسة: ج١، ص ١٨٠ - ١٨١. بحار الأنوار: ج٤٤، ص ٢١٤.

الديني الشريف، وقديماً قال الصابي: إن الرجل من قوم ليست له أعصاب تقسو عليهم. وهو اتهام من الحسين عليه السلام لمعاوية في دينه وقوميته معاً، واتخذ من الدماء الغزيرة المسفوكة عنواناً على ذلك.^(١)

لقد حفلت هذه المذكرة بالأحداث الخطيرة التي اقترفها معاوية وعماله خصوصاً زياد بن سمية الذي نشر الإرهاب والظلم بين الناس، فقتل على الظنة والتهمة، واغتال كل من كان على دين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو دين ابن عمه رسول الله ﷺ، وقد أسرف هذا الطاغية في سفك الدماء بغير حق، ومن الطبيعي أنه لم يقترب ذلك إلا بإيعاز من معاوية، فهو الذي عهد إليه بذلك. ولما انتهت رسالة الإمام عليه السلام إلى معاوية ضاق بها ذرعاً، وراح يراوغ على عادته ويقول: إن أثرنا بأبي عبد الله إلا أسداً.^(٢)

مرض معاوية

ومرض معاوية وتدهورت صحته، ولم تنفع معه الوصفات الطبية، فقد تناهبت جسمه الأمراض، وقد شعر بدنو أجله، وكان في حزن على ما اقترفه في قتله لحجر بن عدي، فكان ينظر إليه شبحاً خيفاً، وكان يقول: ويلى منك يا حجر، إن لي مع ابن عدي ليوماً طويلاً.^(٣) وتحدث الناس عن مرضه، فقالوا: إنه الموت، فأمر أهله أن يحشوا عينيه أثمداً، ويسبغوا على رأسه الطيب، ويجلسوه، ثم أذن للناس فدخلوا وسلموا عليه قياماً، فلما خرجوا من عنده أنشد قائلاً:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضع
فسمعه رجل من العلويين فأجابه:
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تيمة لا تنفع^(٤)

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشي: ج ٢، ص ٢٢٧.

(٢) سير أعلام النبلاء: ج ٤، ص ٤١٢، ترجمة الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشي: ج ٢، ص ٢٣٦.

(٤) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٧، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٢٦، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

الفصل الرابع

شخصية معاوية تحت العكسة

الغاية تبرر الوسيلة

هذا شعاره وطريق حياته، ومن أجله أحلّ المساومة وأباح الدهاء، فضحى بكل شيء من أجل نزواته، وهو القائل مرة: لا نصل إلى الحق إلا بالخوض في كثير من الباطل! هذه خطة السياسي الذي لا يهيمه ظلم نفسه أو شعبه ما دامات طموحاته في مأمن، إنه لضلال كبير في الفكر والعمل.

وقف معاوية مرة بين رجالات قريش وقال: إني ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي ولكن خالستكم بسيفي هذا مخالسة! ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة فامتنعت عني، وأردتها عن عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، فأردتها على سنيات عثمان فأبت علي، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة... مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة.. فإن لم تجدوني خيركم فأني خير لكم ولاية.^(١)

فهو يعلن المنهج أمام غطارفة قريش وليوثها متناسياً وخزات التاريخ، ومطمئناً إلى أن من يهزم الضمير هم أقل ممن تستهويهم المؤاكلة الحسنة والمشاركة الجميلة.

فمنذ أول عهده أخذت تنكشف سريرته لأناس كان المقبل على العهد منهم أكثر من المدبر، والموافق الراضي أوفر من المظاهر المنافس؛ ولذا أخذ يؤملهم ويحذرهم بالقناعة بحكمه، فقد خطب في أهل الحجاز قائلاً: يا أهل المدينة اقبلونا بما فينا، فإن ما وراءنا شر لكم، وإن معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى، ومنكر زماننا

(١) تاريخ دمشق: ج ٥٩، ص ١٥٤، ترجمة معاوية بن أبي سفيان. البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٤٣، ذكر أحداث سنة ٥٩ للهجرة. سير أعلام النبلاء: ج ٣، ص ٣٠٥، ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

معروف زمان لم يأت، ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق، وفي كل بلاغ.
 وإيها لرزية أية رزية، أن يعدهم باعتبار معروف زمانه منكر زمان قد مضى،
 وأن ينتظروا زمان ابنه يزيد، حيث يصبح منكر زمانهم معروفاً عنده ومألوفاً.
 فما معاوية لا يكتم سره، وهو كتوم للسر كما يقول؟ وما باله يتبغض إلى
 القرشيين وهو أحب إليهم من غيره على ما يدعي؟ فاستمع إليه يقول قبل ذلك
 بقليل جداً: أعنتُ على علي بأربع كنت أكتم سري وكان رجلاً ظهرة، وكنت في
 أطوع جند وأصلحه وكان في أخبث جند وأعصاه، وتركته وأصحاب الجمل
 وقلت: إن ظفروا به كانوا أهون عليّ منه، وإن ظفر بهم اعتددت بها عليه في دينه،
 وكنت أحب إلى قريش منه، فيالك من جامع إليّ ومفرّق عنه، وعون لي وعون
 عليه!.

لقد بدأت الرزية منذ بدأت الرواية بينه وبين علي عليه السلام؛ إذ لجأ إلى المماكسة،
 فاستحلّ ما حرم الدين، وأباح لنفسه ما لم ينزل الله به من سلطان، وذلك حين
 أرسل الإمام علي عليه السلام جريراً بن عبد الله البجلي إليه ليأخذ البيعة عليه، فكان
 جدال وكانت مدافعة، قال جرير في آخرها: إن المنافق لا يصلي حتى لا يجد من
 الصلاة بدءاً. فقال معاوية: إنها ليست بخدعة الصبي عن اللبن إنه أمر له ما بعده،
 فأبلعني ريق، ثم استمهله وراسل عمرو بن العاص فطالت المراسلة، وناظره
 فطالت المناظرة، فألح عليه جرير بإعطاء الجواب، فقال: ألقاك بالفصل في أول
 مجلس إن شاء الله، ثم كتب لعمرو بمصر طعمة له لثلاثين يوماً والأخذ والرد.
 فاجتمع لمعاوية أمره بعد أن ربح رأي هذا الذي رين على قلبه، فقام في مجلس
 يسمعه منه جرير ولا يراه، وأنشد:

تطاول ليلى واعترتني وساوسي	لأت أتى بالترهات البسابس
أتاني جريرٌ والحواذث جمة	بتلك التي فيها اجتداع المعاطس
أكايدته والسيف بيني وبينه	ولست لأثواب الدنيّ بلابس
إن الشام أعطت طاعة يمنية	تواصفها أشياخها في المجالس

فإن يفعلوا أصدماً علياً بجبهة تفتّ عليه كل رطب ويابس
وإني لأرجو خيراً ما نال نائل وما أنا من ملك العراق بآيس!^(١)
ثم ختم هذه الرزايا بطامة ليس لها لامة حين جاء جماعة من الأنصار يشكون
فقرهم، فقالوا: لقد صدق رسول الله ﷺ في قوله لنا: «ستلقون بعدي إثرة»^(٢)
وقد لقيناها.

فسألهم معاوية: وما قال لكم؟ فقالوا: قال لنا اصبروا حتى تردوا عليّ الحوض،
فقال مستهزئاً، فافعلوا ما أمركم به، عساكم تلاقونه عند الحوض كما أخبركم. ثم
انصرف عنهم، وحرّمهم ولم يعطهم شيئاً مع أنّه كان يغدق العطاء على من له عنده
مآرب. أفهذا شأن من يتسلّم ولاية المسلمين ليوزع الحقوق والفيء في أمة محمد؟
أم هذا شأن العربي الكريم الطبع وقد وفد عليه من يشكو له فقره وسوء حاله؟
ولنستمع إلى مساجلته مع رجل من أهل الكتاب موصوف بالاطلاع على
الكتب السماوية جميعها وفد عليه، فقال له معاوية: أتجد نعتي في شيء من كتب
الله؟ قال: إي والله، لو كنت في أمة لوضعت يدي عليك من بينهم. قال: فكيف
تجدني؟ فقال له: أجذك أول من يحوّل الخلافة ملكاً، والخشنة لينا. قال: ثم يكون
ماذا؟ فأجابه: ثم يكون منك رجل شرّاب للخمر سفّاك للدم، يحتجن الأموال،
ويصطنع الرجال، ويجنب الخيول، ويبيح حرمة الرسول. قال: ثم ماذا؟ قال: ثم
تكون فتنة تشعب بأقوام حتى يقضي الأمر بها إلى رجل أعرف نعتي، يبيع الآخرة
الدائمة بحظ من الدنيا محسوس، فيجتمع عليه ألك وليس منك، لا يزال لعدوه
قاهراً، وعلى من ناوأه ظاهراً، ويكون له قرين مبین لعين، فقال له: أفتعرفه إن
رأيتَه؟ قال: شدّ ما.. فأراه من بالشام من بني أمية، فقال: ما أراه هاهنا، فوجّه
به إلى المدينة مع ثقة من رسله فإذا عبد الملك يسعى مؤتزرّاً وفي يده طائر، فقال
للسل: ها هو ذا، وقد نقل عن معاوية أنه كان يكرم عبد الملك، ليجعلها يداً بيضاً

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٧٨. أشعار معاوية وغيره. أنساب الأشراف: وقعة صفين. ج ٣٣،
نزول جرير على معاوية.

(٢) وقد ذكرت هذه الرواية، عن صحيح البخاري: ج ٤، ص ١٥٧٤، ح ٤٠٧٥.

عنده يجازيه بها في مخلفاته..

أما معاوية فما زال يطمع بالملك منذ قال لرسول الله ﷺ: «يا معاوية إذا ملكت فأحسن». فمن إحسانه أنه كان إذا دخل عليه الشاب من قريش وأغلظ له يقول له: يا بن أخي، أنذاك عن السلطان، فإنه يغضب غضب الصبي، ويأخذ أخذ الأسد، ثم من إحسانه الذي شمل المسلمين وغيرهم أنه كان إذا سمع ببطيريك يظهر العداء للأمويين يهدي إليه أنفس الهدايا، ثم يكتب إليه كتاباً كأنه جواب على كتاب أتاه منه يظهر فيه طاعته، ويعلمه بأنه وقد وثق بإخلاصه لعرش الشام وتصميمه على نصره على ملك الروم. ثم يأمر الرسول أن يتعرض في الطرق لمن يقرأ الكتاب من جيش الروم، فيوصل الخبر لملك الروم، فيكون نصيب البطيريك المحاكمة والعذاب الذي بعضه الصلب!!

من أعجب العجيب أن يهدد بأخذ الأسد، وهو إنما يميّزه جنبه الذي سنرى شيئاً عنه فيما يأتي.

فقد شهد عنده أعرابي بشيء كرهه، فقال له: كذبت، فقال الأعرابي: الكذاب والله مترمّل في ثيابك؟ فقال معاوية وهو يصطنع التبسم: هذا جزاء من عجل. وقد قال له عدي بن حاتم الطائي يوماً: ما أنصفك عليّ إذ قتل وبقيت بعده والله إنّ قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإنّ أسيافنا التي حاربناك بها لفي عواتقنا، وإنّ أدنيت إلينا من الغدر فتراً لندنينّ إليك من الشر شبراً، وإنّ حزّ الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة في عليّ عليه السلام.

ومعاوية عبقرى من الناحية السلبية، أي من ناحية القتل والدوران، يصدر بعقبريته عن روح انهزامية تحيد عن جوهر الموضوع إذا أحست بالقوة، فتلجأ إلى المداهنة حسب ما زعمه عبد الملك بن مروان، وتلجأ إلى مشتري الضمائر بالنقود في كل مناسبة - حتى لإتمام بيعة يزيد - على يد عملاء السوء ممن استخلصهم لنفسه، واستعملهم لنفته، كالمغيرة بن شعبة الذي أرسل ابنه موسى ومعه عشرة رجال أتو ليزينوا له أمر البيعة، فسأله معاوية: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ فقال موسى: بثلاثين ألفاً.

وأورد هنا قصصاً عقد عليها المؤرخون فصولاً ممتعة، وبينوا مدى مكره وجبنه أمام الحق والقوة.

فمنها:

أن أسامة بن زيد وعمر بن عثمان قد تنازعا في أرض واحتكما فيها إلى معاوية في مجلس عام، كان هادئاً، وصار هادراً، وانقلب إلى عصبية ثائرة، قال أثناءها عمر متبجحاً بقربه من الخليفة: كأنك تنكرني؟

فأجابه أسامة: ما يسرني نسبك بولائي، فانتبه الحاضرون للانتساب الصاخب، فقام مروان فجلس إلى جانب الحسن عليه السلام وقام عبد الله بن عامر فجلس إلى جانب أسامة، ثم قام سعيد بن العاص فجلس إلى جانب مروان، وقام الحسين عليه السلام فجلس إلى جانب أخيه، وقام عبد الله بن العباس فجلس إلى جانب سعيد، وعبد الله بن جعفر جلس بجانب الحسين عليه السلام وعبد الرحمن بن الحكم جلس إلى جانب ابن جعفر.. ثم شخبت الأوداج بالدم الهاشمي انتصاراً لأسامة وحملت الأعين.

فأحس معاوية بالشر فقال: لا تعجلوا، الجلية عندي، أنا كنت شاهداً إذ أقطعها رسول الله ﷺ أسامة، فخرج الهاشميون ظاهرين، وقال الأمويون لمعاوية على أثرها: هلا إذ كانت هذه القضية عندك بدأت بها قبل التحزب أو أخرتها عن هذا المجلس؟ فقال: دعوني، فوالله ما ذكرت عيون الهاشمين تحت المغافر يوم صفين إلا لبس على عقلي، وإن الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى. فهذه شهادة له نجيز لأنفسنا أن نشك فيها، ولكننا لا نردها عليه إذ ما ذنبه إذا كان يخاف، فشهد بعد أن ألبس على عقله حين رأى الجماعة يتميزون غيظاً.

ومنها: قوله لعمر وبن العاص بعد استقرار الخلافة: يا أبا عبد الله، لا أراك إلا ويغلبني الضحك، قال: ولماذا؟ أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين فأذريت نفسك فرقاً من شبا سنانه، وكشفت سواتك له! فقال عمرو: أنا منك، أشد ضحكاً، لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك، وربما لسان في فمك، وغصبت بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك.

فقال معاوية: وكيف يكون هذا كله ودوني عك والأشعريون؟ فقال عمرو: إنك لتعلم أنّ الذي وصفت دون ما أصابك، وقد نزل بك ذلك ودونك عك والأشعريون، فكيف كانت حالك لو جمعكما ما قط الحرب؟ فقال معاوية: خض بنا الهزل إلى الجدد، إنّ الجبين والفرار من علي لا عار على أحد فيهما!^(١)

وتفصيل المسألة أنّ علياً عليه السلام دعاه للمبارزة يوم صفين ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما، وكرر النداء: يا معاوية. فسألوه عن شأنه فقال: أحب أن يظهر فأكلمه، فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فلما قاربا لم يلتف إلى عمرو، بل قال لمعاوية: ويحك، علام يقتتل الناس بيني وبينك، ابرز إليّ فأينا يقتل صاحبه فالأمر له: فالتفت معاوية إلى عمرو وقال: ما ترى يا أبا عبد الله؟ فقال: قد أنصفك الرجل. واعلم أنّك إن نكلت عنه لم يزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقي على ظهر الأرض عربي، فقال معاوية، يا ابن العاص، ليس مثلي يخدع عن نفسه، والله ما بارز ابن أبي طالب شجاع قط إلا وسقى الأرض من دمه. ما غششتني منذ نصحتني إلا اليوم، أتأمرني بمبارزة أبي الحسن وأنت تعلم أنّه الشجاع المطرق؟ أراك طمعت في إمارة الشام من بعدي، ثم انصر لما أحس بالشر يحدق به.

وإذ رأى علي عليه السلام ذلك منها ضحك ورجع، ومذ جلسا وهدا روع معاوية أنشد:

يا عمرو إنك قد قشرت لي العصا برضاك لي وسط العجاج برازي
ولقد ظننتك قلت مزحة مازح والهزل يحمله مقال الهازي
فإذا الذي منتك نفسك حاكياً قتلي، جزاك بما نويت الجازي
ولقد كشفت قناعها مذمومة ولقد لبست بها ثياب الخازي
ثم أخذ يقرعه كما تفرع الأرامل اللواتي لا حيلة هنّ إلا التقرع، فأجابه عمرو
كما نقل:

معاوي إن نكلت عن البراز وخفت... فإيها أم المخازي

(١) شرح نهج البلاغة: ج٦، ص٣١٧. الغدير: ج٢، ص١٦٣-١٦٤.

معاوي ما اجترحت إليك ذنباً ولا أنا في الذي حدثت خازي
وما ذنبي بأن نادى علي وكبش القوم يدعى للبراز؟
ولو بارزته بارزت ليثاً حديد الناب يخطف كل بازي
وتزعم أنني أضمرت غشاً جزاني بالذي أضمرت جازي^(١)
وتكرر الغش من عمرو إذ شجع حريثاً مولى معاوية على مبارزة علي عليه السلام
فنهاه سيده، وأبدى له النكر، ولكن ابن العاص شجعه، فكان نصيبه ضربة قسمته
إلى نصفين، فجزع عليه معاوية وبكاه بقوله:

حريث ألم تعلم وجهك ضائر بأن علياً للفوارس قاهر
وأن علياً لم يبارزه فارس من الناس إلا أقصدته الأظافر
أمرتك أمراً حازماً فعصيتني فجدك، إذ لم تقبل النصح، عاثر
وولاك عمرو، والحوادث جمّة غروراً، وما جرت عليك المقادر
وظن حريث أن عمراً نصيحه وقد يهلك الإنسان من لا يجاذر^(٢)
ومن الطريف أن الإمام علياً عليه السلام استبدل لباسه يومها، وطلب معاوية باسم
صاحب اللباس يقيناً، وإذ اقترب من معاوية انتبه لهجمة الغضنفر، فغمز برجليه
على جواده، وعلي عليه السلام وراءه حتى دخل في مصاف أهل الشام، فرآه ابن العاص
فقال: قد أعياني أن أعلم أجبان أنت أم شجاع؛ لأنّي أراك تتقدم حتى أقول أراد
القتال، ثم تتأخر حتى أقول أراد الفرار. فأجابه معاوية: والله ما أقدم حتى أرى
التقدم غنماً، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزمًا، كما قال القطامي:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة وإن لم تكن لي فرصة فجبان^(٣)
ثم جاء النجاشي (في آخر الزمان) ليقتص لعمر من معاوية، فقال يصف

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ٢١٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ٢١٦. وقعة صفين: ص ٢٧٣، ضربة علي لحريث.

(٣) الفائق في غريب الحديث: ج ٢، ص ٢٩٧. تاريخ دمشق: ج ٥٩، ص ١٨٩، ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

رجوعه أمام علي عليه السلام وهربه من المأزق الحرج:

ونجى ابن حرب سابح ذو علالة أ جيش هزيم والرماح دواني
إذ قلت أطراف الرماح تنوشه مرته له الساقان والقدمان^(١)
وجاء أيضاً الحارث بن ظالم فنظم الأبيات الآتية ليتمثل بها معاوية حين عاد
مدعوراً قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وهو يقول بعد أن نجا من القتل على
يد صاحب من أصحاب علي عليه السلام:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي!^(٢)
وذلك حين انتخى مالك الأشتر صاحب علي عليه السلام وقال: أما والله لأحملن
على معاوية حتى أقتله، ثم ركب فرساً وضربه حتى قام على سنابكه، ودفعه فلم
ينهنه شيء عن الوقوف على رأس معاوية الذي هرب ودخل خباء، فنزل مالك
عن فرسه، ودخل عليه، فخرج معاوية من جانب الخباء، فخرج مالك في أثره،
فاستصرخ معاوية الناس، فأحاطوا به وحالوا بينها!

فصمم معاوية أن لا يعود لركوب فرسه بعدها، وعاف الميدان والمبارزة، ثم
جاء الشعبي ليقول له: كان معاوية كالجمل الطيب إذا سكت عنه تقدم، وإذا رد
تأخر.

وقال هو نفسه لابنه يزيد: قد تبلغ بالوعيد ما لا تبلغ بالإيقاع، وإياك والقتل،
فإن الله قاتل القتالين.

وقال لجماعة لاموه على سكوته عن رجل أغلظ له في مجلس عام: إنا لا نحول
بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٨٩.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٢٣. تاريخ دمشق: ج ٥٩، ص ١٣٧، ترجمة معاوية بن أبي سفيان.
أشراف الأنساب: ج ٤، ص ٣٠١، ترجمة معاوية بن أبي سفيان. البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٤٠،
ذكر أحداث سنة ٥٩ للهجرة.

.. أما الخديعة الخالدة (يوم صفين) فقد فكر بها هو ووزير دولته، فتمت وتم له ما أراد من التحكيم، فقال لوزيره المذكور: يا عمرو، إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على قبول أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليهم رجل طويل اللسان قصير الرأي، فأجد الحز وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله. فقد اشتهر لدى كل أصحابه بهذا الجبن المداهن، ومن أجله ذلك قال له عبد الله بن الزبير يوم تنازع أمراً مع مروان، واستشم منه ريح الميل إلى قريبه: أطع الله نطعك فإنه لا طاعة لك علينا إلا في حق الله، ولا تطرق إطراق الأفعوان في أصول السخبر..

وأرجو أن لا يأخذ علي القارئ نعتة بالمداهن؛ إذ ذكره عبد الملك بهذا اللقب يوم خطب فقال: ما أنا بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا بالخليفة المداهن - يقصد معاوية - ولا أنا بالخليفة المأفون - يعني يزيد -.

فمن مدهنته أنه كتب يعظ علياً عليه السلام في وقعة صفين: إن الله تعالى يقول في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

وإني أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها، فاتق الله، واذكر موقف يوم القيامة، واقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو تمالأ أهل صنعاء وعدن على قتل رجل من المسلمين لأكبهم الله على مناخرهم في النار».

فكيف يكون الحال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين - وكان حجراً وأصحابه كانا من عبدة النار - بله ما طحنت حربته من أهل القرآن وذوي العبادة والإيمان من شيخ كبير وشاب غرير، كلهم بالله تعالى مؤمن وله مخلص وبرسوله عارف..

فإن كنت أبا حسن إنما تحارب على الإمرة والخلافة فلعمري لو صحت خلافتك

(١) سورة الزمر: الآية ٦٥.

لكنت قريباً من أن تعذر في أمر المسلمين، ولكنها ما صحت لك.
أتى بصحتها وأهل الشام لم يدخلوا فيها ولم يرتضوا بها؟ فخف الله وسطواته،
واتق بأسه ونكاله، واغمد سيفك عن الناس، فقد والله أكلتهم الحرب، فلم يبق
منهم كالشمذ في الغدير، والله المستعان.

إن من البيان لسحراً! وإن من المواربة ما يأخذ باللب!

نقرأ هذا الكلام المنمق فنعتقد أن الجواب عليه كالرد على الله وعلى رسوله ﷺ.
وهل هو إلا من القرآن والحديث؟ فماذا عند علي عليه السلام ليجيب به؟ اسمعه وقد
أجاب بما أتى عليه فجعله هباء منثوراً. قال له عليه السلام:

«قد أتتني منك موعظة موصلة، ورسالة محبرة، نمقتها بضلالك، وأمضيتها
بسوء رأيك، وهي كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى
فأجابه، وقاده الضلال فاتبعه، فهجر لا غطاً وضل خابطاً.. فأما أمرك لي بالتقوى
فأرجو أن أكون من أهلها، وأستعيز بالله من أن أكون من الذين إذا أمروا بها
أخذتهم العزة بالاثم. وأما تحذيرك إياي أن يحبط عملي وسابقتي في الإسلام
فلعمري لو كنت الباغي عليك لكان لك أن تحذرنى ذلك، ولكنني وجدت الله
تعالى يقول: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَغِيٍّ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾^(١).

فنظرنا إلى الفتتين فوجدنا الفئة الباغية التي أنت فيها، لأن بيعتي بالمدينة
لزمتك وأنت بالشام، كما لزمتك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على الشام،
وكما لزمت أخاك يزيداً بيعة عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام. وأما شق عصا
هذه الأمة فأنا أحق أن أنهاك عنه.

وأما تخويفك لي من قتل أهل البغي فإن رسول الله ﷺ أمرني بقتلهم وقتلهم.
وقال لأصحابه: «إِنَّ فِيكُمْ مَنْ يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»
وأشار إليّ وأنا أولى من اتبع أمره.

وأما قولك: إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها، فكيف وإنّما

(١) سورة الحجرات: الآية ٩.

هي بيعة واحدة تلزم الحاضر والغائب، ولا يستثنى فيها النظر، ولا يستأنف فيها الخيار؟ فأربع على ظلعك، وانزع سربال غيك، واترك ما لا جدوى له عليك، فليس لك عندي إلا السيف حتى تفيء إلى أمر الله صاغراً أو تدخل في البيعة راغماً.^(١)

ونلاحظ كيف فضح الإمام عليه السلام الخديعة والتضليل وخلط الحق بالباطل الذي عجنه معاوية.

وأسلوب المداينة والمكر هذا كان الصفة العامة على أصحابه لأن الناس على دين ملوكها وهذا عمرو وبسر كشفوا سواتيهما لينجوا من سيف الحق، واضطرا الحارث بن نصر الخثعمي إلى القول:

أفي كل يوم فارس لك ينتهي وعورته وسط العجاجة بادية
يكف لها عنه علي سنانه ويضحك منها في الخلاء معاوية
بدت أمس من عمرو تقشع رأسه وعورة بسر مثل حذو حاذية
فقولا لعمرو ثم بسر: ألا انظرا لنفسكما، لا تلقيا الليث ثانية
ولا تحملا إلا الحيا، وخصاكما هما، كانتا والله للنفس واقية!!^(٢)
أما حق بني هاشم فأمر كان معاوية يعترف به ولا يجادل فيه، بل يعرفه لذويه، ويحاج من يحاجه.

ألا نذكر قوله لابنه يزيد عندما استكثر عطاءه للحسن والحسين عليهما السلام: يا بني، إن الحق حقهم، فمن أتاك منهم فأحث له؟^(٣)

لم يعترف لأهل المدينة بأنه الملك المغتصب حين قال لهم: ما اختلف أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها! ثم انتبه فأردف: إلا هذه الأمة

(١) نهج البلاغة: ص ٣٦٨، الكتاب ٧. بحار الأنوار: ج ٣٣، ص ٨٢.

(٢) البداية والنهاية: ج ٤، ص ٢٠، ذكر أحداث سنة ٣ للهجرة. بحار الأنوار: ج ٣٢، ص ٥٩٩، باب جمل ما وقع في صفين.

(٣) البداية والنهاية: ج ٤، ص ٢٠، ذكر أحداث سنة ٣ للهجرة. بحار الأنوار: ج ٣٢، ص ٥٩٩، باب جمل ما وقع في صفين.

فإيتها وإيتها... تلعثم فنزل؟

ألم يعترف بعدم مشروعية حقه يوم قال لأهل الكوفة: والله ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، إنكم تفعلون ذلك، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم؟

أو لم يقل يوم ذاك وإني منيت الحسن؟ فقد مناه ومنى المسلمين ولم يف له فنعته أكثر المؤرخين بالغدر والمكر والتهتك والاستهتار بكل تراث في سبيل السلطان الذي ذاق حلاوته وطعم رغده.

نعم ذاق حلاوته وطعم رغده، فقد قدم على عمر بن الخطاب من الشام وهو أبض الناس وألينهم لباساً، فضربه عمر على عضده وقال: هذا والله لتشاغلك بالحمامات، وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حشرات على بابك!.

فالحقد على الهاشميين كان إلى جانب معرفته بحقهم الصريح يتأجج في صدره، ويتآكل قلبه، وكذلك كره محمد ﷺ كان يسد عليه منافذ نفسه، ولكن كيف له بما قد مضى فسبق فيه السيف العذل؟

ولم تخف هذه الظاهرة عنده على أحد فضلاً عن أصحابه، فقد زاره بعض الأمويين في أواسط عهده، فقالوا له: إنك قد بلغت ما أملت، فلو كفت عن لعن علي، فأجابهم قائلاً: لا والله، حتى يربو عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير، ولا يذكر له ذاك فضلاً.^(١)

وقد قال له بعض أصحابه في مناسبة: إن أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه، وعمر عاجلها وعالجته، وعثمان نال منها ونالت منه. أما أنا فقد تضجعتها ظهراً لبطن، وانقطعت إليها فانقطعت إلي.^(٢)

فهو يفتخر بانقطاعه إلى الدنيا وباستسلامه لنزغاته ونزغاته. أو لم تسمع ما كان بينه وبين خريم بن فاتك؟ لقد دخل عليه هذا ومثزره مشمر وكان حسن الساقين،

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٥٧. النصائح لكافية: ص ٩٧.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٤٤، ص ٢٨٧. البداية والنهاية: ٧، ص ١٤٨ ذكر أحداث ٢٣ للهجرة.

فقال له: لو كانت هاتان الساقان لامرأة؟ فقال خريم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين!^(١)

فانظر إلى المجون التي هوت بخلق خليفة المسلمين، وأنزلت إلى درجة تمكن معها فرد من رعيته أن يجيبه بذاءة تسكته دون أن ينسى لقبه! أو لم تسمع بما كان بينه وبين تربه (عمرو بن العاص) من اللهو الباطل. إذ قال له: لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت، فقال عمرو: لا لعمر الله ما مثلي يخدع؛ لأنني أكيس من ذلك. فقال معاوية: ادن مني أسارك، فدنا عمرو، فعرض معاوية أذنه وقال: هذه خدعة!^(٢)

يومي منك يا حجر طويل

وقد كان عوتب على تفضيحه بحجر وأصحابه من عائشة حين قالت له: أين كان حلمك من حجر؟ فقال: لم يحضرني رشيد.^(٣) كما عوتب من عبد الرحمن بن الحرث بقوله: أين غاب منك حلم أبي سفيان؟ فأجابه: حين غاب عني مصلك من حلماء قومي، وحملني ابن سمية فاحتملت!^(٤) فلم صار زياد ابناً لسمية الآن؟ ولم نسي معاوية إثبات نسبه في ذلك المجلس المرذول لو ضر؟

وقد لام سعد بن أبي وقاص إذ قعد عن نصرته يوم صفين، فقال له سعد: أتأمرني أن أقاتل رجلاً قال له رسول الله ﷺ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟ فقال معاوية: من سمع هذا الحديث معك؟ فقال: فلان وفلان، وأم سلمة، فقال معاوية: لو كنت سمعت هذا لما قاتلته.^(٥)

(١) تاريخ دمشق: ج ١٦، ص ٣٥٢، ترجمة حريم بن فاتك.

(٢) الأخبار الطوال: ص ١٥٨.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٥٧، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٧٩، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة. تاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ١٦. وفاة زياد.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢٦٤.

فلحظات الآخرة ووخز الضمير كثيراً ما كانت تعود في آخر حياته، أي يوم أخذت تتقطع أسبابه من الدنيا وترتبط بالآخرة، فقد قال لبناته لما يئس من نفسه إذ اشتد مرضه وأيقن بالهلاك: قلبني، ففعلن، فقال: إنكن لتقلبنه حولاً قلباً إن وقي كبة النار!

ثم التفت لابنة قرظة وقال: ابكيني زوجة!.. هل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا؟ أما والله قد استقبلنا زهرتها بجذتنا وباستلذاذنا بعيشنا، فما لبثت الدنيا أن نقضت ذلك منا، حالاً بعد حال، وعروة بعد عروة، فأصبحت وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت إلينا، أف لها من دار، ثم أف لها من دار!

وكان آخر ما قاله قبل الموت: أيها الناس، إن من زرع قد استحصد، وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد، من بعدي إلا وهو شر مني، كما كان من قبلي خيراً مني^(١)، يا ليتني كنت رجلاً بذني طوى!! وهذا يتنافى مع قوله:

قد عشت في الناس ألواناً على خلق شتى وقاسيت فيها اللين والقطعا
كلا لبست فلا النعماء تبطرنى ولا تخشعت من لأوائها جزعا^(٢)
وقال لعمر و يوم سأله: ما بقي مما تستلذه، فقال: أما النساء فلا أرب لي فيهن،
وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها، حتى وهى بها جلدي، فما أدري أيها
ألين، وأما الطعام فقد أكلت من لذيله وطيبه حتى ما أدري أيه أطيب، وأما
الطيب فقد دخل إلى خياشيمي منه حتى ما أدري أيه أطيب، فما شيء ألد عندي
من شراب بارد في يوم صائف، ومن أن أنظر لبنيّ وبنيّ يدورون حولي.^(٣)
أهكذا يكون من يزعم إمارة المؤمنين؟ هذه بعض ملامح صورته الخلقية التي
رسمها بنفسه.

(١) البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٥٣، ذكر أحداث سنة ٥٩ للهجرة.

(٢) الفرج بعد الشدة: ج ٥، ص ٥، باب ١٤، فيما اختير من ملح الأشعار.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٩، ص ٩٩.

وأما أفعاله المجانبة للعدالة كلبسه للحريير وشربه في أنية الذهب وأكله في أنية الفضة فقد أنكرها عليه كثيرون، ومنهم أبو الدرداء الذي قال له يوماً: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشارب فيها لتجرجر في جوفه نار جهنم»، فقال معاوية: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً، فقال أبو الدرداء: من عذيري من معاوية؟ أنا أخبره عن الرسول وهو يخبر عن رأيه، لا أساكنك بأرض أبداً.

وكما أن ما مر من سلوكه يقدر في عدالته، فإن هذا يقدر في عقيدته أيضاً؛ لأنّ الراد على الرسول ﷺ كالراد على الله، وهذا ليس بصحيح العقيدة، وإلا فما معنى استنثاره بالفيء، وحده بمن لا حد عليه، وإسقاطه الحد عن يستحقه؟

وما معنى حكمه في رعية وفي دين الله برأيه؟ وقد فطن لذلك ابنه يزيد، فقال له - يوم بويع له بولاية العهد فجعل الناس يمدحونه ويقرضونه - : يا أمير المؤمنين، أنخدع الناس أم يخدعوننا؟ وقد كان الناس يومئذ يسلمون على معاوية ثم يميلون إليه، إلى أن جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، وكان الأحنف جالساً فقال له معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال: جزاك الله عن الطاعة خيراً وأمر له بألوف.

ولما خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب فقال له معذراً عن تمدحه ليزيد وتزلفه لمعاوية، يا أبا بحر، إني لأعلم أن شر الناس من خلق الله هذا وابنه، ولكنها قد استوثقا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلنسنا نطمع باستخراجها إلا بما سمعت، فقال الأحنف - وهو ابن قيس - يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليف ألا يكون عند الله وجيهاً^(١).

فحوادث معاوية مع كافة ملازميه تغص بها بطون الكتب.

وقد كان عمرو وبقية الملازمين يبخبخون له في كل حوادثه، طمعاً في مشاركته سلطانه ولذاته.

(١) العقد الفريد: ج٤، ص٣٧، ج١، ص٥٩.

فيا أبا يزيد: اشرق بريقك، فالحق ما قاله الإمام الباقر عليه السلام: «مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك، وتقربك من يومك»^(١).

أقواله المأثورة

١- حكي معاوية لابن عباس: إن في نفسي منكم لحزازات يا بني هاشم وإني لخليق أن أدرك بكم الثأر.^(٢)

٢- ذكر ابن الأثير في تاريخه: لما مرض معاوية مرضه الذي مات فيه دعا ابنه يزيد فقال: يا بني، إنني كفيتك الشد والترحال، ووطأت لك الأمور، وذلت لك الأعداء، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد... وإني لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقده العباد، فإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي عليه السلام فإنه رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، وأما ابن أبي بكر فإنه إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله، ليس همته إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويرواغك مرواغة الثعلب، فإن أمكته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إرباً إرباً.^(٣)

٣- قال معاوية لما حضرته الوفاة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كساني قميصاً فحفظته، وقلم أظفاره فأخذت قلامه فجعلتها في قارورة، فإذا مت فألبسوني تلك القميص

(١) الفائق في غريب الحديث: ج ٢، ص ٩٠. بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ١٧٩، ح ٥٩.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٣٠٢.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

يذكر بعض الرواة - ومنهم ابن الأثير نفسه - أن عبد الرحمن بن أبي بكر، كان قد مات قبل معاوية، قيل: إن يزيداً كان غائباً من مرض أبيه وموته، وإن معاوية أحضر الضحاك بن قيس، ومسلم بن عقبة المري فأمرهما أن يؤديا عنه رسالته التي ذكرناها في المتن إلى يزيد ابنه. تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٢٢ - ٣٢٤، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

واسحقوا تلك القلامه وذروها في عيني وفمي، فعسى الله أن يرحمني ببركتها.^(١)
 ٤- ذكر الطبري بأسانيده المختلفه عن أبي مسعدة الفزاري قال: قال لي معاوية:
 يا ابن مسعدة، رحم الله أبا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده، وأما ابن حنتمه (أي عمر)
 فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصاب منه، وأما نحن
 فتمرغنا فيها.^(٢)

٥- أغلظ رجل لمعاوية فأكثر، فقيل له: أتحملم عن هذا؟ فقال: إني لا أحول بين
 الناس وألستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا.^(٣)

٦- قام معاوية خطيباً بعد أن دس السم للأشتر فقال: أما بعد، فإنه كانت لعلي
 يمينان، قطعت إحداهما بصفين وقطعت الأخرى اليوم.^(٤)

٧- سأل معاوية عمرو بن العاص: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلت في شيء
 قط إلا خرجت منه، قال معاوية: لكنني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج
 منه.^(٥)

٨- وقال معاوية: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا شدوها
 أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها.^(٦)

معاوية في الميزان

كل شيء في الحياة الإنسانية هين إذا سقطت القيم والموازين الإنسانية، وإثمها

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٧، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة، ومما يلفت النظر حقاً أن يحتفظ
 معاوية بقلامه ظفر النبي ﷺ ولا يحافظ على سنته!! تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٢٧، ذكر
 أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٣٤، أحداث سنة ٦٠، وفي رواية أخرى «أما أنا فقد تضجعتها ظهراً
 لبطن وانقطعت إليها فانقطعت لي». الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٣، ذكر أحداث سنة ٦٠
 للهجرة.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٣٦، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

(٤) ويقصد بذلك عمار بن ياسر والأشتر. الغدير: ج ١١، ص ٦٢. النصائح الكافية: ص ٨٧.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ١٥، ص ١٠٢، تاريخ البعقوبي: ج ٢، ص ٢٣٨.

(٦) شرح نهج البلاغة: ج ١٥، ص ١٠٢. غريب الحديث: ج ٢، ص ١٣٨.

لأهون من ذلك إذا جاوز الأمر إلى انعكاس الأحكام وانقلابها فصار الحق باطلاً والباطل حقاً. فمن الناس من يجب أن تتغلب المنفعة على الحقيقة أو على الفضيلة؛ لأنّه يرجع إلى طبيعته فيشعر بحقارتها إذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة؛ ولأنّه يكره أن يدان الناس أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا، فيلوم نفسه ولا يقدر على التماس المذرة لها في طبيعتها التي لا فكاك منها. وليس أبغض إلى الإنسان من احتقاره لنفسه، وليس أحب إليه من تعظيمه لها وتبريره لدواخلها.

وإذا لم يرجح من أخبار فترة النزاع بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية بعد مقتل عثمان إلا الخبر الراجح عن لعن علي عليه السلام على المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ما عداه مما تم به الترجيح بين كفتي الميزان، فإنّ الذي يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه في كل مكان وبكل لسان. ولو لم يرد من أخبار تلك الفترة إلا أن معاوية كان يصدق الأموال على الأعوان ومن يرجى منهم العون، لكان لعن خصمه على المنابر كافياً للإبانة عما صنعه لكسب الثناء عليه وإسكات القادحين فيه، ولكن أخبار الأموال المبذولة لتغيير الحقائق في هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين، ومن لا يمدحون ولا يقدحون.

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن أحمد بن حنبل أنّه سأل أباه عن علي ومعاوية؟ فقال: اعلم أنّ علياً كان كثير الأعداء، ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كباداً منهم له.^(١) وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الإسلامية قسمين: أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصّة معاوية، والآخر لا وفاق فيه وهو حصّة علي عليه السلام من الحجاز والعراق، وقد تدخل مصر فيها حيناً وتخرج منها أكثر الأحيان، فكانت أعباء الخلافة كلها على علي عليه السلام، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية، مواتية له، محيطة به فيما

(١) تاريخ السيوطي: ص ١٥٩.

يريد وفيها لا يريد. كان الناس مع علي عليه السلام ينظرون إلى سنة الرسول ﷺ، وكان الناس مع معاوية ينظرون إلى هرقل وكسرى، فكان المجتمع الإسلامي مجتمعين، افترقا غاية افتراقهما، فالدهاء عند معاوية مزية وضرورة ونهج وغطاء للخوف والخبث، لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة غير صريحة يبلغ بها صاحبها مأربه، وأبرع ما برع فيه معاوية من ألوان الدهاء إلقاء الشبهة بين خصومه.

وقد احتال بمثل هذه الحيل على قيس بن سعد، وحيلة أخرى هي الوسائل الخفية التي توسل بها معاوية للغلبة على خصومه ومنافسيه.

ومات الحسن عليه السلام ومات مالك بن الأشتر ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعوجلوا جميعاً بغير علة ظاهرة، فسبق إلى الناس ظن كاليقين أنّها حيلة مدبرة، وأنّ صاحبها من كان له نفع عاجل بتدبيرها وهو معاوية.

وكان معاوية عظيم العناية بأطياب الخوان، كثير الزهو بالثياب الفاخرة والحلية الغالية، وكان يأكل ويشرب في أنية الذهب والصحاف المرصعة بالجواهر، ويأنس للسمع واللهو، ولا يكتف طربه بين خاصة صحبه.

وقد ألقأته الحاجة إلى إنفاق المال في أهبة الملك والإغداق على الأعوان والخدم إلى إرهاب الرعية بالضرائب ومخالفة العهود مع أصحاب الحمية، فكان من الولاة من يطيعه، ومنهم من يجيبه معترضاً.

ومن الولاة الذين أنكروا أن تستصفى الأموال لبيت مال الخليفة والي خراسان الذي كتب إليه زياد يأمره ألا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة، فكتب الوالي إلى زياد: بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين، وإني وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين.

وليس أضل ولا أجهل من المؤرخين الذين سمو سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة؛ لأنّها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة، فلم يشاركه أحد فيها؛ لأنّ صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها؛ إذ كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة وهي التفرقة بين الجميع.

ولم يقصر هذه الخطة على ضرب خصومه ببعضهم، كضرب الشيعة بالخوارج، والعرب بالموالي، واليمانية بالقيسية، بل كان يفعل ذلك في صميم البيت الأموي من غير السفينيين.

وواضح من هذه التفرقة أنه كان يكف يده عن البطش والنكاية في معاملتهم جميعاً؛ لأنه كان يغري بعضهم ببعض، فيستغني بالوقية بينهم عن الإيقاع بهم، ولكنه على هذا كله كان يؤيد سياسة الإيقاع مهما يكن من قسوتها.

وكان يختار لها من الولاة من يعلم أنه يفرط فيها، ولا يقتصد في شرورها، ولا يبالي أن يأخذ البريء بذنب الأثيم، ولا أن ينكل بالقرب قصاصاً من البعيد.

وخرج معاوية من الملك بالأيام التي قضاها في نعمته وثرائه، ولا نقول في صولته وعزه، فقد كان يذل لكل ذي بيعة منشودة ذلاً لم يصبر من بايعوه على مثله. إما تبعته العامة في أمر الملك فأمر جسيم لا تعدله جسامة عمل في عصره؛ لأنه نكص الملك خطوات، ولو أنه أنشأ هذا الملك والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم، غير أن الناس عرفوا في زمانه فارقاً شاسعاً بين ولي الأمر الذي يتخذ الحكم خدمة للرعية وبين الحكم الذي يجري على سنة المساومة، ويملي لصاحبه في البذخ والمتعة، ويجعله قدوة لمن يقتدون به في السرف والمغالاة بصغائر الحياة.

الفصل الخامس

أمراء يقرّون بما فعلوا

حقاً ما قيل: الفضل ما شهدت به الأعداء، وأدل دليل على كفاءة المرء وجمالة قدره وعلو شأنه هو أن يشهد خصومه بمزاياه وفضائله، والمرء إذا مدح نفسه فقد ذمها، وإذا مدحه أحباؤه وأصدقاؤه، لأمكن أن يقال إنهم يحبوه، وقد فتنهم الحب فصاروا ينسبون له من الفضائل ما ليس فيه. أما إذا مدحه خصومه وشادوا بسماته ومناقبه فإن مدحهم يعد دليلاً على عظمته.

ومن هنا نحن لا نذكر ما قالته شيعة علي عليه السلام فيه من سمات النبيل والعظمة، وإنما نكتفي بما قاله أبرز خصومه السياسيين الذين عملوا ليل نهار من أجل عزله عن الحكم أولاً، ثم اغتيال شخصيته ثانياً، ثم تصفيته جسدياً ثالثاً، وهؤلاء هم.. ومعاوية وعمرو بن العاص، هكذا رأى بعض المؤرخين المحللين لوقائع التاريخ، كما أن هذا ما يثبته منطق الأحداث أيضاً، فعمر جعلها شورى، وبالتالي مهد الأمر لعثمان، ثم اشترك معاوية مع عمرو بن العاص في الطريق الثاني والثالث، وعلى أي حال فإليك بعض كلماتهم من باب من فمك أدينك.

أبو بكر غصب الخلافة

روى المسعودي وغيره أن معاوية رد على محمد بن أبي بكر حين كتب إلى معاوية يذكره بفضل الإمام علي عليه السلام وأحقية بالخلافة - وكان رده إعتراضاً صريحاً - بأن أبا بكر هو الذي غصب الخلافة، ولأهمية ما جاء في الرسالتين سأنقلها معاً:

كتاب محمد بن أبي بكر إلى معاوية

من محمد بن أبي بكر، إلى الغاوي معاوية بن صخر:

سلام على أهل طاعة الله ممن هو سلم لأهل ولاية الله.

أما بعد، فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته خلق خلقه بلا عبث منه، ولا ضعف في قوته، ولا حاجة به إلى خلقهم، ولكنه خلقهم عبيداً، وجعل منهم غويّاً ورشيداً، وشقيّاً وسعيداً، ثم اختار على علم واصطفى، وانتخب منهم محمداً ﷺ، فاخصه برسالته، واختاره لوحيه، وائتمنه على أمره، وبعثه رسولاً ومبشراً ونذيراً، مصداقاً لما بين يديه من الكتب، ودليلاً على الشرائع، فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان أول من أجاب وأجاب وآمن وصدق وأسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام، صدقه بالغيب المكتوم، وآثره على كل حميم، ووقاه بنفسه كل هول، وواساه بنفسه في كل خوف، وحارب حربته، وسالم سلمته، فلم يبرح مبتدلاً لنفسه في ساعات الأزل ومقامات الروع، حتى برز سابقاً لا نظير له في جهاده، ولا مقارب له في فعله.

وقد رأيتك تُساميه وأنت أنت، وهو هو، السابق المبرز في كل خير، أول الناس إسلاماً، وأصدق الناس نية، وأفضل الناس ذرية، وخير الناس زوجة، وأفضل الناس ابن عم، أخوه الشاري لنفسه يوم مؤتة، وعمه سيد الشهداء يوم أحد، وأبوه الذاب عن رسول الله ﷺ، وعن حوزته، وأنت اللعين ابن اللعين، لم تنزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله العوائل، وتجهدان في إطفاء نور الله، تجمعان على ذلك الجموع، وتبدلان فيه المال، وتؤلبان عليه القبائل.

وعلى ذلك مات أبوك، وعليه خلفته، والشهيد عليك من تدني ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق لرسول الله ﷺ.

والشاهد لعلي مع فضله المبين وسابقته القديمة أنصاره الذين معه، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار، وهم معه كتائب وعصائب يجالدون حوله بأسيافهم، ويهرقون دماءهم دونه، يروون الحق في اتباعه، والشقاء في خلافه.

فكيف - يا لك الويل! - تعدل نفسك بعلي وهو وارث رسول الله ﷺ، ووصيه وأبو ولده: أول الناس له اتباعاً، وأقربهم به عهداً، يخبره بسرّه، ويطلعه على أمره،

وأنت عدوه وابن عدوه؟
 فتمتّع في دنياك ما استطعت بباطلك، وليمددك ابن العاص في غوايتك، فكأنّ
 أجلك قد انقضى، وكيدك قد وهى، ثم يتبين لك لمن تكون العاقبة العليا!
 واعلم أنّك إنّما تكايد ربك الذي أمّنت كيده، ويئست من رَوْحِه؟ فهو لك
 بالمرصاد، وأنت منه في غرور، والسلام على من اتبع الهدى.^(١)
 وفي كلمات الرسالة من المضامين ما يكفي عن التعليق في وصف معاوية
 وسياسته، وفضائل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

رد معاوية على محمد بن أبي بكر

من معاوية بن أبي سفيان إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر.
 سلام على أهل طاعة الله.
 أما بعد فقد أتاني كتابك، تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه، وما أصفى به
 رسول الله، مع كلام ألفته ووضعته، لرأيك فيه تضعيف، ولأبيك فيه تعنيف.
 ذكرت فيه فضل ابن أبي طالب، وقديم سوابقه وقرابته من رسول الله ﷺ،
 ونصرته له ومواساته إياه في كل هول وخوف، فكان احتجاجك عليّ وفخرك
 بفضل غيرك لا بفضلك، فأحمد رباً صرف الفضل عنك، وجعله لغيرك.
 فقد كنا وأبوك معنا في حياة من نبينا نعرف حق ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله
 مبرزاً علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته وأفلج
 حجته، وقبضه الله إليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزّه حقه وخالفه على أمره،
 على ذلك اتفقا واتسقا، ثم إنّهما دعواهما إلى بيعتهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهما به
 الهموم، وأرادا به العظيم، ثم إنّهما بايعهما وسلم لهما، وأقاما لا يشركانه في أمرهما،
 ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضهما الله وانقضى أمرهما، ثم قام ثالثهما عثمان

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٢٠ - ٢١، ذكر خلافة معاوية بن أبي سفيان. شرح نهج البلاغة: ج ٣،
 ص ١٨٨. النصائح الكافية: ص ٤٢ - ٤٣. الجمل: ص ٨٩ - ٩٠. الشيعة هم أهل السنة: ٢٦٢ -
 ٢٦٣.

بن عفان، فهدى بهديهما، وسار بسيرتهما، فعبعته أنت وصاحبك، حتى طمع فيه الأفاصي من أهل المعاصي، فطلبتما له الغوائل حتى بلغتما فيه مناكما. فخذ حذرک يا ابن أبي بكر، فستری وبال أمرک، وقس شبرک بفترك تقصر عن أن تساوي أو توازي من يزن الجبال حلمه، ولا تلين على قسر قناته، ولا يدرك ذو مدى أناته.

أبوك مهد مهاده، وبني ملكه وشاده، فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله، وإن يك جوراً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، فبهديه أخذنا، وبفعله اقتدينا، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب، ولسلمنا إليه، ولكننا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا، فاحتدينا مثاله، واقتدينا فعاله، فعب أباك بما بدا لك أو دع، والسلام على من أناب ورجع من غوايته وتاب.^(١)

وقد علق التيجاني السماوي على هذه الرسالة قائلاً: ونستنتج من هذا الرد بأن معاوية لا ينكر فضائل علي بن أبي طالب ومزاياه، ولكنه تجرأ عليه احتذاء بأبي بكر وعمر، ولولاهما لما استصغر شأن علي عليه السلام ولا تقدم عليه أحد من الناس، كما يعترف معاوية بأن أبا بكر هو الذي مهد لبني أمية، وهو الذي بنى ملكهم وشاده.

ونفهم من هذه الرسالة بأن معاوية لم يقتد برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يهتد بهديه عندما اعترف بأن عثمان هدى بهدي أبي بكر وعمر وسار بسيرتهما.

وبذلك يتبين لنا بوضوح بأنهم جميعاً تركوا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، واقتدى بعضهم ببدعة بعض، كما أن معاوية لم ينكر بأنه من الضالين الذين يعملون بالباطل، وأنه لعين ابن لعين على لسان النبي صلى الله عليه وسلم.^(٢)

(١) وقعة صفين: ص ١٢٠، ذكر قدوم ابن عباس. مروج الذهب: ج ٣، ص ٢١ - ٢٢، ذكر خلافة

معاوية بن أبي سفيان. شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ١٨٩.

(٢) الشيعة هم أهل السنة: ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

يزيد: وعمر غضب الخلافة أيضاً

روى البلاذري:

لما قتل الحسين عليه السلام كتب عبد الله بن عمر إلى يزيد بن معاوية: أما بعد، فقد عظمت الرزية، وجلت المصيبة، وحدث في الإسلام حدث عظيم، ولا يوم كيوم الحسين.

فكتب إليه يزيد: أما بعد يا أحمق فإننا جئنا إلى بيوت منجدة، وفرش ممهدة، ووسائل منضدة، فقاتلنا عنها، فإن يكن الحق لنا فعن حقنا قاتلنا، وإن كان الحق غيرنا، فأبوك أول من سنا هذا وابتز واستأثر بالحق على أهله.^(١)

وفي رد معاوية على ابن أبي بكر كما في رد يزيد على ابن عمر، نجد نفس المنطق ونفس الاحتجاج، وهو لعمرى أمر ضروري يقره الوجدان، ويدركه كل عاقل، ولا يحتاج في الحقيقة إلى شهادة معاوية وابنه يزيد.

فلولا استبداد أبي بكر وعمر على علي عليه السلام لما وقع ما وقع في الأمة الإسلامية، ولو تمكن علي عليه السلام من الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكم المسلمين لتواصلت خلافته إلى سنة أربعين للهجرة - أعني ثلاثين عاماً بعد النبي -^(٢) وهي مدة كافية لإرساء قواعد الإسلام بكل أصوله وفروعه، ولتمكن عليه السلام من تطبيق كتاب الله وسنة رسوله بدون تحريف ولا تأويل.^(٣)

ولما وليها بعد وفاته غير سيدي شباب أهل الجنة الإمام الحسن والإمام الحسين وأولاده المعصومين عليهم السلام وتواصلت خلافة الراشدين ثلاثة قرون، لم يكن بعدها للكافرين والمنافقين والملحدون تأثير ولا وجود، وكانت الأرض غير الأرض، والعباد غير العباد، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) النزاع والتخاصم: ص ١١٢. بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ٣٢٨. الشيعة هم أهل السنة: ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) لأن أبا بكر وعمر وعثمان توفوا في حياة الإمام علي عليه السلام.

(٣) الشيعة هم أهل السنة: ص ٢٦٦.

أبو بكر يقر بغضب الخلافة

في الاحتجاج: عن عامر الشعبي، عن عروة بن الزبير، عن الزبير بن العوام قال: لما قال المنافقون: إن أبا بكر تقدم علينا، وهو يقول: أنا أولى بالمكان منه. قام أبو بكر خطيباً فقال: صبراً على من ليس يؤول إلى دين، ولا يحتجب برعاية، ولا يرعوي لولاية، أظهر الإيمان ذلة، وأسر النفاق غلة، هؤلاء عصبة الشيطان وجمع الطغيان. يزعمون أنني أقول: إني أفضل من علي، وكيف أقول ذلك؟ وما لي سابقته ولا قرابته ولا خصوصيته، وحد الله وأنا ملحده، وعنده قبل أن أعبد، ووالى الرسول وأنا عدوه، وسبقني بساعات لو تقطعت لم ألحق ثناءه، ولم أقطع غباره.

إن علي بن أبي طالب فاز - والله - من الله بمحبته، ومن الرسول بقربه، ومن الإيمان برتبة لو جهد الأولون والآخرون - إلا النبيين - لم يبلغوا درجته، ولم يسلكوا منهجه، بذل لله مهجته، ولابن عمه مودته، كاشف الكرب، ودافع الريب، وقاطع السبب إلا سبب الرشاد، وقامع الشرك، ومظهر ما تحت سويداء حبة النفاق، مجنة^(١) هذا العالم، لحق قبل أن يلاحق، وبرز قبل أن يسابق، جمع العلم والحلم والفهم، فكأن جميع الخيرات كانت لقلبه كنوزاً، لا يدخر منها مثقال ذرة إلا أنفقه في بابه.

فمن ذا يأمل أن ينال درجته وقد جعله الله ورسوله للمؤمنين ولياً، وللنبي وصياً، وللخلافة واعياً، وبالإمامة قائماً؟ أفيغتر الجاهل بمقام قمته إذ أقامني، وأطعته إذ أمرني؟

سمعت رسول الله يقول: الحق مع علي وعلي مع الحق، من أطاع علياً رشد، ومن عصى علياً فسد، ومن أحبه سعد، ومن أبغضه شقي، والله لو لم نحب ابن أبي طالب إلا لأجل أنه لم يواقع الله محرماً ولا عبد من دونه صنماً، ولحاجة الناس إليه بعد نبينهم لكان في ذلك ما يجب، فكيف لأسباب أقلها موجب، وأهونها مرغّب!

(١) مجنة: الموضع الذي يستتر فيه.

له الرحم الماسة بالرسول، والعلم بالدقيق والجليل، والرضا بالصبر الجميل،
والمواساة في الكثير والقليل، وخلال لا يبلغ عدها، ولا يدرك مجدها.
والمتمنون أن لو كانوا تراب ابن أبي طالب، أليس هو صاحب لواء الحمد، والساقى
يوم الورود^(١) وجامع كل كرم، وعالم كل علم، والوسيلة إلى الله وإلى رسوله؟!^(٢)

بين أبي بكر.. والعباس

وفي الاحتجاج: عن محمد بن عمر بن علي، عن أبيه، عن أبي رافع قال: قال إنني
لعند أبي بكر إذا طلع علي والعباس يتدافعان ويختصمان في ميراث النبي ﷺ، فقال
أبو بكر: يكفيكم القصير الطويل، يعني بالقصير: علياً، وبالطويل: العباس.
فقال العباس: أنا عم النبي ووارثه، وقد حال علي بيني وبين تركته، فقال أبو
بكر: فأين كنت يا عباس حين جمع النبي بني عبد المطلب وأنت أحدهم، فقال:
أيكم يؤازرنى، ويكون وصيي وخليفتي في أهلي، ينجز عدتي، ويقضي ديني^(٣)

(١) نص عليه جملة من محدثي المسلمين، وجاء في الغدير: ج ٢، ص ٣٢١ و ٣٢٢ عن عدة مصادر،
وجاء في المناقب عن جابر الأنصاري، وحكاه عن مسند أحمد بن حنبل، وبلغ في حلية
الأولياء عن أبي هريرة، وجاء في الغدير أيضاً: ج ١، ص ١٢١، أنه ﷺ الذائد عن الحوض،
ويعد هذا من ضروريات مذهب الخاصة.

(٢) الاحتجاج: ج ١، ص ١١٥ - ١١٦.

(٣) كنز العمال: ج ٧، ص ٢٤٩، ح ١٨٧٨٢، أو ج ١١ ص ٦١٢، ح ٣٢٩٦٢. شواهد التنزيل: ج ١،
ص ٩٩. تاريخ دمشق: ج ٤٢، ص ٤٨، ترجمة علي بن أبي طالب.

هذه الرواية من الروايات المستفيضة عند العامة والخاصة، نص عليها الأعلام، انظر: تاريخ
الطبري: ج ٣، ص ٢١٧. الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٢٤، شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢٥٤.
وعد لها العلامة الأميني في الغدير: ج ٢، ص ٢٧٩ - ٢٨٤ جملة من المصادر، وانظر الغدير أيضاً:
ج ١، ص ٢٠٦ - ٢٠٧، و ج ٧، ص ١٩٤.

وقد جاءت في كتب العامة في الحديث والسير منازعة أمير المؤمنين ﷺ وعمه العباس، وأغلب
الظن أنها كانت شكلية لأجل استنطاق أبي بكر بالحق، كما يشهد بها رد العباس على أبي بكر.
انظر: صحيح البخاري: ج ٦، ص ٢٤٧٤، ح ٣٦٤٧ من كتاب الفرائض باب قول النبي صلى
الله عليه [وآله] وسلم: لا نورث ما تركناه صدقة، وكتاب الجهاد باب المحن.. وأبواباً أخرى،
وصحيح مسلم كتاب الجهاد حديث ١٧٥٧ باب حكم الفيء، وسنن الترمذي كتاب السير ==

فأحجمتم عنها إلا علياً، فقال النبي ﷺ: أنت كذلك؟ قال العباس: فما أفعدك مجلسك هذا، تقدمته وتأمرت عليه؟ قال أبو بكر: اعذرونا بني عبد المطلب.^(١) وقد علق العلامة المجلسي على هذا الخبر في البحار باب الفتن والمحن قائلاً: توضيح وتفصيح: لعله كان أعذرونا بني عبد المطلب - بتقديم المعجزة على المهمة - أي: أتنازعون وترفعون إلي للغدر^(٢) وليس غرضكم التنازع.^(٣) وظاهر أن منازعتها كان لذلك، ولم يكن العباس ينازع أمير المؤمنين عليه السلام فيما أعطاه الرسول ﷺ بمحضره ومحضره غيره.

ويؤيده^(٤) ما روي أن يحيى بن خالد البرمكي سأل هشام بن الحكم بمحضر من هارون العباسي، فقال: أخبرني يا هشام، هل يكون الحق في جهتين مختلفتين؟ قال هشام: الظاهر لا. قال: فأخبرني عن رجلين اختصما في حكم في الدين، وتنازعا واختلفا، هل يخلو من أن يكونا محقين، أو مبطلين، أو أن يكون أحدهما محقاً والآخر مبطلاً؟ فقال هشام: لا يخلو من ذلك.

قال له يحيى بن خالد: فأخبرني عن علي والعباس لما اختصما إلى أبي بكر في الميراث، أيهما كان المحق ومن المبطل؛ إذ كنت لا تقول أئبها كانا محقين ولا مبطلين. قال هشام: فنظرت فإذا إئتني إن قلت: إن علياً عليه السلام كان مبطلاً كفرت وخرجت من مذهبي، وإن قلت إن العباس كان مبطلاً ضرب هارون عنقي، ووردت علي

== حديث ١٦١٠ باب ما جاء في تركة رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، وسنن أبي داود، برقم ٢٦٩٣ و ٢٩٦٤ و ٢٩٦٥ و ٢٩٦٧ بأسانيد صحيحة عندهم، وسنن النسائي: ج ٧، ص ١٢٨ - ١٢٩ قسم الفيء. وغيرها من كتب الحديث.

(١) الاحتجاج: ج ١، ص ١١٦ - ١١٧. المناقب: ج ٣، ص ٤٩، لابن شهر آشوب. العقد الفريد: ج ٢، ص ٤١٢. بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) قال في القاموس: ج ٢، ص ٨٧: ضرب زيد فأعذر، أشرف به على الهلاك، بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٦٨.

(٣) الظاهر: أن مراد أبي بكر: أنكم يا بني عبد المطلب أشرفتموها على الهلاك بمنازعتكم على نحو التهديد والتحكم. بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٦٨.

(٤) ذكرت المناظرة في أكثر من مصدر، منه ما ذكر ابن شهر آشوب في مناقبه، ج ٣، ص ٤٩، إلا أنه لم يصرح باسم يحيى بن خالد البرمكي، وغيرهما. بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٦٨.

مسألة لم أكن سئلت عنها قبل ذلك الوقت، ولا أعددت لها جواباً، فذكرت قول أبي عبد الله عليه السلام: يا هشام، لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك، فعلمت أنني لا أخذل، وعن لي الجواب في الحال، فقلت له: لم يكن لأحدها خطأ حقيقة، وكانا جميعاً محقين، ولهذا نظير قد نطق به القرآن في قصة داود عليه السلام، يقول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ آتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا إِلَيْكَ مِنَ الْحَرَابِ﴾^(١) إلى قوله: ﴿خَصَمَانِ بَعَى بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢) فأبي الملكين كان مخطئاً، وأبهما كان مصيباً؟ أما تقول: إنها كانا مخطئين فجوابك في ذلك جوابي.

فقال يحيى: لست أقول: إن الملكين أخطأ، بل أقول: إنهما أصابا، وذلك أنهما لم يختصما في الحقيقة، ولم يختلفا في الحكم، وإنما أظهرنا ذلك لينبها داود عليه السلام في الخطيئة، ويعرفاه الحكم، ويوقفاه عليه.

قال هشام: قلت له: كذلك علي عليه السلام والعباس لم يختلفا في الحكم، ولم يختصما في الحقيقة، وإنما أظهرنا الاختلاف والخصومة لينبها أبا بكر على خطئه، ويدلاه على أن لهما في الميراث حقاً، ولم يكونا في ريب من أمرهما، وإنما كان ذلك منهما على حد ما كان من الملكين، فاستحسن هارون ذلك الجواب.^(٣)

عمر يشيد بعظمة علي عليه السلام وكفائه

يقول المؤرخون: إن عمر نزلت به نازلة فحار في التخلص منها، وعرض على أصحابه ذلك، فقال لهم: ما تقولن في هذا الأمر؟ قالوا: أنت المفزع والمنزع، فلم يرضه ذلك، وتلا قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(٤). ثم قال لهم: أما والله إنني وإياكم لنعلم ابن بجدتها والخير بها. قالوا: كأنك أردت ابن أبي طالب.

(١) سورة ص: الآية ٢١.

(٢) سورة ص: الآية ٢٢.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٦٨ - ٧٠، متناً وهامشاً.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٧٠.

قال: وأنى يعدل بي عنه، وهل طفحت حرة مثله.

قالوا: لو دعوت به يا أمير المؤمنين.

قال: إنَّ هناك شمخاً من هاشم، وأثرة من علم، ولحمة من رسول الله ﷺ يؤتى ولا يأتي، فامضوا بنا إليه.

وخفوا جميعاً إليه، فألفوه في حائط له، وعليه تبان، وهو يتركل^(١) على مسحاته، ويقرأ ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٢) إلى آخر السورة، ودموعه تهمي على خديه، فأجهش القوم بالبكاء، ثم سكتوا، فسأله عمر عما ألم به فأجابه عنه، فقال له عمر: أما والله لقد أراذك الحق، ولكن أبا قومك فأجابه ﷺ: يا أبا حفص خفض عليك من هنا، ومن هنا، وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾^(٣).

وذهل عمر، فوضع إحدى يديه على الأخرى، وخرج كأنها ينظر في رماد.^(٤) ومرة أخرى اعترف عمر بأحقية أمير المؤمنين ﷺ بالخلافة حينما قال لابن عباس: أما والله يا بني عبد المطلب لقد كان علي فيكم أولى بهذا الأمر مني ومن أبي بكر، ولكن خشينا، أن لا تجتمع عليه العرب وقريش لما قد وترها.^(٥) وكلمة أخرى لعمر قالها في جواب من نسب علياً أمامه إلى التيه، فقال له: حق لمثله أن يتيه، والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعد أفضى الأمة، وذو سابقتها، وذو شرفها^(٦). وفي هذا التصريح ما يغني.

الشورى

نحن أمام كارثة مذهلة ومفزعة امتحن بها المسلمون امتحاناً عسيراً، وأخذت

(١) يتركل على مسحاته: أي يضربها برجله لتغيب في الأرض. والمسحة: من آلات الحفر والحراثة.

(٢) سورة القيامة: الآية ٣٦.

(٣) سورة النبأ: الآية ١٧.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٧٩ - ٨٠. الطرائف: ص ٤٢٤.

(٥) الغدير: ج ١، ص ٣٨٩.

(٦) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٨٢.

لهم الفتن والمصاعب، وجرت عليهم الويلات والخطوب، وألقتهم في شر عظيم، تلك هي قصة الشورى التي حكمت عن تأمر مفضوح في إقصاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن ساحة الحكم، وتسليمه إلى بني أمية، إرضاء للعواطف القرشية المترعة بالحق والكراهية للإمام عليه السلام.

ونحن - والله يعلم - لا نقصد بنقل هذه الأحداث - التي فيما نعتقد أنها مصدر الفتنة الكبرى التي غيرت منهج الحياة الكريمة في الإسلام، وجعلت العدالة والسلام بعيدين عن حياة المسلمين - غير الحقيقة التي حفظها لنا التاريخ. وعلى أي حال فإن عمر لما يئس من حياته وأيقن بدنو الأجل المحتوم منه أخذ يمعن النظر، ويطيل التفكير فيمن يتولى شؤون الحكم من بعده، وقد تذكر أقطاب حزبه الذين شاركوه في تمهيد الأمر لأبي بكر، فرأى أنهم قد حصدهم المنية، فراح يصعد آهاته وحسراته، وبيدي أساه عليهم قائلاً: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته؛ لأنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته؛ لأنه شديد الحب لله تعالى.

ولماذا لم يستعرض عمر الأحياء من الذين ساهموا في بناء الإسلام كالإمام أمير المؤمنين عليه السلام والصفوة الطيبة من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم كعمار بن ياسر وأبي ذر وغيرهم من الأنصار ليرشحهم لهذا المنصب الخطير؟

لقد انطلق يفتش في قائمة الأموات فتمنى حياة أبي عبيدة وسالم ليقلدهما رئاسة الدولة، مع العلم أنه لم يكن لهما ما كان لعمار وأبي ذر فضلاً عن علي عليه السلام في الفضل العظيم والدور الكبير في انتشار الإسلام وانتصاره.

وطلب منه القوم أن يعين أحداً من بعده ليتولى شؤون المسلمين فأبى وقال: أكره أن أتحمّلها حياً وميتاً.^(١)

ولكنه لم يلبث أن نقض رأيه، فانتخب أعضاء الشورى الستة، وفوض إليهم

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٦٠. الاستيعاب: ج ٣، ص ١١٥٤. ترجمة عمر بن الخطاب. تاريخ دمشق: ج ٤٢، ص ٤٢٨.

أمر الأمة، كما فرض رأيهم على جميع المسلمين وبذلك فقد تحمل الخلافة حياً وميتاً، يقول ابن أبي الحديد: وأي شيء يكون من التحمل أكثر من هذا، وأي فرق بين أن يتحملها بأن ينص على واحد يعينه وبين أن يفعل ما فعله من الحصر والترتيب؟^(١)

عمر يقر باقتدار علي عليه السلام

ودعا عمر أعضاء الشورى الذين انتخبهم وزكاهم، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيهم: إني من أهل الجنة،^(٢) إلا أنه لما اجتمعوا عنده وجه إليهم أعنف النقد وأقساه، وطعن في كل واحد منهم طعناً لا ذعاً، ورماهم بالنزعات الشريرة التي توجب القدح في ترشيحهم لمنصب الإمامة والخلافة، وقد روى المؤرخون حديثه بصور مختلفة، ولا يبعد أن يكون قد قالها جميعاً في مجالس متفرقة أو مناسبات مختلفة، وفيما يلي بعضها:

١- إنه لما نظر إليهم قال: قد جاءني كل واحد منهم يهز عقيرته يرجو أن يكون خليفة، أما أنت يا طلحة، أفلمست القائل: إن قبض النبي صلى الله عليه وسلم أنكح أزواجه من بعده؟ فما جعل الله محمداً أحق ببنات أعمامنا منا، فأنزل الله فيك ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا وَجْهَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾^(٣)، وأما أنت يا زبير، فوالله ما لان قلبك يوماً ولا ليلة، وما زلت جلفاً جافياً، وأما أتى يا عثمان، فوالله لروثة خير منك، وأما أنت يا عبد الرحمن، فإنك رجل عاجز تحب قومك جميعاً، وأما أنت يا سعد، فصاحب عصبية وفتنة، وأما أنت يا علي فوالله لو وزن إيمانك بإيمان أهل الأرض لرجحهم. وقام علي عليه السلام مولياً، فالتفت عمر إلى حضار مجلسه فقال: والله إنني لأعلم مكان رجل لو وليتموه أمركم على المحجة البيضاء. قالوا: من هو؟ قال: هذا المولي من بينكم. قالوا: ما يمنعك من ذلك؟ قال: ليس

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٦٠. بحار الأنوار: ج ٣٠، ص ٦٥.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٦٦. تاريخ دمشق: ج ٣٥، ص ٢٧٤، ترجمة عبد الرحمن بن عوف.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

إلى ذلك سبيل.^(١)

وقد خدش في كل واحد منهم سوى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فإنه أبدى إكباره له، واعترف بقابليته وصلاحيته للحكم، وأنه لو ولي أمور المسلمين لحملهم على المحجة البيضاء والطريق الواضح، إلا أنه لا يجد سبيلاً إلى ذلك.

٢- يقول المؤرخون: إنه لما التقى بأعضاء الشورى قالوا له: قل فينا يا عمر مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدي به، فقال: والله ما يمنعني أن أستخلفك يا سعد، إلا شدتك وغلظتك مع أنك رجل حرب، وما يمنعني منك يا عبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة، وما يمنعني منك يا زبير، إلا أنك مؤمن الرضا، كافر الغضب، وما يمنعني من طلحة إلا نخوته وكبره، ولو وليها وضع خاتمه في إصبع امرأته، وما يمنعني منك يا عثمان إلا عصبيتك وحبك قومك وأهلك، وما يمنعني منك يا علي إلا حرصك عليها، وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم.^(٢)

وقد وصم أعضاء الشورى بمساوئ الصفات، فوصف عبد الرحمن بن عوف بأنه فرعون هذه الأمة، ومن الغريب حقاً أنه لم يلبث أن فوض إليه شؤون الانتخاب، وجعل قوله منطلق الفصل وفصل الخطاب، كما اتهم الإمام بالحرص على الخلافة إلا أن سيرة الإمام المشرقة تدل على عكس ذلك، فإنه عليه السلام لم يكن من عشاق السلطة ولا من طلاب الملك، وإنه إنما أفحم الخلفاء حواراً، وأقام عليهم الحجة بأنه أولى بالأمر منهم لا ليتخذ من الحكم وسيلة للتمتع بخيرات البلاد - كما اتخذ بعضهم - ولا من أجل التعالي والتسلط وإشباع حب السلطان الذي يبتلى به السلاطين عادة، وتتهالك عليه لبسط نفوذها وقدرتها على الناس.

إن الإمام عليه السلام لم يكن بأي حال ينشد مثل هذه الأهداف الرخيصة، وإنما كان يبغى الحكم لنشر العدل وإقامة الحق وتطبيق شريعة الله من أجل هذه الغايات

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٥٩ - ٢٦٠. بحار الأنوار: ج ٣١، ص ٦٣.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٤ - ٢٥. حياة الإمام الحسين: ج ١، ص ٣٠٩.

النبيلة كان عليه السلام حريصاً على الخلافة، وقد أدلى بذلك بقوله: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، وتقام المعطلة من حدودك، ويأمن المظلومون من عبادك»^(١).

وأعرب عليه السلام في حديث له مع ابن عباس (بذي قار) عن مدى زهده بالسلطة واحتقاره للحكم، فقد كان عليه السلام يخصف بيده نعلًا له فالتفت إلى ابن عباس وقال: يا بن عباس ما قيمة هذا النعل؟ قال: يا أمير المؤمنين لا قيمة له. قال: إنه خير من خلافتكم هذه إلا أن أقيم حقاً، وأدفع باطلاً^(٢).
إنه إنما كان حريصاً على الخلافة من أجل إقامة المثل العليا وتحقيق العدالة وازدهار الحياة العامة.

٣- وفي رواية ثالثة أن عمر دعا أعضاء الشورى فلما مثلوا عنده قال لهم: أكلكم يطمع بالخلافة بعدي؟ ووجهوا عن الكلام، فأعاد القول عليهم ثانياً، فانبرى إليه الزبير راداً على مقالته: وما الذي يبعدنا منها؟ وليتها أنت فقامت بها، ولسنا دونك في قريش، ولا في السابقة، ولا القرابة، ولم يسعه الرد عليه، وقال لهم: أفلا أخبركم عن أنفسكم؟ قل، فإننا لو استعفيناك لم تعفنا وأخذ يدلي عليهم اتجاهاتهم وميولهم، ويحدثهم عن سجاياهم ونفوسهم، فاتجه صوب الزبير فقال له: أما أنت يا زبير فوقع لقس^(٣) مؤمن الرضا، كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان، ولعلها لو أفضت إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير، أفرأيت إن أفضت إليك، فليت شعري، من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب؟^(٤) وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة، وأنت على هذه الصفة.
إن الزبير حسب هذا التحليل النفسي لشخصيته مبتلى بأهات خطيرة، وهي:

(١) نهج البلاغة: ص ١٨٩، الخطبة ١٣١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٨٥. حياة الإمام الحسين: ج ١، ص ٣١٠.

(٣) الوقع: الضجر المترم. اللقس: من لا يستقيم على وجه.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٥، باب قصة الشورى.

- ١- الضجر والتبرم.
 - ٢- عدم الاستقامة في سلوكه.
 - ٣- الغضب الهائل الذي يفقده الرشد والتوازن.
 - ٤- الحرص والبخل، وهما يجيرانه إلى ملاطمة الناس على مد من شعير.
- وهذه النزعات من مساوئ الصفات، ومن اتصف ببعضها لا يصلح لأن يتولى أي منصب حساس في جهاز الدولة فضلاً عن أن يكون خليفة وإماماً للمسلمين.
- وأقبل على طلحة فقال له: أقول أم أسكت؟ فزجره طلحة وقال له: إنك لا تقول من الخير شيئاً. أما إني أعرفك منذ أصيبت اصبعك يوم أحد وائياً^(١) بالذي حدث لك، ولقد مات رسول الله ﷺ ساخطاً عليك بالكلمة التي قتلها يوم أنزلت آية الحجاب، وإذا كان رسول الله ﷺ ساخطاً على طلحة كيف يرشحه خليفة وإماماً للمسلمين؟ كما أن هذا يناقض ما قاله: إن رسول الله ﷺ مات وهو راضٍ عن أعضاء الشورى.
- وعلق الجاحظ على هذا بقوله: لو قال لعمر قائل: أنت قلت: إن رسول الله ﷺ مات وهو راضٍ عن الستة، فكيف تقول الآن لطلحة إنه مات ﷺ ساخطاً عليك للكلمة التي قتلها؟ لكان قد رماه مشاقصه^(٢) ولكن من الذي كان يجسر على عمر أن يقول له ما دون هذا، فكيف هذا؟
- واتجه صوب سعد بن أبي وقاص فقال له: إنما أنت صاحب مقنب^(٣) من هذه المقانب تقاتل به، وصاحب قنص وقوس وسهم، وما زهرة والخلافة وأمور الناس!!
- إن سعداً رجل عسكري لا يفقه إلا عمليات الحروب، ولا خبرة له بالشؤون الإدارية والاجتماعية للأمة، فكيف يرشحه للخلافة؟ كما طعن في صلاحية قبيلة سعد لتولي شؤون الحكم.

(١) وائياً: غاضباً.

(٢) المشاقص: جمع مشقص وهو نصل السهم.

(٣) المقنب: جماعة الخيل. شرح نهج البلاغة: ١٢، ص ٢٥٩. عمر بن الخطاب: ص ٤٣٧-٤٣٨.

وأقبل على عبد الرحمن بن عوف فقال له: أما أنت يا عبد الرحمن، فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك عليهم، ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك، وما زهرة وهذا الأمر!!

وعبد الرحمن - حسب رأي عمر - رجل إيمان وتقوى، ولا نعلم أين كان إيمانه حينما عدل عن انتخاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وسلم أمور المسلمين بأيدي الأمويين، فاتخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، ثم إنه لم تكن لخ شخصية قوية، ولا عزم ثابت، ولا إرادة صلبة - حسب اعتراف عمر - فكيف يرشحه للخلافة؟ كيف يجعل قوله منطق الفصل في تعيين من يشاء لشؤون الأمة؟

والتفت إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: الله أنت لولا دعاة فيك، أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء، ولا يخفى التناقض الذي وقع فيه عمر هنا، إذ متى كانت للإمام الدعاة، وهو الذي ما ألف في حياته إلا الجدل والحزم في القول والعمل؟ ثم إن من يتصف بهذه الحالة - على فرض أنها نقص - كيف يتمكن أن يحمل المسلمين على الحق الواضح والمحجة البيضاء كما يقول عمر، إن هذه السياسة تتنافى مع الدعاة الناشئة عن ضعف الشخصية وخورها لو فسرت الدعاة بالنقص.

وأكد عمر أن الإمام لو ولي أمور المسلمين لسار فيهم بالحق، وحملهم على الصراط المستقيم، فكيف يجعله من أعضاء الشورى، ولا ينص عليه بالخصوص؟ وهل من الحيطة على الأمة أن يفوت عليها الفرصة، ولا يسلم أمرها بيد من يسير فيها بسيرة قوامها العدل الخالص والحق المحض؟

وأقبل على عثمان عميد الأسرة الأموية التي ناهضت الإسلام فقال له: هيهأ إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وأثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً، والله لئن فعلوا التفعن، ولئن فعلت ليفعلن،

ثم أخذ بناصيته فقال: فإذا كان ذلك فاذا ذكر قولي.^(١) ونحن إذا تأملنا قليلاً في قوله لعثمان: كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، نجده قد قلده عثمان بالخلافة، فإن نظام الشورى الذي وضعه كان حتماً يؤدي إلى فوزه بالسلطة، فقد جعله أحد أعضاء الشورى، وكان أكثرهم ممن له اتصال وثيق بأسرة عثمان، وهم لا يعدلون عن انتخابه، ولا يقدمون غيره عليه، وفي الحقيقة أنه هو الذي قلده الخلافة، وفوض إليه أمور المسلمين، ثم إنه مع دراسته لنفسيته ووقوفه على حبه الشديد لأسرته كيف يرشحه للخلافة، وهو بالذات يعلم خطر بني أمية على الإسلام؟

وقد أعلن ذلك في حديثه مع المغيرة بن شعبة يقول له: يا مغيرة هل أبصرت بعينك العوراء؟ قال: لا. قال: أما والله ليعورن بنو أمية الإسلام كما أعورت عينك هذه، ثم ليعمينه حتى لا يدري أين يذهب، ولا أين يجيء؟^(٢)

فكان الأجدر به وهو على عتبة الموت أن يجنب الأمة خطر الأمويين، ولا يجعل لهم أي نصيب في الحكم، لكن مع الأسف هذا لم يحصل!!

والغريب في الأمر أن نظام الشورى الذي وضعه عمر ليس فيه أي توازن أو أصالة، فقد شذ عن حقيقة الشورى التي يجب أن تمثل رأي الأمة، ويشارك الناس في الانتخاب، وفوض في هذه الشورى الرأي إلى جماعة لا يمثلون إلا آراءهم الخاصة. لقد دعا عمر من رشحهم فقال لهم: احضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء، وأحضروا معكم الحسن بن علي عليه السلام وعبد الله بن عباس، فإن لهما قرابة، وأرجو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من أمركم شيء.^(٣)

لقد أقصى الأنصار، ولم يجعل لهم أي نصيب في الانتخاب والاختيار، وإنما جعل لهم الإشراف المجرد الذي يعني حرمانهم والاستهانة بهم، فإن الأمر إنما هو أمر أعضاء الشورى ولا يخص غيرهم.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٦، باب قصة الشورى.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٨٢. عمر بن الخطاب: ص ٣٧٠، البكري.

(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٤.

ثم إنا لنعلم ما هي البركة التي تحصل لأعضاء الشورى بحضور الإمام الحسن عليه السلام وعبد الله بن عباس، وهما لا يملكان من الأمر شيئاً. وعلى أي حال فإن هذه الشورى لم يكن المقصود منها - فيما يقول المحققون - إلا إقصاء الإمام عن الحكم ومنحه للأمويين.

يقول العلائي:

إن تعيين الترشيح في ستة مهد السبيل لدى الأمويين لاستغلال الموقف، وتشديد صرح مجدهم على أكتاف المسلمين، وقد وصل إلى هذه النتيجة السيد مير علي الهندي. قال: إن حرص عمر على مصلحة المسلمين دفعه إلى اختيار هؤلاء الستة من خيرة أهل المدينة دون أن يتبع سياسة سلفه، وكان للأمويين حزب قوي في المدينة، ومن هنا مهد اختياره السبيل لمكائد الأمويين ودسائسهم، هؤلاء الذين ناصبوا الإسلام العداء، ثم دخلوا فيه وسيلة لسد مطامعهم وتشديد صرح مجدهم على أكتاف المسلمين.^(١)

لقد عمد عمر في هذه الشورى إلى إبعاد الأنصار فلم يجعل لهم أي نصيب فيها، وهم الذين آوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونصروا الإسلام في أيام محنته وغرخته، وقد أوصى بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم خيراً، كما أنه لم يجعل نصيباً فيها لعمار وأبي ذر وأمثالهما من أعلام الإسلام، وأكبر الظن أنه إنما أبعدهم لأن لهم هوى وميلاً للإمام عليه السلام، ولا ينتخبون غيره، ولا يرضون سواه؛ ولهذا الجهة أقصاهم، وقصر أعضاء الشورى على العناصر المعادية له.

ومن غريب أمر هذه الشورى أيضاً أن عمر قد شهد في حق أعضائها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات وهو عنهم راض، أو أنه شهد لهم بالجنة، ولكن في نفس الوقت عهد إلى الشرطة بضرب أعناقهم إن تأخروا عن انتخاب أحدهم حسبما ذكر.

ويقول الناقدون لهذه الشورى:

إن التخلف عن الانتخاب لم يكن خروجاً عن الدين، ولا مروفاً عن الإسلام،

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٢٠.

حتى تباح دماؤهم!! فلم يتفق هذا الحكم مع ما أُنثر عن الإسلام من حرمة إراقة الدماء ووجوب التحرج فيها.

بقي هنا شيء آخر لا يقل غرابة عن ذلك التناقض وهو أن عمر إنما قصر أعضاء الشورى على الستة بحجة أن رسول الله ﷺ مات وهو عنهم راضٍ، وهذه الحجة لا تصلح دليلاً للتعيين؛ لأن رسول الله ﷺ مات وهو راضٍ عن كثير من صحابته، فتقديم الستة عليهم إنما هو من باب الترجيح بلا مرجح، وهو قبيح عند العقلاء الذين يراعون الحكمة.

ومما يؤخذ على هذه الشورى أن عمر جعل الترجيح للجبهة التي تضم عبد الرحمن بن عوف، وقدمها على الجبهة التي تضم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو تمييز ظاهر للقوى القرشية والأُموية الحاكمة على الإمام والباغية عليه.

كما أننا لانعلم أن هناك أي مآثرة يمتاز بها ابن عوف يستحق بها هذه الإشادة والتكريم، أليس هو وإخوانه من المهاجرين كطلحة والزبير وغيرهم قد استأثروا بأموال المسلمين وفيئتهم حتى ملكوا من الثراء العريض ما لا يحصى، وتحيروا في صرفه وإنفاقه، وقد ترك ابن عوف - فيما يقول المؤرخون - من الذهب ما يكسر بالفؤوس لكثرتة، أمثل هذا يقدم على الإمام عليه السلام وهو صاحب المواهب والعبقريات التي أقر بها عمر نفسه؟

وأبو سفيان أيضاً

روى صاحب العقد الفريد أن النبي ﷺ لما توفي كان أبو سفيان غائباً، فلما بلغه بيعة أبي بكر قال: إنِّي أرى غبرة لا يطفئها إلا دم!! فلما قدم المدينة جعل يطوف في أزقتها وهو يقول:

بنبي هاشم لا يطمع الناس فيكم ولا سيم تيم بن مرة أو عدي
وما الأمر إلا فيكم أو إليكم وليس لها إلا أبو حسن علي!!
فقال عمر لأبي بكر: إن هذا قدم وهو فاعل شراً - أي محرك الأجواء وكاشف
للخطة - وقد كان النبي ﷺ يستألفه على الإسلام، فدع له ما بيده من الصدقة،

ففعل أبو بكر، فرضي أبو سفيان وبايعه.^(١)

معاوية يطأطي لسمو علي عليه السلام

وأكتفي في ذلك ببعض الأحداث التي وقعت في مجلس معاوية بعد رحيل علي عليه السلام من الدنيا، فبعد أن رسم معاوية خطة واسعة لتتبع آثار علي عليه السلام فسن قانون سبه على المنابر، ثم أظفى فيه بأحاديث موضوعة كاذبة، ثم تتبع أحباءه وأولياءه في كل مكان، وبدأ بتصفييتهم بشكل وآخر. إن كان يجد لذلك سبيلاً، ويتظاهر ببعض المرونة السياسية تجاه أشدائهم عندما لا يجد سبيلاً إلى القتل، وإليك بعضها:

سودة الهمدانية

في العقد الفريد وغيره عن الشعبي قال: وفدت سودة ابنة عمارة بن الأشر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذنت عليه، فأذن لها، فلما دخلت عليه سلمت، فقال لها: كيف أنت يا ابنة الأشر؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال لها: أنت القائلة لأخيك:

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها جهوان
إنّ الإمام أخا النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدماً بأبيض صارم وسانان
قالت: مات الرأس، وبت الذنب، فدع عنك تذكاري ما قد نسي. قال: هيهات
ليس مثل مقام أخيك ينسى. قالت: صدقت والله ما كان أخي خفي المقام ذليل
المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
وبالله أسأل إعفائي مما استعفيته.

(١) العقد الفريد: ج ٤، ص ٢٥٧، ذكر خلافة أبي بكر.

قال: قد فعلت فقولي حاجتك.

قالت: إن الله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك، ويبسط بسطانك، فيحصدنا السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيصة، ويسألنا الجليلة. هذا ابن أبي أرطأة قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته فشكرناك، وإما لا فعرفناك.

فقال معاوية: إياي تهددين بقومك، والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس، فينفذ حكمه فيك، فسكتت ثم قالت:

صلى الإله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا فصار بالحق والإيمان مقرونا
قال ومن ذلك؟ قالت: علي بن أبي طالب عليه السلام. قال: ما أرى عليك منه
أثراً. قالت: بلى أتيت يوماً في رجل ولأه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغث
والسمين، فوجدته قائماً يصلي، فانقتل من الصلاة وقال برأفة وتعطف ألك
حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى، ثم رفع يديه إلى السماء فقال: اللهم إني لم
أمرهم بظلم خلقك وترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب
فيها بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾^(١) ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٨٥) بَقِيَتْ
اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾^(٢) إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ
بها في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام، فعزله، فقال معاوية: اكتبوا لها
بالإنصاف لها والعدل عليها.

فقالت: ألي خاصة أم لقومي عامة؟ قال: وما أنت وغيرك؟ قالت: والله هي
إذا الفحشاء واللؤم إن كان عدلاً شاملاً، وإلا يسعني ما يسع قومي. قال: هيئات
علمكم ابن أبي طالب الجرأة، وغركم قوله:

(١) سورة الأعراف: ٨٥.

(٢) سورة هود: الآيات ٨٥-٨٦.

لو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام
اكتبوا لها حاجتها.^(١)

وعند معاوية أيضاً

في كتاب المستطرف أن معاوية لما ولي الخلافة وانتظمت له الأمور وامتلات منه الصدور وأذعن لأمره الجمهور استحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم وقائع صفين ومن كان يتولى كبر الكراهية من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض، وآل حديثهم إلى من كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليه بزيادة التحريض، فقالوا امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدي كانت تتعمد الوقوف بين الصفين، وترفع صوتها صارخة بأصحاب علي تسمعهم كلاماً كالصوارم مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدبر لأقبل، والمسالم لحارب، والفار لكر، والمتزلزل لاستقر.

فقال لهم معاوية: أيكم يحفظ كلامها، فقالوا: كلنا نحفظه، قال: فما تشيرون عليّ فيها؟ قالوا: نشير بقتلها فإنها أهل لذلك، فقال لهم: بئس ما أشرتكم، وقبحاً لما قلتكم، أيجسن أن يشتهر عني أنني بعد ما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفّت لصاحبها، إني إذاً للئيم، ثم دعا بكاتبه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة: أن انفذ إلي الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهد لها وطاء لينا، ومركباً ذلولاً، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأه عليها.

فقالت: ما أنا بزائغة عن الطاعة، فحملها في هودج، وجعل غشاه خزاً مبطناً، ثم أحسن صحبتها، فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلاً قد متم خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة؟ وكيف رأيت مسيرك؟ قالت: خير مسير، فقال: هل تعلمين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. قال: ألسنت راكبة الجمل الأحمر يوم صفين وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب،

(١) العقد الفريد: ج ٢، ص ١٠٢ - ١٠٤. المجلس السنوية: ج ٣، ص ٥٥ - ٥٦. بلاغات النساء: ص ٤٢ - ٤٤. الفصول المهمة: ص ١٢٧ - ١٢٨.

وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم. قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: إنه قد مات الرأس، وبتر الذنب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر، فقال: صدقت فهل تحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله.

قال: لله أبوك، فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس، إنَّ المصباح لا يضيء في الشمس، وإنَّ الكواكب لا تضيء مع القمر، وإنَّ البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا الحديد، ألا من استرشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه، إن الحق كان يطلب ضالة فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل، وغلب الحق باطله، فإنه لا يستوي المحق والمبطل ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوِينَ﴾^(١). فالنزال النزال، والصبر الصبر، ألا وإنَّ خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، أتوا الحرب غير ناكسين، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك. قال: لقد شاركت علياً في كل دم سفكه، فقالت: أحسن الله بشارتك مثلك من يبشر ويسر جلسه، فقال معاوية: وقد سرك ذلك؟ قالت: إي والله، وأنى لي بتصديقه؟ فقال: والله لو فاؤكم لعلي بعد موته أعجب إلي من حبكم له في حياته، فاذكري حوائجك تقض، فقالت: إني آليت على نفسي أن لا أسأل أحداً بعد علي عليه السلام حاجة^(٢).

وكذلك عند معاوية

في العقد الفريد: دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية متوكئة على عكاز فسلمت عليه بالخلافة، ثم جلست، فقال معاوية: الآن صرت عند أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا علي حي.

قال: ألسنت المتقلدة حمائل السيوف بصفين وأنت واقفة بين الصفيين تقولين:

(١) سورة السجدة: الآية ١٨.

(٢) المجالس السنوية: ج ٢، ص ٦٠ - ٦١. المستطرف: ج ١، ص ٢٧٤ - ٢٧٥. العقد الفريد: ج ٢، ص ١٠٦ - ١٠٨.

أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إن الجنة لا يرحل من أوطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم، مستظهريين بالصبر على طلب حقهم، إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غلف القلوب لا يفقهون الإيمان، ولا يدرون ما الحكمة، دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه، فالله الله عباد الله في دين الله، إياكم والتواكل، فإن ذلك ينقض عرى الإسلام، ويطفئ نور الحق، هذه بدر الصغرى والعقبة الأخرى.

يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأنني بكم غداً وقد لقيتهم أهل الشام كالحمير الناهقة، فكأنني أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكر أن يقولون هذه عكرشة بنت الأطرش، فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، فما حملك على ذلك؟ قالت: إن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته. قال: صدقت اذكري حاجتك. قالت: إنها كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنائنا فترد على فقرائنا، وأنا قد فقدنا ذلك، فما يجير لنا كسير، ولا ينعش لنا فقير، فإن كان ذلك من رأيك فمثلك تنبه عن الغفلة، وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك استعان بالخنوة، ولا استعمل الظلمة.

قال: يا هذه، إنه ينوبنا من أمور رعيتنا أمور.

قالت: يا سبحان الله، والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً على غيرنا، وهو علام الغيوب. قال معاوية: يا أهل العراق، نبهكم علي بن أبي طالب فلم تطاقوا، ثم أمر برد صدقاتهم فيهم.^(١)

ومع معاوية كذلك

في العقد الفريد: حج معاوية فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون

(١) العقد الفريد: ج ٢، ص ١١ - ١١٢. المجالس السنوية: ج ٣، ص ٦٤ - ٦٥. بلاغات النساء: ص ٨٨ - ٨٩.

يقال لها: دارمية الحجونية - وكانت سوداء كثيرة اللحم - فأخبر بسلامتها، فبعث إليها، فجيء إليها.

فقال: ما جاء بك يا ابنة حام؟ فقالت: لست لحام إن عبتني، أنا امرأة من بني كنانة. قال: صدقت، أتدريين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله. قال: بعثت إليك لأسلك علام أحببت علياً وأبغضتني، وواليتي وعاديتني؟ قالت: أو تعفيني. قال: لا أعفيك. قالت: أما إذا أبيت فإني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر، وطلبك ما ليس لك بحق، وواليت علياً على ما عقد له رسول الله ﷺ من الولاء وحبه المساكين وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفك الدماء وجورك في القضاء وحكمك في الهوى.

قال: فلذلك انتفخ بطنك، وعظم ثدياك، وربت عجيزتك. قالت: يا هذا، بهند والله كان يضرب المثل في ذلك لابي. قال معاوية: يا هذه اربعي، فإننا لم نقل إلا خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها، وإذا عظم ثديها تروي رضيعها، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها، فرجعت وسكتت. قال لها: يا هذه هل رأيت علياً؟ قالت: إي والله، قال: فكيف رأيت؟ قالت: رأيت والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك. قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم والله، فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدا الطست. قال: صدقت فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك. قال: نعم. قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها ورعيها. قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذوا بألبانها الصغار، واستحي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر. قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب؟ قالت: سبحان الله أو دونه.^(١)

وفي مجلس معاوية أيضاً

قال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة: لم يكن أحد أحب إلى معاوية أن يلقاه من

(١) العقد الفريد: ج ٢، ص ١١٣ - ١١٤. المجالس السنية: ج ٣، ص ٦٦ - ٦٧. بلاغات النساء: ص ٨٩ - ٩٠.

أبي الطفل الكناني، وهو عامر بن وائلة، وكان فارس أهل صفين وشاعرهم، وكان من أخص الناس بعلي عليه السلام فقدم أبو الطفيل الشام يزور ابن أخ له من رجال معاوية، فأخبر معاوية بقدمه، فأرسل إليه فأتاه وهو شيخ كبير، فلما دخل عليه. قال له معاوية: أنت أبو الطفيل عامر بن وائلة؟ قال: نعم. قال معاوية: أكنت ممن قتل أمير المؤمنين عثمان؟ قال: لا، ولكن ممن شهدته فلم ينصره. قال: ولم؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار، فقال معاوية: أما والله إن نصرته كانت عليك وعليهم حقاً واجباً، وفرضاً لازماً، فإذا ضيعتموه فقد فعل الله بكم ما أنتم أهله، وأصاركم إلى ما رأيتم، فقال أبو الطفيل: فما منعك يا أمير المؤمنين إذ تربّصت به ريب المنون أن تنصره ومعك أهل الشام؟ فقال معاوية: أو ما ترى طلبي لدمه. فضحك أبو الطفيل وقال: ويلي، ولكني وإياك كما قال عبيد بن الأبرص:

لأعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي
فدخل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحكم، فلما جلسوا نظر إليهم معاوية ثم قال أتعرفون هذا الشيخ؟ قالوا: لا. فقال معاوية: هذا خليل علي بن أبي طالب، وفارس صفين، وشاعر أهل العراق، هذا أبو الطفيل. قال سعيد بن العاص: قد عرفناه فما يمنعك منه، وشتمة القوم فزجرهم معاوية، وقال: مهلاً، فرب يوم ارتفع عن السباب قد ضقتم به ذرعاً، ثم قال: أتعرف هؤلاء يا أبا الطفل. قال: ما أنكرهم من سوء، ولا أعرفهم بخير، وأنشد شعراً:
فإن تكن العداوة قد أكنت فسّر عداوة المرء السباب
فقال معاوية: يا أبا الطفيل ما أبقى لك الدهر من حب علي؟

قال: حب أم موسى، وأشكو إلى الله التقصير، فضحك معاوية وقال: ولكن والله هؤلاء الذين حولك لو سئلوا عني ما قالوا هذا، فقال مروان: أجل والله لا نقول الباطل. قال: ولا الحق تقولون^(١)، ثم جهزه معاوية وألحقه بالكوفة.^(٢)

(١) المجالس السنية: ص ٩٢-٩٣.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٩٢-١٩٣.

افحام آخر لمعاوية

قال ابن أبي الحديد روي أن الوليد بن جابر بن ظالم الطائي كان ممن وفد على رسول الله ﷺ فأسلم ثم صحب علياً عليه السلام وشهد معه صفين، وكان من رجاله المشهورين، ثم وفد على معاوية بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ودخل عليه في جملة الناس، فاستنسبه فانتسب له، فعرفه معاوية فقال له: أنت صاحب ليلة الهرير؟ قال: نعم. قال: والله لا تخلو مسامعي من رجلك تلك الليلة وقد علا صوتك أصوات الناس وأنت تقول:

شدوا فداء لكم أمي وأب فإنما الأمر غداً لمن غلب
هذا ابن عم المصطفى والمنتجب تنميه للعلياء سادات العرب
ليس بموصوم إذا نص النسب أول من صلى وصام واقرب
قال: نعم، أنا قائلها. قال: فلماذا قتلها؟ قال: لأننا كنا مع رجل لا نعلم خصلة توجب الخلافة ولا فضيلة تصير إلى التقدمة إلا وهي مجموعة له، كان أول الناس سلماً، وأكثرهم علماً، وأرجحهم حليماً، فات الجياد فلا يشق غباره، واستولى على الأمد فلا يخاف عثاره، وأوضح منهج الهدى فلا يبید مناره، وسلك القصد فلا تدرس آثاره، فلما ابتلانا الله تعالى بافتقاده وحول الأمر إلى من يشاء من عباده دخلنا في جملة المسلمين، فلم ننزع يداً عن طاعة، ولم نصدع صفاة جماعة، على أن لك منا ما ظهر، وقلوبنا بيد الله وهو أملك بها منك، فاقبل صفونا، وأعرض عن كدرنا، ولا تثر كوامن الأحقاد، فإن النار تقدح بالزناد.

قال معاوية: وإنك لتهددني يا أخا طيء بأوباش العراق أهل النفاق ومعدن

الشقاق؟

فقال: يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق، وحبسوك بالمضييق، وذادوك عن سنن الطريق حتى لذت منهم بالمصاحف، ودعوت إليها من صدق بها وكذبت، وآمن بمنزلها وكفرت، وعرف من تأويلها ما أنكرت، فغضب معاوية وأدار طرفه فيمن حوله فإذا جلهم من مضر ونفر قليل من اليمن (وحيث أن الوليد يمانى

واليمايون قليلون في مجلسه لم يخف من الوليد).

فقال: أيها الشقي الخائن، إنّي لأخال أنّ هذا آخر كلام تفوهت به، وكان عفير بن سيف بن ذي يزن، بباب معاوية حينئذ وكان يمانياً، فعرف موقف الطائي ومراد معاوية فخاف عليه، فهجم عليهم الدار، وأقبل على اليمانية. فقال: شأهت الوجوه ذلاً وقلاً وجدعاً وفلاً، ثم التفت إلى معاوية فقال: لقد رأيتك خاطبت أخاربيعة - يعني صعصعة بن صوحان - وهو أعظم جرماً عندك من هذا، ثم أثبتته، وسرحته، وأنت الآن مجمع على قتل هذا زعمت استصغاراً لجماعتنا، ولعمري لو وكلتك أبناء قحطان إلى قومك لكان جدك العاثر، وذكر الدائر، وحدك المفلوك، وعرشك المثلول، فأربع على ظلعك^(١) فإننا لا نرام بوقع الضيم، ولا نتلمط جرع الخسف.^(٢)

فقال معاوية: الغضب شيطان فأربع على نفسك أيها الإنسان فإننا لم نؤت إلى صاحبك مكروهاً فدونكه، فإنه لم يضق عنه حلمنا ويسع غيره، فأخذ عفير بيد الوليد، وخرج به إلى منزله، ثم جمع من بدمشق من اليمانية، وفرض على كل رجل دينارين في عطائه، فبلغت أربعين ألفاً، فتعجلها من بيت المال، ودفعتها إلى الوليد، وورده إلى العراق.^(٣)

وهنا من الضروري الإشارة إلى مسألة وهي: أنّ معاوية لو كان حليماً كما يدعي ويدعى له لما قتل حجراً وأصحاب حجر حين لم يتبرؤوا من أمير المؤمنين عليه السلام ولما قتل عمرو بن الحمق الخزاعي بعدما حبس زوجته سنتين في سجن دمشق، ولما جاءه رأسه أرسله إليها، ووضعها في حجرها، هذا بعد ما أعطى الإمام الحسن بن علي عليه السلام العهود والمواثيق أن لا يتعرض لشيئته.

وإنما كان يظهر الحلم حين يرى فيه مصلحة لديناه، وحين يخاف من عاقبة البطش، فيدعه ويظهر أنّ ذلك عن حلم، وإنّما هو عن خوف، وإلا فما باله - وقد

(١) أي أنك ضعيف فانتة عما لا تطيقه.

(٢) أي الذل.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ١٣١.

ملك الأمر وانقادت له الناس بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام - يسلط زياد بن أبيه على شيعة علي عليه السلام فيسومهم سوء العذاب القتل والنفي وسلب الأموال وهدم الدور؛ وما باله يستحضر من يعرفهم بحب علي عليه السلام من نساء ورجال من الأمكنة البعيدة فيتهددهم ويتوعدهم ويؤنبهم ثم يظهر الحلم عنهم حينما يخاف عاقبة البطش؟ وما باله يحمل عبد الله بن هاشم المرقال إليه أسيراً بعدما صالح الحسن عليه السلام فيسجنه ويهدده بالقتل؛ ولو كان حليماً كما يقول ويقال فيه فعل كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام عفا عن أهل الجمل لما ظفر بهم وفيهم أعدى الناس له، ولم يجازهم بشيء، وأصدر عفواً عاماً عن جميع أهل البصرة الذين حاربوه.^(١) كما عفا عن الخوارج وأوصل إليهم عطاءهم ما داموا لم يشهروا السيف.

عدي ومعاوية

قال المرزباني: دخل عدي بن حاتم الطائي رحمه الله - وكانت عينه ذهبت يوم الجمل - على معاوية وعنده ابن الزبير، فقال: ابن الزبير يا أبا طريف متى ذهبت عينك. قال: يوم فر أبوك منهزماً فقتل، وضربت على قفاك وأنت هارب وأنا مع الحق وأنت مع الباطل. فقال معاوية: ما فعل الطرفات؟ يعني طريفاً وطرافاً وطرفة أبناءه. قال: قتلوا مع أمير المؤمنين علي عليه السلام. فقال له: ما أنصفك علي إذ قدم أبناءك وأخر أبناءه. قال: بل أنا ما أنصفته إذ قتل وبقيت بعده؟ قال له معاوية: أما إنّه قد بقيت قطرة من دم عثمان ما لها إلا كذا - وأوماً بيده إليه - فقال له عدي: إن السيوف التي أغمدت أغمدت على حسك في الصدور، ولعلك تسل سيفاً تسل به سيوف. فالتفت معاوية إلى عمرو بن العاص فقال كلمة: شدها في قرنك، ثم خرج عدي وهو يقول:

يحاولني معاوية بن صخر وليس إلى التي يبغي سبيل
يذكرني أبا حسن علياً وخطبي في أبي حسن جليل

(١) المجالس السنوية: ج ٣، ص ١٠٠ - ١٠٢.

وقال ابن الزبير وقال عمرو عدي بعد صفين ذليل
فقلت صدقتما قد هد ركني وفارقني الذين بهم أصول
ولكنني على ما كان مني أخبر صاحبي بما أقول
وإن أخاكما في كل يوم من الأيام محمله ثقيل^(١)

ضرار يصف علياً عند معاوية

في الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي عن الأصمغ بن نباتة قال: دخل ضرار بن ضمرة على معاوية بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا ضرار صف لي علياً؟ فقال: اعفني من ذلك. فقال: أقسمت عليك لتصنفه لي. فقال: إن كان لا بد من ذلك فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعونا، ونحن والله مع قربنا منه وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض موافقه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته الشريفة يتململ تلملم السليم، ويبكي بكاء الحزين، وهو يقول: يا دنيا غري غيري أبي تعرضت أم إلي تشوقت، هيهات هيهات طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير، ثم قال عليه السلام: آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها في حجرها، فهي لا يرقى دمعها ولا يخفى فجوعها.^(٢)

(١) المجالس السنية: ج٣، ص١٠٣-١٠٤.

(٢) الفصول المهمة: ص١٢٧. المجالس السنية: ج٣، ص١٠٤-١٠٥.

لمحة من سيرة علي عليه السلام

ترصد عمرو بن حريث غداء أمير المؤمنين عليه السلام فأتته فضة بجراب مختوم ففكه واستخرج منه خبزاً متغير اللون خشناً جشياً، فقال عمرو: يا فضة ألا تتقين الله في هذا الشيخ، ألا تنخلين له دقيق هذا الخبز وتطيينه؟ فقالت: قد كنت أفعل ذلك، فنهاني، وكنت أضع في جرابه طعاماً طيباً فختم جرابه. قال: ثم إن أمير المؤمنين عليه السلام فت ذلك الخبز في قصعة، وصب عليه الماء، وحسر عن ذراعيه، وجعل يأكل حتى اكتفى، فلما فرغ من الأكل التفت إليّ وقال: لقد خابت هذه ومد يده إلى لحيته الكريمة، وخسرت هذه إن أدخلتها النار من أجل الطعام.

ورآه عدي بن حاتم وبين يديه شنة وفيها قراح ماء وكسرات من خبز الشعير، فقال له: أرى لك ذلك يا أمير المؤمنين أن تظل نهارك صائماً مجاهداً، وبالليل ساهراً مكابداً، ثم يكون هذا فطورك، فقال عليه السلام:

علل النفس بالقنوع وإلا طلبت منك فوق ما يكفيها ولم يزل هذا دأبه وهذه سجيته حتى أتى إليه ابن ملجم المرادي وضربه بالسيف على أم رأسه^(١) في مؤامرة مدبرة من معاوية وأطرافه.

ونقل عن مؤدب الواثق قال: سمعت إبراهيم بن رباح يقول: تستحق الخلافة بخمسة أشياء، بالقرب من رسول الله، والسبق في الإسلام، والزهد في الدنيا، والفقه في الدين، والنكايه في العدو، فلم ير هذه الخمسة أشياء إلا في علي عليه السلام.^(٢)

علي عليه السلام والسياسة

(١) ينابيع المودة: ج ١، ص ٤٤٧. الباب ٥١ في بيان علو همته وزهده في الدنيا. المجالس السنوية: ج ٣، ص ١٠٥-١٠٦. بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٣٢٥.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٤٢، ص ٤٣٧.

في لسان العرب السياسة: القيام على الشيء بما يصلحه^(١).
 وفي مجمع البحرين: وفي وصف الأئمة عليهم السلام: أنتم ساسة العباد، وفيه الإمام
 عارف بالسياسة، وفيه: ثم فوض النبي ﷺ أمر الدين والأمة ليسوس عباده^(٢).
 وفي الخبر: كان بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء^(٣). أي تتولى أمرهم كالأمراء
 والولاة، وهو القيام على الشيء بما يصلحه.
 هذا كلام أئمة اللغة، فهم يصرحون بأن السياسة هي القيام على الشيء بما
 يصلحه، فإذا لم يكن في القيام على الشيء إصلاح وإجراء عدل وإحقاق حق
 وإبطال باطل، فهو سياسة مكيفيلية غدرية.
 وهذا هو الفرق الأساسي والميز الجوهرية بين سياسته عليه السلام وبين سياسة غيره،
 وقد أشار عليه السلام إلى هذا الفرق في خطب عديدة، فمنها:
 «ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه
 إلى حسن الحيلة، ما لهم - قاتلهم الله - قد يرى الحَوْل القَلْب وجه الحيلة، ودونها
 مانع من أمر الله ونهيه، فيدعيها رأي عين بعد القدرة عليها، ويتنزه فرصتها من لا
 حريجة له في الدين»^(٤).
 ومنها: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر
 لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجرة، وكل فجرة كفره، ولكل غادر
 لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة، ولا استغمز بالشديدة»^(٥).
 ومنها: «لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع، ولا يضارع، ولا يتبع المطامع»^(٦).

(١) لسان العرب: ج ٦، ص ١٠٨، مادة سوس.

(٢) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٧٨، مادة سوس.

(٣) صحيح البخاري: ج ١، ص ١٢٧٣، ح ٣٢٦٨. السنن الكبرى: ج ٨، ص ١٤٤، كتاب قتال أهل
 البغي، باب لا يصلح إمامان.

(٤) نهج البلاغة: ص ٨٣، الخطبة ٤١.

(٥) نهج البلاغة: ص ٣١٨، الخطبة ٢٠٠.

(٦) نهج البلاغة: ص ٤٨٨، الحكمة ١١٠.

ومنها: «لولا أنّ المكر والخديعة في النار لكنت أمكر العرب»^(١).
ومنها: «لولا أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن المكر والخديعة والخيانة في النار لكنت أمكر العرب»^(٢).

ومنها: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه»^(٣).
ومنها: «وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكنني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي، أضرع الله خدودكم»^(٤).

أقول: الكيس: العقل. والحول: البصير بتحويل الأمور. والقلب: الخبير بتقلبها. ويتهز: يبادر. والحريجة: التحرز. وعذرة وفجرة وكفرة - بضم الأول - للمبالغة أي غدور وفجور وكفور. وما أستغفل بالمكيدة: لا تجوز المكيدة علي كما تجوز على الغافلين. ولا استغمز بالشديدة: لا أضعف للخطوب وإن اشتدت. ولا يصانع: لا يداري. ولا يضارع: لا يشبه المبطلين في شيء من أحكامه، وقيل: لا يخضع ولا يضرع.

والمستفاد من هذه الكلمات الشريفة أنّ علياً عليه السلام يعرف الفرص والوسائل والأسباب إلى بلوغ الملك والسلطان، ولكنه لا يستعملها على حساب دينه، فإنه عليه السلام لا يعلم من النجاح والظفر إلا مرضاة الله والعمل بالحق والعدل، وهو عليه السلام مستعد لأن يضحي بالنفس والملك وبكل عزيز ليبلغ هذه الغاية.

وقال ابن أبي الحديد: إنّ فاطمة عليها السلام حرضته يوماً على النهوض والثوب فسمع صوت المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، فقال لها: أيسرك زوال هذا النداء من الأرض؟ قالت: لا قال: فإنه ما أقول لك^(٥).

وقال أيضاً: اعلم أن السائس لا يتمكن من السياسة البالغة إلا إذا كان يعمل

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٠٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١١٠.

(٣) نهج البلاغة: ص ١٨٣، الخطبة ١٢٦. بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١١١.

(٤) نهج البلاغة: ص ٩٩، الخطبة ٦٩. بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١١٠.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ١١٣. بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٦٢٥.

برأيه، وبما يرى فيه صلاح ملكه وتمهيد أمره وتوطيد قاعدته، سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه فبعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمير المؤمنين كان مقيداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتباعها ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غير ممن لم يلتزم بذلك.

ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب، ولا ناسيين إليه ما هو منزله عنه، ولكنه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة، ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء والابالاستنباط من أصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدب بالدرة والوسط - إلى أن قال - ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعداها إلى الاجتهاد والأفيسة، ويطبق أمور الدنيا على أمور الدين، ويسوق الكل مساقاً واحداً، ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب والنص، فاختلقت طريقتاهما في الخلافة والسياسة، وكان عمر مع ذلك شديد الغلظة والسياسة، وكان علي عليه السلام كثير الحلم والصفح والتجاوز.^(١)

وقال أيضاً: وكان أبو جعفر بن أبي زيد الحسن بن نقيب البصرة - رحمه الله - إذا حدثنا في هذا يقول: إنه لا فرق عند من قرأ السيرتين. سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسياسة أصحابه أيام حياته، وبين سيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسياسة أصحابه أيام حياته، فكما أن علياً عليه السلام لم يزل أمره مضطرباً معهم بالمخالفة والعصيان والهروب إلى أعدائه وكثرة الفتن والحروب، فكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل ممنوا بنفاق المنافقين وأذاهم وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه وكثرة الحروب والفتن...^(٢)

وقال أيضاً: ومن العجب أن أول حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بدرًا، وكان هو المنصور فيها، وأول حروب علي عليه السلام الجمل وكان هو المنصور فيها.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢١٢-٢١٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢١٤.

ثم كان من صحيفة الصلح والحكومة يوم صفين نظير ما كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية.

ثم دعا معاوية في آخر أيام علي عليه السلام إلى نفسه وتسمى بالخلافة، كما أن مسيلمة والأسود العنسي دعوا إلى أنفسهما في آخر أيام رسول الله ﷺ وتسميا بالنبوة، واشتد على علي عليه السلام ذلك كما اشتد على رسول الله ﷺ أمر الأسود ومسيلمة. وأبطل الله أمرهما بعد وفاة النبي ﷺ وكذلك أبطل أمر معاوية وبني أمية بعد وفاة علي عليه السلام.

ولم يحارب رسول الله ﷺ أحد من العرب إلا قريش ما عدا يوم حنين، ولم يحارب علياً عليه السلام من العرب أحد إلا قريش ما عدا يوم النهروان. ومات علي عليه السلام شهيداً بالسيف، ومات رسول الله ﷺ شهيداً بالسم. وهذا لم يتزوج علي خديجة أم أولاده حتى ماتت، وهذا لم يتزوج علي فاطمة أم أشرف أولاده حتى ماتت.

ومات رسول الله ﷺ عن ثلاث وستين ومات علي عليه السلام عن مثلها. وكان يقول: انظروا إلى أخلاقها وخصائصهما، هذا شجاع وهذا شجاع، وهذا فصيح وهذا فصيح، وهذا سخي جواد وهذا سخي جواد، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلهية، وهذا عالم بالفقه والشريعة والأمور الإلهية الدقيقة الغامضة، وهذا زاهد في الدنيا غير نهم عليها ولا مستكثر منها، وهذا زاهد في الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها، وهذا مذيّب نفسه في الصلاة والعبادة، وهذا مثله، وهذا غير محبب إليه شيء من الأمور العاجلة إلا النساء، وهذا مثله، وهذا ابن عبد المطلب بن هاشم، وهذا في قعده (١) وأبواهما أخوان لأب واحد وأم واحدة، دون غيرهما من بني عبد المطلب، وربي محمد ﷺ في حجر والد هذا، وهذا أبو طالب، فكان جارياً عنده مجرى أحد أولاده، ثم لما شب ﷺ وكبر استخلصه من بني أبي طالب وهو غلام

(١) القعد: القريب الآباء من الجد الأعلى.

فرباه في حجره مكافأة لصنيع أبي طالب به، فامتزج الخلقان وتمثلت السجيتان.^(١) ونقل أيضاً ابن أبي الحديد عن أبي جعفر النقيب اختصاص علي عليه السلام برسول الله ﷺ ثم قال: قال أبو جعفر النقيب: لأئمة نفس واحدة في جسمين، الأب واحد، والدار واحدة، والأخلاق متناسبة، فإذا عظمه أي النبي ﷺ علياً عليه السلام فقد عظم نفسه.^(٢)

سياسة علي عليه السلام.. وسياسة غيره

١- قال الدكتور طه حسين: إن الفرق بين علي ومعاوية في السيرة والسياسة كان عظيماً بعيد المدى، عرفت أن معاوية كان ينتظر علياً في ثبات وثقة واطمينان، كان الفرق بين الرجلين عظيماً في السيرة والسياسة، فقد كان علي مؤمناً بالخلافة... يرى أن من الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس، لا يؤثر منهم أحداً على أحد، ويرى أن من الحق عليه أن يحفظ على المسلمين ما لهم، لا ينفقه إلا بحقه، فهو لا يستبيح لنفسه أن يصل الناس من بيت المال، بل هو لا يستبيح لنفسه أن يأخذ من بيت المال لنفسه وأهله إلا ما يقيم الأود، لا يزيد عليه.

فأما معاوية... لا يجد في ذلك بأساً ولا جناحاً، فكان الطامعون يجدون عنده ما يريدون، وكان الزاهدون يجدون عند علي ما يحبون، وما رأيك في رجل جاء أخوه عقيل بن أبي طالب مسترفداً، فقال لابنه الحسن: إذا خرج عطائي فسر مع عمك إلى السوق فاشتر له ثوباً جديداً ونعلين جديدين، ثم لم يزد ذلك شيئاً! وما رأيك في رجل آخر يأتيه عقيل هذا نفسه بعد أن لم يرض صلة أخيه فيعطيه من بيت المال مائة ألف...

وعلي لا يداهن في الدين، ولم يكن يبغض شيئاً كما يبغض وضع درهم من بيت مال المسلمين في غير موضعه، أو إنفاقه في غير حقه، كما كان يبغض المكر والكيد

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٧، ص ١٧٥.

- وكل ما يتصل بسبب من أسباب الجاهلية الأولى...»^(١).
- ٢- وقال: مفتاح سياسة الإمامة قوله: «لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدنيا في أمري»^(٢).
- ٣- وقال جورج جرداق: إن الذين قالوا: علي لا يعرف السياسة، يريدون من علي أن يكون معاوية بن أبي سفيان، ويأبى علي إلا أن يكون ابن أبي طالب^(٣).
- وقال أيضاً: والذي يمعن النظر في سياسة معاوية يهوله هذا المقدار من قوى الشر والاحتيال التي تألف منها أسلوبه في أخذ الناس... فهو أسلوب مكيا فيلي خالص لا ينقصه شيء من تفاصيل المكيا فيلية المجرمة والنهب والترويع والتقتيل^(٤).
- وقال أيضاً: من قول معاوية: فاقتل من لقيته ممن ليس هو علي مثل رأيك، وانهب أموال كل من أصبت له مالا ممن لم يكن له دخل في طاعتنا^(٥).
- وقال أيضاً: أقول: صدق رسول الله ﷺ قال: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً^(٦).
- وقال أيضاً: نعم، إن معاوية لم يكن على شيء من الإسلام، وقد شهد على نفسه بذلك، فإنه كان يلبس الحرير، ويشرب في آنية من الذهب والفضة حتى أنكر عليه أبو الدرداء فقال له: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الشارب فيهما لتجرجر في جوفه نار جهنم... فقال معاوية بلا مبالاة: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً^(٧).
- ٤- وقال عبد الكريم الخطيب: تركوا علياً - يعني بعض أصحابه - خوفاً من حسابه، أو يأساً من عطائه، ولحقوا بمعاوية حيث هناك لا خوف من حساب ولا

(١) علي عليه السلام وبنوه: ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) الإمام علي عليه السلام: ص ٦٩٥، للرحماني.

(٣) في ظلال نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٥٨.

(٤) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ج ٤، ص ٣٤.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٧. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ج ٤، ص ٢٩.

(٦) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٥٦. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ج ٤، ص ١٩.

(٧) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ج ٤، ص ٣٠.

يأس من عطاء، فإن بيت مال المسلمين هو بيت مال معاوية يضعه حيث يشاء، ويفتح به لنفسه إلى الناس طرقاً، وفي عقيل بن أبي طالب وفي موقف علي منه ما يغني عن كل مثل يورد، وعن كل قول يقال في هذا المقام.

وطبيعي أن سياسة علي هذه كان يمكن أن تمسك عليه أهله وأصحابه وأنصاره لو كانت سياسة معاوية مماثلة لتلك السياسة أو مقاربة لها، وأما سياسة معاوية تذهب مذهب المياسرة حيناً والمبالأة حيناً آخر والإغراء في أكثر الأحيان، فإن ذلك جدير به أن يقلب القلوب، ويدير الرؤوس، وقد تحول كثير من أنصار علي عليه السلام إلى جبهة معاوية بفعل هذه السياسة.

وقال أيضاً: نجد المال في يد علي حرباً عليه أكثر من أعدائه، ويفسد عليه أصحابه وأنصاره، بينما نجد المال في يد معاوية جيشاً عاملاً يؤلف له العدو، ويدين إليه البعيد، ويبسط له سلطاناً قائماً على الرغبة والأمل.^(١)

وقال: روى أبو جعفر الإسكافي: أن معاوية بذل لسمره بن جندب مائة ألف درهم حتى يحدث بأن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ - وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (٢) فلم يرض، فبذل له مئتي ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل.^(٣)

ابن عباس

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش فلما سلم وجلس قال له معاوية: إني أريد أن أسألك عن مسائل. قال: سل عما بدا لك... قال: فما تقول في علي؟ قال: رضي الله عن أبي الحسن، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، ومحل الحجى، وبحر الندى، وطود النهى، وكهف العلى للورى، داعياً

(١) الإمام علي عليه السلام: ص ٥٩٦، للرحماني.

(٢) سورة البقرة: الآيات ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٤. الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ص ٥١٨ - ٥٢٥ أحمد الهمداني.

إلى المحجة العظمى، متمسكاً بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل من تقمص وارثي، وأبر من انتعل واسعاً، وأفصح من تنفس وقرأ، وأكثر من شهد النجوى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبلتين، فهل يوازيه أحد، وأبو السبطين فهل يقاربه بشر؟ وزوج خير النسوان فهل يفوقه قاطن بلد؟ للأسود قتال، وللحروب ختال، لم تر عيني مثله ولن ترى، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد إلى يوم التناد. ^(١)

ابن عمر

روى الحافظ الحسكاني بإسناده عن أبي هارن العبدى قال: كنت جالساً مع ابن عمر إذ جاء نافع بن الأزرق فقال: والله إنني لأبغض عليك. قال: أبغضك الله تبغض رجلاً سابقة من سوابقه خير من الدنيا وما فيها. ^(٢)

عمرو بن العاص

وأما عمرو بن العاص - قرين معاوية في الدهاء والمراوغة، وشريكه في المخططات والدسائس التي لا زلنا نقاسي فتنها - فأكتفي بشهادته في عظمة علي، وحقانيته بما رواه الإسحاقى، قال:

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص: أنه قد تردد كتابي إليك بطلب خراج مصر وأنت تمتنع وتدافع ولم تسيره، فسير إليّ قولاً واحداً وطلباً جازماً والسلام، فكتب إليه عمرو بن العاص جواباً، وهي القصيدة الجملجية ومن أبياتها:

معاوية الحال لا تجهل	وعن سبل الحق لا تعدل
فلولا موازرتي لم تطع	ولولا وجودي لم تُقبل
ولولاي كنت كمثل النساء	تعاف الخروج من المنزل
نصرناك من جهلنا يا بن هند	على النبأ الأعظم الأفضل

(١) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ص ٢٧٥ - ٢٧٦، لمحمد رضا. مروج الذهب: ج ٣، ص ٥.

(٢) شواهد التنزيل: ج ١، ص ٢٠. المصنف: ج ٧، ص ٥٠٥، باب فضائل علي بن أبي طالب، ح ٦٤.

وحيث رفعناك فوق الرؤوس
 وكم قد سمعنا من المصطفى
 وفي يوم «خم» رقى منبراً
 وفي كَفُّه كَفُّهُ معلناً
 أَلست بكم منكم في النفوس
 فأنحله إمرة المؤمنين
 وقال: فمن كنت مولياً له
 فوال مواليه يا ذا الجلال
 ولا تنقضوا العهد من عترتي
 فبخبخ شيخك لما رأى
 فقال: وليكم فاحفظوه
 وإنما وما كان من فعلنا
 وما دُم عثمان مُنْج لنا
 وإن علياً غداً خصمنا
 يحاسبنا عن أمور جرت
 فما عذرنا يوم كشف الغطاء؟
 فإنك من إمرة المؤمنين
 وما لك فيها ولا ذرة
 فإن كان بينكما نسبة
 وأين الحصا من نجوم السما؟
 فلما سمع معاوية جواب عمرو بن العاص بهذه الأبيات لم يتعرض له بعد ذلك.^(١)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٥٦-٥٧. الغدير: ج ٢، ص ١١٤-١١٨.

معاوية وعمرو أيضاً

ولما كانت حرب صفين كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية: «مالك يقتل الناس بيننا؟ ابرز لي فإن قتلتنني استرحت مني، وإن قتلتك استرحت منك» فقال له عمرو بن العاص: أنصفك الرجل فابرز إليه. قال: كلا يا عمرو، أردت أن ابرز له فيقتلني وتثبت على الخلافة بعدي! قد علمت قريش أن ابن أبي طالب سيدها وأسدها.^(١)

اعتراف آخر

قال ابن الأثير في الكامل: كان بنو أمية يسبون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة فترك ذلك، وكتب إلى العمال في الآفاق بتركه، وفي سبب ذلك قال عمر بن عبد العزيز: كان أبي إذا خطب فنال من علي تلجلج، فقلت: يا أبة، إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيراً؟ قال: أوفظنت لذلك؟ قلت: نعم، فقال: يا بني، إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده.

ولما ولي الخلافة ترك سب الإمام علي عليه السلام وكتب بتركه، فحل هذا الفعل عند الناس محلاً حسناً، وأكثروا مدحه بسببه، ومن ذلك قول كثير عزة:
وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم^(٢)

والعباسيون يعترفون أيضاً

بعد أن جهز الهادي العباسي جيشه لقتال الحسين بن علي شهيد فخ، وجعل موسى بن عيسى قائداً للجيش في قصة مفصلة وفضيعة، في نفس الوقت أرسل موسى بن عيسى العباسي رجلاً إلى عسكر الحسين حتى يراه ويخبره عنه، فمضى الرجل وتعرف على عسكر الحسين فرجع وقال لموسى بن عيسى: ما أظن القوم

(١) المحاسن والمساوي: ص ٧٤. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٢٦. دعاء علي معاوية إلى البراز.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٤٢ - ٤٣، ذكر أحداث سنة ٩٩ للهجرة.

إلا منصورين!! فقال: وكيف ذلك يا ابن الفاعلة؟ قال الرجل: لأنني ما رأيت فيهم إلا مصلياً أو مبتهلاً أو ناظراً في مصحف أو معداً للسلاح، فضرب موسى يداً على يد وبكى ثم قال: هم والله أكرم خلق الله، وأحق بما في أيدينا منا، ولكن الملك عقيم. لو أن صاحب هذا القبر - يعني النبي ﷺ - نازعنا الملك ضربنا خيشومه بالسيف.^(١)

حكاية وإفحام

وأختم هذا الفصل بهذه الحكاية الظريفة لما فيها من الدلالات.

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: حدثني يحيى بن سعيد بن علي الحنبلي المعروف بابن عالية، قال: كنت حاضراً عند إسماعيل بن علي الحنبلي الفقيه - وكان مقدم الحنابلة ببغداد - إذ دخل رجل من الحنابلة قد كان له دين على بعض أهل الكوفة، فأنحدر إليه يطالبه فيه، واتفق أن حضر يوم زيارة الغدير والحنبلي المذكور بالكوفة، ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جموع عظيمة تتجاوز حد الإحصاء.

قال ابن عالية: فجعل الشيخ إسماعيل يسائل ذلك الرجل ما فعلت..؟ وما رأيت..؟ هل وصل مالك إليك..؟ هل بقي منه بقية عند غريمك..؟ وذلك الرجل يجاوبه.

حتى قال له: يا سيد، لو شاهدت يوم الزيارة يوم الغدير، وما يجري عند قبر علي بن أبي طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة، وسب الصحابة جهاراً من غير مراقبة ولا خيفة.

فقال له إسماعيل: أي ذنب لهم، والله ما جرأهم على ذلك ولا فتح لهم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر، فقال ذلك الرجل: ومن هو صاحب القبر؟ قال: علي بن أبي طالب. قال: يا سيدي، هو الذي سن لهم ذلك، وعلمهم إياه، وطرقهم

(١) مقاتل الطالبين: ص ٣٠١، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ. النص والاجتهاد: ص ٥٣٣،

إليه؟! قال: نعم والله. قال: يا سيدي! فإن كان محققاً فما لنا نتولى فلاناً وفلاناً، وإن كان مبطلاً فما لنا نتولاه! ينبغي أن نبرأ إما منه أو منها. قال ابن عالية: فقام إسماعيل مسرعاً فلبس نعليه، وقال: لعن الله إسماعيل الفاعل بن الفاعل، إن كان يعرف جواب هذه المسألة ودخل دار حرمة، وقمنا نحن فانصر فنا.^(١)

أعلام العامة.. يصرحون بأحقية علي عليه السلام

منهم الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتاب الإمامة قال:
أجمع فقهاء الحجاز والعراق من فريقَي الحديث والرأي، منهم مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، والأوزاعي، والجمهور الأعظم من المتكلمين على أن علياً مصيب في قتاله لأهل صفين، كما قالوا بإصابته في قتال أصحاب الجمل، وقالوا أيضاً بأن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له... الخ.^(٢)

ونقل ابن نورك في كتاب مقالات الأشعري كلام أبي الحسن الأشعري في أمر المخالفين لعلي بن أبي طالب عليه السلام فقال: وكان - أي الأشعري - يقول في أمر الخارجين عليه والمنكرين لإمامته - أي علي - بأنهم كلهم كانوا على الخطأ فيما فعلوا، ولم يكن لهم أن يفعلوا ما فعلوا من إنكار إمامته والخروج عليه.^(٣)
وأخرج السلفي في الطيوريات عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال:
سألت أبي عن علي ومعاوية، فقال: اعلم أن علياً كان كثير الأعداء ففتش له أعداؤه شيئاً فلم يجدوه، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيداً منهم له^(٤)، فأشار بهذا إلى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل مما لا أصل له.

وقد ورد في فضائل معاوية أحاديث كثيرة لكن ليس فيها ما يصحح من طريق

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٣٠٧ - ٣٠٨. بحار الأنوار: ج ٢٩، ص ٦٤٨. الغارات: ج ٢، ص ٧٦٩، كلام ابن أبي الحديد في شرح قول علي عليه السلام.

(٢) فيض القدير: ج ٦، ص ٤٧٤، حرف الواو. الإمام علي بن أبي طالب: ٦٥٨.

(٣) سير أعلام النبلاء: ج ١، ص ٤٢٠، ترجمة طلحة بن خويلد. النصائح الكافية: ص ٤٧.

(٤) الصواعق المحرقة: ص ١٢٧. شيخ المغيرة: ص ١٨٣. ينابيع المودة: ج ٢، ص ٤٠٧.

الإسناد، وبذلك جزم إسحاق بن راهويه والنسائي وغيرهما^(١).
وقد علق على هذا المضمون الشيخ عبد الله الهرري بعد ذكر ما تقدم:
وقوله: ليس فيها ما يصح معناه، ليس فيها ما هو صحيح ولا حسن، وليس
كما ادعى بعض الأدياء أنه لم ينف أن يكون فيها حسن، وهذا لا يقوله متمرس
إلا جاهل بصناعة الحديث^(٢).

قال أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي في النسائي ما نصه: قال ابن خلكان،
قال محمد بن إسحاق الأصبهاني: سمعت مشايخنا بمصر يقولون: إن أبا عبد
الرحمن - أي النسائي - فارق مصر في آخر عمره، وخرج إلى دمشق فسئل عن
معاوية وما روى من فضائله فقال بما قاله: ما أعرف له فضيلة إلا - لا أشبع الله
بطنه -^(٣) وكان يتشيع فما زالوا يدامقونه في خصيته وداسوه، ثم حمل إلى مكة فتوفي
بها وهو مدفون بين الصفا والمروة.

وقال الحافظ أبو نعيم الإصبهاني: لما داسوه بدمشق مات بسبب ذلك الدوس
فهو مقتول، وكان صنّف كتاب الخصائص في فضل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
وأهل البيت وأكثر روايته فيه عن الإمام أحمد بن حنبل فقبل له: ألا صنفت في
فضل الصحابة كتاباً. فقال: دخلت دمشق والمنحرف عن علي كثير، فأردت أن
يهديهم الله بهذا الكتاب، وكان إماماً في الحديث ثقة ثباتاً حافظاً^(٤).

(١) شيخ المضيرة: ص ١٨٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) صحيح مسلم: ج ٥، ص ١٧٢، ح ٢٦٠٤.

(٤) شذرات الذهب: ج ٢، ص ٢٤٠ - ٢٤١. الكنى والألقاب: ج ٣، ص ٢٤٨. وفيات الأعيان:

ج ١، ص ٧٧ - ٧٨.

الفصل السادس

الترغيب.. والترهيب
الطريق الوحيد إلى الحكم

حكومة يزيد

وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبة، فإنّ معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل سعيد بن العاص بدله، فبلغه ذلك فقال: الرأي أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتي للولاية.

فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم الآن ولاية ولا إمارة لا أفعل ذلك أبداً، ومضى حتى دخل على يزيد وقال له: إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي ﷺ وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً، وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال: أو ترى ذلك يتم؟ قال: نعم.

فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة، فأحضر المغيرة وقال له ما يقول يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفي زيد منك خلف، فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفماً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة.

قال: ومن لي بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك. قال: فارجع إلى عمك وتحدث مع من تثق إليه في ذلك، وترى ونرى، فودعه ورجع إلى أصحابه فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً. وسار المغيرة حتى قدم الكوفة، وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته، وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة، وقدموا على

معاوية فزيتوا له البيعة، ودعوه إلى عقدها. فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا، وكونوا على رأيكم، ثم قال لموسى: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفاً. قال: لقد هان عليهم دينهم.^(١)

ثم كتب معاوية بعد ذلك إلى مروان بن الحكم: إنني قد كبرت سنّي ودق عظمي، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أنخير لهم من يقوم بعدي، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك، فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردّون عليك.

فقام مروان في الناس فأخبرهم به، فقال الناس: أصاب ووفق، وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو، فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب بذكر يزيد، فقام مروان فيهم وقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل، وقد استخلف ابنه يزيد بعده.

فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: كذبت والله يا مروان، وكذب معاوية، ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل.^(٢)

ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهري لما اجتمع الوفود عنده: إنني متكلم، فإذا سكت فكن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد، وتحثني عليها، فلما جلس معاوية للناس تكلم، فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة ولاية الأمر، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة، عرض ببيعته، فعارضه الضحاك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا أمير المؤمنين، إنّه لا بد للناس من والٍ بعدك، وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء، وأصلح للدهماء، وآمن للسبل، وخيراً في العاقبة، والأيام عوج رواجع، والله كل يوم في شأن، ويزيد بن أمير المؤمنين في حسن

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠٣-٥٠٤، أحداث سنة ٥٦ للهجرة. حياة الإمام الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١٩٢.

(٢) الاستيعاب: ج ٢، ص ٨٢٥.

هديه وقصد سيرته على ما علمت، وهو من أفضلنا علماً وحلماً، وأبعدنا رأياً، فوله عهدك، واجعله لنا علماً بعدك، ومفزعاً نلجأ إليه، ونسكن في ظله.

وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من ذلك، ثم قام يزيد بن المقنع العذري فقال: هذا أمير المؤمنين - وأشار إلى معاوية - فإن هلك فهذا - وأشار إلى يزيد - ومن أبي فهذا - وأشار إلى سيفه - فقال معاوية: اجلس فأنت سيد الخطباء.^(١) وتكلم من حضر من الوفود، فقال معاوية للأحنف: ما تقول يا أبا بخر؟ فقال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف الله إن كذبتنا، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلايته ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه الله تعالى وللأمة رضى فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا.^(٢)

فأحضرهم معاوية - يعني: الحسين بن علي، عبد الرحمن بن أبي بكر، وابن الزبير - وقال: قد علمتم سيرتي وصلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه، لا يعارضكم في شيء من ذلك، فسكتوا، فقال: ألا تجيبون مرتين؟

ثم أقبل على ابن الزبير، فقال: هات لعمرى إنك خطيبهم، فقال: نعم، نخيرك بين ثلاث خصال. قال: أعرضهن. قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر. قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف^(٣) أحداً فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف، قالوا: صدقت، فاصنع كما صنع أبو بكر، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من أبيه. قال معاوية: هل عندك

(١) الكامل في التاريخ: ج٣، ٥٠٨، أحداث سنة ٥٦ للهجرة. الإمامة والسياسة: ج١، ص ١٧١.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٣، ص ٥٠٨. الإمامة والسياسة: ج١، ص ١٧١.

(٣) لا يخفى بطلان هذا المزعم كما مر عليك.

غير هذا؟ قال: لا، ثم قال: فأنتم؟ قالوا: قولنا قوله.
قال: فإنِّي قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، إنِّي كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإنِّي قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه.
ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين، ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما، ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا بيت أمر دونهم، ولا يقض إلا عن مشورتهم، وإيهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله، فبايع الناس، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر، ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة، فلقي الناس أولئك النفر فقالوا لهم: زعمتم أنكم لا تبايعون، فلم أرضيتم وأعطيتم وبايعتم؟ قالوا: والله ما فعلنا، فقالوا: ما منعكم أن تردوا على الرجل؟ قالوا: كادنا وخفنا القتل.^(١)

بيعة يزيد ٦٠ هـ - ٦٤ هـ

بويع يزيد بالخلافة فهاً بعد موت أبيه ولم يكن ليزيد همّة إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان على المدينة يخبره بموت معاوية، وكتاباً آخر صغيراً فيه: أما بعد، فخذ حسيناً بن علي وعبد الله بن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام.^(٢)

معاوية الثاني يتنازل عن السلطة

وقبل أن يموت يزيد أخذ البيعة على الناس لولده معاوية، ولكن معاوية

(١) الكامل في التاريخ: ج٣، ص٥٠٨-٥١١، أحداث سنة ٥٦ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج٥، ص٣٣٨، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج٤، ص١٤، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

استقال منها بعد وفاة أبيه.

قال أبو المحاسن خطب معاوية بن يزيد الناس، وقال:

أيها الناس، إنَّ جدي معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به لقرابته من رسول الله ﷺ وهو علي بن أبي طالب عليه السلام وركب لكم ما تعلمون حتى أتته منيته، فصار في قبره رهيناً بذنوبه، وأسيراً بخطاياها، ثم تقلد أبي الأمر، فكان غير أهل لذلك، وهو ركب هواه، وأخلفه الأمل، وقصر به الأجل، وصار في قبره رهيناً بذنوبه، وأسيراً بجرمه.

ثم بكى معاوية بن يزيد حتى جرت دموعه على خديه، وقال: إنَّ من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه، وبئس منقلبه، وقد قتل عشيرة رسول الله ﷺ، وأباح الحرام، وضرب الكعبة، وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم، فشانكم وأمركم.^(١)

وقالت له أمه: ليتك كنت حيضة. قال: يا ليت، أجل إنَّ الحيضة أفضل من الانتساب إلى يزيد ومعاوية بن أبي سفيان.

ومات بعد أيام قصيرة، قيل: إنَّ الأمويين دسوا إليه السم؛ لأنه على غير شاكلتهم.^(٢)

ولاية العهد لعبد الملك وعبد العزيز بن مروان (٦٥ هـ)

في هذه السنة أمر مروان بن الحكم بالبيعة لابنيه: عبد الملك وعبد العزيز، وكان السبب في ذلك أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير حين وجهه أخوه عبد الله إلى فلسطين رجع إلى مروان وهو بدمشق قد غلب على الشام ومصر.

فبلغ مروان أن عمراً يقول: إنَّ الأمر بعد مروان، فدعا مروان حسان بن مالك بن بجدل فأخبره أنه يريد يبايع لابنيه عبد الملك وعبد العزيز، وأخبره بما بلغه عن

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٥٤، ذكر أيام معاوية بن يزيد. مروج الذهب: ج ٣، ص ٨٢.

(٢) مروج الذهب: ج ٣، ص ٨٢.

عمرو، فقال: أنا أكفيك عمراً، فلما اجتمع الناس عند مروان عشيماً قام حسان فقال: إنّه قد بلغنا أنّ رجلاً يتمنون، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز، فبايعوا عن آخرهم.

موت مروان بن الحكم وولاية ابنه عبد الملك (٦٥ هـ)

في شهر رمضان من هذه السنة مات مروان بن الحكم. وكان سبب موته أنّ معاوية بن يزيد لما حضرته الوفاة لم يستخلف أحداً، وكان حسان بن بجدل يريد أن يجعل الأمر من بعده في أخيه خالد بن يزيد، وكان صغيراً، وحسان خال أبيه، فبايع حسان ابن الحكم وهو يريد أن يجعل الأمر بعده لخالد، فلما بايعه هو وأهل الشام قيل لمروان تزوج أم خالد - وهي بنت أبي هاشم بن عتبة - حتى يصغر شأنه، فلا يطلب الخلافة، فتزوجها فدخل خالد يوماً على مروان وعنده جماعة وهو يمشي بين صفيين، فقال مروان:

والله إنّك لأحمق، تعال يا ابن الرطبة الأست، يقصر به ليسقطه من أعين أهل الشام، فرجع خالد إلى أمه فأخبرها، فقالت له: لا يعلمن ذلك منك إلا أنا، أنا أكفيك، فدخل عليها مروان فقال لها: هل قال لك خالد فيّ شيئاً؟ قالت: لا، إنّه أشد لك تعظماً من أن يقول فيك شيئاً، فصدقها ومكث أياماً، ثم إن مروان نام عندها يوماً فغطته بوسادة حتى قتلتها، فمات بدمشق وهو ابن ثلاث وستين سنة، وقيل إحدى وستين، وأراد عبد الملك قتل أم خالد فقبل له: يظهر عند الخلق أنّ امرأة قتلت أباك، فتركها.^(١)

أخبار عن مروان بن الحكم

«كان أبوه قد أسلم عام الفتح، ونفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف لأنه يتجسس عليه، ورآه النبي ﷺ يوماً يمشي ويتخلج في مشيه كأنه يحكيه، فقال له: كن

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٩١ - ١٩٢، ذكر أحداث ٦٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٦١٠ - ٦١١، ذكر أحداث سنة ٦٥ للهجرة. العقد الفريد: ج ٤، ص ٣٩٨. مروج الذهب: ج ٣، ص ٩٧ - ٩٨.

كذلك، فما زال كذلك حتى مات. (١)

ولما توفي رسول الله ﷺ كلمّ عثمان أبا بكر في رده؛ لأنّه عمه، فلم يفعل، فلما توفي أبو بكر وولّى عمر كلمه أيضاً في رده، فلم يفعل، فلما ولي عثمان رده وقال: إنّ رسول الله ﷺ وعدني أن يرده إلى المدينة، فكان ذلك مما أنكر الناس عليه. (٢)

ولما مات بويح لولده عبد الملك بن مروان في اليوم الذي مات فيه، وكان يقال له ولولده بنو الزرقاء، يقول ذلك من يريد ذمهم وعيبيهم، وهي الزرقاء بنت موهب جدة مروان بن الحكم لأبيه، وكانت من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغاء، فلهذا كانوا يذمّون بها. (٣)

الوليد يستلم ولاية العهد (٨٥ هـ)

أراد عبد الملك بن مروان أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويباع لابنه الوليد بن عبد الملك، فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذؤيب، وقال: لا تفعل، فإنّك تبعث على نفسك صوت عار، ولعل الموت يأتيه فنستريح منه، فكف عنه ونفسه تنازعه إلى خلعه، فدخل عليه روح بن زبأغ وكان أجل الناس عند عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو خلعت ما تنطح فيه عزان، وأنا أول من يجيبك إلى ذلك، وقال: نصبح إن شاء الله.

ونام روح عند عبد الملك فدخل عليها قبيصة بن ذؤيب وهما نائما، وكان عبد الملك قد تقدم إلى حجابته أن لا يجبوا قبيصة عنه، وكان إليه الخاتم والسكة تأتيه الأخبار والكتب قبل عبد الملك، فلما دخل سلّم عليه، وقال: أجرك الله في عبد العزيز أخيك. قال: هل توفي؟ قال: نعم، فاسترج ثمّ أقبل على روح وقال: كفانا الله ما كنّا نريد.

وأمر عبد الملك الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان، فبايعوا، وكتب لهما إلى

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١٥٠، الهامش. أسد الغابة: ج ٢، ص ٣٤. الإصابة: ج ٢، ص ٩١.

(٢) شيخ المضيرة: ص ١٦٠. النزاع والتخاصم: ص ٥٣. الغدير: ج ٨، ص ٢٥٤.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٩٤، ذكر أحداث سنة ٦٥ للهجرة.

البلدان، وكان على المدينة هشام بن إسماعيل، فدعا الناس إلى البيعة فأجابوا إلا سعيد بن المسيب فإنه قال: لا أبايع وعبد الملك حي، فضربه هشام ضرباً مبرحاً، وطاف به وهو في تبان شعر حتى بلغ رأس الشية التي يقتلون ويصلبون عندها، ثم ردوه وحبسوه.^(١)

الحجاج بن يوسف يحكم العراق

في سنة (٧٥ هـ) وليّ عبد الملك الحجاج بن يوسف العراق دون خراسان وسجستان، فأرسل إليه عبد الملك بعهدده على العراق وهو بالمدينة، وأمره بالمسير إلى العراق، فسار في اثني عشر ركباً على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الخوارج. فبدأ الحجاج بالمسجد، فصعد المنبر... فقال: إني والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين، ولا يققع لي بالشنان، ولقد مررت عن ذكاء، وجريت إلى الغاية القصوى.

ثم قرأ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.^(٢)

وأنتم أولئك وأشباه أولئك، إن أمير المؤمنين عبد الملك نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً، فوجهني إليكم، ورمى بي في نحوركم، فإنكم أهل بغي وخلاف، وشقاق ونفاق.

فإنكم طالما أوضعتم في الشر، وسنتم سنن الغي، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان، ولأمرينكم به حتى تدرّوا، ولألحونكم لحو العود، ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تذلّوا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا العصيان وتنقادوا، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلتينوا، إني والله ما أعد إلا

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥١٣ - ٥١٤، ذكر أحداث سنة ٨٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٦، ص ٤١٢، ذكر أحداث سنة ٨٥ للهجرة. العقد الفريد: ج ٤، ص ٤٢١.

(٢) سورة النحل: الآية ١١٢.

وفيت، ولا أخلق إلا فريت، فإياي وهذه الجمعات، ولا يركب رجل إلا وحده. أقسم بالله لتقبلن على الإنصاف، ولتدعن الإرجاف، وقيلاً وقيلاً، وما تقول وما يقول وأخبرني فلان، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده، فيم أنت وذاك؟ والله لتستقيمن على الحق أو لأضربنكم بالسيف ضرباً يدع النساء أيامي، والولدان يتامى، حتى تذروا السمهي، وتقلعوا عن ها وها، إلا أنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جبي فيء، ولا قوتل عدو، ولعلت الثغور، ولو أنهم يغزون كرهاً ما غزوا طوعاً.^(١)

بين أنس بن مالك والحجاج

قتل مع ابن الجارود عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري، فقال الحجاج: إلا أرى أنساً يعين عليّ، فلما دخل البصرة أخذ ماله، فحين دخل عليه أنس قال: لا مرحباً ولا أهلاً بك يا ابن الحبيثة، شيخ ضلالة جوال في الفتن، مرّة مع أبي تراب، ومرّة مع الزبير، ومرّة مع ابن الجارود، أما والله لأجردتك جرد القضيب، ولأعصبتك عصب السلمة، ولأقلعنك قلع الصمغة.

فقال أنس: من يعني الأمير؟ فقال: إياك أعني أصم الله صدك، فرجع أنس فكتب إلى عبد الملك كتاباً يشكو فيه الحجاج وما صنع به، فكتب عبد الملك إلى الحجاج:

أما بعد، يا ابن أمّ الحجاج فإنك عبد طمت بك الأمور فعلوت فيها حتى عدوت طورك، وجاوزت قدرك، يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب، لأغمزنك غمزة كبعض غمزات الليوث الثعالب، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت في مخرجك من بطن أمك، أما تذكر حال آبائك في الطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم، ويحتفرون الآبار بأيديهم في أوديتهم ومياهم؟ أنسيت حال آبائك في اللؤم والدناءة في المروّة والخلق؟ وقد بلغ أمير المؤمنين

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣٧٥-٣٧٦، ذكر أحداث سنة ٧٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٦، ص ٢٠٣-٢٠٤، ذكر أحداث سنة ٧٥ للهجرة. العقد الفريد: ج ٤، ص ١٢١.

الذي كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداماً، وأظنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين في أمره، فتعلم إنكاره ذلك وإغضاه عنك، فإن سوّغك ما كان منك مضيت عليه قدماً، فعليك لعنة الله من عند أخفش العينين، أصكّ الرجلين، ممسوح الجاعرتين، ولو أنّ أمير المؤمنين يظن أنّ الكاتب أكثر في الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين لأرسل من يسحبك ظهراً لبطن حتى يأتي بك أنساً فيحكم فيك، فأكرم أنساً وأهل بيته، واعرف له حقه وخدمته رسول الله ﷺ ولا تقصّر في شيء من حوائجه، ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبرّه وإكرامه، فيبعث إليك من يضرب ظهره، ويهتك سترك، ويشمت بك عدوك، وألقه في منزله متنصلاً إليه، وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله، والسلام. (١)

عبد الملك يخطب في الحج

وحج بالناس (٧٥ هـ) عبد الملك فخطب الناس بالمدينة، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد، فإنّي لست بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا بالخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا بالخليفة المأفون - يعني يزيد - ألا وإني لا أدأوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، وإنّكم تحفظوننا أعمال المهاجرين الأولين، ولا تعملون مثل أعمالهم، وإنّكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه. ثم نزل. (٢)

عبد الملك يفرض البيعة لأولاده

كتب الحجاج إلى عبد الملك يزيّن له بيعة الوليد، وأوفد في ذلك وفداً، فلما أراد عبد الملك خلع عبد العزيز والبيعة للوليد كتب إلى عبد العزيز: إن رأيت أن

(١) الكامل في التاريخ: ج٤، ص٣٨٥-٣٨٦، ذكر أحداث سنة ٧٥ للهجرة.

(٢) الكامل في التاريخ: ج٤، ص٣٩١-٣٩٢، ذكر أحداث سنة ٧٥ للهجرة. شرح نهج البلاغة:

ج٦، ص١٧. النزاع والتخاصم: ص٤١. شيخ المغيرة: ١٨٠.

يصير هذا الأمر لابن أخيك، فأبى، فكتب إليه ليجعل الأمر، ويجعله له أيضاً من بعده.

فكتب إليه عبد العزيز: إني أرى في ابن ابني بكر ما ترى في الوليد، فكتب إليه عبد الملك ليحمل خراج مصر، فأجابه عبد العزيز: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنّاً لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً، وإنّا لا ندرى أين يأتيه الموت أولاً، فإن رأيت أنا لا تفسد علي بقية عمري فافعل، فرّق له عبد الملك وتركه، وقال للوليد وسليمان: إن يرد الله أن يعطيكما الخلافة لا يقدر أحد من العباد على ردّ ذلك، فقال عبد الملك اللهم إنه قطعني فاقطعه، فلما مات عبد العزيز قال أهل الشام: رد على أمير المؤمنين أمره.

فلما أتى خبر موته إلى عبد الملك أمر الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان، فبايعوا، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان.^(١)

ومن أخبار عبد الملك بن مروان

قال أبو مسهر: قيل لعبد الملك بن مروان في مرضه: كيف تجدك؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾.^(٢)

وقال سعيد بن بشير: إن عبد الملك حين ثقل جعل يلوم نفسه، ويضرب يديه على رأسه، وقال: وددت أنّي كنت أكتسب يوماً بيوم ما يقوتني، وأشتغل بطاعة الله، فذكر ذلك لابن خازم، فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه.

وقال عمران بن موسى المؤدب: يروى أنّ عبد الملك بن مروان لما اشتد عليه مرضه، قال: ارفعوني على شرف، ففعل ذلك، فتنسم الروح ثم قال: يا دنيا ما

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥١٤، ذكر أحداث سنة ٨٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٦، ص ٤١٤، ذكر أحداث سنة ٨٥ للهجرة. الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ٥٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٤.

أطيبك، إنَّ طويلك لقصير، وإنَّ كبيرك لحقير، وإنَّ كنا منك لفي غرور، وتمثل بهذين البيتين:

أن تناقش يكن نقاشك يا رب عذاباً، لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوزت فأنت رب صفوح عن مسيء ذنوبه كالتراب
ويحق لعبد الملك أن يحذر هذا ويخاف، إنَّ من يكن الحجاج بعض سيئاته يعلم على أي شيء يقدم عليه.

قال عبد الملك لسعيد بن المسيب: يا أبا محمد صرت أعمل الخير فلا أسر به، وأصنع الشر فلا أساء به، فقال: الآن تكامل فيك موت القلب.^(١)

عبد الملك بن مروان يشيد بالحجاج

في سنة ٨٦ هجرية توفي عبد الملك بن مروان منتصف شوال، وكان عمره ستين سنة، وقيل: ثلاثاً وستين سنة، وأوصى بنيه فقال: انظروا مسلمة فاصدروا عن رأيها، فإنَّه نابكم الذي عنه تفترون، ومجنكم الذي عنه ترمون، فأكرموا الحجاج فإنَّه الذي وطأ لكم المنابر، ودوّخ لكم البلاد، وأذّل الأعداء، وكونوا بني أم بردة لا تدب بينكم العقارب، وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب، فإتّهم أصون له وأشكر لما يؤتى إليهم منه.^(٢)

ولكن وصفه عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم.^(٣)

وقال عنه الإمام الأوزاعي: كان الحجاج بن يوسف ينقض عرى الإسلام

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥٢٠ - ٥٢١، ذكر أحداث سنة ٨٦ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٩، ص ٧٤، ذكر أحداث سنة ٨٦ للهجرة تاريخ دمشق: ج ٣٧، ص ١٥٨، ترجمة عبد الملك ابن مروان.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥١٧ - ٥١٨، ذكر أحداث سنة ٨٦ للهجرة. الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ٥٨. البداية والنهاية: ج ٩، ص ٧٣ - ٧٤، ذكر أحداث سنة ٨٦ للهجرة.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥٨٦، ذكر أحداث سنة ٨٦ للهجرة.

عروة عروة^(١)، ومع هذا الوصف لا غرابة أيضاً في وصف عبد الملك له، والوصية به، فإنَّ الحجاج كان يفضل عبد الملك بن مروان على الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين ويقول: ويحكم، أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله إليهم؟^(٢) وواضح أنَّ مثل هذا يقول عبد الملك: الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي^(٣)؛ إذ هذه أساليب المستبدين وحالاتهم النفسية يمدحون من يواليهم، ويذمون من لا يواليهم.

الوليد بن عبد الملك

لما دفن عبد الملك بن مروان انصرف الوليد - ابنه - عن قبره، فدخل المسجد، وصعد المنبر، واجتمع إليه الناس فخطبهم وقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا لموت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا: وكان أول من عزى نفسه وهنأها^(٤)، ثم قام الناس لبيعته. وفي النصف من جمادى الآخرة من سنة ٩٦ هجرية مات الوليد بن عبد الملك في قول جمعهم، وخلف تسعة عشر ابناً وكان دميماً يتبختر في مشيته، وكان سائل الأنف جداً.^(٥)

وكان الوليد أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبيع لولده عبد العزيز فأبى سليمان، فكتب إلى عماله، ودعا الناس إلى ذلك، فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس، فكتب الوليد إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه، فأبطأ، فعم الوليد على المسير إليه ليخلفه، وأخرج خيمة، فمات قبل أن يسير إليه. وكان الوليد لحاناً لا

(١) العقد الفريد: ج ٥، ص ٥٠.

(٢) العقد الفريد: ج ٥، ص ٥١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ٣٦٠.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٦، ص ٤٢٣، ذكر أحداث سنة ٨٦ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥٢٢، ذكر أحداث سنة ٨٦ للهجرة.

(٥) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٨ - ٩، ذكر أحداث سنة ٩٦ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٩، ص ١٨٠، ذكر أحداث سنة ٩٦ للهجرة.

يحسن النحو دخل عليه أعرابي فمت إليه بصر بينه وبين قرابته، فقال له الوليد: من ختنك؟ بفتح النون، وظنّ يريد الختان، فقال: بعض الأطباء، فقال له سليمان: إنما يريد أمير المؤمنين من ختنك؟ وضم النون، فقال الأعرابي: نعم فلان، وذكر ختنه.

وعاتبه أبوه على ذلك وقال: إنّه لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم، فجمع أهل النحو ودخل بيتاً فلم يخرج منه ستة أشهر، ثم خرج وهو أجهل منه يوم دخل، فقال عبد الملك: قد أعذر، وخطب يوماً فقال: يا ليتها كانت القاضية - وضم التاء - فقال عمر بن عبد العزيز: عليك وأراحتنا منك.^(١)

خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ)

وفي السنة هذه استخلف عمر بن عبد العزيز، وسبب ذلك أن سليمان بن عبد الملك لما كان بدابق أصابه مرض كان في موته، حيث لبس يوماً حلة خضراء ونظر في المرأة، فقال: أنا الملك الفتى، فما عاش جمعة.

فلما ثقل عهد في كتاب كتبه لبعض بنيهِ، وهو غلام لم يبلغ، فقال له رجاء بن حيوة: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ أنه ما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على الناس الرجل الصالح.

فقال سليمان: أنا أستخير الله وأنظر فيه ولم أعزم عليه، فمكث سليمان يوماً أو يومين، ثم خرّقه، ودعا رجاء فقال: ما ترى في ولدي داود؟ فقال: هو غائب عنك بالقسطنطينية، ولا تدري أحي هو أم لا. قال: فمن ترى؟ قال رجاء: رأيك. قال: فكيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ قال رجاء: فقلت: أعلمه - والله - خيراً فاضلاً سليماً. قال سليمان: هو على ذلك، ولئن وليته ولم أول أحداً سواه لتكونن فتنة لا يتركونه أبداً يلي عليهم، إلا أن يجعل أحدهم بعده.

وكان عبد الملك قد عهد إلى الوليد وسليمان أن يجعلوا أخاهما يزيد ولي عهد،

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ١٠ - ١١، ذكر أحداث سنة ٩٦ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٩، ص ١٨٠ - ١٨١، ذكر أحداث سنة ٩٦ للهجرة.

فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر، وكان يزيد غائباً في الموسم. قال رجاء: قلت: رأيك. فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني قد وليت الخلافة بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له، وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا فيطمع فيكم. وختم الكتاب.

وتوفي عمر سنة ١٠١ هجرية بالسّم عند أكثر أهل النقل، فإنّ بني أمية علموا أن احتدت أيامه أخرج الأمر من أيديهم، فعاجلوه وما أمهلوه.^(١) وجزم ابن الأثير بأنّ أمية خافوا أن يخرج ما بأيديهم من أموال، وأنّه يخلع يزيد من ولاية العهد، فوضعوا على عمر من سقاه سماً، فلم يلبث حتى مرض ومات^(٢)، وهذه سياسة المستبدين الذين لا يرحمون بأقرب الناس إليهم في سبيل السلطة.

يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ)

وفيها تولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة، وكنيته أبو خالد، بعهد من أخيه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز، ولما احتضر عمر قيل له: اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة؟ قال: بماذا أوصيه؟ إنّه من بني عبد الملك، ثم كتب إليه: أما بعد، فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة، إنك تترك لمن لا يحمدك، وتصير إلى من لا يعذرك. والسلام.^(٣) وعمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه، ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثماً آجلاً.^(٤)

(١) البداية والنهاية: ج ٩، ص ٢٣٨، ذكر أحداث سنة ١٠١ هجرية.

(٢) العقد الفريد: ج ٤، ص ٤٣٩. البداية والنهاية: ج ٩، ص ٢٣٤، ذكر أحداث سنة ١٠١ للهجرة.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٦٧، ذكر أحداث سنة ١٠١ للهجرة.

(٤) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٦٧، ذكر أحداث سنة ١٠١ للهجرة.

بيعة هشام والوليد (١٠٢ هـ)

لما وجه يزيد بن عبد الملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب واستعمل على الجيش أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك.^(١) قال له العباس: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف. وقد توجهنا محاربين، والحوادث تحدث ولا نأمن أن يرجف أهل العراق ويقولوا مات أمير المؤمنين فيفت ذلك في أعضادنا، فلو عهدت عهد عبد العزيز بن الوليد لكان رأياً صواباً، فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك، فأتى أخاه يزيد. فقال يا أمير المؤمنين، أيهما أحب إليك أخوك أم ابن أخيك؟ فقال: بل أخي، فقال: فأخوك أحق بالخلافة، فقال يزيد: إذا لم تكن في ولدي فأخي أحق بها من أين أخي كما ذكرت.

قال فابنك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبد الملك، ثم بعده لابنك الوليد، وكان الوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة، فبايع بولاية العهد لهشام بن عبد الملك أخيه، وبعده لابنه الوليد بن يزيد، ثم عاش يزيد حتى بلغ ابنه الوليد، فكان إذا رآه يقول: الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك.^(٢)

سيرة يزيد بن عبد الملك

كان يزيد من فتيانهم، فقال يوماً وقد طرب وعنده حبّابه وسلامة القس - وهما جاريتان - : دعوني أظير. قالت: حبّابه: على من تدع الأمة، قال: عليك، فقالت: يا أمير المؤمنين، إن لنا فيك حاجة. قال: والله لأظيرن.

فقالت: على من تخلف الأمة والمملك؟ قال: عليك وقبّل يدها، فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك.^(٣)

(١) البداية والنهاية: ج ٩، ص ٢٤٦. تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٣١١.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٩١، ذكر أحداث سنة ١٠٢ للهجرة.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ١٢١، ذكر أحداث سنة ١٠٥ للهجرة. مروج الذهب: ج ٣، ص ٢١٠، ذكر أيام يزيد بن عبد الملك. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٢٢، ذكر أحداث سنة ١٠٥ للهجرة.

خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ)

في هذه السنة استخلف هشام بن عبد الملك لليال بقين من شعبان وكان عمره يوم استخلف أربعاً وثلاثين سنة وأشهرًا، وكانت ولادته عام قُتل مصعب بن الزبير سنة اثنتين وسبعين، فسماه عبد الملك منصورًا، وسمته أه باسم أبيها هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فلم ينكر عبد الملك ذلك، وكانت أمه عائشة بنت هشام حمقاء، فطلقها عبد الملك.^(١)

بيعة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ هـ)

كانت بيعته لست مضي من شهر ربيع الآخر من السنة، وقد تقدم عقد أبيه ولاية العهد له بعد أخيه هشام بن عبد الملك، وكان الوليد حين جعل ولي عهد بعد هشام ابن إحدى عشرة سنة، ثم عاش بعد ذلك، فبلغ الوليد خمس عشرة فكان يزيد يقول: الله بيني وبين من جعل هشامًا بيني وبينك، فلما ولي هشام أكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب.

وكان يحمله على ذلك عبد الصمد الأعلى مؤدبه، واتخذ له ندماء، فأراد هشام أن يقطعهم عنه، فولاه الحج سنة ست عشرة ومائة، فحمل معه كلابًا في صناديق، وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه الخمر وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر، فخوَّفه أصحابه، وقالوا: لا نأمن الناس عليك وعلينا معك، فلم يفعل.^(٢)

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ١٢٣، ذكر أحداث سنة ١٠٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٢٥، ذكر أحداث سنة ١٠٥ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٩، ص ٢٦١، ذكر أحداث سنة ١٠٥ للهجرة.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٦٤، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٠٩، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة. تاريخ الخميس: ج ٢، ص ٣٢٠. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٢، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة.

وفي سنة ١٢٦ هجرية قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي يقال له الناقص^(١) في جمادى الآخرة.

وكان سبب قتله ما تقدم ذكره من خلاعته ومجانته، فلما ولي الخلافة لم يزد من الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تمادياً، فثقل ذلك على رعيته وجنده، وكرهوا أمره.^(٢)

سيرة الوليد بن يزيد

كان من فتيان بني أمية وأشدائهم، منهمكاً في اللهو والشرب وسماع الغناء، فظن ذلك من أمره فقتل. وأشعاره في الغزل والعتاب ووصف الخمر وغير ذلك مشهورة، وقد أخذ الشعراء معانيه في وصف الخمر فسرقوها، وأدخلوها في أشعارهم، وخاصة أبو نؤاس فإنه أكثرهم أخذاً لها.

قال الوليد: المحبة للغناء تزيد في الشهوة، وتهدم المروءة، وتنوب عن الخمر، وتفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء رقية الزنا، وإنّي لأقول ذلك علي، وإنه أحب إليّ من كل لذة، وأشهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغلة، ولكن الحق أحق أن يتبع.

قيل: إنّ يزيد بن منبه مولى ثقيف مدح الوليد، وهنأه بالخلافة، فأمر أن تعد الأبيات، ويعطى بكل بيت ألف درهم، فعدت فكانت خمسين بيتاً، فأعطي خمسين ألف درهم، وهو أول خليفة عدّ الشعر وأعطى بكل بيت ألف درهم.

ومما شهر عنه أنه فتح المصحف فخرج: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(٣) فألقاه ورماه بالسهام وقال:

(١) وفي رواية صاحب العقد الفريد: أن يزيد بن الوليد هو المسمى بالناقص.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٨٠، ذكر أحداث سنة ١٢٦ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٢٣١، ذكر أحداث سنة ١٢٦ للهجرة. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٨٦، ذكر أحداث سنة ١٢٦ للهجرة.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٥.

تهددني بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا ربّ مزقني الوليد
فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى قتل.^(١)

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٨٩ - ٢٩٠، ذكر أحداث سنة ١٢٦ للهجرة. مروج الذهب: ج ٣، ص ٢٢٨، ذكر أيام الوليد بن يزيد. تاريخ الخميس: ج ٢، ص ٣٢٠.

الفصل السابع

السياسة الأموية تحت الأضواء

يلاحظ من الأحداث السياسية والمتعلقة بالفترة الأموية أنّها فترة مليئة بالمؤامرات، وواضح من خلال النصوص أنّ الأمويين كانوا ينظرون للخلافة على أنّها بضاعة عائلية.

فهذا معاوية بن أبي سفيان أول خلفائهم يتآمر مع المغيرة بن شعبة، ويدفع الرشوة له من أجل تثبيت ولده يزيد بن معاوية والعهد له، وهذا مروان بن الحكم (٦٤ هـ) يأمر بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز، وهذا عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ) يفرض البيعة لأولاده، ويخطب في الحج بالناس (٧٥ هـ) قائلاً: والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه.^(١) بعد أن أسكرته السلطة. ويحكم الناس أولاد عبد الملك على النهج نفسه فمن بعده جاء الوليد وسليمان، وكاد سليمان أن يعهد لابن له لم يبلغ بعد لولا تدخل رجاء بن حيوة. وجاء دور عمر بن عبد العزيز وسط معارضة أموية عاتية، ظهرت جليلة في خلافة يزيد بن عبد الملك، فقد عمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه، ولم يخف شناعة عاجلة ولا أثماً آجلاً.

ويأتي من بعد يزيد أخوه هشام بن عبد الملك، ويحكم الأمة عشرين عاماً، ثم يأتي من بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ومن بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ومن بعده إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، وكأنّ ليس في أمة محمد ﷺ إلا أولاد عبد الملك، ومن يلق نظرة عاجلة على تسلسل الخلفاء الأمويين يدرك أنّها - أي الخلافة - تحولت إلى كسروية وهرقلية، كلّما مات هرقل قام هرقل آخر

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣٩٢، ذكر أحداث سنة ٧٥ للهجرة.

كما قال عبد الرحمن بن أبي بكر.^(١)

إنّ طبيعة السلطة السياسية التي يدور محورها حول عائلة معينة وتحدد شخصيتها السياسية وفق مقتضيات مصلحة العائلة الحاكمة لا تستطيع قطعاً الارتقاء لمنهج الإسلام في الحكم، وهو منهج أممي عالمي يخرج عن الدوائر المغلقة للعائلة والقبيلة والقوم والعشيرة، ويتجاوزها ويتخطاها؛ لأنّه منهج يقوم أساساً على تحرير الإنسان من كل أشكال التعدي الاجتماعي والظلم السياسي والتفاوت الطبقي المشين الذي يفرزه الحكم العائلي. ولقد كان الحكم الأموي في المبادئ والأهداف والمنهج يتمتع بكل مزايا الحكم الجائر الغاشم الذي يدوس القيم ويحطم الإنسان من أجل الحكم، وكل ذلك يعد بلا شك انحرافاً أساسياً عن منهج الإسلام في الحكم ومقررات الشريعة الإسلامية في العدل المطلق.

مزايا الحكم الأموي

١- الخروج عن السنن الشرعية في السياسة المالية

زادت مصاريف العائلة الأموية لأنّها كانت تنظر للخلافة على أنّها بضاعة عائلية، وتعتبر بيت مال المسلمين إرثاً عائلياً، وزادت كل مظاهر بذخ الخلفاء الأمويين، وتبعهم في ذلك الولاة وسائر عمال الدولة. وانطلقت الأيدي بالجور والعسف في جباية الأموال بالوسائل غير المشروعة، ويارهاق الناس بالضرائب الفادحة، فزادوا في الخراج والجزية، وفرضوا الضرائب على الأرض الخراب، وفرضوا هدايا على الذميين في عيد النيروز، ووضعوا ضرائب لهم على مرور السفن بالماء، ووضع مروان بن محمد في ولايته على أرمينية ضرائب الأسماك.

ومع هذا التفتن في فرض الضرائب استخدموا القسوة في تحصيلها، وكل هذا لم يجد نفعاً في حفظ التوازن المالي للعائلة الأموية ويشبع ترفها، وأدى فوق ذلك إلى

(١) الاستيعاب: ج ٢، ص ٨٢٥، باب ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر. تاريخ دمشق: ج ٣٥، ص ٣٥.

نفور الناس منهم، واستخدمه الدعاء لإسقاط دولتهم؛ لأنّ المصالح العامة التي كانت الشريعة الإسلامية تهدف لتحقيقها أهملت تماماً.

٢- الفصل بين الدين والدولة

القيادة في الإسلام وسيرة الرسول الأعظم ﷺ قيادة واحدة تستقطب جميع نواحي الحياة. وكانت الحياة العملية والسياسية والفكرية في عهد الرسول الأعظم ﷺ تدور حول محور واحد هو محور الإسلام ومصالح دعوته وأمته، وكانت التوجيهات السياسية والتدابير القضائية والتعليمات الإدارية والتنظيمات العسكرية وشؤون الحرب والصلح تنطلق من هذا المفهوم بعينه.

والقادة الذين كانوا يواجهون هذه النواحي هم الذين كانوا في الوقت نفسه قادة المسلمين في الأخلاق والفكر والعلم والتربية الروحية، فالحاكم مفهومه الإسلامي هو قائد ومربّ ومدير ومعلم في وقت واحد، غير أنّ النظام الملكي العائلي الأموي قد شق هذه الوحدة العضوية في القيادة الإسلامية.

أما الشؤون السياسية فقد استأثر بها بنو أمية، وأما النواحي الخلقية والفكرية والروحية فقد انتقلت أزمتهما إلى رجال العلم والفقهاء، وأصبح الملوك الجدد - بنو أمية - هم الرؤوس السياسية في الدولة، وأصبح الفقهاء والعلماء وصحابة رسول الله ﷺ رواداً في الشؤون الروحية والخلقية والدينية المحضة.

وكان هذا الانقسام الذي اعترى الوحدة العضوية للقيادة في الدولة الإسلامية في حد ذاته فتنة مدمرة فعلاً جعلت الحاكم في مسار غير مسار المجتمع وقادته من علماء وفقهاء وصلحاء، كما وصفها أبو الأعلى المودودي، وكان من المحتوم أن تنعكس آثار هذا الفصل السيئة على المجتمع الإسلامي آنذاك.

وبما أنّ الغايات تختلف، وبما أنّ بني أمية عائلة حاكمة أولاً وقبل كل شيء، وبما أنّ الفقهاء والعلماء وصحابة الرسول ﷺ مسلمون ومؤمنون قبل كل شيء، فقد نجم عن كل ذلك تباعد بين هاتين القيادتين، واتسع الصدع بينهما، ثم ليؤسس التناحر والتصارع بينهما، وقد دفعت الدولة الإسلامية والدعوة الإسلامية ضريبة

كبيرة في هذا المضمار، وصار الفقهاء لا يعون لغة الملوك، ولا يطلب منهم أن يعوها، وصار ملوك بني أمية لا يعون لغة الفقهاء، بل كان على الفقهاء الخضوع لها، وصارت القيادة السياسية في واد الإسلام في واد آخر. وزرعت بذلك عملياً فكرة الفصل بين الإسلام كدين ومنهج ونظام للحياة من جهة، والقيادة السياسية من جهة، والسبب فكرة العائلة الحاكمة والحكم المستبد، هذه الفكرة التي سمحت لأمثال الوليد بن يزيد بن عبد الملك لأن يصبح خليفة للمسلمين، وهو الذي إذا ذهب إلى الحج حاملاً معه كلاباً في صناديق، وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه الخمر، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر.^(١)

فأي إسلام هذا، وأية خلافة هذه؟

٣- الفرض في تنصيب الخليفة

إنّ الخلافة عقد مرضاة واختيار، لا يدخله إكراه ولا إجبار، فلا بد أن يتحقق الرضا من الطرفين: المرشح للخلافة بعد إحراز رضا الله سبحانه، ورضا المبايعين له من الأمة، فلا يصح إكراه أحد على تحمل وزر الخلافة، كما لا يجوز شرعاً أخذ البيعة من الناس بالإجبار والإكراه، ولم تكن خلافة معاوية برضا الناس ولا بعد مشورتهم، وهو أول من يعرف ذلك، وأول من صرح بذلك في خطبة له بالمدينة في بداية عهده: أنا أعلم أنّكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها، وإنّي لعالم بما في نفوسكم من ذلك، ولكنني خالستكم بسيفي هذا مخالسة... وإن لم تجدونني أقوم بحقكم كله فارضوا مني ببعضه.^(٢)

أليس هذا بالملك الجبري الذي حاربه رسول الله ﷺ؟ وأين بيعة الرضا

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٦٤، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٢٠٩، ذكر أحداث سنة ١٢٥ للهجرة.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٤٣، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة. تاريخ دمشق: ج ٥٩، ص ١٥٤، ترجمة معاوية بن صخر أبي سفيان. سير أعلام النبلاء: ج ٣، ص ١٤٨.

والاختيار، وأين رأي الأمة ودورها؟

٤- القمع وسفك الدماء

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة في الدين من الواجبات الشرعية التي نص عليها الكتاب والسنة، ولا يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة في الدين الكلمات الرخوة لولاة الأمر المكتنفة بأشكال التودد والتقرب والحث بقدر ما كانت حزمة من الكلمات اليابسة، فالمعروف قد أمر به الله، والمنكر قد نهى عنه الله، فلم الوجمل والخوف من الصدع بذلك؟

وقد كان الحاكم يقول لمن يسدده ويتوعده بالسيف إن حاد عن طريق الحق: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نقبلها.^(١)

وكان الرسول ﷺ ينهي صحابته عن المدح والتمايح ويقول لهم: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب»^(٢) إلا أن عصر معاوية ألغى كل ذلك، وقد بدأ عهده بقتل الصحابي حجر بن عدي عام ٤١ هجرية. وكان معاوية قد أمر الخطباء في المساجد بلعن علي بن أبي طالب ﷺ فوق المنابر، ولا شك أن هذا الأمر يؤلم المسلمين والصالحين، ولقد غضب الصحابي حجر بن عدي لذلك، فكان إذا وقف زياد والي البصرة يسب علياً ﷺ وقف حجر يرد عليه، ويمدح علياً، ويذم معاوية، فما كان من زياد - وبتدبير من معاوية - إلا أن قبض على حجر وعلى اثني عشر من إخوانه، وجمع شهادات عدد كبير من المرتزقة يتهم فيها حجر وإخوانه على أنه يخطط لحرب معاوية. وجيء بحجر إلى معاوية فأمر بقتله وسبعة من إخوانه.

ورد معاوية أحدهم - وهو عبد الرحمن بن حسان - إلى زياد، وكتب له أن اقتله شر قتله، فدفنه زياد حياً.^(٣)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ١٢١.

(٢) مسند أحمد: ج ٢، ص ٩٤، باب حديث عبد الله بن عمر. صحيح مسلم: ج ٨، ص ٢٢٨، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٧٧، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة. الاستيعاب: ج ١، ص ٣٢٩ - ٣٣٠. باب ترجمة حجر بن عدي. تاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ١٤ - ١٥.

يقول الحسن البصري: أربع خصال كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة، انتزأه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب الطنابير، وادعاؤه زيادا وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وقتله حجراً وأصحاب حجر، فيا ويلاً له من حجر ويا ويلاً له من حجر وأصحاب حجر.^(١)

٥ - إحياء النزعات الجاهلية

كانت دولة معاوية الأموية منذ بدايتها ذات صبغة عربية خالصة حتى أن المساواة بين المسلمين تلاشت. وفي ظل دولة الأمويين فرضت الجزية على المسلمين الجدد مخالفة في ذلك أحكام الإسلام مخالفة صريحة وكان ذلك عقبة كبرى في سبيل انتشار الإسلام، وتولدت ردود الفعل الطبيعية المتوقعة عند المسلمين من العجم، وكانت التفرقة بين العرب وغير العرب واضحة وصريحة حتى إننا نرى الحجاج بن يوسف يصدر أمراً في الكوفة ألا يؤم الناس في الصلاة من كان من العجم.^(٢) ولما قبضوا على سعيد بن جبير الصحابي الجليل وجاءوا به إلى الحجاج ذكره بإحسانه إليه إذ جعله إماماً للناس في الصلاة بينما الإمامة لا تكون لغير العرب.^(٣)

بل لقد وصل الأمر إلى حد منع تقديم الأعجمي ليصلي بالناس صلاة الجنازة، اللهم إلا إذا لم يكن في الحضور ولو صبي من العرب. وإذا أراد عربي مسلم أن ينكح مسلمة من الموالي كان عليه أن يرجع في ذلك لا إلى والدها أو أقاربها كما تقرر الشريعة الإسلامية، بل إلى من تمتع أسرته بولايتهم

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٨٧، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٣٠، ذكر أحداث سنة ٤٤ للهجرة.

(٢) العقد الفريد: ج ٢، ص ٢٣٣. حيث قال: وقال الحسن: أمر الحجاج ألا يؤم بالكوفة إلا عربي. الخلافة والملك: ص ١٠٦.

(٣) الخلافة والملك: ص ١٠٩ - ١١٠.

من العرب، وراج بين العرب في دولة بني أمية إطلاق اصطلاح «المهجين» وهو شتم على من كانوا يولدون من زوجات غير عربيات، كذلك شاع بين الناس عدم المساواة بينهم وبين أولاد الزوجات العربيات في الميراث^(١)، مع أن الشريعة الإسلامية تساوي بينهم دون شك.

يروى أبو الفرج الأصفهاني أن رجلاً من بني سليم زوج ابنته لمسلم أعجمي، فذهب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة وشكاه عند الوالي، ففرق الوالي على الفور بين الزوجين، وجلد الأعجمي، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه وأهانته إهانة بالغة.

من هنا ومن خلال هذا الواقع المزري الذي ساد أيام دولة معاوية وبني معاوية نشأت النزعة الشعوبية (القومية الأعجمية) ومن هنا لقيت دعوة العباسيين في مناطق العجم (وبالأخص خراسان) تأييداً ومساندةً ضد بني أمية.

ولم يكتف بنو أمية بتشتيت الأمة على هذا النمط فقط، بل عمدوا إلى تشتيت العرب أنفسهم عن طريق إحياء العصبية القبلية العدنانية، والقحطانية، واليمانية، والمضرية، وأزد، وتميم، وكنب، وقيس، إلى آخر قائمة النزعات الجاهلية المتحللة.

وقد كتب ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن ابن عساكر: أنه في الوقت الذي كانت جيوش العباسيين تزحف فيه على دمشق، كانت العصبية بين اليمانية والمضرية تستعر في دمشق - العاصمة الأموية - فكانت ترى في كل مسجد محرابين، وكان في المسجد الجامع منبران يرتقيهما إمامان كل منهما يناصر قبيلته؛ لأن كلا الفريقين لم يكن على استعداد للصلاة خلف إمام ليس من قبيلته ورهطه.^(٢)

لقد كانت هذه النزعات تلقى تشجيعاً منذ بداية دولة معاوية، وكان يستغلها لمصالحه الشخصية، وسار على هذا الدرب خلفاء دولته باستثناء عمر بن عبد

(١) عيون الأخبار: ج ٢، ص ٦١، كتاب الطبائع. العقد الفريد: ج ٣، ص ٤١٧، باب المتعصبين للعرب.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٤٥، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة.

العزیز غیر أن السحر انقلب على الساحر في النهاية.

٦ - التلاعب بالدين وابتداع الأحكام

ولا نبأغ إذا قلنا: إن معاوية ومن بعده يزيد ومروان كانوا يقدمون مصالح عائلتهم الحاكمة ومطامعها على نصوص الكتاب والسنة، ويكفينا هنا أن نعدد مخالفات وتجاوزات معاوية للكتاب والسنة خلافاً صريحاً لا لبس في ظهوره وصراحته.

وكانت السنة أيام الخلافة الأولى ألا يرث الكافر مسلماً ولا يرث المسلم كافراً، فشرع معاوية خلال عهده يورث المسلم كافراً ولا يورث الكافر مسلماً.^(١) ويقول ابن كثير: إن معاوية بدّل سنة الرسول ﷺ في الدية، وكانت دية المعاهد مساوية لدية المسلم فخفضها معاوية إلى النصف، وكان يأخذ النصف الآخر لنفسه ولا يضعها في بيت المال.^(٢)

كذلك ابتدع معاوية بدعة كريمة، وهي أنه وسائر ولاته - وبأمره - كانوا يكيلون السب والشتم لعلي عليه السلام في خطبهم على المنابر. كانوا يلعنون علياً عليه السلام وهو أحب أقرباء رسول الله ﷺ إلى قلبه الشريف، من فوق منبر المسجد النبوي نفسه وأمام الروضة النبوية ذاتها، وكان أولاد علي عليه السلام وأقرب أقربائه يسمعون هذا اللعن بأذانهم.

ولا شك أن هذا الأمر من وجهة نظر الدين والأخلاق يعتبر أشد القبائح والمحرمات.

كذلك خالف معاوية كتاب الله وسنة رسوله ﷺ خلافاً ظاهراً في تقسيم مال الغنائم، فكتاب الله وسنة الرسول ينصّان على ضرورة ذهاب خمس مال الغنيمة إلى بيت المال، وتقسيم الأخماس الأربعة الباقية بين الجند الذين اشتركوا في القتال. أما معاوية فقد أمر باستخراج الذهب والفضة من مال الغنائم، واختص بها

(١) الأم: ج ٤، ص ٨٦-٨٧، كتاب الفرائض، باب ميراث المرتد.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٥١، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

نفسه، ثم قسم باقي المال حسب القاعدة الشرعية^(١)، وفي بعض الأحيان كان يلغيها أيضاً. كذلك رفع معاوية أعوانه وولاته فوق نصوص الكتاب والسنة، ورفض رفضاً باتاً محاسبتهم حسب أحكام الشريعة على ظلمهم وتعديهم، فذات مرة كان واليه على البصرة عبد الله بن عمرو بن غيلان يخطب في المسجد، فرماه شخص بحجر، فأمر أعوانه فأمسكوا به وقطعوا يده، مع أن الشريعة لا ترى ذلك جرماً تقطع فيه يد فاعله، فاستغاث الرجل بمعاوية فقال: لا سبيل إلى القود من نوابي، ولكن الدية، وأعطاه الدية من بيت المال.^(٢)

و حين عيّن معاوية زياداً والياً على الكوفة إلى جانب البصرة وارتقى منبر المسجد الجامع في الكوفة ليخطب خطبته الأولى رماه بعض الناس بالحجارة احتجاجاً على تعيينه، فأمر أتباعه فأغلقوا أبواب المسجد، وقبضوا عليهم جميعاً - واختلقت الأخبار في عددهم بين ثلاثين إلى ثمانين رجلاً - وقطعوا أيديهم.^(٣)

فلم ترفع عليهم دعوى، ولم يقدموا إلى محاكمة، ولم تثبت عليهم شهادات كما تنص على ذلك الشريعة، إنّما كل الذي حدث أنّ والي معاوية قطع أيدي كل من كان في المسجد بأمر منه، وهو ما لا يجوز في الشرع قط، ولم يحفل بلاط معاوية بالمسألة، ولم يعرّها أدنى التفات.

وابتدع معاوية بدعة كريمة أخرى تعكس الطبيعة الانتقامية لدى أول ملوك العرب، وهي حكاية قطع الرؤوس وإرسالها من مكان إلى آخر، وهتك حرّمت الجثث، والتمثيل بها، وهو ما كان ذائعاً أيام الجاهلية وحرّمه الإسلام تحريماً شديداً، وقضى عليه قضاء مبرماً. وأول رأس قطع في الإسلام هو رأس عمار بن

(١) الطبقات الكبرى: ج ٧، ص ٢٨، باب تسمية من نزل البصرة.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨، ص ٧٦، ذكر أحداث سنة ٥٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٥٠١، ذكر أحداث سنة ٥٥ للهجرة.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٣٤ - ٢٣٥، ذكر أحداث سنة ٥٠ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٤٦١ - ٤٦٢، ذكر أحداث سنة ٥٠ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٥٥، ذكر أحداث سنة ٥١ للهجرة.

ياسر الصحابي الذي قال له رسول الله ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية»^(١). ولقد نقل الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بسند صحيح كما نقل ابن سعد في الطبقات رواية تقول: إن رأس الصحابي عمار بن ياسر قطع في حرب صفين، وأُحضِر إلى معاوية، وتنازع عليه رجلان كلاهما يزعم أنه الذي قتل عمار^(٢). وسلك معاوية نفس السلوك الوحشي الفظيع مع محمد بن أبي بكر في مصر، وكان والياً عليها من قبل علي بن أبي طالب عليه السلام، فلما استولى عليها معاوية قتله، ثم وضع جثته في جلد حمار ميت وأحرقها^(٣).

وبعد أن استنّ معاوية هذه السنة القبيحة المجافية لنص القرآن وسيرة الرسول ﷺ أصبح الأسلوب المعهود أن لا ترحم جثث الذين كانوا يقتلون بدافع الانتقام السياسي، فقطع رأس الإمام الحسين عليه السلام ربحانة النبي ﷺ وسيد شباب أهل الجنة مع رؤوس أهل بيته وأنصاره عليهم السلام وجيء بها من كربلاء إلى الكوفة، ومنها إلى دمشق، ثم داست الخيل على جثته (سلام الله عليه) وسبيت نساؤه.

وفي عهد مروان قتل النعمان بن بشير الذي ظل يحمي عائلة بني أمية حتى عهد يزيد بسبب مساعدته لعبد الله بن الزبير، وقطع رأسه، وألقي في حجر زوجته^(٤). وطيف برأس مصعب بن الزبير في الكوفة ومصر، ثم جيء به إلى دمشق،

(١) سنن الترمذي: ج ٥، ص ٦٦٩. كتاب المناقب، ح ٣٨٠٠. مسند أحمد: ج ٢، ص ١٦١، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص. الاستيعاب: ج ٣، ص ١١٣٩، حرف العين. صحيح مسلم: ج ٥، ص ٤٣٠، كتاب الفتن، ح ٢٩١٥.

(٢) سنن الترمذي: ج ٥، ص ٦٦٩. كتاب المناقب، ح ٣٨٠٠. مسند أحمد: ج ٢، ص ١٦١، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص. الاستيعاب: ج ٣، ص ١١٣٩، حرف العين. صحيح مسلم: ج ٥، ص ٤٣٠، كتاب الفتن، ح ٢٩١٥.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٣٥٧، ذكر أحداث سنة ٣٨ للهجرة. تاريخ ابن خلدون: ج ٢، ص ٦٤٢، باب ولاية عمر بن العاص مصر. الاستيعاب: ج ٣، ص ١٤١٤، ترجمة معاوية بن خديج السكوني.

(٤) الطبقات الكبرى: ج ٦، ص ٥٣، ترجمة النعمان بن بشير.

وعلق أمام أعين الناس، وكانوا يريدون الطواف به في مدن الشام غير أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان نفسه احتجت على ذلك احتجاجاً شديداً، وقالت: أما رضيتم بما صنعتم حتى تطوفوا به في المدن، ثم أخذته وغسلته ودفنته.

وقد ارتكب مع عبد الله بن الزبير وإخوانه عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم أشد من ذلك وحشية وجاهلية؛ إذ قطعت رؤوسهم، وجيء بها من مكة إلى المدينة، ثم من المدينة إلى دمشق، وعرضت في كل مكان، وعلقت جثثهم عدة أيام على مشانق في مكة حتى تعفنت.^(١)

ثم ماذا كان من يزيد بن معاوية خليفته الذي قلده الخلافة بلا مشورة من المسلمين؟ قتل الحسين بن علي عليه السلام بعد أن وقف وحده في الميدان، ذبحوه ونهبوا ما كان على جسده، ومزقوا حتى ثوبه الذي يستره، ثم داسوه بالخيل، ووطئوه بسنابكها، وذبحوا طفله الرضيع عطشاناً، ومزقوا أثواب نسوته، وقطعوا رؤوس كل من استشهد في كربلاء، وجاءوا بها إلى الكوفة، ثم أرسلت كل هذه الرؤوس من بعد إلى دمشق، فعلقها يزيد في أهبية بلاطه وصلاته.^(٢)

ثم كانت وقعة الحرّة في آخر أيام يزيد وخروج أهل المدينة عليه، فأمر يزيد بالهجوم على المدينة المنورة استباحها لمدة ثلاثة أيام، بحيث استطاع جيش يزيد المكون من اثني عشر ألفاً أن يدخل بيوت المدينة ويهتك أعراض النساء بلا خجل، حتى إن ابن كثير قال: حتى قيل: إنّه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زواج.^(٣)

(١) تاريخ الطبري: ج ٦، ص ١٩٢، ذكر أحداث سنة ٧٣ للهجرة. الاستيعاب: ج ٣، ص ٩٢٨،

ترجمة صفوان بن الزبير. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٣٥٧، ذكر أحداث سنة ٧٣ للهجرة.

(٢) ذكرت واقعة كربلاء في جميع كتب السير والتاريخ، كالطبري في أحداث سنة ٦١ للهجرة، والكامل في التاريخ لنفس السنة، والبداية والنهاية لنفس السنة كذلك ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ البعقوبي في أيام يزيد بن معاوية وغيرها من كتب التاريخ.

(٣) البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٣٩، ذكر أحداث سنة ٦٣ للهجرة.

ثم هاجم جيش يزيد بعد فراغه من أمر المدينة المنورة مكة المكرمة؛ ليقاقل عبد الله بن الزبير، فرمى الكعبة الشريفة بالحجارة، فتهدم جدار من جدرانها.^(١) هذه الحوادث - منذ معاوية مروراً بيزيد ودولة بني عبد الملك - أوضحت أن هذه السلطة الحاكمة كأية سلطة مستبدة، كانت تراعي أول ما تراعي سلطتها وبقائها واستمرارها، وتضع حمايتها والحفاظ عليها فوق كل شيء، فلم تتورع في سبيل ذلك عن انتهاك أي حد من الحدود، وذبح أي شريعة من الشرائع، وهتك أية حرمة من الحرمات، وهذا ليس سبيل الإسلام.

٧- الانتهازية:

لما طمع بنو أمية في الخلافة كانت قد أفضت إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام صهر النبي ﷺ وابن عمه، والمسلمون يعتقدون أنه أحق الناس بها لقربته من النبي ﷺ وتقواه وشجاعته وعلمه وسابقته في الإسلام وفضله في تأييده، فتصدى له معاوية بن أبي سفيان وكان أبوه وإخوته من أشد الناس مقاومة للإسلام عند ظهوره، ولم يسلموا إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وإنما أقدموا على ذلك مضطرين لما رأوا الإسلام قد تأيد في جزيرة العرب، ولم يبق سبيل إلى مقاومته.

وكان أبو سفيان والد معاوية زعيم المشركين، وقد حارب النبي ﷺ في عدة أماكن، وجاهر بعداوته، وطعن فيه، فلما ظفر المسلمون في غزواتهم، واشتد إزراهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى أقبلوا عليها كان أبو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون، فلقبهم العباس عم النبي ﷺ فقال أبو سفيان وقد أسقط بيده: لقد أصبح أمر ابن أخيك عظيماً، فأشار عليه العباس أن يستأمن فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن، ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الإسلام فأسلم

(١) ذكرت واقعة الحرة في كتب التاريخ كالكمال في التاريخ: ج ٤، ص ١١١-١٢١، في أحداث سنة ٦١ للهجرة، والبداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٣٥-٢٤٣، تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٨٤-٤٩٥، وغيرها من كتب التاريخ والسير.

هو وأولاده، وفيهم معاوية، وقد تألفهم النبي ﷺ بالعطاء ليشبوا في إسلامهم.

معاوية وعلي عليه السلام

وكانوا بنو أمية ينظرون إلى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه، ويتوقعون فرصة للقبض على أزمة الملك، فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى اختار من الصحابة عثمان بن عفان وهو من بني أمية، ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسياسة أموية.

وكان عثمان ضعيفاً يؤثر ذوي قرابته في مصالح الدولة، فاغتنم الأمويون ضعفه، وتولوا الأعمال، واستأثروا بالأموال، فشق على ذلك سائر الصحابة فنقموا عليه وقتلوه.

فاتخذ الأمويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ورئيسهم معاوية بن أبي سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش، وكان أدهى أهل زمانه بلا منازع، فنظر في الأمر نظر رجل يطلب الملك كما يطلبه أهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر دون اكتراث بالدين، وقد ساعده على ذلك أن خصمه علياً عليه السلام كان يعتبر الخلافة منصباً دينياً وهو زاهد في الدنيا لا مطمع له في غير الثواب والحسنى ونشر الإسلام وهداية الخلق إليه. وإن رجال معاوية قد ذهب منهم حرمة الدين، ونسوا دهشة النبوة، وذاقوا لذة الثروة، وتعودوا السيادة، فأتسعت مطامعهم، فأثمرت مساعي معاوية في اصطناع الأحزاب بقاعدة ذكرها في حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص، فقال معاوية: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، فقال عمرو: وكيف ذلك؟ قال: إن هم شدوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت.

فأول شيء فعله معاوية أنه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدّهم المؤرخون أدهى رجال العرب، ومعاوية أدهاهم عذراً وتمرداً على القيم، وهم عمرو بن العاص، وزياد ابن أبيه، والمغيرة بن شعبة، ولولاهم لم يستتب له الأمر؛ لأن ابن العاص احتال في نجاته من واقعة صفين بعد أن كادت الدائرة تدور عليه إذ ظهرت جيوش علي عليه السلام على جيوشه، فأشار عليه عمرو بن العاص أن يرفع

المصاحف لإيقاف الحرب، ثم أشار بالتحكيم، وخذع أبا موسى الأشعري نائب علي عليه السلام في ذلك التحكيم، فخلع علياً عليه السلام وباع معاوية، ونال عمرو في مقابل ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر.

وزياد ابن أبيه رجل لا يعرف له أب، فلما رأى معاوية دهاءه قرّبه منه وادعى أنّه أخوه، واستلحقه بنسبه، وسماه زياد بن أبي سفيان، واستلحق زياد أول عمل ردّت به أحكام الشريعة الإسلامية علانية، وكان زياد عوناً كبيراً لمعاوية في حفظ العراق وفارس.

إما المغيرة بن شعبة فهو أول من ضرب الزيوف في الإسلام، وأول من رشى، وهو الذي حرّض معاوية على مبايعة ابنه يزيد، وجعل الخلافة وراثية في نسله، وساعده على ذلك.

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والإطماع، فأطعم ابن العاص مصر، وأطعم المغيرة فارس، وجعل زياداً أخاه، وكان يتساهل في محاسبة عماله، ويغض عن سيئاتهم، ويبالغ في إكرامهم. ولو رأوا من علي عليه السلام بعض ذلك لكانوا معه، ولكن علياً عليه السلام كان دقيقاً في محاسبتهم، متصلياً برأيه، لا يجيد عما يقتضيه ضميره.

رغبة بني أمية في السيادة

إنّ المحور الذي كانت تدور عليه سياسة بني أمية والغرض الذي كانوا يرمون إليه إنّما هو إحراز الخلافة والرجوع إلى السيادة التي كانت لهم في الجاهلية بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية إلى ذلك، أو وخامة الأسباب التي تمسكوا بها، وقد فازوا بغايتهم، فاتسعت المملكة الإسلامية في أيامهم، واشتدت شوكتها، مما لم تبلغ إليه دولة العباسيين بعدها، وكانوا يطلبون السلطة على أن لا يشاركهم فيها أحد، وكان أشدهم فتكاً عبد الملك بن مروان يقول: لا يجتمع فحلان في أجمة.

فرغبة بني أمية في السلطة على هذه الصورة مع وجود من هو أحق منهم بها جرّهم إلى ارتكاب أمور آلت إلى توجيه المطاعن عليهم، وقد ظهرت هذه الدولة

وتغلبت على سائر طلاب الخلافة في أيامهم بشيئين: العصبية القرشية، واصطناع العصبية أو الأحزاب الأخرى، وهما أساس كل ما ظهر من سياسة بني أمية كما سترى.

التعصب القومي في عصر الأمويين

العرب وقريش

كانت العصبية العربية في الجاهلية بين القبائل بحسب الأنساب، فلما جاء الإسلام تنوسيت تلك العصبية، واجتمع العرب كافة باسم الإسلام أو الأمة الإسلامية، وما زالت الأمة الإسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم حتى إذا طمع بنو أمية بالملك وقبضوا على أزمة الخلافة استبدوا، وتعصبوا للعرب، وحافظوا على مقتضيات البداوة، وتمسكوا بعاداتها، فظلت خشونة البادية غالبية على حكومتهم، وظاهرة في سياستهم مع ذهاب مناقب البدو التي ذكرناها.

وإنما حفظوا من أحوال جاهليتهم وتعصبهم لقبيلتهم - قريش - وإيثار أهلهم على سواهم، فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية وضاع فضلها في الإسلام، وخصوصاً أهل البصرة والكوفة والشام؛ لأن بعض العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ ولا هذبتهم سيرته، ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها، فلما استفحلت الدولة إذا هم في قبضة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب، فاستنكفوا من ذلك، وغصّوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم، مثل: قبائل

بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وكندة والأزد من اليمن وتيمم وقيس من مضر، فصاروا إلى الغرض من قريش والأنفة عليهم، فعادت العصبية إلى نحو ما كانت عليه في الجاهلية، فوَقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين، وخصوصاً بينهم وبين اليمنية ومنهم الأنصار.

وكما كان القرشيون في أيام بني أمية مقدمين على سائر قبائل العرب فإنَّ العرب على الإجمال كانوا مقدمين على سائر الأمم الذين دانوا للمسلمين، فكان العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي، ويرى أنَّه خلق للسيادة، وذاك للخدمة؛ ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الإسلام إلا بالسياسة والحكومة، وتركوا سائر الأعمال لسواهم، وخصوصاً المهن والصناعات. ولم يكن العرب يعنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ؛ لأنَّه لازم للسيادة والفتح، وأما الحساب والكتابة فقد كانت من صنائع الموالي وأهل الذمة؛ ولذلك كان العمال في أيام بني أمية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين؛ لأنَّهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون.

وكان الأمويون في أيام معاوية يعدون الموالي أتباعاً وأرقاءً، فتكاثروا، وأدرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب، فهمَّ أن يأمر بقتلهم كلهم أو بعضهم، وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الأمراء من رجال بطانته وفيهم الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب، فقال لهما: إني رأيت هذه الحمراء - يعني الموالي - وأراها قد قطعت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فرأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون؟^(١)

فقال الأحنف: أرى أن نفسي لا تطيب.. أخي لأمي وخالي وموالي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب، وأما سمرة فأشارة بقتلهم، وطلب أن يتولى ذلك هو بنفسه، فرأى معاوية أنَّ الحزم في رأي الأحنف، فكفَّ عنهم.

فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم، وكيف يخطر للخليفة أن يقتل شطراً

(١) العقد الفريد: ج ٣، ص ٤١٣. باب المتعصبين للعرب. تاريخ دمشق: ج ٢٤، ص ٣٢٠، ترجمة الضحاك بن قيس.

منهم بغير ذنب اقترفوه كأثمهم من الأغنام؟ وكانوا يسمون العربي من أم أعجمية «المهجين»^(١) ولا يزوجون الأعجمي عربية ولو كان أميراً، وكانت هي من أحقر القبائل، فلما بالغ بنو أمية في الاستخفاف بغير العرب وذهبت دهشة النبوة أخذ هؤلاء في التذمر، ونصروا أعداء الأمويين، وهان عليهم الرد على العرب في مفاخرتهم، فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعوبية، لا يعترفون بفضل العرب على سواهم، وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب، ولم يكن الشعوبية يستطيعون الظهور في أيام بني أمية، فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الأمين والمأمون ظهوراً، وألفوا الكتب في مثالب العرب، فالدولة الأموية هي التي جعلت الإسلام دولة عصبية، وظلت كثير من عادات الجاهلية شائعة في أيامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العمومية.

تقييد الأفكار في أيام بني أمية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون في مقاومتها، وقيدوا الألسنة بإرادتهم تقييداً شديداً، فكان ذلك عظيماً على الذين تعودوا الحق والحرية، فعاقبهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال أفكارهم بالعذاب الشديد، ولمن لم يستطيعوا مقاومته جهاراً قتلوه سراً.

بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام، وقد جرأهم عليه ضعف هذه الخليفة ورغبته في إرضاء أهله ونصرتهم، ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد أبي ذر الغفاري ونفيه لأنه جاهر باستبداد أهل الدولة بأموال المسلمين.

فلما أفضت الخلافة إلى معاوية لم يرد بدا من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية، واستعمل الشدة في ذلك، فقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وأصحابهما؛ لأنهم قالوا بحرية ضمير: إِنَّ عَلِيّاً سَيِّدٌ لَا يَجُوزُ لِعَنَةِ عَلَى الْمَنَابِرِ

(١) عيون الأخبار: ج ٢، ص ٦١، كتاب الطبائع.

فأصبح الناس يخافون على أرواحهم، وأخذوا يتعودون السكوت عن الحق.

المجاملة الكاذبة

شاع التزلف والمجاملة الكاذبة بين الاس في أيام الأمويين وكان الخلفاء من يخادعون الناس ويمجملونهم رغبة في نصرتهم، أو قطع ألسنتهم، ويعدّون ذلك حليماً، وكان معاوية إذا أعجزه اصطناع الأحزاب بالعتاء أو بالحلم أو بالسيف جهاراً عمد إلى قتلهم غيلة، وكان أنصاره يعرفون ذلك فيه، وأنه يصانعهم ليغلب بهم، فكانوا يصنعونه طمعاً ببال أو منصب، فكانت المصانعة والمراوغة أساس سياسة معاوية.

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين أغفى أبو مسلم عن الوفاء والأريحية، وقتل على التهمة، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وإن لم يقتربوا ذنباً، فزادت حاجتهم إلى المصانعة، ولما فاز أبو مسلم بحرية وسلم مقاليد الدولة إلى العباسيين كانت فوضى بينهم وبين العلويين، فلما تقلدها المنصور وطمع باستخلاصها للعباسيين والفرس وبينهم وبين العلويين، وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم، فاستخدموهم على غلّ، ولجأوا في الاحتراس منهم واتقاء أذاهم إلى الجاسوسية، فبثوا الأرصاء على وزرائهم وعمالهم يستطلعون أخبارهم، ويعثون بها إليهم سراً.

والأنصار نوعان:

الأول: أصحاب البريد في الأطراف، والعمال يعلمون أنهم رقباء على أعمالهم. والثاني: العيون الخفية يتخذونهم من الجوّاري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية إلى وزيره أو عامله، فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله، فيدخلون في جملة الندماء أو المغنين أو القيان أو أصحاب الشراب، ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سراً إلى الخليفة، وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء.

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاعفة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة.

اللباس

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائر طرق معائشهم، ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الإسلام، وهو عبارة عن القميص والحلة والإزار والشملة والعباءة والعمامة، ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية، وإنما هي فارسية، وكذلك النعال والخفاف، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها، وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم وثيابهم على الإجمال قصيرة إلى أسفل الركب.

وأفضل مثال لألبسة العرب لباس النبي ﷺ فقد ذكروا أنّ أحب الألبسة إليه البرود والبياض والخبرة، وهي ضروب من البرود فيه حمرة، وكان كمه قصيراً إلى الرسخ يلبس أحياناً حلة.

وأول من أقدم على تقليد الأعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله، فزياد بن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلباس القباء الديباج، وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة.

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه، وتفننا بأنواع الأنسجة، وأحبوا الوشي، وأكثروا من لبسه، فقلدهم الناس في ذلك.

اصطناع الأحزاب في عصر الأمويين

ومما احتاج إليه بنو أمية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الأحزاب كما فعل معاوية بن أبي سفيان بكل وسيلة، على أنّه كان إذا خاف عدواً لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسم كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فدسّ إليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه، فشربها ومات، وتخلص معاوية منه.

وفعل نحو ذلك بالأشتر النخعي مالك بن الحارث، وكان من أشدّ رجال علي عليه السلام قوة، أو هو أشدهم جميعاً، وقد أبلى معه في صفين بلاء حسناً، فكان

معاوية وأصحابه لا يضيعون فرصة ولا يباليون في إنفاذ أغراضهم ما يرتكبون من القتل أو نحوه.

أما علي عليه السلام وأصحابه فكانوا لا يجيدون عن مناهج الدين ومقتضى الأريحية.

فبالدهاء والإرهاب تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ثم صارت في بني مروان من أمية ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة، وهم كثيرون.

على أنه كان يسكتهم بالمسألة والبذل، وكانوا يهابونه ويسكنون إلى سياسته، ويتوقعون من الجهة الأخرى رجوع الخلافة إليهم بعد موته، فلما رأوه نقلها إلى ابنه يزيد ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرهما، وكل منهم يزعم أنه صاحب الحق بها، فاجتمع سنة ٦٨ هـ أربعة ألوية في عرفات كل منها لزعيم يطلب الخلافة لنفسه، أحدها لبني أمية، والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية، والثالث لعبد الله بن الزبير، والرابع لنجدة الحروري من الخوارج^(١)، ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك إلا بنو أمية للعصبيّة العربية واصطناع الأحزاب. وبذل الأموال لاصطناع الأحزاب جرّ بني أمية إلى خرق كثير من القواعد، فقد كانت الأموال التي ترد على بيت المال تعد ملكاً للمسلمين وليس الخليفة أو عامله إلا حافظاً لها لينفقها في مصالحهم وتدبير شؤونهم، وله منها راتب معين يتناوله مثل سائر المسلمين.

عمال بني أمية

فلما اضطر بنو أمية إلى اصطناع الرجال وجمع الأحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن أغضوا عن كثير من تلك الأحكام، واستندوا إلى عمال أشداء لا يباليون بالدين ولا أحكامه في سبيل أغراضهم مثل: زياد بن أبيه عامل معاوية، وعبيد الله

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٢٩٦، ذكر أحداث سنة ٦٨ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٦، ص ١٣٨، ذكر أحداث سنة ٦٨ للهجرة.

بن زياد عامل ابنه يزيد، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان، وخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك، وغيرهم. فكان الخلفاء يكتبون إلى عمالهم بجمع الأموال وحشدها، والعمال لا يبالون كيف يجمعونها، فقد كتب معاوية إلى زياد يقول: اصطف لي الصفراء والبيضاء.^(١)

فكتب زياد إلى عماله بذلك، وأوصاهم أن يوافوه بالمال، ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة، وكان العمال من الجهة الأخرى يختصون أنفسهم بجانب من تلك الأموال وليس ثمة من يحاسبهم، وقد أطلق الخلفاء أيديهم في الأعمال ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم، فكان العمال يختزنون لأنفسهم الأموال الطائلة حتى بلغت غلة أحدهم (١٠٠٠/٠٠٠/١٠٠) درهم في السنة، وزادت ثروته على (١٠٠٠/٠٠٠/١٠٠) درهم، وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة، ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة حتى كتب أمية بن عبد الله إلى عبد الملك بن مروان يقول: إن خراج خراسان لا يقيم بمطبخي.^(٢)

أخذهم الجزية عن المسلمين

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الأموال بأية وسيلة كانت، ومصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور، وأهمها في أول الإسلام الجزية لكثرة أهل الذمة، فكان عمال بني أمية يشددون في تحصيلها، فأخذ أهل الذمة يدخلون في الإسلام، فلم يكن ذلك لينجيهم منها؛ لأنّ العمال عدوا إسلامهم حيلة للفرار من الجزية، وليس رغبة في الإسلام، فطالبوهم بالجزية بعد إسلامهم.

وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف، واقتدى به غيره من عمال بني أمية في أفريقيا وخراسان ووراء النهر، فارتد الناس عن الإسلام وهم يودون البقاء فيه، وخصوصاً أهل خراسان وما وراء النهر، فإنّهم ظلوا إلى أواخر أيام بنية أمية لا

(١) الطبقات الكبرى: ج٧، ص٢٨، باب تسمية من نزل البصرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج٦، ص٥٠٩، ذكر أحداث سنة ٩٦ للهجرة.

يمنعهم عن الإسلام، إلا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد إسلامهم. فلما تولى أشرس ١١٠ هـ على خراسان كان أهل سمرقند قد ارتدوا عن إسلامهم، فبعث إليهم رجلاً اسمه أبو الصيذاء، فقال الرجل: اخرج إليهم على شريطة أن من أسلم لا تؤخذ منه الجزية، فقال أشرس: نعم، فشخص إلى سمرقند، ودعا أهلها إلى الإسلام على أن توضع الجزية عنهم، فسارع الناس إلى الإسلام، وقلّ الخراج، فكتب عاملها إلى أشرس: إن الخراج قد انكسر، فأجابه: إن في الخراج قوة للمسلمين، وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا ورغبة في الإسلام، وإنما أسلموا تعوداً من الجزية، فانظر من اختن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه.^(١)

ف فعل الناس ذلك، وبنوا المساجد، وكتب العمال بذلك إلى أشرس فأجابهم: خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه، فأعادوا الجزية على من أسلم، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند، وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الإسلام بسببها أهل الصغد وبخارا واستجاش الترك.^(٢) وما زالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار، وقد عرف موضع الخطأ فأعلن سنة ١٢١ هـ أنه وضع الجزية عمن أسلم، وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين، فلم يمض أسبوع حتى أتاه ٣٠ / ٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية! ناهيك بما كان يرتكبه بنو أمية من زيادة الخراج وضرب الضرائب والاستئثار بالفيء، ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك إلا عمر بن عبد العزيز.

الاستخفاف بالدين وأهله

ولما طلب الأمويون الخلافة لأنفسهم وهم يعلمون أن أهل البيت عليهم السلام أحق

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ١٤٧، ذكر أحداث سنة ١١٠ للهجرة. المصدر نفسه: ج ٥، ص ١٤٨، ذكر أحداث سنة ١١٠ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٩، ص ٢٩٢، ذكر أحداث سنة ١١٠ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٥، ذكر أحداث سنة ١١٠ للهجرة.

بها منهم وأنّ حجة أهل البيت في طلبها مبنية على أساس صحيح كان أكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم، ويؤيدون دعوتهم، ولكن العصبية كانت مع الأمويين والقوة غالبية.

أما الفقهاء وسائر أهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل أهل البيت عليهم السلام وتذكير الأمويين بما يرتكبونه في سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدي، ويعظمونهم، ويذكرونهم بتقوى الله.

حتى إذا أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان عمد إلى الشدة والعنف، فحج سنة ٧٥ هـ بعد مقتل ابن الزبير، ولما جاء المدينة وفيها أنصار أهل البيت عليهم السلام خطب فيهم خطاباً قال فيه: أما بعد فإنّي لست بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا بالخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا بالخليفة المأفون - يعني يزيد - ألا وإني لا أدأوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم بي قناتكم، وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم. وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه. ^(١)

الاستهانة بالقرآن والحرمين

وعبد الملك هذا كان يرى الشدة، ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ولو خالف أحكام الدين، وقد يتبادر إلى الذهن أنّه فعل ذلك اقتداءً بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف، ولا نظنه مقتدياً بذلك؛ لأنه صرّح باستهانتته بالدين منذ ولي الخلافة، وكان قبلها يتظاهر بالتدين، فلما تولاها استهوته الدنيا. ذكروا أنّه لما جاؤوه بخبر الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك، أو هذا فراق بيني وبينك. ^(٢)

فلا غرو بعد ذلك إذا أباح لعامله الحجاج أن يضرب الكعبة بالمنجنيق، وأن

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣٩١ - ٣٩٢، ذكر أحداث سنة ٧٥ للهجرة.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٣٧، ص ١٢٧، ترجمة عبد الملك بن مروان.

يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة، والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها، وأحلوه وضلوا يقتلون الناس فيها ثلاثاً، وهدموا الكعبة وهي بيت الله عندهم، وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها مما لم يحدث مثله في الإسلام.

ودخلوا المدينة وهي أحد الحرمين، وقتلوا أهلها، وسفكوا دماءهم. لم يغلق لها باب إلا أحرق ما فيه حتى إن الأقباط والأنباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلخالهن من أرجلهن وسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت أرجلهم!!.

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين وأهل التقوى صبراً، وإنما أرادوا بذلك تحقير أمر علي عليه السلام وشيعته تأييداً لسلطانهم؛ ولهذا السبب لعنوه على المنابر، وأمروا الناس بلعنه، وقتلوا من لم يلعنه.

وظلوا يلعنون علياً على المنابر إلى أيام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك.

الخلافة والنبوة

واستعمل بنو أمية عمالاً أشدء زادوهم استبداداً وشدة بما توخوه من تمليقهم بالتعظيم والتغريير مما يخالف أحكام الدين، وأول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك، فإنه سمى الخليفة «خليفة الله» وعظم أمر الخلافة حتى فضّلها على النبوة فكان يقول: ما قامت السماوات والأرض إلا بالخلافة، وإن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين؛ لأن الله خلق آدم بيده، وأسجد له الملائكة، وأسكنه جنته، ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفة، وجعل الملائكة رسلاً. ^(١) وإذا حاجّه أحد في ذلك قال: أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته؟ ^(٢)

(١) العقد الفريد: ج ٥، ص ٥١، أخبار الحجاج.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٨٠، ذكر أحداث سنة ١٢٦. والكلام لخالد بن عبد الله القسري وليس للحجاج كما ذكره ابن الأثير.

وكان عبد الملك إذا سمع ذلك أعجب به، واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الأشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك، فقد كان يقول قول الحجاج، وخطب الناس في مكة مرة فقال:

أيها الناس أيها أعظم خليفة الرجل إلى أهله أو رسوله إليهم؟^(١) يعرض أن هشاماً خير من النبي ﷺ.

وذكروا أن خالداً القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن، فإذا تلا آية أخطأ فيها وألحن في نطقها، فوقف مرة للخطابة فقال وأخطأ، ثم ارتج عليه، وفشل، فنهض صديق له من تغلب قال: خفض عليك أيها الأمير، ولا يهولنك ذلك، فما رأيت عاقلاً قط يحفظ القرآن، وإنما يحفظه حمقى الناس.^(٢)

فلا غرو بعد ذلك إذا قيل: إن الوليد بن يزيد سكير بني مروان رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره، فقد ذكروا أنه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾^(٣) فأمر بالمصحف فعلقوه، وأخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال:

تهددني بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد^(٤)
فلم يكن يهم بني أمية نشر الإسلام، وإنما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الأموال، فتوقف نشر الإسلام على عهدهم في الأطراف البعيدة كالسند وتركستان

(١) المصدر نفسه: ج ٥، ص ٥٢، أخبار الحجاج. وذكره ابن الأثير عن خالد بن عبد الله القسري من الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥٣٦، ذكر أحداث سنة ٨٩ للهجرة فراجع.

(٢) الأغاني: ج ٢٥، ص ٨٧٢٢، أخبار خالد بن عبد الله. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٣٦٤.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٥ - ١٦.

(٤) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٨٩ - ٢٩٠، ذكر أحداث سنة ١٢٦ للهجرة. مروج الذهب: ج ٣، ص ٢٢٨، ذكر أيام الوليد بن يزيد.

مع رغبة أهلها فيه، وإننا نفرهم منه شدة بني أمية وجشعهم، فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعاً لما يرونه من المعاملة الحسنة أو السيئة.

الفتك والبطش في عصر الأمويين

تولى الخلافة، معاوية، وسلّم الأعمال إلى دهاته في العراق وفارس ومصر وغيرها، وأخذ الناس بالشدة، وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق، وهو أول من شدد أمر السلطة، وأكد الملك لمعاوية، فجرد سيفه وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية فكان كذلك، ولما أفضت ولاية العراق إلى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٦٨ هـ) وقد كثر المطالبون بالخلافة. أراد الحجاج أن يتشبه بزياد وابنه بالشدة والعنف فبالغ في ذلك حتى أهلك ودمر، وقد أعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة، فأكبر المسلمون ذلك، ونقموا على تلك الدولة، وكثر الخارجون عليها، واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين. ومن أقوال الخوارج فيهم: إن بني أمية فرقة، بطشهم بطش الجبارة، يأخذون بالظن، ويحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضب.^(١)

وكان الخلفاء من بني أمية يرون في إطلاق أيدي عمالهم أو قوادهم تشجيعاً لهم، وتنفيذاً لأغراضهم، وربما حرّضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة حتى في أيام معاوية، فإنه أرسل بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكيم - وعلي بن أبي طالب عليه السلام يومئذ حي - وأرسل معه جيشاً، وقال: إنه أوصاهم أن يسيروا في الأرض، ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي عليه السلام ولا يكفوا أيديهم عن النساء والصبيان، فسار بسر على وجهه حتى انتهى إلى المدينة، فقتل فيها أناساً من أصحاب علي عليه السلام وهدم دورهم، ومضى إلى مكة وغيرها يقتل ويهدم حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل علي عليه السلام وابن عمه، وكان غائباً فراراً من القتل، فوجد بسر ابنين له صبيين اسمهما عبد الرحمن وقثم، فأخذهما وذبحهما بمديّة كانت معه، وذكروا

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ١١٨، باب أبي حمزة الشاري.

أن الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية، فلما أراد بسر قتلها قال الكناني:
تقتل هذين ولا ذنب لهما، فإن كنت قاتلها فاقتلني معها، فقتله وقتلها معه،
فصاحت امرأة من كنانة: يا هذا، قتلت الرجال فعلام تقتل هذين؟ والله ما كانوا
يقتلون في الجاهلية ولا الإسلام، والله يا ابن أرطأة إن سلطاناً لا يقوم إلا بقتل
الصبي الصغير والشيخ الكبير نزع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء!!
وقالت أم الصبيين شعراً في رثائها كانت تنشده في المواسم مطلعها:

يا من أحسّ بابني الذين هما كالدرتين تشظّي عنهما الصدف^(١)
فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبراً ولو كانوا
١٢٠ / ٠٠٠ وهل يُستبعد أن يكون في حبسه عند موته ٥٠ / ٠٠٠ رجل ٣٠ / ٠٠٠
امرأة، وكان عبد الملك أشد وطأة منه، وأجرأ على الغدر والفتك، بل هو أول من
غدر في الإسلام بعد أن أعطى الأمان، وذلك أن عمرو بن سعيد الأشدق أحد
أمراء عبد الملك طمع بالملك لنفسه، فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩
هـ لحرب مصعب بن الزبير في العراق، وجاء إلى الشام، ووضع يده عليها، فبلغ
عبد الملك ذلك وهو في الطريق، فرجع حالاً إلى دمشق، وقاتل عمراً أياماً فلم
يقدر عليه، فخاف على سلطانه، فاحتال في عقد الصلح فرضي، وكتب بينهما كتاباً
فيه أمان عبد الملك له.

فاطمأن خاطر عمرو المذكور، وخرج إلى الخليفة حتى أوطأ فرسه أطناب عبد
الملك، ثم دخل عليه فاجتمعوا، ودخل عبد الملك دمشق.

وبعد دخوله بأربعة أيام أرسل إلى عمرو فأجابه أنه آت العشيّة، وأتاه في مئة من
مواليه، ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بني مروان، وقد بقي مواليه خارجاً،
فاستقبله عبد الملك حتى أجلسه معه على السرير، وجعل يجادته، ثم أمر أحد الغلمان
أن يأخذ سيفه وقال له: أتطمع أن تجلس معي متقلداً سيفك؛ فأعطاه السيف.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٣٤٠. تاريخ دمشق: ج ٣٧، ص ٤٧٧، ترجمة عبد الله بن العباس.
أسد الغابة: ج ١، ص ١٨٠، ترجمة بسر بن أرطأة.

ثم قال عبد الملك: يا أبا أمية «عمرو» إنك حينما خلعتني آليت بيمين إن أنا ملأت عيني منك وأنا مالك لك أن أجعلك في جامعة، فقال له الحضور من بني مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين، فقال: نعم، وما عسيت أن أصنع بأبي أمية، فقال بنو مروان لعمرو: ابر قسم أمير المؤمنين، فقال: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال: يا غلام قم فاجمهه فيها، فقام الغلام فجمعه فيها، فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس، فقال: أمكر يا أبا أمية عند الموت؟ لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس، ثم جذبه جذبة فوق وقع وأصاب فمه السرير فكسر ثنيه، فقال عمرو: اذكر الله يا أمير المؤمنين كسر عظم مني فلا تترك ما هو أعظم من ذلك.

فقال عبد الملك لا والله لو أعلم أنك تبقي علي لو أبقيت عليك وتصلح قریش لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجالان في بلدة قط على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه، فلما رأى أنه يريد قتله قال: أغدر يا ابن الزرقاء؟ ثم قتله عبد الملك.^(١) وكانوا يقطعون الرؤوس ويطوفون بها في الأسواق والبلاذ كما فعلوا برأس عمرو بن الحمق، ومحمد بن أبي بكر، ومسلم، وهاني، والإمام الحسين عليه السلام وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة في عصر بني أمية ومن جاء بعدهم من بني العباس، وصار للرؤوس في دار الخلافة خزان يحفظون فيها كل رأس في سفت خاص، وجرت العادة أيضاً بصلب الجثث أو الرؤوس، ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل، ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لإرهاب أعدائه وإخضاعهم بالعنف، فمن ضرب التعذيب أنه كان يأتي بالقصب الفارسي فيشقه ويشده على الرجل وهو عار، ثم يسله قصبه حتى يقطع جسده، ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت!!

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٢٩٧ - ٣٠١، ذكر أحداث سنة ٦٩ للهجرة. مروج الذهب: ج ٣، ص ١٠٩ - ١١١، ذكر أيام عبد الملك بن مروان. تاريخ الطبري: ج ٦، ص ١٤٠ - ١٤٤، ذكر أحداث سنة ٦٩ للهجرة.

الموالي وتكاثرهم في عصر الأمويين

أفضت الخلافة إلى الأمويين في أواسط القرن الأول للهجرة، وعدد الموالي أخذ في الزيادة بموالاتة الفتح وتكاثر الرقيق بالأسر أو الإهداء؛ لأنّ العمال كثيراً ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض والأسود إلى بلاط الخليفة هدية أو بدلاً من الخراج أو نحوه، والخليفة يفرق ذلك في أهل بطانته، أو قواده هؤلاء يفرقونه في من حولهم، أو يبيعونه فينتقل إلى الناس على اختلاف طبقاتهم.

نقمة الموالي على العرب

فلما تكاثر الموالي ورأوا ما كان فيه الأمويون من التعصب للعرب على سواهم ولا سيما الموالي حتى كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء، ولا شيئاً من الغنائم أو الفبيء عظم ذلك عليهم، ورأوا في نفوسهم قوة، فنفرت قلوبهم من بني أمية، وأصبحوا عوناً لكل من خلع الطاعة أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج.

وأشهر من حاربهم بالموالي والعبيد المختار بن أبي عبيدة الذي قام في العراق للمطالبة بدم الحسين عليه السلام سنة ٦٦ هـ، ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية، فالمختار أطعم موالي العراق بالغنيمة، وأركبهم على الدواب، وكانوا ناقلين على أسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم فجاءوه متطوعين.

زواج الموالي بالعربيات

على أن الموالي في أيام بني أمية كانوا على الإجمال أعداء الدولة يقومون عليها مع القائمين انتقاماً لما كانوا يقاسون من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم، فازداد الأمويون تحقيراً لهم، فبعد أن قال النبي ﷺ: «مولى القوم منهم» منعوا زواجهم من العربيات^(١)، فإذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره إلى

(١) العقد الفريد: ج ٣، ص ٤١٣، باب المتعصبين للعرب. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٣٧٠

الوالي طلقها منه، كما حدث لأعراب بني سليم في الروحاء، فإتتهم جاؤوا الروحاء فخطب إليهم بعض مواليها إحدى بناتهم فزوجه، فوشى بعضهم إلى والي المدينة بذلك، ففرق الوالي بين الزوجين، وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه، وكثيراً ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالي ولو كانوا من أهل المنزلة الرفيعة أو أهل العلم والتقوى^(١)، فإن عبد الله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى فتزوج عربية فضربه بلال بن أبي بردة بالسياط.

فتزويج المولى بالعربية بالغ الأمويون في تقييده تعصباً للعرب على سواهم، وهو عندهم أقبح من زواج العربي بغير العربية، ولكن ذلك لم يكن محرماً في الدين، ولا اعتبره أهل التقوى. وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢) وقد أعتق رسول الله ﷺ صفيية بنت حيي بن أخطب وتزوجها، وأعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش.

فالإسلام يرفع منزلة المولى وأما الأمويون فرأوا تحقيره، وجملة القول أن تعصب بني أمية للعرب جرّهم إلى تحقير غير العرب، وخصوصاً الموالي، فنقم هؤلاء عليهم وكانوا أكبر المساعدين في إخراج الدولة من أيديهم.

(١) العقد الفريد: ج ٣، ص ٤١٦، باب المتعصبين للعرب.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

أهل الذمة في عصر الأمويين

عهود أهل الذمة في أول الإسلام

الذمة في اللغة: العهد والأمان والضمان، وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين.

قيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وأكثرهم من النصارى واليهود، وقد دعاهم القرآن «أهل الكتاب» نسبة إلى التوراة والإنجيل، وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيراً.

وفي الحديث النبوي توجيهات كثيرة بمحاسبة أهل الذمة، وخصوصاً قبض مصر، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا افتتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإنّ لهم ذمة ورحماً»^(١) إشارة إلى أن أم إسماعيل عليها السلام أبي العرب منهم، أو إشارة إلى مصاهرة النبي ﷺ لهم في مارية القبطية، وقال: «الله في أهل الذمة والمدرة السوداء السحم الجعاد، فإنّ لهم نسباً وصهراً»^(٢) وفي تاريخ الفتوح عهود

(١) المستدرک: ج ٢، ص ٥٥٣، کتاب التاريخ. کنز العمال: ج ٥، ص ٧٦٠، ح ١٤٣٠٤. فتوح البلدان: ج ١، ص ٢٢٠، فتوح مصر والمغرب. البداية والنهاية: ج ٦، ص ٢١٩، فصل في ترتيب الإخبار بالغيوب.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٦، باب نسب النبي ﷺ.

كثيرة، كتبت لأهل الذمة عاهدتهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم في مقابل ما يؤدونه من الجزية، ككتاب النبي ﷺ إلى صاحب أيلة (في العقبة) وإلى أهل اذرح في أثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، وهاك كتاباً للنبي ﷺ إلى صاحب أيلة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحيى ابن روية وأهل آية سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يجلب أن يمنعوا ما يردونه، ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر»^(١).

واقضى بالنبي ﷺ قواده في أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس، وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية. أما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقاً باختلاف البلاد والأحوال التي فتحت بها، فصلح مصر يختلف عن صلح الشام، وصلح الشام غير صلح العراق.

الأمويون وأهل الذمة

كذلك كانت أحكام الذمة لما أفضت الخلافة إلى بني أمية، وكانوا لا يخافون الروم على الشام؛ لأنّ مقر خلافتهم فيها، وقد احتلوا الشواطئ، وتغلّبوا على أهلها وصاروا يغزون الروم في البحر، على أنّهم ضيقوا على أهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في عشر الأموال لاصطناع الأحزاب والتمتع بأسباب الدنيا، فزادوا الجزية والخراج، وشدّدوا في تحصيلها، وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية ممن أسلم.

وأما من بقي على دينه من أهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب

(١) البداية والنهاية: ج ٥، ص ١٦، ذكر أحداث سنة ٩ للهجرة. الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٨٩، ذكر بعثة رسول الله ﷺ الرسل.

ويحتقروهم؛ لأنهم ليسوا عرباً ولا مسلمين.

ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احتقار بني أمية لغير العرب من المسلمين، وكانوا يعدّون الناس ثلاث درجات، أولها العرب، ثم الموالي، ثم أهل الذمة، ويؤيد ذلك رأي معاوية في أهل مصر، حيث قال: وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف، فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس، فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي، والثلث الذين هم لا ناس فالمسألة. يعني القبط!!

ولما رأى القبط أنّ حاكم الإسلام لا ينجيهم من الجزية أو العنف في تحصيلها عمد بعضهم إلى التلبس بثوب الرهينة، والرهبان لا جزية عليهم، فأدرك عمال بني أمية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان، وازدادوا غيظاً منهم حتى أراد بعضهم اقتضاءها من الأموات فضلاً عن الأحياء، بأن يجعلوا جزية الموتى على أحيائهم.

ونظراً لاهتمام بني أمية بجمع الأموال للأسباب التي قدمناها وأهل الذمة أقدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم لاقتدارهم في الحساب والكتابة وأعمال الخراج استخدموهم في هذا السبيل رغم إرادتهم، ولم يكن يفعلوا ذلك لنشر الإسلام أو حصر النصرانية بل لمصالحهم، ولولا ذلك ما ولوا خالداً القسري العراقيين وأمه نصرانية رومية كان يراعي جانبها، ويكرم النصارى من أجلها، فاعتز النصارى في أيامه، بينما قمع المسلمون.

وبنى خالد لأمه فابتنى لها بيعة في ظهر القبلة بالمسجد الجامع في الكوفة، فكان المؤذن إذا أراد أن يؤذن ضرب لها بالناقوس، وكان خالد يولي النصارى والمجوس على المسلمين، ويطلق أيديهم في الحكومة، فيستبدون بالمسلمين.

وعمر بن أبي ربيعة الشاعر المشهور كانت أمه نصرانية ماتت والصليب في عنقها، وكان النصارى في أيام بني أمية يدخلون المساجد، ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد.

وكان الأخطل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن وهو

سكران وفي صدره صليب، ولا يعترضه أحد، ولا يستنكفون من ذلك؛ لأنهم كانوا يستعينون به في هجو الأنصار.

على أن بعض الخلفاء من بني أمية كانوا إذا قربوا نصرانياً أو يهودياً طلبوا إليه أن يدخل في الإسلام، فلا يمنعه من الرفض مانع إلا من يغضب الخليفة عليه، ولم يكن يحتاج إليه، فينتقم منه، كما أصاب شمعة وكان من رهط الفرس نصرانياً فدخل على بعض خلفاء بني أمية فقال له: أسلم يا شمعة. قال: لا والله لا أسلم أبداً، ولا أسلم إلا طائعاً إذا شئت. فغضب وأمر فقطعت بضعة من فخذه وشويت بالنار وأطعمها. أما الأخطل فإن عبد الملك قال له مرة: ألا تسلم فنرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف؟ قال: كيف بالخمير؟ قال: وما نصنع بها وإن أولها لمر وآخرها لسكر، فقال: أما إذا قلت ذلك فإن بين هاتين لمنزلة، ما ملكك فيها إلا كلعة ماء من الفرات بالإصبع، فضحك.

وكان خلفاء بني أمية أهل ترف وهو ومجون، وقد بنوا بنيانهم على هذه المفاصد، وسياستهم على الظلم والجور، وأول من أسس هذا النهج معاوية ومن بعده يزيد بن معاوية المتوفى سن ٦٤ هـ، فقد كان مغرماً بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقروود والفهود.

وكان يحب الطرب والمنادمة على الشراب، فجرى عماله على أمثاله، وأظهروا الشرب، وفي أيامه ظهر الغناء في مكة والمدينة، واستعملت الملاحية ولم يكن المسلمون يعرفونها قبل ذلك.

ويزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٠٥ هـ، ويسمونه خليع بني أمية، فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز، وسار في طريق غير طريقه، فشغف بجاريتين اسم أحدهما سلامة والأخرى حيابة، فقطع معها زمانه.

والوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ، وكان خليعاً سكيراً همه الصيد وشرب الخمر حتى جعل الخمر في برك يغوص فيها ويشرب، وأول شيء فعله لما ولي الخلافة أنه بعث إلى المغنين في المدينة ومكة، وأشخصهم إليه، واستقدم أهل المجون والخلاعة، ونادمهم وبالغ في التهتك والسكر، ولكنه لم يحكم إلا سنة واحدة.

فلما انغمس بنو أمية بالترف والقصف مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالي وإساءتهم إلى أهل الذمة وسائر أهل القرى بما كانوا يسومونهم إياه من نهب غلتهم في أثناء السفر، إذ كان جند المسلمين في أواخر أيام بني أمية إذا مروا بقرية غصبوا أموالهم، فأصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم، ولم يمض إلا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها.

ثروة الدولة

الدولة الإسلامية في عصر النبي ﷺ لم يكن عندها ثروة حقيقة؛ لأن الحكام لم يكونوا يخترنون مالاً، ولا كان عندهم بيت مال، بل كانوا إذا أصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم، وكذلك الصدقات فإنها تفرق في أهلها، وإذا ظل منها شيء استبقوه لحين الحاجة إليه.

وكان النبي ﷺ يتولى ذلك بنفسه، وأكثر الصدقات من الماشية والإبل والخيل، فكان يسمها بميسم خاص بها تمتاز به عن سواها.

بيت المال

رحل النبي ﷺ والمسلمون هم رجال الحكومة والجند، ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التي قدمناها، ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات، وكان أكثر ما يرد عليهم من ماشية وحنطة وخيل ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة، وكانت النقود قليلة بين أيديهم، فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهباً وفضة فأدهشتهم كثرتها، وتنبهوا لها.

يقال: إن أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بهال، فقال له عمر: بما جئت؟ قال: بخمسة ألاف درهم، فاسكتته عمر وقال: أتدري ما تقول. قال: نعم، مائة ألف خمس مرات، فصعد عمر المنبر وقال: أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً، وإن شئتم عددنا لكم عدلاً. وكان ذلك من جملة ما دعاه إلى وضع الديوان، وفرض العطاء لكل واحد المسلمين باعتبار

السابقة والقرابة من النبي ﷺ ولكنه نهى عن اختزان المال.

وقد باشر الناس في أيام عثمان بن عفان (سنة ٢٣ - ٣٥ هـ) جمع الأموال؛ لأنه لم يكن شديداً، وكان مع ذلك أموياً، فاعتز الأمويون به، وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية، فأخذ عثمان يولي الأعمال رجالاً من أقربائه، وفيهم من لم يعتنق الإسلام إلا يائساً من فوزه على المسلمين، وكثرت في أيامه الفتوح، وفاضت الغنائم، فكان يخص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة، كما فعل بغنائم أفريقية سنة ٢٧ هـ، فإن المسلمين أخذوها وعليهم عبد الله بن سعد أخو عثمان من الرضاع، فبلغت غنائمهم منها (٢/٥٠٠/٠٠٠) دينار أعطى خمسها إلى مروان بن الحكم، وزوجه ابنته.

وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله، فازدادوا طمعاً في حشد الأموال لأنفسهم، وخصوصاً معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام، وهو أكثرهم دهاء، وأبعدهم مطمعاً.

واقترى بمعاوية غيره من العمال فاقتنوا الضياع والعقار، وفيهم جماعة من الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد وغيرهم، وزادت أموالهم، وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فإنه اقتنى الضياع الكثيرة، واختزن الأموال، فوجدوا عند خازنه بعد موته (٥٠/٠٠٠) دينار و (١/٠٠٠/٠٠٠) درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما (١٠٠/٠٠٠) دينار وخلف خيلاً وإبلًا، والظاهر أن عثمان اندفع إلى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال، وإغراء أهله على ذلك، وخصوصاً معاوية.

ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً. فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وقامت الفتنة في الخلافة وأرادها معاوية لنفسه رأى بين دعواتها من هم أحق بها منه نسباً وسابقة، فاحتال إليها بالمال، فازدادت رغبته في الاستكثار منه لبذله في إنشاء الأحزاب.

ولا غرو فإن المال قوة يوصل أهله إلى الكثير من المآرب والغايات، وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظيمة، ولا يزال حتى اليوم المحور الذي تدور عليه سياسة العالم المتمدن، فما من حرب أو سلم مخالفة أو معاهدة، وما من فتح أو

حصار إلا والمحرك عليه أو الداعي له المال.

وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصره بالدهاء والسيف حتى أفضت الخلافة إليه بعد واقعة صفين، ولكنها لم تصف له إلا بعد مقتل الإمام علي عليه السلام (٤٠ هـ) والإمام الحسن عليه السلام والناس مع ذلك يعلمون أنّ معاوية إنّها فاز ببذل المال حتى قال زيد بن علي لداود بن علي: «إن علياً كان يقاتله معاوية بدهائه ونكرانه بأهل الشام»^(١).

وسار بنو أمية على خطوات معاوية في ذلك، فجعلوا المال أكبر نصير لهم على مخالفيهم، فجرّهم ذلك على الاستكثار منه بأي وسيلة كانت.

والسلطة تحولت في دولة بني أمية من الخلافة الدينية إلى الملك السياسي. وتمتاز عن الدولة العباسية بأثما عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم؛ ولذلك فإنّ أهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الأصليين قاسوا من خلفاء بني أمية ومن عمالهم الأمور الصعاب حتى الذين أسلموا منهم، فإنّ العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد، وكانوا يسمونهم (الموالي) ويعدون أنفسهم ذوي إحسان عليهم؛ لأنّهم أنقذوهم من الكفر، وإذا صلّوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعاً لله.

وكان بعض العرب إذا مرّت به جنازة مسلمة قال: من هذا؟ فإذا قالوا: قرشي. قال: واقوماه، وإذا قالوا: عربي. قال: وابلدته، وإذا قالوا: مولى. قال: هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء.

وكانوا يجرمون الموالي من الكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، وكانوا يسمونهم العلوج.

وفي كتاب الموالي للجاحظ أنّ الحجاج لما قبض على الموالي الذين حاربوا مع ابن الأشعث أراد أن يفرقهم حتى لا يجتمعوا، فنقش على يد كل واحد منهم اسم

(١) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ١٦٨، ذكر أحداث سنة ١٢١ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٣٤، ذكر أحداث سنة ١٢١ للهجرة.

البلدة التي وجّه إليها.

وكان من جملة نتائج تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم أنّهم اعتبروا أهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالاً لهم، ويدل على ذلك قول سعيد بن العاص عامل العراق: ما السواد إلا بستان قريش، ما شئنا أخذنا منه، وما شئنا تركناه.

وقول عمرو بن العاص لصاحب أحنأ لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية، فقال عمرو: إنّما أنتم خزانة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف خففنا عنكم.

فاتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ما شاؤوا من أموال الناس، وقد جرّأهم على ذلك معاوية إذ جعل بعض الأعمال طعمة لبعض عماله، والبعض الآخر ضمنه بهال زهيد.

جور العمال

وكان عمال بني أمية يجورون على أصحاب الأرضين من أهل الذمة في التحصيل ونحوه، لا يهتمهم بقي لهم من المحصول شيء أم لا. وكان الخراج يومئذ على المساحة، فيؤخذ على الأرض مال معين زرعت أم لم تزرع، وكان من شروط الخراج أن يستبقى لأصحاب الأرضين ما يجيرون به من النوائب والجوارح.

ومما يحكى أنّ الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ تلك البقية منهم فأجابته: لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً.

والظاهر أن الضغط على أهل القرى وأصحاب الأرضين حمل بعضهم على الإسلام احتماؤه، فأصبحوا من الموالي، فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم، فألزمهم الحجاج الخراج مع أنّهم تنازلوا عن مغارسهم لأهلهم، وغادروا القرى، وسكنوا الأمصار فراراً من تلك الضرائب، فأمر الحجاج بردهم،

وطالبهم بالخراج.

وكتب الحجاج إلى الأمصار: أن من كان له أصل في قرية فليرجع إليها لتؤخذ منه الجزية والخراج.

فعل ذلك في أيام ابن الأشعث، فخرج الناس وهم يبكون وينادون: يا محمداه يا محمداه، ولا يدرون إلى أين يذهبون، فاضطروا إلى الانضمام للأشعث على الحجاج.

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم، فقد فعل مثله أيضاً يزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على أفريقية، وكذلك فعل الجراح في خراسان وغيره في ما وراء النهر، وكان أهل سمرقند قد أسلموا على أن ترفع الجزية عنهم، فظلوا يأخذونها منهم، فعادوا إلى دينهم، وتركوا الإسلام.

أما النصارى وغيرهم من أهل الذمة الذين ظلوا على دينهم فيكفي في تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين أسلموا منهم، فكانوا يسومونهم العذاب في تحصيل الجزية، ورأى هؤلاء أن اعتناق الإسلام لا ينجيهم من ذلك، فعمد بعضهم إلى التلبس بثوب الرهبنة؛ لأن الرهبان لا جزية عليهم، فأدرك العمال غرضهم من ذلك، فوضعوا الجزية على الرهبان، وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر، فأخر بإحصاء الرهبان، وفرض على كل راهب ديناراً، وهي أول جزية أخذت من الرهبان. وأمثال هذه الحوادث كثيرة في تاريخ بني أمية.

ومن أمثلة ما اقترفه بنو أمية في زيادة الخراج والجزية أن أهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً في العام، فلما تولى عبد الملك بن مروان استقل ذلك، فبعث إلى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدامه وكسوته، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها، فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير، فألزمهم ذلك جميعاً، وجعلها طبقة واحدة.

ولم تكن ضرائبهم قاصرة على أهل الذمة والموالي ولكنها شملت العرب المسلمين أنفسهم، وذلك أن محمداً أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة، وظلم الرعية، وأخذ أراضى الناس بغير حقها، وضرب على أهل اليمن خراجاً سماه «الوظيفة».

وكان من أساليبهم في الاستكثار من الأموال ضرب الضرائب على الأراض الخراب.

وكانت مشاطرة عمر عماله^(١) حجة اتخذها معاوية بعد ذلك في مشاطرة العمال، فلم يكن يموت له عامل إلا شاطر ورثته، وهو يقول: إثمها سنّة سنّها عمر، ثم تدرج إلى استصفاء أموال الرعية، وهو أول من فعل ذلك.

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته لهارون العباسي بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها. قال: بلغني.. ثم إثمهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي.. ويقىمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد، ويعلقون عليهم الجرار، ويقىدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام.^(٢)

وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر، وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يؤيد سلطانهم، ولا يباليون في انتقاء عمالهم، وربما ولّوا العامل عملاً بإشارة جارية أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيدي بن عبد الرحمن.

وكان الجنيدي قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر، فأعجبت هشاماً، فأهدى قلادة أخرى، فولاه هشام على خراسان سنة (١١١ هـ) وبلغ ثمن الجارية في أيام بني أمية (١/٠٠٠/٠٠٠) درهم، وهي الزلفاء، وأصبح العمال لا همّ لهم إلا حشد الأموال والاستكثار من الصنائع والموالي.

وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزال الأموال لأنفسهم؛ لعلمهم أن الولاية

(١) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب تجد الكثير من مشاطرة عمر عماله أموال المسلمين.

(٢) الخراج: ص ١٠٧.

غير ثابتة لهم، فكثرت أموالهم، واتسعت ثروتهم، فبلغت غلّة خالد القسري أمير العراق في أيام هشام (١٣/٠٠٠/٠٠٠) درهم، أي نحو مليون دينار. واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال، وخلاصته: أنّ متوسط جباية العراق في أيامهم نحو (١٣٠/٠٠٠/٠٠٠) وجباية مصر (٣/٠٠٠/٠٠٠) دينار (أو ٣٦/٠٠٠/٠٠٠ درهم) وجباية الشام (١/٧٠٠/٠٠٠) دينار (أو ٢٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو (١٨٦/٠٠٠/٠٠٠) درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لا نعرف مقداره.

وخلاصة ما تقدم أنّ الأموال كانت تستخرج في أيام بني أمية بكثرة، ولكنها لا تسمى ثروة؛ لأنّها كانت تصرف في الحروب ولتأييد شوكتهم.

الفصل الثامن

البطش بعاصمة الإسلام وقبلته

لم تكن ثورة المدينة إلا رد فعل آخر لفاجعة كربلاء، فهي تختلف عن حركة التوابين وثورتهم بالهدف، فالدافع لثورة التوابين النعمة والثأر لأنهم أحسوا بالمسؤولية لتخاذلهم عن نصره إمامهم في كربلاء، فثاروا للتكفير عن هذا الذنب، فقد شحنت نفوسهم كراهية وحقداً لبني أمية، فأخذوا يعملون بكل ما لديهم وأتوا من قوة سرّاً وعلناً لحرب الأمويين حتى ولو أدى ذلك إلى قتلهم. فهي في الحقيقة حركة تضحوية انتقامية يقصد منها ملاحقة الأمويين أينما كانوا وبأي صفة اتصفوا.

أما ثورة المدينة فلها طابع آخر غير ثورة التوابين، فهي لا تهدف إلا إلى تقويض سلطان بني أمية وسيطرتهم على البلاد والعباد لما اتصفوا به من ظلم وبطش وجور.

والسبب المهم الرئيسي للثورة هي واقعة كربلاء المفجعة التي قام بها نظام حكم بني أمية الفاسد على أيدي يزيد وابن زياد وأتباعهما، والذي ذهب ضحيتها الإمام الحسين بن بنت رسول الله ﷺ وإخوانه وأولادهم وأنصارهم. فأخذت الثورة تتأجج وتشتعل في قلوب المسلمين، والذي زادها اشتعلاً وصول بنات رسول الله ﷺ وأطفالهن السبايا مع الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام إلى المدينة بأكيات نائحات، لا ينقطع لهن عويل، ولا يهدأ لهن صراخ، وقد شاركت المدينة في مصابهن، فكانت تموج أسى وحرناً لمصاب الحسين وآل الحسين عليه السلام.

والإمام علي بن الحسين عليه السلام حسب ما تروي المصادر كان لا يرى إلا باكياً حزيناً، لم يقدم له طعام أو شراب إلا ومزجها بدموعه، وبقي على هذا الحال شطراً كبيراً من حياته، فيرق لحاله ويبكي القريب والبعيد، والكبير والصغير،

والعدو والصديق، وكان هذا نهجاً سلمياً اتخذه الإمام عليه السلام لتخليد ذكرى عاشوراء والتحريض على الظلم والجور الأموي.

فقد روي: أنه إذا مر بسوق القصابين يسألهم إذا كانوا يسقون المواشي قبل ذبحها، فطبعاً كان يجيبوه نعم نسقيها، فيصيح باكياً لقد ذبح ابن رسول الله عطشاناً، فيبكي كل من في السوق لبكائه.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «قال لجدي الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام بعض مواليه عندما رآه لا يفتر عن البكاء: إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين، فقال له الإمام عليه السلام: كيف لا أبكي وقد نظرت إلى أبي وأخي وعمي وبني وعموتي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي مجزرين كالأضاحي».

وغير ذلك من المواقف التي وقف فيها الإمام زين العابدين عليه السلام وعماته وأخواته يفضحون الظلم بالنوح والخطب والتذكير بأحداث كربلاء وفصولها فصلاً فصلاً، والعقيلة زينب كانت لا تترك فرصة في الطريق الطويل الشاق وغيره إلا وتذكر الظلم والجور والقتل والذبح الذي لحق بهن وبرجالهن الصرعى، وتشرح للسامعين عندما تمر بمضرب من مضارب العرب أو قرية حقد بني أمية على الإسلام وعلى آل بيت النبي ﷺ وكيف قتلوا رجالات هذا البيت الطاهر في كربلاء وأحرقوا الخيام على الأطفال والنساء وأخذهم سبايا من بلد إلى بلد ليسوموهم بالذلة والتنكيل، بالسبي والسلب والنهب، حتى فضحتهم وأظهرت للعالم خبثهم وحقدهم وخزيهم وكفرهم؛ لأنهم كانوا يتسترون بالتقوى والصلاح والإيمان، ويتشدقون بالدين، ويتهمون خصومهم بالخروج عن الدين، فقد أشاعوا بين الناس أن الحسين بن علي عليه السلام خارجي مارق، مبررين قتله وسفك دمه ومن معه، مستحلين منه كل ما حرم الله.

ولولا شهادة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء ووقوف الإمام علي بن الحسين عليه السلام ومواقف زينب وأخوات زينب لنجحوا وطمسوا الحقائق، وضاع الحق، ونجح الظالمون المارقون.

هذه المواقف الواعية الأبية أبرزت للعالم ما كان يحاول الأمويون طمسه وإخفائه ودفنه.

كما ألهبت الجماهير، وأثارت مشاعرهم، وأججت نار الثورة والنقمة والحقد على الأمويين وعمالهم وعملائهم ودأبت على تعبئة النفوس وتأليب الناس على حكم الطاغية يزيد وأتباعه وبني أمية.

فهاجت المدينة وماجت منتصرة للحسين وآله، رافضة أساليب القمع والبطش التي مارسوها وارتكبوها بحقهم.

هاجموا دور الأمويين وأتباعهم في المدينة، فالتجأ نساؤهم وأطفالهم لدار الإمام زين العابدين عليه السلام وبيوت العلويين فحموهم، وحافظوا عليهم، وعاملوهم كأفراد من أسرهم.

رأى يزيد بن معاوية أن أسلوب التنكيل والبطش والقتل لا يجدي نفعاً، وأوشك أن يهدد ملكهم بالزوال، إذ تمدت السلطة بارتكاب الظلم.

فعمد إلى عزل الوليد بن عتبة عن المدينة حيث كان والياً عليها من قبله، وكان ظالماً جائراً جلاداً، وعين مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وزوده بنصائح، وأمره بالرفق.

فحاول أن يجعل بين زعيمه يزيد وبين وجوه المدينة وأشرفها صلة تعتمد على العطاء والبذل بسخاء، لعلهم يبيعونه دينهم وشرفهم، فشكل وفداً منهم يضم كلاً من عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبد الله بن أبي عمر بن حفص بن المغيرة المخزومي، والمنذر بن الزبير، ورجالاً آخرين وكثير من أشرف أهل المدينة وأرسلهم إلى دمشق لرأب الصدع.

فقدموا على يزيد بن معاوية بالشام، فأكرمهم، وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم، رغبة منه لكسب ودهم وميلهم وحبهم له، وبالتالي ليكونوا رجاله وأعوانه، وهذه سياسة كان يتبعها معاوية لشراء الذمم.

وبعد هذا الإكرام والعطاء رجعوا إلى المدينة إلا المنذر بن الزبير فإنه قدم على عبيد الله بن زياد بالبصرة وكان يزيد قد أجازته بمائة ألف درهم.

وعند وصول الوفد للمدينة قادماً من الشام قاموا بعكس ما كان يتمنى يزيد فأظهروا للناس وبينوا حقيقة يزيد بن معاوية وما شاهدوه من إسراف وترف لا حد له من بيت مال المسلمين.

وقالوا: إننا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطناير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان، وإننا نشهدكم أنا قد خلعناه فتابعهم الناس.^(١)

وعندما رجع المنذر بن الزبير من البصرة لحق بأصحابه وجماعته في المدينة، فكان يجرس الناس على يزيد بن معاوية، وكان من قوله يومئذ: إن يزيد والله لقد أجازني بمائة ألف درهم، وإنه لا يمنعي ما صنع إلي أن أخبركم خبره، وأصدقكم عنه، والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة. وعابه بمثل ما عابه أصحابه الذين كانوا معه وأشد.^(٢)

ويروى أن الناس أتوا عبد الله بن حنظلة الغسيل فبايعوه وولوه عليهم، ولما وصلت أخبار المدينة إلى يزيد بن معاوية غضب غضباً شديداً، فأرسل النعمان بن بشير ليتدارك الموقف، ويعلمه بكل شيء فحاول يائساً تهدئة الوضع المستجد، وحذرهم من الفتنة والخلاف فلم يذعنوا له ويستجيبوا لطلبه، فرجع فاشلاً إلى الشام ليعلم يزيد بما جرى وحدث.

فاستغاث أتباع يزيد في المدينة من الأمويين بيزيد بن معاوية لينقذهم من الثوار الذين يريدون أن يسود الحق والعدل، وتطهير البلاد من الظلم والجور. فطلب يزيد بن معاوية من عمرو بن سعيد الأشدق أن يترأس جيشاً ويقوده

(١) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٨٠، ذكر أحداث سنة ٦٢ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٠٢ - ١٠٣، ذكر أحداث سنة ٦٢ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٣٣، ذكر أحداث سنة ٦٢ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٨١، ذكر أحداث سنة ٦٢ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٠٣ - ١٠٤، ذكر أحداث سنة ٦٢ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٣٣، ذكر أحداث سنة ٦٢ للهجرة.

لقمع الثائرين من أهل المدينة فاعتذر، وأشير إليه بإرسال مسلم بن عقبة فاستدعاه وعينه قائداً على الجيش، وأمره بالتوجه إلى المدينة.

وعند توجه الجيش من الشام إلى المدينة صعد يزيد المنبر في دمشق وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد، يا أهل الشام، فإنّ أهل المدينة أخرجوا قومنا منها، والله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إليّ من ذلك.

وكان معاوية بن أبي سفيان قد أوصى ولده يزيد فقال له: إن رابك منهم ريب، أو انتفض عليك منهم أحد فعليك بأعور بني مرة مسلم بن عقبة ودعا به فقال: سر إلى هذه المدينة بهذه الجيوش، وإن شئت أعفيتك، فإني أراك مدنفاً منهوكاً - أي مريضاً - فقال: نشدتك الله، أن لا تحرمني أجراً ساقه الله إليّ، وتبعث غيري، فإني رأيت في النوم شجرة غرق قد تصيح أغصانها: يا ثارات عثمان، فأقبلت إليها وجعلت الشجرة تقول: إني يا مسلم بن عقبة، فأتيت فأخذتها، فعبرت ذلك أن أكون أنا القائم بأمر عثمان، والله ما صنعوا الذين صنعوا إلا أن الله أراد بهم الهلاك.

فقال يزيد: فسر على هذا النهج، فأنت صاحبهم، فخرج مسلم بن عقبة فمسكر وعرض الأجناد، فلم يخرج معه أصغر من ابن عشرين، ولا أكبر من ابن خمسين على خيل عراب، وسلاح شاك، وأداة كاملة، ووجه معه عشرة آلاف بغير تحمل الزاد حتى خرج، فخرج معه يزيد بن معاوية فودعه وقال له: إن حدث بك حدث فأمر الجيوش إلى حصين بن نمير، فانفض باسم الله إلى ابن الزبير، واتخذ المدينة طريقاً إليه، فإن صدوك أو قاتلوك فاقتل من ظفرت به منهم وانهبها ثلاثاً.

فقال مسلم بن عقبة: أصلح الله الأمير لست بأخذ من كل ما عهدت به إلا بحرفين. قال يزيد: وما هما ويحك. قال: أقبل من المقبل الطائع، واقتل المدبر العاصي.

فقال يزيد: حسبك ولكن البيان لا يضررك والتأكيد ينفعك، فإذا قدمت المدينة فمن عاقك عن دخولها أو نصب لك الحرب فالسيف السيف، أجهز على جريحهم، وأقبل على مدبرهم، وإياك أن تبقي عليهم. وإن لم يتعرضوا لك فامض إلى ابن الزبير.

فمضت الجيوش فلما نزلوا بوادي القرى لقيتهم بنو أمية خارجين من المدينة، فرجعوا معهم، واستخبرهم مسلم بن عقبة عما خلفهم، وعما لقوا، وعن عددهم. فقال مروان: عددهم كثير، أكثر مما جئت به من الجيوش، ولكنّ عامتهم ليس لهم نيات ولا بصائر، وفيهم قوم قليل لهم نية وبصيرة، ولكن لا بقاء لهم مع السيف، وليس لهم كراع ولا سلاح، وقد خندقوا عليهم، وحصنوا.

قال مسلم: هذه أشدها علينا، ولكننا نقطع عنهم مشربهم، ونردم عليهم خندقهم، فقال مروان: عليه رجال لا يسلمونه، ولكن عندي فيه وجه سأخبرك به. قال: هاته، فقال: اطوه ودعه حتى يحضر ذلك. قال فدعه إذاً.

ثم قال لهم مسلم: تريدون أن تسيروا إلى أمير المؤمنين أو تقيموا موضعكم هذا أو تسيروا معنا؟ قال بعضهم: نسير إلى أمير المؤمنين ونحدث به عهداً، فقال مروان: أما أنا فراجع. قال بعضهم لبعض: قد حلفنا لهم عند المنبر لئن استطعنا أن نرد الجيش عنهم لنردّنه، فكيف بالرجوع إليهم. فقال مروان: أما أنا فراجع إليهم. قال له قوم: ما نرى أن تفعل، فإننا تقتلون بهؤلاء أنفسكم، والله لا أكثرنا عليهم لمسلم جمعاً أبداً. فقال مروان: أنا والله ماض مع مسلم إلى المدينة، فمدرك ثأري من عدوي، ومن أخرجني من بيتي، وفرق بيني وبين أهلي وإن قتلت بهم نفسي. فلم يرجع مع مسلم من بني أمية غير مروان وابنه عبد الملك - وكان مجدوراً، فجعله بذئ خشب -.

فلما أيقن أهل المدينة بقدم الجيش إليهم تشاوروا في الخندق، وقالوا: قد خندق رسول الله ﷺ فخندقوا المدينة من كل نواحيها، ثم جمع عبد الله بن حنظلة أهل المدينة عند المنبر فقال: تبايعوني على الموت وإلا فلا حاجة في بيعتكم، فبايعوه على الموت. عند ذلك صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، إننا خرجتم غضباً لدينكم، فأبلوا إلى الله بلاء حسناً ليوجب لكم به الجنة ومغفرته، ويحل بكم رضوانه، واستعدوا بأحسن عدتكم، وتأهبوا بأكمل أهبتكم، فقد أخبرت أن القوم قد نزلوا بذئ خشب، ومعهم مروان بن الحكم والله إن شاء مهلكه بنقضه العهد والميثاق عند منبر رسول الله ﷺ فتصايح الناس،

وصاروا ينالون منه ويسبونونه، فقال لهم: إنَّ الشتم ليس بشيء، ولكن نصدقهم اللقاء، والله ما صدق قوم قط إلا نصروا، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنا بك واثقون، وعليك متوكلون، وإليك ألقانا ظهورنا ثم نزل.

وكان عبد الله بن حنظلة لا يبيت إلا في المسجد الشريف. وكان لا يزيد على شربة من سويق يفطر عليها إلى مثلها من الغد.^(١)

وذكر ابن قتيبة أن أهل الشام لما انتهوا إلى المدينة عسكروا بالجرف، ومشوا رجالاً من رجالهم، فأحدقوا بالمدينة من كل ناحية لا يجدون مدخلاً لأتيمهم قد خندقوها عليهم، والناس متلبسون السلاح، قد قاموا على أفواه الخنادق، وقد حرصوا أن لا يتكلم منهم متكلم، وجعل أهل الشام يطوفون بها والناس يرمونهم بالحجارة والنبل من فوق الآكام والبيوت حتى خرجوا فيهم وفي خيلهم.

فقال مسلم بن عقبة المري لمروان بن الحكم: أين ما قلت لي بوادي القرى؟ فخرج مروان حتى جاء بني حارثة، فكلم رجلاً منهم، ورغبه في الضيعة وقال: افتح لنا طريقاً، فأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين يزيد، ومتضمن لك عنه شطر ما كان بذل لأهل المدينة من العطاء وتضعيفه، ففتح له طريقاً، ورغب فيما بذله له، وتقبل ما تضمن له عن يزيد، فاقتحمت الخيل، فجاء الخبر إلى عبد الله بن حنظلة فأقبل، وكان من ناحية الطورين، وأقبل عبد الله بن مقطع وكان من ناحية ذناب، وأقبل بن أبي ربيعة، فاجتمعوا جميعاً بمن معهم، بحيث اقتحم عليهم أهل الشام فاقتتلوا حتى عاينوا الموت ثم تفرقوا.^(٢)

وروي أنه وقعت معركة مع قوم عند مسجد بني عبد الأشهل، منهم عبد الله بن زيد صاحب رسول الله ﷺ قاتل مسيلمة الكذاب، ومعه عبد الله بن حنظلة، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وإبراهيم بن فارط، وإبراهيم بن نعيم بن النجار، فهم يقاتلون ويقولون للناس: أين الفرار؟ والله لأن يقتل الرجل مقبلاً خير له من

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢٠٩ - ٢١١، باب إرسال يزيد الجيوش إليهم.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١١، باب قدوم الجيوش إلى المدينة.

أن يقتل مدبراً.

قال: فاقتتلوا ساعة، والنساء والصبيان يصيحون ويبيكون على قتلاهم حتى جاءهم ما لا طاقة لهم به.

وجعل مسلم بن عقبة المري يقول: من جاء برأس رجل فله كذا وكذا، وجعل يغري قوماً لا دين لهم فقتلوا وظهروا على أكثر المدينة.

قال: وكان على بشر بن حنظلة يومئذ درعان، فلما هزم القوم طرحهما، ثم جعل يقاتلهم وهو حاسر حتى قتلوه. ضربه رجل من أهل الشام ضربة بالسيف قطع منكبه فوق ميتاً.

فلما مات ابن حنظلة صار أهل المدينة كالنعم بلا راع شرود يقتلهم أهل الشام من كل وجه.

فأقبل محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري وإن جراحه لتنفث دماً وهو يقاتل، ويحمل على الكردوس منهم فيفض جماعتهم وكان فارساً، فحمل عليه أهل الشام حملة واحدة حتى نظموه بالرماح فمال ميتاً.

فلما قتل انهزم من بقي من الناس في كل وجه، ودخل القوم المدينة، فجالت خيولهم فيها يقتلون وينهبون.

قال: وخرج يومئذ عبد الله بن زيد بن عاصم صاحب رسول الله ﷺ والخيل تسرع في كل وجه قتلاً ونهباً. فقيل له: لو علم القوم باسمك وصحبتك لم يهيجوك فلو أعلنتهم بمكانك.

فقال: والله لا أقبل لهم أماناً، ولا أبرح حتى أُقتل، لا أفلح من ندم، وكان رجلاً أبيض طويلاً أصلع، فأقبل عليه رجل من أهل الشام، وهو يقول: والله لا أبرح حتى أضرب صلعتك وهو حاسر.

فقال عبد الله: شر لك خير لي، فضربه بفأس في يده، فرأيت نوراً ساطعاً في السماء فسقط ميتاً، وكان يومه ذلك صائماً.

قال: فجعل مسلم بن عقبة المري يطوف على فرس له ومعه مروان بن الحكم على القتلى، فمر على عبد الله بن حنظلة وهو ماد اصبعه السبابة. فقال مروان بن

الحكم: أما والله لئن نصبتها ميتاً فطالما نصبتها حياً داعياً إلى الله، ومر على إبراهيم بن نعيم ويده على فرجه، فقال: أما والله لئن حفظته في الممات لقد حفظته في الحياة، ومر على محمد بن عمرو بن جزم وهو على وجهه واضعاً جبهته بالأرض فقال: أما والله لئن كنت على وجهك في الممات لطالما افترشته حياً ساجداً لله، فقال مسلم بن عقبة المري: والله ما أرى هؤلاء إلا من أهل الجنة.

ومر على عبد الله بن زيد وبين عينيه أثر السجود، فلما نظر إليه مروان بن الحكم عرفه، وكره أن يعرفه لمسلم بن عقبة فيحز رأسه.

فقال له مسلم: من هذا؟ فقال بعض هذه الموالي وجاوزه، فقال له مسلم بن عقبة: كلا، وبيت الله لقد نكبت عنه لشيء، فقال مروان بن الحكم: هذا صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن زيد، فقال مسلم: ذاك أخزى ناكث بيعته حزوا رأسه. وكان قصر بني الحارثة أماناً لمن أراد أهل الشام أن يؤمنوه، وكان بنو حارثة آمنين ما قتل منهم أحد.

وكل من نادى باسم الأمان إلى أحد من قبيلة أمنوه رجلاً كان أو امرأة، ثم ذبوا عنه حتى يبلغوه قصر بني حارثة، فأجير يومئذ رجال كثير ونساء كثيرة.

فلم يزالوا في قصر بني حارثة حتى انقضت الثلاث.^(١)

فقد أباحها مسرف وهو من قواد مسلم بن عقبة المري بعد معركة طاحنة مع أهل المدينة لم تكن متكافئة، وذلك بعدما نزلوا في مكان يدعى (الحرّة) على مشارف المدينة، وبعد انتصارهم على المدينة أباحها لجيشه ثلاثة أيام بلياليها كما أمره يزيد بن معاوية، فلم يتركوا شيئاً حرمه الإسلام إلا وفعلوه، حتى إنّ المرأة والفتاة كانت تلوذان بمحراب النبي ﷺ بالمسجد فلا يتورع الغزاة، ولا يخافون الله من أن يرتكبوا معهن في المسجد ومحرابه ما يشتهون ويحبون حتى افتضت ألف بكر حسب ما يذكره التاريخ!!

وقيل: إنّهُ أولدت في تلك السنة ألف امرأة من غير أزواج!!^(٢)

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١١ - ٢١٣، باب غلبة أهل الشام على أهل المدينة.

(٢) البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٣٩، ذكر أحداث سنة ٦٣ هـ.

ولم يكتف بذلك بل طلب من المسلمين في المدينة-زيادة في إذلالهم واضطهادهم - أن يجددوا بيعتهم ليزيد بن معاوية على أئمتهم عبيد له ولأسرته،^(١) لا يملكون من أمرهم شيئاً، ومن حاول أن يمتنع عن ذلك كان جزاؤه القتل، صحابياً كان أو غير صحابي، كبيراً كان أو غير كبير!!

ثم عمدوا إلى النهب والسلب، فأول دور انتهب والحرب قائمة دور بني عبد الأشهل، فما تركوا في المنازل من أثاث ولا حلي ولا فراش إلا نقض صوفه، حتى الحمام والدجاج كانوا يذبحونها.

يقول ابن قتيبة: قتل في المدينة من النساء والصبيان عدد كثير، وكان الجند يأخذ برجل الرضيع فيجذبه من أمه ويضرب به الحائط فينتشر دماغه على الأرض وأمه تنظر إليه.^(٢) ويقول الفخري: إن الرجل من أهل المدينة كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها لعلها قد افتضت في وقعة الحرة.^(٣)

وكان من الدور التي دخلوها دار محمد بن مسلمة، فصحن النساء، فأقبل زيد بن محمد بن مسلمة إلى الصوت فوجد عشرة ينهاون، فقاتلهم ومعه رجلان من أهله حتى قتل الشاميون جميعاً، وخلصوا منهم ما أخذ منهم، فألقوا متاعهم في بئر لا ماء فيها وألقى عليها التراب.

ثم أقبل نفر من أهل الشام فقاتلوهم أيضاً حتى قتل زيد بن محمد أربعة عشر رجلاً، فضر به بالسيف على وجهه.

ولزم أبو سعيد الخدري بيته، فدخل عليه نفر من أهل الشام فقالوا: أيها الشيخ من أنت؟ فقال: أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله، فقالوا: ما زلنا نسمع عنك... إلى أن قالوا له: أخرج إلينا ما عندك. قال: والله ما عندي مال، فتنفوا

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٧٩، باب وقعة الحرة. الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١٤. تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٩٥، ذكر أحداث سنة ٦٣ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١١٨، ذكر أحداث سنة ٦٣ للهجرة. البداية والنهاية: ج ٨، ص ٢٤٠، ذكر أحداث سنة ٦٣ للهجرة.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١٥.

(٣) الفخري: ص ١١٦.

لحيته، وضربوه ضربات، ثم أخذوا كل ما وجدوه في بيته حتى الصواع وحتى زوج حمام كان له.^(١)

وأمر مسلم بن عقبة المري بالأسارى فغلوا بالحديد، ثم دعا إلى بيعة يزيد بن معاوية، فكان أول من بايع مروان بن الحكم، ثم أكابر بني أمية، وهكذا أخذت الناس تباع يزيد خوفاً من القتل والبطش والظلم.

فقال يزيد بن عبد الله بن زمعة: إننا نحن نفر من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم، فقال مسلم بن عقبة: والله لا أقبلك، ولا تشرب البارد بعدها أبداً، فأمر به فضربت عنقه.^(٢)

ودخل رجل شامي على امرأة نفساء من الأنصار وفي حجرها صبي لها ترضعه، فقال لها: هل من مال؟ قالت: لا والله ما تركوا لي شيئاً، فقال: والله لتخرجن إلي شيئاً أو لأقتلنك وصبيك هذا، فقالت له: ويحك إنه ولد ابن أبي كبشة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ ولقد بايعت رسول الله معه يوم بيعة الشجرة، على أن لا أزني ولا أسرق ولا أقتل ولدي، ولا آتي بهتان أفتريه، فما أتيت شيئاً فاتق الله، ثم قالت لابنها: يا بني، والله لو كان عندي شيء لافتديتك به. قال: فأخذ برجل الصبي والثدي في فمه، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض، فلم يخرج من البيت حتى اسود نصف وجهه وصار مثلاً ولعنة^(٣).

ثم أتى بمعقل بن سنان وكان معقل حاملاً لواء قومه يوم الفتح مع رسول الله ﷺ فلما دخل عليه قال له: أعطشت يا معقل؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير. قال مسلم بن عقبة: حيسوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فلما شربها قال له: رويت؟ قال: نعم، فقال مسلم: أما

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١٣، وقريب من هذا الخبر، ما روي في البداية والنهاية: ج ٨، ص ٤٣٩، ذكر أحداث سنة ٦٣ للهجرة. وتاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٩١، ذكر أحداث سنة ٦٣ للهجرة.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١٤.

(٣) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١٥.

والله لا تبوها من مثانتك أبداً، فقدم فضربت عنقه.^(١)
وهكذا أخذ يقتل الواحد تلو الآخر والجماعة تلو الجماعة من أصحاب
الرسول ﷺ وغيرهم من المهاجرين والأنصار حتى بلغ عدد القتلى يوم «الحرّة»
ألفاً وسبعمائة من قريش ومن المهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من سائر الناس
سوى النساء والصبيان.^(٢)

ويعد هذه المجازر الرهيبة التي ارتكبتها الأمويون وقادتهم وجنودهم بالمسلمين
الغيارى على الإسلام، وبعد هذا القتل الجماعي الذي وقع في مدينة الرسول ﷺ
وغيرها والنهب والسلب وانتهاك الحرمات وسفك الدماء الذي لم يحدثنا التاريخ
القريب ولا البعيد عن تلك الوحشية الشنيعة البشعة، لا لجرم ارتكبه، ولا لموبقة
ابتدعوها، وإنما لأنهم عابوا عليهم وأنكروا استخفافهم بالإسلام والدين ومبادئه
وقيمه.

وبعد هذا كله خرج مسلم بن عقبة المري من المدينة المنورة متوجهاً نحو بيت الله
الحرام، نحو مكة المكرمة، مهبط الوحي وقبلة المسلمين، ليرسم لنا صورة أخرى
مخزية منفذاً أمر سيده يزيد بن معاوية لحرب عبد الله بن الزبير وأنصاره، وفي أثناء
الطريق ساءت حالته الصحية، وقبل أن يهلك عين قائداً يخلفه على الجيش وحرب
أهل مكة وهو الحصين بن نمير السكوني، وولاه أمر الجيش، وأوصاه بوصايا
كثيرة منها وأهمها: أن يصنع بأهل مكة ما صنعه بأهل المدينة.

وعندما استدعى مسلم بن عقبة الحصين بن نمير قال له: يا بردعة الحمار، أما
والله لو كان هذا الأمر إليّ ما وليتك هذا الجند، ولكن أمير المؤمنين - يقصد يزيد -
ولاك بعدي، وليس لأمر أمير المؤمنين مرد.

خذ عني أربعاً: أسرع السير، وعجل الوقاع، وعم الأخبار، ولا تمكن قريشاً

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه: ج ١، ص ٢١٥.

من أذنك، ثم إنه مات ودفن بقفا المشلل.^(١)

فلما تفرق القوم عنه أته أم ولد يزيد بن عبد الله بن زمعة، وكانت من وراء العسكر تترقب موته، فتشت عنه، ونبشت قبره حتى انتهت إلى لحده، وجدت أسود من الأسود منطوياً في رقبته، فاتحاً فاه، فتهيته، ثم لم تزل به حتى صلبته على المشلل.

قال الضحّاك: فحدثني من رآه مصلوباً يرمى كما يرمى قبر أبي رغال.^(٢)

وعندما وصل الحصين بن نمير مع جيشه من أهل الشام مكة المكرمة، وبدأ الهجوم عليها اشتبك الفريقان في حرب طاحنة في الحرم المكي وخارجه، وقذفوا الكعبة المشرفة بالنيران، ونصبوا المجانيق والعرادات على بيت الله الحرام والمسجد من الجبال والفجاج.^(٣)

وعبد الله بن الزبير والمختار بن أبي عبيدة الثقفي ومن معها من أهالي مكة يدافعون عن الحرم المقدس، فضربوا الكعبة بأحجار المنجنيق والعرادات والنيران حتى تهدمت واحترقت.

وفي أثناء الحرب الدائرة في بيت الله الحرام ومكة وصل نبأ يخبر بهلاك يزيد بن معاوية، فوقع الفتور والتخاذل في الجيش الأموي بعد أن بلغهم الخبر وانتشر.

فحاول الحصين بن نمير عبثاً في إرجاع الجيش إلى صلابته وحماسه وقوته فلم ينجح، فرجع بمن معه إلى الشام ليرى مصير الخلافة، عاد الحصين ذليلاً قد جرّ نفسه وجيشه وبني أمية الخزي والعار.

ونكتفي هنا بهذا القدر من الأحداث والصور عن السياسة الأموية لكي يلقي القارئ الكريم نظرة على حقيقة الأوضاع المأساوية التي عايشها المسلمون آنذاك، ويعرف أهل البصيرة بعض الشيء عن عوامل تخلف المسلمين وأسباب هزيمتهم.

(١) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٩٦، ذكر أحداث سنة ٦٤ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٢٣،

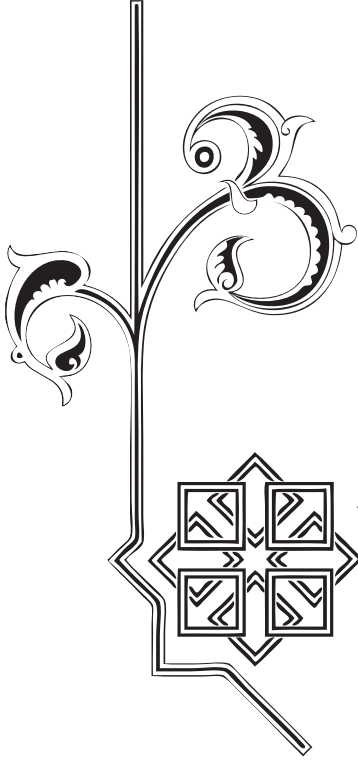
ذكر أحداث سنة ٦٤ للهجرة. تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٢٥١، أيام يزيد بن معاوية.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١٩، تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٢٥١، أيام يزيد بن معاوية.

(٣) مروج الذهب: ج ٣، ص ٨١، باب رمي الكعبة بالمنجنيق. الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ١٢، أيام

حرب ابن الزبير.

التاريخ الإسلامي



الأمراء والخلفاء
في عهد بني العباس

وقبل الخوض في التفاصيل نقدم مقدمات:

الأولى: العباسيون يستغلون الظروف

كان العالم الإسلام في التهاب عام وسخط شامل ضد الأمويين، وكان المسلمون متجهين بعقولهم وقلوبهم إلى أبناء علي دون غيرهم، لأمر:

١- إيمانهم أنهم أهل البيت، وقد اختارهم الله لرسالته ووحيه، فبالأحرى أن يختارهم الناس لقيادتهم وتدير شؤونهم، بخاصة أن الثورة على الأمويين قامت باسم الدين الخوف على شريعة سيد المرسلين ﷺ، وأبناؤه هم الأمناء على شريعته، والمحافظون على سنته، فإذا حكموا عملوا بسيرته من إقامة العدل وإحقاق الحق.

٢- أنهم أول من ثار على الأمويين واستبداهم، وأول من عبر عن رأي المظلومين، وطالبوا بحقوقهم، وأول من استشهد من أجل الدين، ومن دفع الغرم فله الغنم.

٣- أن شيعة علي وأبنائه كانوا الاتجاه القوي المعارض الذي عمل في السر والخفاء ضد الحكم الأموي، وبذل في هذا السبيل الغالي والنفيس، ولاقى رجال الشيعة ما لاقى الأئمة الأطهار عليهم السلام من التقتيل والتنكيل.

يعزز هذه الأسباب ما قاله ابن الأثير من أن الناس كانوا يقولون للأمويين بعد أن زال ملكهم: الحمد لله الذي أتانا بأهل بيت نبينا، وإن العباسيين كانوا يتذرعون بأثر الحسين عليه السلام وزيد وولده يحيى.^(١)

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٤١١ - ٤١٥، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة، بتصرف.

لقد استغل بنو العباس سخط الرعية على بني أمية ومعارضة الشيعة لحكمهم وتعلق الناس بالعلويين، وأظهروا أنّ غايتهم الأولى إسقاط الأمويين وإراحة الناس من ظلمهم، ثم يختارون من تتفق عليه الكلمة من آل بيت الرسول ﷺ فالعباسيون لم يقدموا في بادئ الأمر أشخاصاً منهم ولا من غيرهم، وإنما قدموا المبدأ الذي يدافعون عنه، فلما استتب لهم الأمر كشفوا عن ظلمهم وتجبرهم، ويذكر هذا النهج تماماً بما فعلت فرنسا وإنكلترا حين حاربت الأتراك، وزعمتا أنّهما يبتغيان تحرير البلاد العربية من الظلم، ثم تدعان البلاد لأهلها يقررون مصيرهم بأنفسهم، حتى إذا زالت دولة الأتراك استبدت فرنسا بسورية ولبنان، وتحكمت إنكلترا بالعراق والأردن، وقدمت فلسطين لإسرائيل، قال فلهوزن: كان العباسيون يعملون ما استطاعوا على أن يخفوا عن الناس أنّهم كانوا يريدون تنحية بني فاطمة عليها السلام بل كانوا يظهرون أنّهم يعملون من أجل بني فاطمة عليها السلام وظهروا في خراسان وغيرها بدعوى أنّهم يريدون أن يثأروا لشهداء أبناء فاطمة عليها السلام.. وكان لا بد لهم أن يتخذوا حزب الشيعة عماداً لهم إزاء بني فاطمة، فإما أن يعتقد الشيعة ما يشاءون وأن تكون سيرتهم في الحياة كما يجبون فكان العباسيون يعتبرون ذلك مسألة يمكن حلها فيما بعد.^(١)

ارتفع العباسيون باسم العلويين، وعلى أكتاف شيعتهم، ثم تنكروا لهم، واشتدوا عليهم قسوة وعنفاً كما ستدل عليه الوقائع.

الثانية: من هم بنو العباس؟

لا يفترق العباسيون عن بني أمية في شيء، لا في الظلم والقسوة، ولا في الفسوق والفجور، ولا في الاستهتار والخداع، فالغاية واحدة عند الجميع، وهي الحكم والسلطة، والمبدأ واحد، وهو اتخاذ الدين طريقاً للدنيا، والظلم والجور، فالكل ركب متون الأهواء، وسلك طريق الظلال، من قطع الرؤوس ونصب المشانق وهدم الدور على الأحياء، وما إبراهيم وأخوه السفاح إلا كمعاوية، وما

(١) تاريخ الدول العربية: ص ٤٨٩.

المنصور وهارون إلا كهشام، وما المتوكل إلا يزيد بن معاوية، فلقد عرفنا حكماً اتخذوا من القتل وسيلة لتوطيد سلطانهم، أو لحفظ الأمن بزعمهم، أما ما ذكرناه من الأمويين وسنذكره من العباسيين فقد تضمن ما هو أدهى، لأنهم كانوا يقتلون لا لسبب إلا بدافع من الغدر والإسراف في القتل.

حين ضاق الناس ذرعاً بالأمويين، وبلغ الاستياء ذروته من سياستهم أرسل إبراهيم الإمام^(١) أخو السفاح أبا مسلم الخراساني إلى خراسان، وقال له فيما قال: احفظ وصيتي: انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم، واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وإثمهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإثم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأيا غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله!^(٢)

وبعد أن نقل المقرئ هذا الكلام من كتاب النزاع والتخاصم، قال معقباً: فأين أعزك الله هذه الوصية من وصايا الخلفاء الراشدين لعمالهم، وتالله لو توجه أبو مسلم إلى الحرب ليغزو أهل الشرك بالله لما جاز أن يوصي بهذا، فكيف وإنما توجه إلى دار الإسلام وقاتل أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم من العرب لينتزع من أيديهم ما فتحه أبائهم من أرض الشرك، ليتخذوا مال الله دولاً، وعبيده خولاً؟! ففعل أبو مسلم بوصية إبراهيم.^(٣)

وأي فرق بين قول إبراهيم العباسي: واقتل من شككت فيه، وقول معاوية الأموي حين كتب إلى عماله: انظروا من اهتمموه بموالاة علي عليه السلام فنكلوا به، واهدموا داره؟! واهدموا داره؟! واهدموا داره؟!

وأرسل السفاح محمد بن صول والياً على الموصل، فامتنع أهلها عن طاعته، وسألوا السفاح أن يولي عليهم غيره، فأرسل إليهم أخاه يحيى في اثني عشر ألف مقاتل، فخافه أهل الموصل، فنادوا بالأمان، ولما أمنوا على أنفسهم قتلهم قتلاً

(١) قبض مروان الحمار على إبراهيم، ومات في حبسه مقتولاً أو مسموماً.

(٢) النزاع والتخاصم: ص ٦٦.

(٣) النزاع والتخاصم: ص ٦٧.

ذريعاً، وأسرف في التقتيل حتى غاصت الأرجل في الدماء، فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قتل رجالهن، فأمر بقتل النساء والأطفال. واستمر التقتيل ثلاثة أيام.^(١)

وإذا أعطفنا هذه الحادثة على وصية إبراهيم علمنا أنّ بني أمية لم يسبقوا العباسيين في الظلم والاستبداد لأنهم ملة واحدة، ولو كنا ممن يؤمن بالتناسخ لقلنا: إنّ روح معاوية تقمصت في إبراهيم، وروح الحجاج في يحيى.

الثالثة: السفاح مؤسس الدولة

اسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وكنيته أبو العباس، ولقبه السفاح، وهو أول من تولى الحكم من العباسيين، بويح سنة اثنتين وثلاثين ومئة، ومات سنة ست وثلاثين ومئة، فكانت أيامه أربع سنين وأشهرًا، قضاه في تتبع الأمويين والقضاء عليهم وعلى أتباعهم، ومن كان قد اتصل بهم من قريب أو بعيد، فكان السفاح لا يسكن ولا يهدأ ما علم أنّ في أموي عرق ينبض، وفوق ذلك لم يكن لمن يشك بولائه أو يخشى تغييره في المستقبل إلا حد السيف، كما فعل بأبي سلمة الخلال، وكما صنع عامله يحيى في الموصل، وعمه داود في الحجاز، وعمه سليمان في البصرة، وأبو مسلم في خراسان، فقد أنكر في بخارى شريك ابن شيخ المهري على أبي مسلم قسوته، وطالب بالحق والعدل، وقال: لم نبايع بني العباس على سفك الدماء وقتل الأنفس، فقتله أبو مسلم، ونكل برجاله، وكانوا ثلاثين ألفاً.

اشتهر السفاح بهذا اللقب لكثرة ما سفك من الدماء، فمما رواه المؤرخون أنّه استدرج ثمانين من بني أمية، وأمرهم أن يحضروا لأخذ الجوائز والعطايا، وتناول الطعام، فلما حضروا أمر بقتلهم، ثم بسط عليهم فراشاً وجلس فوقه يأكل، وهم يضطربون تحته ويصرخون^(٢) فلما فرغ قال: ما أكلت أكلة قط أهنأ ولا أطيب

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٤٤٣ - ٤٤٤، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٤٣٠، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة.

لنفسى منها. وإذا كان الأمويون مستحقين للقتل جزاء لما فعلوا فإن دعوتهم إلى وليمة ثم قتلهم والأكل على جثثهم تجعل القاتل شريكاً في الجرائم والردائل التي اتصف بها الأمويون.

وكان من ذلك أمره نبش قبور بني أمية بدمشق، فنبتش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته، ولما نبش قبر هشام بن عبد الملك وجدته صحيحاً لم يبيل منه إلا أرنية أنفه، فضر به بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح.^(١)

وكان كثير من الناس - وبخاصة الشعراء - يغرون العباسيين ببني أمية، ويحثونهم على الفتك تزلفاً وطلباً للجائزة، وكانوا يلتمسون أدنى المناسبات ليذكروا الأسرة العباسية بشر ما فعله الأمويون.

إلا أبناء علي عليه السلام فقد كانوا ينهون العباسيين عن الإسراف بقتل الأمويين، ويوجدون الأعذار لمن بقي منهم مع أن أكثر مظالم الأمويين كانت تقع على أبناء علي عليه السلام ولكن أبناء المؤمنين أصحاب عقيدة ومبدأ لا أصحاب شهوات وأغراض دنيوية، إنهم أولاد الذي عفا عن ابن العاص في صفين، وعن مروان يوم الجمل، وسقى معاوية الماء بعد أن منعه منه، وقال: إذا قدرت فاجعل العفو شكراً على المقدر، ولا بدع أئهم أهل بيت العدل والتقوى، وقد أثبت التاريخ المئات من هذه المواقف النبيلة لهم تجاه خصومهم، فراجع.^(٢)

(١) المصدر نفسه. تاريخ دمشق: ج ٥٣، ص ١٢٧، ترجمة محمد بن سلمان النوفلي. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٤٩، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة.

(٢) ومن هذه المواقف، موقف الإمام زين العابدين عليه السلام لبني أمية بعد تحرك ابن الزبير عليهم سنة ٦٣ للهجرة.

الفصل الأول

الدولة العباسية
تقوم على الكفاء والكاتب

أبو مسلم الخراساني

بعد أن نمت وترعرعت الدعوة العباسية اتجهت لتأخذ شكلاً فعالاً، ولاختيار قائد يقود الثورة بعد إعلانها.

فعرضت القيادة على كثيرين ولكنهم اعتذروا، كسليمان بن كثير، وإبراهيم بن سلمة، ولكن الأخير أشار إلى اختيار أبي مسلم الخراساني، فاختير قائداً للدعوة العباسية، ولكن لقي هذا الاختيار معارضة من أبي جعفر المنصور وبعض النقباء والدعاة بالكوفة وخراسان.

وهو من أصل فارسي ولد سنة ١٠٨ هـ قرب أصفهان، واتصل بالدعاة العباسيين وهو في الخامسة عشرة من عمره، وانضم إليها مدفوعاً بروح شعبية ضد العرب، ولم تكن له ميول علوية شيعية تضر بالدعوة العباسية، ويدلنا على ذلك إقدامه على قتل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب عليه السلام حيث كان مخلصاً للدعوة العباسية.

ومن وصية لإبراهيم وهو أخ لأبي جعفر المنصور يوصي بها أبا مسلم بقوله: يا أبا عبد الرحمن، إنك رجل منا أهل البيت فاحفظ وصيتي، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر فإتهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت في أمره، وإن استطعت ألا تدع بخراسان أرضاً فيها يتكلم بالعربية فافعل.^(١)

(١) النزاع والتخاصم: ص ٦٦. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٤٢٢، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة.

حينئذ أنزل سخطه على العرب، ونكّل بهم، وقيل: إنه قتل ستمائة ألف عربي صبراً بالسيف، عدا من قتل في الحرب.^(١)

وأخذت الحركة العباسية في التوسّع وجعلت لها ثلاثة مراكز مهمة هي: خراسان، والكوفة، والحميمة.^(٢)

فكان يتولى المركز الأول خراسان وهو المركز الرئيسي أبو مسلم الخراساني، أما الكوفة فكان يتولاها أبو سلمة الخلال. وقيل: كان حانقاً على اختيار أبي مسلم لقيادة الثورة العباسية واضطهاده للعرب وقتل كثير منهم. والحميمة: كان يتولاها بعض زعماء العباسيين مثل أبي جعفر المنصور وأخيه عبد الله بن الحارث وأعمامهما.

وعندما تكاملت الدعوة العباسية قواها العسكرية بقيادة أبي مسلم وأصبح تحت إمرته جيش عباسي ضخم عدداً وعدة زحف به على آخر خليفة أموي هو مروان بن محمد عند نهر الزاب قرب البصرة، وانتهى الأمر بتفكك جيش مروان وقتله.

وكان أول إعلان تصدّره الدعوة العباسية للتصريح بسقوط الدولة الأموية رسمياً وقيام الدولة العباسية مكانها حينما اتخذ العباسيون السواد شعاراً لهم في العاشر من المحرم سنة ١٣٢ هـ في الكوفة من أجل كسب تعاطف الشيعة والعلويين الذين كانوا يمثلون الشرعية الدينية، ويقودون المد الجماهيري الواسع الناقم على سياسة الأمويين وأساليبهم الدموية العنيفة التي اتبعوها في ضرب المعارضين والقضاء على كل صوت حرّ يطالب بتطبيق العدالة الإسلامية، وخاصة المواليين لأهل البيت عليهم السلام الذين كانوا يحظون بدعم وتأييد أكثر المسلمين للمظلومية التي لازمتهم في كل الأدوار والمراحل السياسية التي تعاقبت على السلطة الأموية وتعرضهم المستمر لعمليات الانتهاك والإبادة الجماعية، فضلاً عن

(١) جهاد الشيعة: ص ٦٠.

(٢) تقع الحميمة في أرض الشراة، والشراة صقع بالشام بين دمشق والمدينة - عن معجم البلدان.

الحق الشرعي المتمثل بأئمتهم عليهم السلام الأمر الذي منح العباسيين فرصة مؤاتية كانوا يتحينوها للوصول إلى السلطة، فرفعوا شعار المطالبة بالرضا من آل محمد عليهم السلام وحقوق العلويين المهذورة، وقد ساعدهم على ذلك القرابة النسبية التي كانت لهم من آل البيت عليهم السلام لأئمتهم أحفاد العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
ولا غرو في ذلك أننا إذا تتبعنا الأحداث التاريخية نجد أن كل مطالب بالخلافة كان يدعي أول ما يدعي الرحمة والقربى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأول من بدأ ذلك أبو بكر في السقيفة وتبعه على ذلك عمر، حيث قررا أن ليس لأحد الحق في أن ينازعهما سلطان محمد، إنهم أمس رحماً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.^(١)
ولأئمتهم هم أولياؤه وعشيرته^(٢)، فأسقطا بذلك دعوة الأنصار عن الاعتبار.
كما أن أبا بكر قد استدل على الأنصار بالحديث الذي صرح باستفاضته أعلام أهل السنة، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم مشيراً إلى خلفائه الاثني عشر: «يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمة، كلهم من قريش» استدل به بعد أن تصرف فيه بأن حذف صدره، واكتفى بذكر: أن الأئمة من قريش.^(٣) لينصرف المعنى عن أهل البيت عليهم السلام.

وأصبح كون الأئمة من قريش تقليداً متبعاً، بل ومن أصول عقائد أهل السنة، وقد استدل ابن خلدون عليه بالإجماع.

ولكن قول عمر: لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته قد أوقع ابن خلدون كما أوقع غيره من أعلام أهل السنة في حيص بيص؛ لعدم كون سالم قرشياً، فضلاً عن أن يكون أمس رحماً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غيره، وهذا ينم لك عن التلاب بالحجج

(١) انظر: نهاية الإرب: ج ٨، ص ١٦٨. وعيون الأخبار: ج ٢، ص ٢٢٣. والعقد الفريد: ج ٤، ص ٢٥٨. وغيرها من كتب التاريخ والسير.

(٢) على ما ذكر الطبري: ج ٣، ص ٢٢. ذكر أحداث سنة ١١ للهجرة. والإمامة والسياسة: ج ١، ص ٦.

(٣) الصواعق المحرقة: ص ١١. شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٢٤. كنز العمال: ج ١٢، ص ٢٣، ح ٢٣٨٠٠٠.

والدعاوى لتوظيفها في خدمة السياسة.

أما ابن كثير فإنه قد استشكل بالأمر من ناحية أخرى، حيث قال وهو يتحدث عن فتنة محمد بن الأشعث الكندي: والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وليس هو من قريش، وإنما هو كندي من اليمن، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش، واحتج عليهم أبو بكر بالحديث في ذلك، حتى أن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين، فأبى أبو بكر عليهم ذلك.

ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة الذي دعا إلى ذلك أولاً، ثم رجع عنه.^(١) انتهى.

فتراه يستشكل في عمل من بايعوا محمد بن الأشعث بإمرة المؤمنين التي رآها مخالفة للإجماع المدعى يوم السقيفة.

وتراه يعترف بمخالفة سعد ثم يدعي أنه رجع عن ذلك، ولست أدري كيف رجع عنه، مع أنه من المتسالم عليه تاريخياً: أنه استمر على الخلاف معهم حتى اغتيل بالشام، اغتالته السياسة - على حد تعبير طه حسين في كتابه -^(٢) وذلك أشهر من أن يحتاج إلى بيان.

وعلى كل حال، فإن ما يهمننا هو الإشارة إلى أن كون الأئمة من قريش ليس تقليداً متبعاً وحسب، بل قد أصبح من عقائد أهل السنة المسلمة.

ولكن ما تأتي به السياسة تذهب به السياسة، إذ بعد تسعمائة سنة جاء السلطان سليم، وخلع الخليفة العباسي، وتسمى هو بـ «أمير المؤمنين» مع أنه لم يكن من قريش، وبهذا يكون قد ألغى هذا التقليد وأخرجه من عقائد طائفة من المسلمين، وأبطله.

ومهما يكن من أمر فإن أول من ادعى استحقاق الخلافة بالقربى النسبية من

(١) راجع البداية والنهاية: ج ٩، ص ٥٩، ذكر أحداث سنة ٨٤ للهجرة. (بتصرف)

(٢) من تاريخ الأدب العربي: ج ١، ص ١٤٦.

رسول الله ﷺ كان أبو بكر، ثم عمر، وجاء بعدهما بنو أمية، فعرفوا أنفسهم ذوي قربي النبي ﷺ حتى لقد حلف عشرة من قواد أهل الشام وأصحاب النعم والرياسة فيها - حلفوا - للسفاح: على أنهم لم يكونوا يعرفون إلى أن قتل مروان أقرباء النبي ﷺ ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية.^(١)

بل لقد ذكر المسعودي والمقريزي: أن إبراهيم بن المهاجري البجلي الموالي للعباسيين قد نظم قضية هؤلاء الأمراء شعراً، فقال:

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجباً زاد عل كل العجب
عجباً من عبد شمس أنهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه يحرز الميراث إلا من قرب^(٢)
ويقول الكمي عن دعوى بني أمية هذه:

وقالوا: ورثناها أبانا وأمنا ولا ورثتهم ذاك أم ولا أب^(٣)
وفي العقد الفريد: أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب قالت لمعاوية:
ونبينا ﷺ هو المنصور فوليتم علينا من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ
ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر... إلى آخره.^(٤)

ثم جاء العباسيون وادعوا هذه الدعوى كما هو واضح من النصوص التي ذكرناها، ونذكرها، بل لقد ادعى بهذه الدعوى إن لم يكن أكثر كل من خرج مطالباً بالخلافة، سواء كان خروجه على الأمويين أو على العباسيين.

وهذا يعني أن العامل النسبي قد لعب دوراً هاماً في الطامعين بالخلافة الإسلامية، وكان الناس بسبب جهلهم وعدم وعيهم لمضامين الإسلام يصدقون ويسلمون بأن القربي النسبية تكفي وحدها في أن تجعل لدعيها الحق في منصب

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٧، ص ١٥٩. النزاع والتخاصم: ص ٤٢.

(٢) النزاع والتخاصم: ص ٤٢. حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٥٤، جعفر العاملي.

(٣) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٥٤.

(٤) العقد الفريد: ج ٢، ص ١٢٠. جواهر المطالب: ج ٢، ص ٢٤٩، لابن الدمشقي.

الخلافة. ولعل أكثر ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من الوصايا بأهل البيت عليهم السلام والأمر بمودتهم ومحبتهم والتمسك بهم جعل الناس يظنون أن السبب ذلك هو مجرد قرباهم النسبية منه عليه السلام وكان قد استغل الطامحون فهم الناس الخاطئ هذا، بل لقد حاولوا ما أمكنهم تكريسه وتثبيتته، لأجل الوصول إلى غاياتهم.

وحقيقة الأمر غير ذلك، فإن منصب الخلافة في الإسلام لا يدور مدار القربى النسبية منه، بل هو يدور مدار الأهلية والجدارة والاستعداد الذاتي لقيادة الأمة قيادة صالحة، كما كان النبي عليه السلام يقودها، يدلك على ذلك أننا لو رجعنا إلى النصوص القرآنية وإلى ما ورد عن النبي عليه السلام بشأن الخليفة بعده فلعلنا لا نعثر على نص واحد منها يفهم منه أن استحقاق الخلافة يدور مدار القربى النسبية منه عليه السلام وحسب، وكل ما ورد في القرآن وعنه عليه السلام من الأمر بموالاتة أهل بيته وحبهم والتمسك بهم، ومن تعيينه خلفاء منهم، فليس لأجل قرباهم بالنسبية منه عليه السلام بل لأن الأهلية والجدارة الحقيقية لهذا المنصب قد انحصرت في الخارج فيهم، فهو على حد تعبير الأصوليين، من باب الإشارة إلى الموضوع الخارجي، وليس تصريحه عليه السلام بالقربى لأجل بيان الميزان والمقياس في استحقاقهم للخلافة، بل أكد هذا الوصف لرفع الإيهام عن الغير وبيان الحصر.

وواضح أنه كان لا بد من الالتجاء إلى الله ورسوله لتعيين الشخص الذي له الجدارة والأهلية لقيادة الأمة؛ لأن الناس قاصرون عن إدراك بواطن الأمور ونفسيات وملكات بعضهم البعض إدراكاً دقيقاً وحقيقياً، وعن إدراك عدم طرو تغير أو تبديل عليه في المستقبل، ولقد عين النبي عليه السلام علياً عليه السلام أميراً للمؤمنين بأمر الله سبحانه بالفعل، ودل عليه بمختلف الدلالات بالقول: تصريحاً وتلويحاً وكناية ونصاً ووصفاً وغير ذلك، وأمره على المدينة، وعلى كل غزوة لا يكون هو عليه السلام فيها، ولم يؤمر عليه أحداً، وغير ذلك.

هذا هو رأي الشيعة، وهذا هو رأي أئمتهم عليهم السلام في هذا الأمر، وكلماتهم طافحة ومشحونة بما يدل على ذلك. بما لا يبقى معه مجال لأي لبس أو توهم، منه قول

أمير المؤمنين عليه السلام: «يا معشر المهاجرين، الله الله! لا تخرجوا سلطان محمد صلى الله عليه وآله عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامكم في الناس وحقه، فو الله يا معشر المهاجرين لنحن - أهل البيت - أحق بهذا الأمر منكم. أما كان منا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بالسنة...»^(١) إلى غير ذلك مما قد يتعسر استقصاؤه هنا.

ومما ذكرنا نستطيع أن نعرف أن ما ورد عن الإمام علي عليه السلام أو عن غيره من الأئمة الطاهرين عليهم السلام من قولهم: إثم الذين عندهم ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله فإنما يقصدون به الميراث الخاص الذي يختص الله به من عباده، أعني: ميراث العلم كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٢).

وقد اعترف أبو بكر نفسه لفاطمة الزهراء عليها السلام بأن الأنبياء يورثون العلم لأشخاص معينين من عندهم، وعلى كل فلقد أنكر الإمام علي عليه السلام مبدأ استحقاق الخلافة بالقرابة والصحابة أشد الإنكار، فقد جاء في نهج البلاغة قوله عليه السلام: «واعجباً!! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة؟!». ^(٣)

وأما ما يظهر منه أنهم يستدلون لاستحقاقهم الخلافة بالقربى من رسول الله صلى الله عليه وآله فإننا اقتضاه الحجاج مع الخصوم، الذين كانوا يرون حقهم في الخلافة من جهة القربى، فكانوا عليهم السلام يحتجون عليهم بأن الأمر لو كان كذلك لكانوا عترته أولى من الجميع لأنهم الأقرب، فهو من باب: ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم. وبدل على هذا المعنى ويوضحه ما قاله الإمام علي عليه السلام لأبي بكر عندما جيء به ليبايع، فكان مما قاله: «واحتججتهم عليهم - أي على الأنصار - بالقرابة من النبي صلى الله عليه وآله وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتهم به على الأنصار، نحن أولى... إلى آخره»^(٤). ويشير أيضاً عليه السلام إلى هذا المعنى ما نسب إليه عليه السلام من الشعر وهو قوله:

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١٢.

(٢) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٣) نهج البلاغة: ص ٥٠٢، الحكمة ١٩٠.

(٤) راجع الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١١. شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٣ - ٥.

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبى وأقرب^(١) ولكن أحمد أمين المصري في كتابه ضحى الإسلام وكذلك سعد محمد حسن في كتابه المهديّة في الإسلام والخضري في محاضراته: ينسبون إلى الشيعة القول بأن منصب الخلافة يدور مدار القربى النسبية منه عليه السلام وحسب.. رغم اعتراف أحمد أمين في الكتاب نفسه بأن الشيعة يحتجون بالنص في خصوص الخليفة بعد الرسول، بل والخضري يعترف بذلك أيضاً حيث قال: أما الانتخاب عند أهل التنصيب على البيت العلوي، فإنه كان منظوراً فيه إلى الوراثه... إلى آخره. وهي نسبة غريبة حقاً بعد هذا الاعتراف الصريح منهم ومن غيرهم، فإن عقيدة الشيعة تبعاً لأئمتهم عليهم السلام هي ما ذكرنا، أي ليس منصب الخلافة دائراً مدار القربى النسبية منه عليه السلام وأدلة الشيعة تنطق وتصرح بأن القربى النسبية وحدها لا توجب بأي حال من الأحوال استحقاق الخلافة، وإنما لا بد من النص المعين من الله والرسول لذلك الشخص الذي يمتلك الجدارة والأهلية والاستعداد الذاتي لها. إنهم يستدلون على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام بالنصوص القرآنية والنبوية المتواترة عند جميع الفرق الإسلامية، ولا يستدلون بالقربى إلا من باب «ألزموهم..» أو من باب تكثير الأدلة، أو في مقابل استدلال أبي بكر وعمر بها. ولعل أحمد أمين لم يراجع أدلة الشيعة أو أنه راجعها واشتبه عليه الأمر، أو أنه أراد التشنيع عليهم، فنسب إليهم ما ليس من مذهبهم. وقد يدلنا على صحة هذا الاحتمال الأخير اعترافه المشار إليه بأن الشيعة يستدلون على إمامة علي عليه السلام بالنص، لا بالقربى. وخلاصة القول هنا: أن القربى النسبية ليست هي الملاك في استحقاق الخلافة، ولم تكن هذه دعوى الأئمة عليهم السلام ولا دعوى شيعتهم، وإنما كانت من قبل أبي بكر وعمر ثم الأمويين فالعباسيين.

(١) ضحى الإسلام: ج٣، ص٢٠٨-٢١٢، باب الشيعة. شرح نهج البلاغة: ج١٨، ص٤١٦.

الفصل الثاني

أمراء بني العباس
سمااتهم .. ومواقفهم

أبو العباس السفاح

بدأ عهده بإلقاء خطبة في مسجد الكوفة، وأعقبه عمه داود بن علي بإلقاء خطبة أخرى، وصف بني العباس بأتم حماة الإسلام، وأهله، وكهفه، وحصنه، والقوام به، والذابين عنه، والناصرين له.

وأشار في خطبته إلى قرابة العباسيين من رسول الله ﷺ وأن الله خصهم برحم رسول الله ﷺ وقرابته، وتلا أبو العباس عدة آيات قرآنية تشيد بذوي القربى من رسول الله ﷺ منها:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (١).

وآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢)

وآية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ (٣)

وآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٤) وغيرها من الآيات.

وتساءل أبو العباس عن سبب أحقية بني العباس بالخلافة وأجاب على تساؤله فقال:

وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقضهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وحصّن بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيصة وتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٤) سورة الشورى: الآية ٢٣.

تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم.
ثم أشار أبو العباس إلى اغتصاب بني أمية الخلافة حتى استرد العباسيون
حقهم فقال: وردّ علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا.
ثم تودد إلى أهل الكوفة ومدحهم، ومن المعلوم أن الكوفة هي مركز للشيعة
منذ عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وطوال العصر الأموي.
ولكن أبا العباس اعتبر ولاءهم موجهاً نحو آل البيت النبوي، وليس إلى البيت
العلوي فحسب.

ثم ختم خطابه بوعد ووعيد وتهديد بقوله: يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا،
ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل
الجور عليكم حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا،
وأكرمهم علينا، وقد زدكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح
والثائر المبير.^(١)

ثم صعد المنبر من بعده عمه داود بن علي فألقى خطبة طويلة قال فيها: الحمد
لله شكراً شكراً الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وآله
إلى أن قال: رجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم، ثم مدح بني العباس وقال:
إنّ العباسيين لم يخرجوا طلباً للدنيا، ولكن لأنّ بني أمية قد اغتصبوا الخلافة،
وغضباً لما لحق بني عمهم - أي بني هاشم - وأخذ يسرد في خطابه مساوئ عهد
بني أمية وحكمهم إلى أن قال: إنّ المسلمين قد أصبحوا بعد قيام الدولة العباسية
في ذمة الله ورسوله والعباس، وإنّ العباسيين سيحكمون وفقاً لكتاب الله وسيرة
رسوله، ثم امتدح ابن أخيه أبا العباس إلى أن قال:

تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على
الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا

(١) تاريخ الطبري: ج٧، ص ٤٢٥ - ٤٢٦، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة. الكامل في التاريخ:
ج٥، ص ٤١٢ - ٤١٣، ذكر أحداث سنة ١٣٥ للهجرة. شرح نهج البلاغة: ج٧، ص ١٥٣ -
١٥٤. سير أعلام النبلاء: ج٦، ص ٣١٠، ترجمة السفاح.

المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد، وفي ختام خطبته قال:

ألا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى السفاح - فاعلموا أنّ هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم. ^(١)

ولا أعلم لماذا يسلموه إلى عيسى بن مريم دون غيره؟

وجلس أبو جعفر المنصور في مسجد الكوفة يأخذ البيعة من الناس، بينما دخل أبو العباس السفاح مع عمه داود قصر الإمارة بالكوفة الملاصق للمسجد، وقد اضطروا لمسيرة الشيعة وإظهار الود والحب لهم؛ لأنّ الكوفة وما والاها من الشيعة وهم معهم يقيمون.

ولم يكن مع العباسيين غير أهل خراسان ومروان بن محمد الخليفة الأموي معسكراً على نهر الزاب بجيش ضخم قوامه عشرون ومائة ألف مقاتل. ^(٢) مع العلم أنّ كثيراً من المدن العراقية لم تخضع للحكم الجديد كالبصرة وواسط. ولأجل ذلك غادر أبو العباس قصر الإمارة، وأقام في معسكر وزيره أبي سلمة الخلال في حمام أعين وقيل في النخيلات وهو مرتاب خائف من وزيره لميله إلى الشيعة وأئمتهم؛ ولأجل ذلك اتخذ حرساً خاصاً من خلّ أصحابه للمحافظة عليه واتقاءً لغدر الوزير.

ثم عمل بكل قواه للتخلص منه، فتخلص منه، وتفرغ لصراعه مع الخليفة الأموي مروان بن محمد الأموي وانتهى الأمر بانتصاره عليهم وقتلهم، فارتاح أبو العباس وتنفس الصعداء. ^(٣)

(١) الخطبة بكاملها مذكورة في تاريخ الطبري: ج٧، ص٤٢٧ - ٤٢٨، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج٥، ص٤١٣ - ٤١٥، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج٧، ص٤٣٧، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج٥، ص٤١٧، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة. شرح نهج البلاغة: ج٧، ص١٥٤ - ١٥٥.

(٣) تاريخ الطبري: ج٧، ص٤٤٩ - ٤٥٠، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة. الكامل في التاريخ: ==

ثم انتقل أبو العباس من الكوفة إلى الأنبار^(١) على نهر الفرات، وبنى فيها قصرًا ضخماً أسماه الهاشمية نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف، ليرز نسبة العلويين إلى البيت الهاشمي بيت رسول الله ﷺ ولم يطلق على القصر اسم العباسية نسبة لجدهم الأكبر العباس بن عبد المطلب. وبعده قامت الدولة العباسية كسلطة رسمية تمكنت أن تسيطر على بلاد الإسلام.

ومن هنا بدأ تاريخ المسلمين مرحلة جديدة من العنف والدموية والاستبداد السياسي الذي كرس الانحطاط والابتعاد عن الدين وتشويه مبادئ الإسلام السليمة، وعاش أهل البيت وشيعتهم ومواليهم الذين تظاهر العباسيون بالتعاطف معهم أشد الظروف والأحوال والإرهاب المقنع بما يزيد عن الوحشية الأموية حتى قال شاعرهم:

تالله ما فعلت أمية فيهم معشار ما فعلت بنو العباس^(٢)
وفي هذا مواقف كثيرة وغريبة نرجع القارئ فيها إلى كتب التاريخ، وسنكتفي بسرده بعض مواقف حكامها الأساسيين.

المنصور

جاء في العقد الفريد: أن المنصور كان يجلس ويُجلس إلى جنبه واعظاً، ثم تأتي الجلاوزة - الشرطة - في أيديهم السيوف، ويضربون أعناق الناس، فإذا جرت الدماء حتى تصل إلى ثيابه يلتفت إلى الواعظ ويقول له: عظني.

== ج ٥، ص ٤٣٦، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة. الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ١٤٥. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٥٣ - ٥٤، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة. تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٥٢، ذكر أيام أبي العباس السفاح.

(١) الأنبار: جهة الغرب من بغداد وتبعد عنها عدة فراسخ وقد أسسها وبنها سابور بن هرمز أحد أكاسرة الفرس، ثم حددها أبو العباس أول حكام بني العباس، بنى بها قصوراً وأقام بها إلى أن مات. معجم البلدان: ج ١، ص ٢٥٧.

(٢) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩٦.

فإذا ذكّر الواعظ بالله أطرق المنصور كالمنكسر، ثم يعود الجلاوزة إلى ضرب الأعناق، فإذا ما أصابت الدماء ثياب المنصور ثانية قال لواعظه: عظني.^(١) إن قول المنصور لواعظه: عظني يدل على واحد من اثنين: إما على استهزائه بالدين وسخريته من القرآن الذي نهى عن القتل وسفك الدماء، وإما على أن الناس في عهده قد بلغوا من البلاهة حداً يلبس عليهم بأن الليل نهار والنهار ليل، وحاول بعض المؤلفين أن يفسر أمثال هذه الظاهرة بازدواج الشخصية، وأن المنصور يخضع في تصرفاته لأمرين: خلق التدين، وحب الملك، فهو يستمع للواعظ بدافع الإيثار، وهو يسفك الدماء بدافع توطيد الحكم.

وهذا التفسير خطأ واشتباه، فليس في الواقع إلا شيء واحد، وهو الذات الأثيمة ظهرت في مظهرين: مظهر الظلم والقتل، ومظهر التمويه والدجل. رأى المنصور أن الرعية يعجبها أن يتصف الخليفة بخشية الله والخوف منه، وأن تظن به الرغبة في الاستماع لإرشاد المرشدين وتقريع الواعظين، فقرّبهم منه، واستمع إليهم بإذنه، وأعطاهم الأموال لينشروا بين الناس أن خليفتهم يخشع لذكر الله ويبكي إذا ذكر اليوم الآخر.

ولم تخف حقيقته هذه على الوعاظ أنفسهم وأهل الدين، فابتعدوا عنه، وتقرب إليه المنافقون الذين يتاجرون بالدين مع كل من يدفع الثمن، ومن الذين ابتعدوا عن المنصور الإمام جعفر الصادق عليه السلام على الرغم من جميع المحاولات التي بذلها لإقناعه، ومنها كتابه الذي أرسله إلى الإمام، وقال له فيه: لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟

وجواب الإمام: ليس لدينا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا من الآخرة ما نرجوك به.^(٢)

والتقى المنصور يوماً بسفيان الثوري، فقال له: عظني؟ فقال سفيان: وما عملت

(١) العقد الفريد: ج١، ص٥٤-٥٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٧، ص١٨٤، باب ٦، ح٢٩. مستدرک الوسائل: ج١٢، ص٣٠٧، ح١٤١٦١.

فيما علمت فأعظك فيما جهلت. أي أنت تعلم أن الظلم محرم، والعدل واجب، ومع ذلك تظلم ولا تعدل، فكيف تعمل في الأمور التي تجهلها حتى أعظك؟ فقال له المنصور: ما يمنعك أن تأتينا؟ قال: قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(١) قال له: سل حاجتك. قال: حاجتي أن لا تدعوني حتى آتيك، ولا تعطيني حتى أسألك، فقال المنصور: ألقينا الحب إلى العلماء فالتقطوا إلا ما كان من سفیان فإنه أعيانا فراراً.^(٢)

وقول المنصور ألقينا الحب يؤيد ما قلنا من أنه طالب صيد يحيك الشباك من الدين، ويلقي فيها الحب ليجذب علماء السوء. ومن أطرف ما ورد في خداع المنصور أسطورة رواها المؤرخون والذين كتبوا في الأخلاق، ورددها بعض الخطباء على المنابر، ولم يخطر لأحد أن يناقشها ويفحصها، بل تلقاها الجميع كما يتلقون البدييات، وهي لا تخلو من وضع واختلاق من قبل المنصور وأعوانه لتحقيق غاياته ومآربه.

وهذه خلاصة الأسطورة: كان المنصور يطوف ليلاً في بيت الله الحرام، فسمع قائلاً يقول: اللهم إنا نشكو إليك ظهور البغي والفساد، وما يحال بين الحق وأهله من الظلم، فاستدعاه المنصور، وقال له: ما الذي سمعته منك؟ قال: هل أنا آمن على نفسي؟ قال: نعم. قال: إن الله استرعاك أمور المسلمين فجعلت بينك وبينهم حجاباً وحصوناً، واتخذت وزراء ظلمة، وأعواناً فجرة. قالوا: هذا قد خان الله، فما لنا ألا نخون؟! فامتألت بلاد الله فساداً وبغياً. هذا وأنت مؤمن بالله وابن عم رسول الله، ولا تغلبك رافة بالمسلمين؟

فقال المنصور: اللهم وفقني للعمل بما قال هذا الرجل، ثم اختفى الواعظ، ولم يعرف مكانه، وقيل: إنه الخضر عليه السلام.^(٣)

(١) سورة هود: الآية ١١٣.

(٢) العقد الفريد: ج ١، ص ٥٧.

(٣) الإصابة: ج ٢، ص ٢٧٨. المحاسن والمساوي: ص ٣٨٤، باب محاسن المواعظ. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤٢٠. عيون الأخبار: ج ٢، ص ٣٣٣-٣٣٤.

وبالرغم من أن هذه أو القصة تتضمن كثيراً من الحقائق، وتكشف عن سوء الأوضاع في عهد المنصور، إلا أنها الغالب في الظن أنها من وضعه وبدعه، ولكن تمريها على العامة خلط الحق والباطل والغث والسمين، كما هو العادة في الدعاوى الباطلة وإلا لماذا بقي هذا الواعظ مجهولاً إلى آخر الزمان؟ وإذا كان الخضر فلماذا ظهر الخضر له دون سواه من الطغاة؟ إذن هناك سر أراد المنصور أن يفهم الناس أنه خليفة الله ويؤمن بالله وابن عم رسول الله ﷺ يحظى بمكانة مقدسة؛ بدليل أن الخضر ظهر له وأن الله يتفقده بين وقت وآخر على حين أن الله قد أهمل غيره من الحكام؛ لأنهم لا يؤمنون بالله، وليسوا أبناء عم رسول الله ﷺ، أما هو فإنه وإن ملأ الأرض بغياً وفساداً فإنه يؤمن بالله وابن عم رسول الله؛ لذلك فهو خليفة الله، فلا يجوز مخالفته أو الخروج عليه، وهذا أسلوب معهود لدى الحكام الظلمة.

ومن استقرأ سيرة المنصور يرى العديد من هذه الأساطير التي حاكها بنفسه حول شخصيته، منها ما ذكره المسعودي: أن المنصور دخل منزلاً، فرأى مكتوباً على الحائط:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا بد نازل
أبا جعفر هل كاهن أو منجم يرد قضاء الله أم أنت جاهل
فبعث إلى وزيره الفضل بن الربيع وقال له: ألم أنك أن تدع العامة يدخلون
هذه المنازل فيكتبون على الحائط؟ فقال الوزير: وما هو؟ قال: أما ترى مكتوباً
على الحائط وقرأ البيتين، فقال: والله ما أرى على الحائط شيئاً.^(١) وما أشبه حال
المنصور في هذه الحكاية وأمثالها بحال الكثير من سلاطين الزمان إذ ينتقدون
أسيادهم المستعمرين أمام الناس وبالشعارات الطنانة، ويعملون في الخفاء لصالح
الاستعمار ويمررون مشاريعه، ونكتفي بهذه الإشارة إلى كذب المنصور وحياله.

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣١٧-٣١٨، ذكر أيام عبد الله أبي جعفر المنصور. تاريخ بغداد: ج ١٠، ص ٦٠، ترجمة أبي جعفر المنصور الدوانيقي. تاريخ دمشق: ج ٣٢، ص ٣٣٩، ترجمة عبد الله بن محمد المنصور الدوانيقي. تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٠٧، ذكر أحداث سنة ١٥٨ للهجرة.

قال المسعودي: إن المنصور أكل عجة من مخ وسكر، فاستطابها، وقال أراد إبراهيم أن يمنعني من هذا وأشباهه^(١) من أجل هذه العجة قتل المنصور أبناء الرسول ﷺ والألوف من الأبرياء.

وقال المسعودي، والمقريري في النزاع والتخاصم:

جمع المنصور أبناء الحسن، وأمر بجعل القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم، وحملهم في محامل مكشوفة بغير وطاء، تماماً كما فعل يزيد بن معاوية بعيال الحسين عليه السلام سيد شباب أهل الجنة، ثم أودعهم مكاناً تحت الأرض لا يعرفون فيه الليل من النهار، وأشكلت أوقات الصلاة عليهم، فجزؤوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلون على فراغ كل واحد من حزبه، وكانوا يقضون الحاجة الضرورية في مواضعهم، فاشتدت عليهم الرائحة، وتورمت أجسادهم، ولا يزال الورم يصعد من القدم حتى يبلغ الفؤاد، فيموت صاحبه مرضاً وعطشاً وجوعاً.^(٢)

وقال ابن الأثير: دعا المنصور محمد بن عبد الله العثماني وكان أخاً لأبناء الحسن من أمهم، فأمر بشق ثيابه حتى بانت عورته، ثم ضرب مئة وخمسين سوطاً فأصاب سوط منها وجهه، فقال: ويحك اكفف عن وجهي.

فقال المنصور للجلاد: الرأس الرأس، فضربه على رأسه ثلاثين سوطاً، وأصاب إحدى عينيه فسالت على وجهه ثم قتله.^(٣)

وقال ابن الأثير أيضاً: وأحضر المنصور محمد بن إبراهيم بن الحسن، وكان أحسن الناس صورة، فقال له: أنت الديباج الأصغر، لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً،

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٠٩، ذكر أيام عبد الله أبي جعفر المنصور.

(٢) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣١٠، ذكر أيام عبد الله أبي جعفر المنصور. النزاع والتخاصم: ص ٧٤.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٢٥، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة. النزاع والتخاصم: ص ٧٤.

ثم أمر به فبنى عليه أسطوانة، وهو حي، فمات فيها.^(١)
 كان معاوية بن أبي سفيان يدفن الأحياء خنقاً تحت الأرض، وكان المنصور
 يقيم عليهم البناء فوق الأرض، وهذا هو الفارق الوحيد بين خليفة الشام وخليفة
 العراق، بين الأموي والعباسي، على أن التاريخ لم يعرف أموياً واحداً سجن جماعة
 تحت الأرض، وتركهم يموت الواحد منهم بعد الآخر بين الفضلات والقذارات،
 ولهذا قال الشاعر:

والله ما فعلت أمية كلَّها معشار ما فعلت بنو العباس
 وفي كتاب النزاع والتخاصم: أنه كان للقاسم بن إبراهيم طباطبا^(٢) ضيعة في
 المدينة يقال لها الرس، فلم يسمح له المنصور بالمقام بها حتى طلبه، ففر إلى السند
 وقال:

لم يروه ما أراق البغي من دمنا في كل أرض فلم يقصر من الطلب
 ولم يصف غليلاً في حشاه سوى أن لا يرى فوقها ابن لبنت نبي^(٣)
 وكان يفر من بلد إلى بلد، يسير حافياً والدم يسيل من قدميه. كما أن المنصور
 دل امرأة ابنه المهدي ربطة، وولي عهده على بيته، واستحلها أن لا تفتحه إلا بعد
 وفاته بحضور زوجها، وبعد هلاكه فتحه المهدي، وإذا فيه من قتل من الطالبين

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٢٦، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٤٦، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة.

(٢) طباطبا: لقب لإبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، أما سبب هذا اللقب فإنه كان يلثغ بالقاف، فجعلها طاء، قال يوماً لغلامه: هات ثيابي، فقال الغلام: أجيء بدراعة. قال: لا طباطبا، يريد قباقيباً، فبقي لقبه عليه، واشتهر به. وكان يفر من بلد إلى بلد، يسير حافياً، والدم يسيل من قدمه، ومن قوله وهو مشرد:

عسى جابر العظم الكسير بلطفه سيرتاح للعظم الكسير فيجبر
 عسى الله لا تياس من الله إنه ييسر منه ما يعز وييسر
 النزاع والتخاصم: ص ٧٥.

(٣) النزاع والتخاصم: ص ٧٤ - ٧٥.

وفي آذانهم رقع فيها أنسابهم، وفيهم أطفال.^(١)
ثم قال صاحب النزاع والتخاصم: أين هذا الجور والفساد من عدل الشريعة
المحمدية وسيرة أئمة الهدى؟! أين هذه القسوة الشنيعة من القرابة القريبة من
رحمة النبوة، وتالله ما هذا من الدين في شيء، بل هو من باب قول الله سبحانه:
﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢٣) **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ**
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿ (٢) (٣)

هذا عمل من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر والكتاب المنير، وأنه أمير
المؤمنين وخليفة رب العالمين وابن عم سيد المرسلين؟ وهكذا يفعل ما لا تفعله
الوحوش ولا الذئاب من ينتحل الألقاب، ويتوكأ على الأنساب.

الإمام جعفر الصادق عليه السلام والمنصور

أول من أطلق لقب الصادق على الإمام جعفر بن محمد عليه السلام هو المنصور بعد
أن تحقق قوله بأن المنصور سيملك، ويقتل محمداً وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن
كما ذكر، وكان الإمام الصادق عليه السلام في عهد المنصور يوصي شيعته، ويقول لهم:
عليكم بالطاعة والصمت، فإنكم في سلطان من مكرهم لتزول منه الجبال^(٤)،
ولكن المنصور لا يرضيه الصمت من الإمام، والطاعة من شيعته ما دام الناس
يعتقدون بإمامته وتفضيله على المنصور والناس أجمعين.

قال محمد الاسكندري: دخلت يوماً على الدوانيقي - أي المنصور - فوجدته في
فكر عميق، فقلت له: ما هذا الفكر؟ قال: قتلت من ذرية فاطمة بنت محمد ألفاً
أو يزيد، وتركت سيدهم ومولاهم، فقلت: ومن ذاك؟ قال: قد عرفت أنك تقول
بإمامته، وأنه إمامي وإمامك، وإمام جميع هذا الخلق^(٥)، ولكن الآن أفرغ له.

(١) المصدر نفسه: ص ٧٦.

(٢) سورة محمد: الآية ٢٢ - ٢٣.

(٣) النزاع والتخاصم: ص ٧٦.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٧، ص ١٦٢، باب ٦، ح ١.

(٥) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢٠٧. مثالب بني العباس، ص ١٧١.

وتدلنا هذه الرواية على مدى انتشار التشيع لعلّي أمير المؤمنين عليه السلام ولأولاده حتى بين حجاب المنصور وحواشيه، بل إن الربيع وزير المنصور كان شيعياً كما نقلوا.

وجاء في العقد: لما حج المنصور مر بالمدينة فقال للربيع: عليّ بجعفر بن محمد، قتلني الله إن لم أقتله، فمطل به، ثم ألح فيه، فحضر، فلما دخل همس الإمام بشفتيه، ثم تقرب، وسلّم، فقال المنصور: لا سلم الله عليك يا عدو الله، تعمل على الغوائل في ملكي، قتلني الله إن لم أقتلك، فقال الإمام عليه السلام: إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت على إرث منهم وأحق الناس بهم، فنكس المنصور رأسه، ثم رفعه، وقال: يا أبا عبد الله أنت القريب القرابة، وذو الرحم الواشجة، ثم عانقه وأجلسه معه على فراشه، وأقبل عليه يسأله ويحادثه، ثم قال: عجلوا لأبي عبد الله إذنه وكسوته وجائزته.

ولما خرج الإمام تبعه الربيع، وقال: إني منذ ثلاثة أيام أَدافع عنك وأداري عليك، ورأيتك إذ دخلت همست بشفتيك وقد انجلى الأمر، وأنا خادم سلطان، ولا غنى لي عنه، فأحب أن تعلمنيه. قال الإمام عليه السلام: قل: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، ولا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها عليّ قلّ عندها شكري فلم تحرمي، وكم من بلية ابتليتني بها قلّ عندها صبري فلم تخذلني، اللهم بك ادفع في نحري، وأعوذ بخيرك من شره.^(١)

وكان المعلّى بن خنيس من الشيعة المقربين لدى الإمام الصادق عليه السلام وكان مولاه ووكيله، فكتب المنصور إلى عامله على المدينة، وهو داود بن عروة بقتله، فاستدعاه داود، وقال له: اكتب أسماء الشيعة، وإلا ضربت عنقك، فقال: أباقتل تهددني؟ والله لو كان اسم أحدهم تحت قدمي ما رفعتها، فضرب عنقه وصلبه، فعز ذلك على الإمام الصادق عليه السلام ودعا على داود، وما انتهى من دعائه حتى

(١) العقد الفريد: ج٣، ص ٢٢٤ - ٢٢٥، باب الدعاء عند الدخول على السلطان. بحار الأنوار: ج٤٧، ص ١٨٢ - ١٨٣، باب ٦، ح ٢٨. الفرج بعد الشدة: ج١، ص ٣١٩، الباب الرابع.

ارتفع الصياح، وجاء الخبر بهلاكه.^(١)
 وأيضاً كتب المنصور إلى عامله أن يحرق على الإمام الصادق داره، ثم دس إليه
 السم فرحل مسموماً.^(٢)

قتل المنصور من أبناء علي وفاطمة ألفاً أو يزيدون باعترافه، وقتل من شيعتهم
 ما لا يعد ولا يحصى، وتفنن في ظلمهم، واخترع أنواعاً من القتل، وألواناً من
 التنكيل، فمن الضرب على الأعين حتى تسيل إلى هدم البيوت على الأحياء، إلى
 رصفهم مع الأحجار في الجدران، إلى تسميمهم بالفضلات والقذارات، إلى غير
 ذلك من الأساليب الوحشية. وبالتالي فإن الاستقراء لسيرة الخلفاء المسلمين يؤكد
 أن الإسلام لولا المنصور وأمثاله من الحاكمين لعم الناس أجمعين، واعتنقوه تلقائياً
 بدون دعوة واسعة ودعاية، إلى أن هذا الظلم الفضيع وسرقة الخلافة من أهلها
 الشرعيين من قبل أناس لا يعرفون من الكتاب حرفاً، ولا من الإسلام مبدأً أو
 نهجاً، أرجعا العالم الإسلامي إلى الوراء.

(١) بحار الأنوار: ج ٤٧، ص ١٧٧، باب ٦، ح ٢٤.

(٢) الصواعق المحرقة: ص ٢٠٣، تاريخ الشيعة: ص ٤٦. تذكرة الخواص: ص ٣١١.

مع العلويين

وإننا من أجل أن نلم بموقف كل حاكم منهم على حدة من أبناء عمهم العلويين
نقول:

قال عنه أحمد أمين: وكانت حياته حياة سفك الدماء، وقضاء على المعارضين.^(١)
وقال عنه الجنرال جلوب: وكان السفاح والمنصور قد نشأ نشأة المتآمرين،
ولذا وطدا ملكهما بعد نجاح الثورة بكثير من سفك الدماء، ولا سيما من دماء
أولاد أعمامهم من بني أمية وبني علي بن أبي طالب عليه السلام.^(٢)
يقول الخوارزمي عن السفاح: وسلط عليهم - يعني على العلويين - أبا مجرم، لا
أبا مسلم، يقتلهم تحت كل حجر ومدبر، ويطلبهم في كل سهل وجبل.^(٣)
ومن ذلك يعلم إن إظهاره اللين تجاههم أمام الناس ما كان إلا من أجل تثبيت
دعائم حكمه وتحكيم قواعد سلطانه، لكنه لم يغفل لحظة واحدة عن مراقبتهم
والتجسس على أحوالهم، بل وقتلهم إذا ما سنحت الفرصة له لذلك، كما قدمنا.
ولم يتورع المنصور عن قتل ابن أخيه السفاح^(٤) وعمه عبد الله بن علي وأبي

(١) ضحى الإسلام: ج ١، ص ١٠٥.

(٢) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٨٦.

(٣) ضحى الإسلام: ج ٣، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤٩٤.

مسلم مؤسس دولته والذي سافر سنة ١٤٨ هـ إلى الحج، وعزم على القبض على الإمام الصادق عليه السلام وإن كان لم يتم له ذلك.^(١) والذي سمي نفسه المنصور بعد انتصاره على العلويين.^(٢)

فهو أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين^(٣)، وقد اعترف عندما عزم على قتل الإمام الصادق عليه السلام بعدد ضخم من ضحاياه من العلويين، حيث قال: قتلت من ذرية فاطمة ألفاً أو يزيدون، وتركت سيدهم ومولاهم وإمامهم جعفر بن محمد.^(٤) ولقد كان هذا القول منه في حياة الإمام الصادق عليه السلام، أي في صدر خلافة المنصور، فكيف بمن قتلهم بعد ذلك.

وقد ترك خزانة رؤوس ميراثاً لولده المهدي كلها من العلويين، وقد علق بكل رأس ورقة كتب فيها ما يستدل به على صاحبه، ومن بينها رؤوس شيوخ وشبان وأطفال.^(٥)

وهو الذي يقول لعمه عبد الصمد بن علي عندما لامه أنه يعاجل بالعقوبة حتى كأنه لم يسمع بالعمو - يقول له -: إن بني مروان لم تبل رمهم، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة.^(٦)

وهو الذي يقول للإمام الصادق عليه السلام: لأقتلنك ولأقتلن أهلك حتى لا أبقى على الأرض منكم قامة سوط.^(٧)

وعندما قال المنصور للمسيب بن زهرة إنه رأى أن الحجاج أنصح لبني مروان

(١) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٨٧.

(٢) التنبيه والإشراف: ص ٢٩٥، وطبيعة الدعوة العباسية: ص ١١٩.

(٣) تاريخ الخلفاء: ص ٢١٠.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٧، ص ٢٠١، ح ٤٢.

(٥) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٠٤، ذكر أحداث سنة ١٥٨ للهجرة. النزاع والتخاصم: ص ٧٦.

(٦) تاريخ الخلفاء: ص ٢١٤. والإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ج ٢، ص ٥٣٤.

(٧) مناقب ابن شهر آشوب: ج ٤، ص ٢٢١، باب إمامة أبي عبد الله الصادق عليه السلام. بحار الأنوار:

ج ٤٧، ص ١٧٨، باب ٦، ح ٢٥.

أجابه المسيب: يا أمير المؤمنين، ما سبقنا الحجاج إلى أمر فتخلفنا عنه، والله، ما خلق الله على جديد الأرض خلقاً أعز علينا من نبينا ﷺ وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعنك، وفعلنا، فهل نصحنك.^(١)

وهو أول من سن هدم قبر الحسين عليه السلام في كربلاء.^(٢)

وهو الذي كان يضع العلويين في الأسطوانات ويسمرهم في الحيطان كما نص عليه اليعقوبي^(٣)، وغيره، ويتركهم يموتون في المطبق جوعاً، وتقتلهم الروائح الكريهة، حيث لم يكن لهم مكان يخرجون إليه لإزالة الضرورة. وكان يموت أحدهم، فيترك معهم حتى يبلى من غير دفن، ثم يهدم المطبق على من تبقى منهم حياً، وهم في أغلالهم كما فعل ببني الحسن، كما هو معروف ومشهور.

ومعاملة المنصور لأولاد علي تعتبر من أسوأ صفحات التاريخ العباسي.^(٤)

وكان إذا اتهم أحداً من الناس بالميل إلى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمهله حتى إذا غسق الليل وهدأ الناس نصب سلماً على منزل الرجل فطرقة في بيته، فيقتله ويأخذ خاتمه، حتى إنَّ جميلاً قال للعباس بن سلم: لو لم يورثك أبوك إلا خواتيم من قتل من أهل الكوفة لكنت أيسر الأبناء.^(٥)

وأما المهدي الذي حبس وزيره يعقوب بن داود، وبنى على المطبق الذي هو فيه قبة، وبقي فيه حتى عمي، وطال شعر بدنه حتى صار كالأنعام، وحبسه لاتهامه إياه بأنه يمالئ الطالبين.

المهدي الذي عرفنا فيما تقدم موقفه من أبي عون وولده الذي كان يذهب مذهب الشيعة في الخلافة، وكذلك موقفه من وصية القاسم بن مجاشع. والمهدي هذا فقد اتخذ الزندقة ذريعة للقضاء على كل مناوئيه، وخصوصاً

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٠٩، ذكر أيام عبد الله أبي جعفر المنصور.

(٢) حياة الإمام الرضا: ص ٨٨.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٣٧٠، ذكر أيام المنصور العباسي.

(٤) مختصر تاريخ العرب: ص ٢٠٠.

(٥) مقاتل الطالبين: ص ٢٧٦، ذكر أيام المنصور العباسي.

العلويين والمتشيعين لهم وقال الدكتور أحمد شلبي: إن الرمي بالزندقة اتخذ وسيلة للإيقاع بالأبرياء في كثير من الأحيان.^(١)

وقال الدكتور أحمد أمين المصري: الحق أن بعض الناس اتخذوا الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم، سواء في ذلك الشعراء والعلماء والأمرء والخلفاء.^(٢)

وقد ألف له - أي للمهدي - ابن المفضل كتاباً في الفرق، اخترع فيه فرقاً من عند نفسه، ونسبها لأولئك الذين يريد المهدي أن يتتبعهم ويقضي عليهم مع أنهم لم يكونوا أصحاب فرق أصلاً، كزرارة، وعمار الساباطي، وابن أبي يعفور، وأمثالهم، فاخترع فرقة سماها «الزرارية» نسبة لزرارة، وفرقة سماها «العمارية» نسبة لعمار، وفرقة سماها «اليعفرورية» وأخرى سماها «الجواليقية» وأصحاب سليمان الأقطع وهكذا، إلا أنه لم يذكر «الهشامية» نسبة إلى هشام بن الحكم.^(٣)

وقال عبد الرحمن بدوي: إن الاتهام بالزندقة في ذلك العصر، كان يسير جنباً إلى جنب مع الانتساب إلى مذهب الرافضة، كما لاحظ ذلك الأستاذ (فيدا).^(٤)

(١) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٨٩، للعالمي.

(٢) ضحى الإسلام: ج ١، ص ١٥٧. هذا وقد اتهم شريك بن عبد الله القاضي بالزندقة، لأنه لم يكن يرى الصلاة خلف الخليفة المهدي، فراجع: البداية والنهاية: ج ١٠، ص ١٥٣، وحياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ج ٢، ص ١٣٧، والإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ج ٣، ص ٢٣٢. وأيضاً.. فقد أراد هارون أن يقتل عمه، الذي قال: كيف لقي آدم موسى؟ عندما ذكرت رواية مفادها ذلك.. وذلك بتهمة الزندقة. راجع: تاريخ بغداد: ج ١٤، ص ٧، ٨، والبداية والنهاية: ج ١٠، ص ٢١٥، وحياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ج ٢، ص ١٣٨، وتاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ٢٨٥، وهذا يعني أن لفظ الزنديق قد أطلق على كل من يناقش في أحاديث الصحابة، وعلى كل من يعارض نظام الحكم، والحكام وأهوائهم، وأطلق أيضاً على كل ماجن خليع كما يبدو لمن راجع رواية شريك الماضية في مظانها وغيرها.

ولا بأس بمراجعة عبارة هامة لأحمد أمين تتعلق بهذا الموضوع في كتاب الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ج ٣، ص ٢٣٢.

(٣) رجال المامقاني: ج ٣، ص ٢٩٦، وقاموس الرجال: ج ٩، ص ٣٢٤، بحار الأنوار: ج ٤٨، ص ١٩٥ - ١٩٦، باب ٨، ح ٣. وأشار إلى ذلك المسعودي في مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٢٢ أيضاً، فراجع: ضحى الإسلام: ج ١، ص ١٤١.

(٤) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩١.

يقول أبو حنيفة أو الطغرائي في جملة أبيات له:

ومتى تولى آل أحمد مسلم قتلوه أو وسموه بالإلحاد^(١)
إلى غير ذلك مما لا يمكننا تتبعه واستقصاؤه في مثل هذه العجالة.
وأما الهادي: فقد أخاف الطالبين خوفاً شديداً وألح في طلبهم، وقطع أرزاقهم
وأعطياتهم، وكتب إلى الآفاق يطلبهم.^(٢)

ولم تكن واقعة فخ المشهورة إلا بسبب الاضطهاد الذي لحق العلويين والمعاملة
القاسية لهم حسبما نص عليه المؤرخون والتي بلغ عدد الرؤوس مئة ونيفاً، وسبيت
فيها النساء والأطفال، وقتل السبي حتى الأطفال منهم على ما قيل. وأما هارون:
الذي حصد شجرة النبوة، واقتلع غرس الإمامة على حد تعبير الخوارزمي، والذي
لم يكن يخاف الله وأفعاله بأعيان آل علي عليه السلام وهم أولاد بنت نبيه لغير جرم تدل
على عدم خوفه من الله تعالى.^(٣)

والذي كان على حد تعبير أحمد شلبي: يكره الشيعة ويقتلهم.^(٤) والذي بلغ
من كرهه لهم أن الشعراء كانوا يتقربون إليه بهجاء آل علي عليه السلام كما يظهر بأدنى
مراجعة للتاريخ..

وهارون هذا، أقسم على استئصالهم، وكل من يتشيع لهم، فقال: حتام أصبر
على آل بني أبي طالب، والله لأقتلنهم، ولأقتلن شيعتهم، ولأفعلن وأفعلن.^(٥)
وعندما تولى الخلافة أمر بإخراج الطالبين جميعاً من بغداد إلى المدينة^(٦) كرهاً
لهم ومقتاً.

(١) نسب إلى الأول ملحقات احقاق: ج ٩، ص ٦٨٨ نقلاً عن مفتاح النجا في مناقب آل العبا،
للعلامة البدخشي ص ١٢ مخطوط وعن قلندر الهندي الحنفي في روض الأزهر ص ٣٥٩ طبع
حيدر آباد، وهو منسوب للطغرائي أيضاً وهو مثبت في إحدى قصائده في ديوانه، فلعله أخذه
على سبيل الاستشهاد على عادة الشعراء في ذلك. حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩١.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٣، ص ٣٣٦ - ٣٣٧، ذكر أيام الهادي العباسي.

(٣) الفخري في الآداب السلطانية: ص ٢٠.

(٤) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩٢، للعالمي.

(٥) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢٠٨، للقرشي.

(٦) الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ١١٤، ذكر حوادث سنة ١٧١ للهجرة.

وكان شديد الوطأة على العلويين يتتبع خطواتهم ويقتلهم،^(١) وأمر عامله على المدينة بأن يضمن العلويون بعضهم بعضاً^(٢)، وكان: يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم^(٣)، وكان مغرى بالمسألة عن آل أبي طالب وعمن له ذكر ونباهة منهم.^(٤) وعندما أرسل الجلودي لحرب محمد بن جعفر بن محمد أمره أن يغير على دور آل أبي طالب في المدينة، ويسلب ما على نسائهم من ثياب وحلي، ولا يدع على واحدة منهن إلا ثوباً واحداً.^(٥)

وعندما حضرته الوفاة كان يقول: واسوأته من رسول الله ﷺ.^(٦) وهدم قبر الإمام الحسين عليه السلام وحرث أرض كربلاء، وقطع السدرة التي كان يستظل بها الزائرون لتلك البقعة المباركة، وذلك على يد عامله على الكوفة موسى بن عيسى بن موسى العباسي.^(٧)

ثم توج موبقاته كلها وفضائعه تلك بقتل سيد العلويين وقائدهم الإمام موسى بن جعفر صلوات الله وسلامه عليه..

ولقد خاطبه العقاد مشيراً إلى نبشه لقبر الإمام الحسين عليه السلام، فقال: وكأثم خافوا على قبرك أن ينشه أشياع علي رضي الله عنه فدفنوك في قبر الإمام العلوي؛ لتأمن فيه النباش والمهانة بعد المهات.

(١) العقد الفريد: ج ٢، ص ١٨٠.

(٢) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩٢، للعاملي.

(٣) العقد الفريد: ج ٢، ص ١٨٠.

(٤) مقاتل الطالبين: ص ٤١٠، وبعد ذلك قال: «فسأل يوماً الفضل بن يحيى - بعد أن عاد من خراسان - هل سمعت ذكراً لأحد منهم؟ قال: لا والله، لقد جهدت فما ذكر لي أحد منهم، إلا إني سمعت رجلاً... الخ».

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ١٦١. بحار الأنوار: ج ٤٩، ص ١٦٦.

(٦) الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ٢١٣، ذكر أحداث سنة ١٩٣. ويلاحظ هنا: أن الإنسان غالباً ما ينكشف على حقيقته حين موته. وقول هارون هذا يكشف لنا حقيقته، ويبين لنا مدى ما فعله مع ذرية رسول الله ﷺ.

(٧) تاريخ الشيعة: ص ٨٩. بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ٣٩٨، باب ٥٠، ج ٧. والكنى والألقاب: ج ١، ص ٣٧. أعيان الشيعة: ج ٢، ص ٦٢٧، والمناقب لابن شهر آشوب: ج ٢، ص ١٩.

فمن عجب أن يلوذ أبناء علي بملكك الطويل العريض فيضيق بهم، وأن يبحث أتباعك عن ملاذ يجتمى به جثمان صاحب الملك الطويل العريض بعد مماته فيجدوه في قبر واحد من أولئك الحائرين اللائذين بأكناف البلدان من غير قرار، ولا اطمئنان. ^(١) يشير بذلك إلى قبر الإمام علي بن موسى الرضا، حيث إن هارون مدفون إلى جانبه، يقول محمد حبيب الضبي مشيراً إلى ذلك:

قبران في طوس الهدى في واحد والغني في لحد ثراه ضرام
قرب الغوي من الزكي مضاعف لعذابه ولأنفه الإرغام ^(٢)
ويقول دعبل (رحمه الله):

قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر ^(٣)
ولقد بلغ من ظلم هارون للعلويين أن جعل الناس يعتقدون فيه بغض
علي عليه السلام، حتى اضطر إلى أن يقف موقف الدفاع عن نفسه، ويقسم على أنه
يجبه.

قال إسحاق الهاشمي: كنا عند هارون فقال: بلغني أن العامة يظنون في بغض
علي بن أبي طالب عليه السلام، ووالله ما أحب أحداً حبي له، ولكن هؤلاء - يعني
العلويين - أشد الناس... ^(٤) إلى آخره.
ثم يلقي التبعة في ذلك عليهم، ويقول: إثمهم إلى بني أمية أميل منهم إلى بني
العباس، إلى آخر كلامه.

بل لقد رأينا يعلن أمام أعظم العلماء عن توبته مما كان منه من أمر الطالبين
ونسلمهم، وذلك أمر طبيعي بعد أن كان يتتبع خطواتهم ويقتلهم، وبعد أن كانت

(١) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩٤، للعاملي نقلاً عن مجلة «الهلal» عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧م، ص ٢٥، من مقال بعنوان «حديث مع هارون الرشيد» للأستاذ العقاد.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٤٦٨.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٤٦٨. الغدير: ج ٢، ص ٣٧٦.

(٤) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩٤.

سجون العباسيين - وخصوصاً المنصور وهارون - قد امتلأت من العلويين وكل من يتشيع لهم.

وأخيراً فقد بلغ من ظلم هارون للعلويين أن توهم البعض أن المأمون إنما بايع للرضا عليه السلام بولاية العهد من أجل أن يمحو ما كان من أمر هارون في آل علي عليه السلام.

ستون شهيداً

جاء في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام أن حميد بن قحطبة الطائي الطوسي قال: طلبني هارون في بعض الليل، وقال لي فيما قال: خذ هذا السيف، وامثل ما يأمرك به الخادم، فجاء بي الخادم إلى دار مغلقة، ففتحها وإذا فيها ثلاثة بيوت وبئر، ففتح البيت الأول، وأخرج منه عشرين نفساً عليهم الشعور والذوائب، وفيهم الشيوخ والكهول والشبان، وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال، وقال لي: يقول لك أمير المؤمنين اقتل هؤلاء، وكانوا كلهم من ولد علي وفاطمة، فقتلتهم الواحد بعد الواحد، والخادم يرمي بأجسامهم ورؤوسهم في البئر.

ثم فتح البيت الثاني وإذا فيه أيضاً عشرون من نسل علي وفاطمة، وكان مصيرهم كمصير الذين كانوا في البيت الأول.

ثم فتح البيت الثالث وإذا فيه عشرون، فألحقهم بمن مضى، وبقي منهم شيخ وهو الأخير، فقال: تبا لك يا ميشوم، أي عذر لك يوم القيامة عند جدنا رسول الله، فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي، فنظر إلي الخادم مغضباً، وهددني فقتلت الشيخ، ورمى به في البئر.^(١)

الاسطوانات

نقل صاحب مقاتل الطالبين عن إبراهيم بن رباح أن هارون حين ظفر بيحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بنى عليه أسطوانة وهو

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ١١٠ - ١١١.

حي، وقد ورث هارون طريقة البناء على الأحياء من جده المنصور.^(١)
وقال صاحب أخبار عيون الرضا عليه السلام: لما بنى المنصور الأبنية ببغداد جعل يطلب العلوية طلباً شديداً، ويضع من ظفر به منهم في الاسطوانات المجوفة المبنية من الجص والآجر.

فظفر ذات يوم بغلام منهم حسن الوجه، وله شعر أسود، وهو من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، فسلمه إلى البناء الذي كان يبني له، وأمره أن يجعله في جوف أسطوانة، ويبني عليه، ووكل عليه من يراعي ذلك، وحين أراد الباني أن يدخله حياً في الاسطوانة أخذته الرقة والرحمة، فترك في الاسطوانة فرجة يدخل منها الريح، وقال للغلام: لا بأس عليك فاصبر فإنني سأخرجك في جوف الليل إذا جن، ولما دخل الليل أتاه، وأخرجه من الاسطوانة، وقال له اتق الله في دمي ودم الفعلة الذين معي، وغيب شخصك، فإنني أخرجتك خوفاً أن يكون جدك خصمي يوم القيامة، فقال له الغلام: سأفعل.^(٢)

جاء في عيون أخبار الرضا عليه السلام أن المأمون قال: ما زلت أحب أهل البيت، وأظهر للرشيد بغضهم تقرباً إليه، فلما حج الرشيد كنت معه، ولما كان بالمدينة دخل عليه الإمام موسى من جعفر عليه السلام فأكرمه، وجثا على ركبته، وعانقه يسأله عن حاله وعياله، ولما قام الإمام نهض الرشيد وودّعه بإجلال واحترام، فلما خرج سألت أبي، وقلت له: من هذا الذي فعلت معه شيئاً لم تفعله بأحد سواه؟ فقال لي: هذا وارث علم النبيين، هذا موسى بن جعفر، فإن أردت العلم الصحيح فعند هذا.^(٣)

الإمام الرضا عليه السلام وهارون

قال السيد الأمين في كتاب أعيان الشيعة: بعد حياة الإمام الكاظم عليه السلام

(١) مقاتل الطالبين: ص ٤٠٢ - ٤٠٣، أيام الرشيد العباسي.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ١١١ - ١١٢.

(٣) المصدر نفسه: ج ١، ص ٩٣.

أرسل هارون أحد قواده إلى المدينة، وهو الجلودي، وأمره أن يهجم على دور آل أبي طالب، ويسلب نساءهم، ولا يدع على واحدة منهم إلا ثوباً واحداً، فامتل الجلودي حتى وصل إلى دار الإمام الرضا عليه السلام فجعل الإمام النساء كلهن في بيت واحد، ووقف على باب البيت، فقال الجلودي: لا بد من دخول البيت وسلب النساء، وحلف الإمام أنه يأتيه بكل ما عليهن من حلي وحلل على أن يبقى الجلودي مكانه، ولم يزل يلاطفه حتى أقنعه، ودخل الإمام، وأخذ جميع ما على النساء من ثياب ومصاغ وجميع ما في الدار من أثاث وسلمه إلى الجلودي، فحملة إلى هارون، وحين ملك المأمون غضب على هذا الجلودي وقتله.^(١)

والشعراء يقولون الحقيقة

وهكذا يتضح لنا كيف أن العباسيين قد انقلبوا بدافع من خوفهم على العلويين يوسعونهم قتلاً وعسفاً وتشريداً، وأذاقوهم مختلف أنواع العذاب التي لم تكن لتخطر على قلب بشر بهدف استئصالهم من الوجود، ومحو آثارهم؛ ليصفو لهم الجو، ولا يبقى من يستطيع أن ينازعهم سلطانهم الذي يجب أن يكون لهم وحدهم، أو بالأحرى حتى لا يبقى من شأنه ذلك، حتى نسي الناس فعال بني أمية معهم عندما رأوا فعال بني العباس وحتى لقد رأينا أحد شعراء ذلك الوقت يقول:

تالله ما فعلت أمية فيهمو معشار ما فعلت بنو العباس^(٢)
وقال آخر، وهو أبو عطاء أفلح بن يسار السندي المتوفى سنة ١٨٠ هـ - وهو من مخضرمي الدولتين: الأموية والعباسية - في زمن السفاح:

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباسي في النار^(٣)

(١) أعيان الشيعة: ق ٢، سيرة الإمام الرضا عليه السلام. (بتصرف). عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ١٧٢.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ١، ص ١٥.

(٣) المحاسن والمساوي: ص ٢٨١، باب مساوي منع الشعراء والبخل. طبيعة الدعوة العباسية: ص ٢٧٢. حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩٦.

وقال منصور بن الزبرقان النمري المتوفى في خلافة هارون:

آل النبي ومن يحبهم يتطامنون مخافة القتل
أمن النصارى واليهود وهم من أمة التوحيد في أزل^(١)
وقد أنشد هارون هذين البيتين بعد موت منصور النمري فقال: بعد أن أرسل
إليه من يقتله فوجده قد مات: لقد هممت أن أنبش عظامه فأحرقها^(٢).

بل في رسالة الخوارزمي أن قبره قد نبش بالفعل^(٣).

وقد ورد أن هارون بعد سماعه لمذائح النمري في أهل البيت عليه السلام، أمر أبا
عصمة الشيعي بأن يخرج من ساعته إلى الرقة، ليسل لسان منصور من قفاه،
ويقطع يده، ورجله، ثم يضرب عنقه ويحمل إليه رأسه بعد أن يصلب بدنه.
فخرج أبو عصبة لذلك، فلما صار بباب الرقة استقبلته جنازة النمري، فرجع إلى
هارون فأعلمه، فقال له هارون: ويلي عليك يا ابن الفاعلة، فإلا إذا صادفته ميتاً
فأحرقته بالنار!!^(٤)

ويقول إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، يذكر العلويين الذين قتلهم المنصور،
ويقال: إن القائل هو غالب الهمداني:

أصبح آل الرسول أحمد في الـ ناس كذي عرة به جرب^(٥)
ويقول دعبل بن علي الخزاعي في رثاء الرضا عليه السلام، وهو شعر معروف
ومشهور، وقد أنشده للمأمون نفسه:

وليس حي من الأحياء نعلمه من ذي يمان، ولا بكر، ولا مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك أيسار على جزر
قتلاً، وأسراً، وتحريقاً، ومنهبة فعل الغزاة بأهل الروم والخمر

(١) الأزل: الضيق والشدة. شعر منصور النمري: ص ١١٩.

(٢) ديوان منصور النمري: ص ١١٩.

(٣) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩٧.

(٤) الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ج ١، ص ٢٥٤.

(٥) مقاتل الطالبين: ص ٢٠٤، أيام أبي جعفر المنصور، ذكر السبب في أخذ عبد الله بن الحسن.

أرى أمية معذورين إن فعلوا ولا أرى لبني العباس من عذر^(١)
 أما أبو فراس الحمداني فيقول:
 ما نال منهم بنو حرب وإن عظمت تلك الجرائر إلا دون نيلكم^(٢)
 ويقول علي بن العباس الشاعر المعروف بابن الرومي مولى المعتصم من قصيدة
 له:

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم لبلاواكم عما قليل مفرج
 أكّل أوان للنبي محمد قتيل زكي بالدماء مخرج
 إلى أن قال:

أفي الحق أن يمساو خماساً وأنتم يكاد أخوكم بطنه يتبعج
 وتمشون مختالين في حجراتكم ثقال الخطى أكفالكم تترجرج
 ووليدهم بادي الطوى ووليدكم من الريف ريان العظام خدلج
 ولم تقنعوا حتى استثارت قبورهم كلابكم فيها بهيم وديزج^(٣)

نصوص أخرى

يقول فان فلوتن: ولا غرو فإن العلويين لم يلقوا من الاضطهاد مثل ما لقوا في
 عهد الأولين من خلفاء بني العباس.^(٤)

ويقول الخنصري: فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم أشد وأقسى مما
 لاقوه في عهد خصومهم من بني أمية، فقتلوا، وشردوا كل مشرد، وخصوصاً
 في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس، وكان اتهام شخص في هذه
 الدولة بالميل إلى واحد من بني علي كافياً لإتلاف نفسه، ومصادرة ماله، وقد

(١) ديوان دعبل: ص ١٩٧.

(٢) الغدير: ج ٣، ص ٤٠٠. حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩٨، للعالمي.

(٣) مقاتل الطالبين: ص ٥١١ - ٥٢٠.

(٤) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٩٨.

حصل فعلاً لبعض الوزراء وغيرهم.^(١)... إلى آخره.
ولما دخل إبراهيم بن هرمة المعاصر للمنصور المدينة أتاه رجل من العلويين
فسلم عليه، فقال له إبراهيم: تنح عني، لا تشط بدمي.^(٢)
بل يظهر من قضية أخرى لابن هرمة أن العباسيين كانوا يعاقبون حتى على
حب أهل البيت عليهم السلام في زمن الأمويين، فإنه - أعني ابن هرمة - عندما سئل في
عهد المنصور عن قوله في عهد الأمويين:

ومهما ألام على حبهم فإني أحب بني فاطمة
أجاب: من عض يبظر أمه، فقال له ابنه: أأست قائلها؟ قال: بلى. قال: فلم
تشتم نفسك؟ قال: أليس أن يعض الرجل يبظر أمه خير له من أن يأخذه ابن
قحطبة؟^(٣)

بل إن الجلودي الذي أمره هارون بالإغارة على دور آل أبي طالب قد قال
للمأمون عندما جعل ولاية العهد للرضا عليه السلام:
أعيدك بالله يا أمير المؤمنين أن تخرج هذا الأمر الذي جعله الله لكم وخصكم به،
وتجعله في أيدي أعدائكم، ومن كان أباًؤكم يقتلونهم ويشردونهم في البلاد.^(٤)

والمأمون أيضاً يعترف

وجاء في كتاب المأمون الذي أرسله إلى العباسيين بعد ما ذكر حسن سياسة
الإمام علي عليه السلام مع ولد العباس ما يلي:
حتى قضى الله بالأمر إلينا، فأخفناهم وضيعنا عليهم، وقتلناهم أكثر من قتل
بني أمية إياهم. ويحكم، إن بني أمية قتلوا من سل سيفاً، وإنا معشر بني العباس

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: ج ١، ص ١٦١.

(٢) تاريخ بغداد: ج ٦، ص ١٢٩، وحياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ٢، ص ١٨٤.

(٣) الأغاني: ج ٤، ص ١٦٠٢ - ١٦٠٣، ذكر ابن هرمة وأخباره. وملحقات إحقاق الحق: ج ٩، ص ٦٩٠.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٩، ص ١٦٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٤٠.

قتلناهم جملاً، فلتسألن أعظم الهاشمية: بأي ذنب قتلت؟ ولتسألن نفوس ألقيت في دجلة والفرات، ونفوس دفنت ببغداد والكوفة أحياء... إلى آخره.^(١)

المتوكل

أما المتوكل فقد كان معروفاً في اللهو والمجون ومعاقرة الخمر قال المسعودي: هو أول خليفة من بني العباس ظهر في مجلس اللعب والمضاحك والهزل. وقال السيد أمير علي: وفي عهده بدأ انحلال الامبراطورية العربية، وتسرب الفساد في جسم الدولة، وأمر الناس بالتمسك بالتقليد، وأقصى أحرار الفكر عن الوظائف، كما تغلب عليه الأتراك، وأصبحوا أصحاب الأمر والنهي.^(٢) وقال أبو الفرج في مقاتل الطالبين: كان المتوكل شديد الوطأة على آل أبي طالب، غليظاً في جماعتهم، شديد الغيظ والحقد عليهم، وسوء الظن والتهمة لهم.^(٣)

واستعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الرخجي، فمنع آل أبي طالب من التعرض للناس، ومنع الناس من البر بهم، وكان لا يبلغه أن أحداً أبر أحداً منهم بشيء وإن قل إلا أنهكه عقوبة، وأثقله غمماً، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلين فيه واحدة بعد واحدة، ثم يرقعنه، ويجلسن على مغازهن عواري حواسر.^(٤)

هكذا شاء أمير المؤمنين المتوكل على الله أن تقبع العلويات في بيوتهن عاريات يتبادلن القميص المرقع عند الصلاة، وأن تختال الفاجرات العاهرات بالحلي وحلل الديباج بين الإماء والعبيد.

لقد أرسل هارون إلى بنات الرسول ﷺ من يسلب الثياب من أبدانهن، أما

(١) الطرائف: ج ١، ص ٢٧٨، ما قاله المأمون العباسي.

(٢) مختصر تاريخ العرب: ص ٢٥٤ (بتصرف).

(٣) مقاتل الطالبين: ص ٤٧٨.

(٤) مقاتل الطالبين: ص ٤٧٩.

المتوكل فقد شدد وضيق عليهن حتى ألجأهن إلى العري، وهكذا تتطور الأساليب والمناهج مع الزمن ضد آل الرسول ﷺ على أيدي القرشيين وأبناء العمومة باسم الإسلام!!

لقد تفرق العلويون أيام المتوكل «نيرون العرب» كما سماه بعض المؤرخين^(١)، فمن من توارى فمات في حال تواريه كأحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين، وعبد الله بن موسى الحسني، ومنهم من ثار من الضغط الجور كمحمد بن صالح الحسني، ومحمد بن جعفر الحسني.^(٢)

ولم يكتف المتوكل بتنكيل الأحياء منهم حتى اعتدى على قبورهم، فهدم قبر الحسين ﷺ وما حوله من المنازل والدور، ومنع الناس من زيارته، ونادى مناديه من وجدناه عند قبر الحسين حبسناه في المطبق، وهو سجن تحت الأرض.

وقد وضع على سائر الطرق إلى كربلاء مسالِح لا يجدون أحداً زار الحسين ﷺ إلا أتوه به فقتلوه، أو أنهكه عقوبة^(٣)، فقال الشاعر:

تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه مثلها هذا العمرك قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله فتبعوه رميما^(٤)
وكان المتوكل يقرب علي بن الجهم لأنه كان يبغض علياً أمير المؤمنين ﷺ.
وكان ابن الجهم هذا مأبوناً سمعه يوماً أبو العيناء يطعن على الإمام ﷺ، فقال له: إنك تطعن عليه لأنه قتل الفاعل والمفعول من قوم لوط وأنت أسفلهما.^(٥)

وكان ابن السكيت من كبار العلماء والأدباء في زمانه، وقد ألزمه المتوكل تعليم ولده المعتز، فقال له يوماً: أيهما أحب إليك ابني هذان: المعتز والمؤيد أو الحسن

(١) السيد أمير علي في كتابه مختصر تاريخ العرب: ص ٢٥٣.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٤٨٠ - ٥٠٠.

(٣) مقاتل الطالبين: ص ٤٧٩، بتصرف.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ٤٠٥، باب ٥.

(٥) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ١٢٣، باب نسب علي بن الجهم.

والحسين؟ فقال ابن السكيت: والله إنَّ قنبراً خادماً علي بن أبي طالب خير منك ومن ابنيك، فقال المتوكل للأتراك: سلو لسانه من قفاه، ففعلوا، فمات. (١)
ووقع ابن السكيت فيما حذر منه؛ لأنَّه القائل:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعرثته في القول تذهب رأسه وعرثته في الرجل تبرأ على مهل (٢)
وكان عند المتوكل مخنث يدعى عبادة، فيشد على بطنه مخدة ويرقص بين يدي المتوكل، والمغنون يغنون: أقبل البطين خليفة المسلمين، وهم يعنون علياً أمير المؤمنين عليه السلام والمتوكل يشرب ويضحك، وفعل ذلك يوماً، وابنه المنتصر حاضر، فقال لأبيه: إنَّ الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكل أنت لحمه إذا شئت، ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله، فقال المتوكل للمغنين: غنوا.

غار الفتى لابن عمه رأس الفتى في حرٍّ أمه (٣)
وسمعه يوماً يشتم فاطمة بنت الرسول ﷺ، فسأل أحد الفقهاء - هكذا في بعض المصادر - فقال له: قد وجب عليه القتل إلا أن من قتل أباه لم يطل عمره، فقال المنتصر، لا أبالي إذا أطعت بقتله أن لا يطول عمري، فقتله، فعاش بعده سبعة أشهر. (٤)

وقد بلغ النصب بالمتوكل إلى أن كتب سنة (٢٣٦ هـ) إلى مصر بإخراج آل أبي طالب منها، فأخرجوا وقدموا العراق فأخرجوا منه إلى المدينة، ولما مات المتوكل قام من بعده ابنه محمد المستنصر فكتب إلى مصر بأن لا يقبل علوي ضيعة، ولا يركب فرساً، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد، ومن كان بينه وبين أحد من الطالبين

(١) سير أعلام النبلاء: ج ١٠، ص ٤١ - ٤٢، ترجمة يعقوب بن إسحاق بن السكيت.
(٢) الأعلام: ج ٩، ص ٢٥٥، ترجمة يعقوب بن إسمايل بن السكيت. الكنى والألقاب: ج ١، ص ٣١٤، ترجمة ابن السكيت.
(٣) مآثر الأنافة: ج ١، ص ٢٣١، باب ٦٢ في الحوادث والمجريات في خلافته.
(٤) الكامل في التاريخ: ج ٧، ص ٥٥ - ٥٦، ذكر أحداث سنة ٢٣٦.

خصوصة من سائر الناس، قبل قول خصمه فيه، ولم يطالب بيّنة، وكتب إلى العمال بذلك.^(١)

جانب من رسالة الخوارزمي لأهل نيشابور

وحسبنا هنا بعد كل الذي قدمناه أن نذكر فقرات من رسالة أبي بكر الخوارزمي التي أرسلها إلى أهل نيشابور في التدليل على مقدار الظلم والعسف الذي حاق بأبناء علي عليه السلام وشيعتهم في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ المسلمين، يقول أبو بكر - بعد أن ذكر كثيراً من الطالبين الذين قتلهم الأمويون والعباسيون ومنهم الرضا عليه السلام الذي تسمم بيد المأمون -: فلما انتهكوا ذلك الحريم واقترفوا ذلك الإثم العظيم غضب الله عليهم، وانتزع الملك منهم، فبعث عليهم «أبا مجرم» لا أبا مسلم، فنظر لا نظر الله إليه إلى صلابة العلوية، وإلى لين العباسية، فترك تقاه، واتبع هواه، وباع آخرته بدنياه بقتله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وسلط طواغيت خراسان وأكراد أصفهان وخوارج سجستان على آل أبي طالب، يقتلهم تحت كل حجر ومدر، ويطلبهم في كل سهل وجبل، حتى سلط عليه أحب الناس إليه فقتله كما قتل الناس في طاعته، وأخذ به أخذ الناس في بيعته، ولم ينفعه أن أسخط الله برضاه، وأن ركب ما لا يهواه، وخلت من الدوانيقي^(٢) الدنيا، فخطب فيها عسفاً، وتقضى فيها جوراً وحيفاً. وقد امتلأت سجونته بأهل بيت الرسالة ومعدن الطيب والطهارة، قد تتبع غائبهم، وتلقط حاضرهم، حتى قتل عبد الله بن محمد بن عبد الله الحسيني بالسند على يد عمر بن هشام الثعلبي، فما ظنك بمن قرب متناوله عليه، ولان مسه على يديه.^(٣)

وهذا قليل في جنب ما قتله هارون منهم، وفعله موسى قبله بهم، فقد عرفتم ما

(١) خطط المقرئ: ج ٢، ص ٣٣٩.

(٢) في مجمع الفوائد: «وخلت إلى الدوانيقي» ولعله هو الصواب.

(٣) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢٠٩، للقرشي.

توجه على الحسن^(١) بن علي عليه السلام بفخ من موسى، وما انفق على علي بن الأفسس الحسيني من هارون، وما جرى على أحمد بن علي الزيدي، وعلى القاسم بن علي الحسيني من حبسه، وعلى غسان بن حاضر الخزاعي حين أخذ من قبله، والجملة أن هارون مات وقد حصد شجرة النبوة، واقتلع غرس الإمامة. وأنتم أصلحك الله أعظم نصيباً في الدين من الأعمش فقد شتموه، ومن شريك فقد عزلوه، ومن هشام بن الحكم فقد أخافوه، ومن علي بن يقطين فقد اتهموه.

يجب فيؤهم فيفرق على الديلمي والتركي، ويحمل إلى المغربي والفرغاني، ويموت إمام من أئمة الهدى وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته، ولا تجصص مقبرته، ويموت (ضراط) لهم أو لاعب أو مسخرة أو ضارب فتحضر جنازته العدول والقضاة، ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاية..

ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً أو سوفسطائياً، ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً ومانوياً، ويقتلون من عرفوه شيعياً، ويسفكون دم من سمى ابنه علياً. ولو لم يقتل من شيعة أهل البيت غير المعلى بن خنيس قتيل داود بن علي، ولو لم يجس فيهم غير أبي تراب المروزي لكان ذلك جرحاً لا يبرأ، وثائرة لا تطفأ، وصدعاً لا يلتئم، وجرحاً لا يلتحم.

وكفاهم شعراء قريش قالوا في الجاهلية أشعاراً يهجون بها أمير المؤمنين عليه السلام، ويعارضون فيها أشعار المسلمين، فحملت أشعارهم، ودونت أخبارهم، ورواها الرواة، مثل الواقدي، ووهب بن منية التميمي، ومثل الكلبي، والشرقي ابن القطامي، والهيثم بن عدي، ودأب بن الكناني، وأن بعض شعراء الشيعة يتكلم في ذكر مناقب الوصي، بل ذكر معجزات النبي صلى الله عليه وآله، فيقطع لسانه، ويمزق ديوانه، كما فعل بعبد الله بن عمار البرقي، وكما أريد بالكميت بن زيد الأسدي، وكما نبش قبر منصور بن الزبرقان النرمي، وكما دمر على دعبل بن علي الخزاعي مع رفقتهم

(١) الظاهر أن الصحيح هو: «الحسين».

من مروان بن أبي حفصة اليامي، ومن علي بن الجهم الشامي، ليس إلا لغلوهما في النصب، واستيجابهما مقت الرب، حتى إن هارون بن الخيزران وجعفر المتوكل على الشيطان لا على الرحمن كانا لا يعطيان مالاً ولا يبذلان نوالاً إلا لمن شتم آل أبي طالب، ونصر مذهب النواصب، مثل: عبد الله بن معصب الزبيري، ووهب بن وهب البخري، ومن الشعراء: مثل مروان بن أبي حفصة الأموي، ومن الأدباء مثل: عبد الله بن قريب الأصمعي.

فأما في أيام جعفر فمثل: بكار بن عبد الله الزبيري وأبي السمط بن أبي الجون الأموي، وابن أبي الشوارب العبشمي. وبعد كلام له عن بني أمية أيضاً قال:

وما هذا بأعجب من صياح شعراء بني العباس على رؤوسهم بالحق وإن كرهوه، وبتفضيل من نقصوه وقتلوه، قال دعبل الخزاعي:

ألم تر أنّي مذثمانين حجة أروح، وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات^(١)

وقال علي بن العباس الرومي، وهو مولى المعتصم:

تأليت أن لا يبرح المرء منكم يشل على حر الجبين فيعفج
كذا بني العباس تصبر منكم ويصبر للسيف الكمي المدجج^(٢)
لكل أوان للنبي محمد قتيل زكي بالدماء مخرج^(٣)

وقال إبراهيم بن العباس الصولي وهو كاتب القوم وعاملهم في الرضا عليه السلام لما قرّبه المأمون:

يمن عليكم بأموالكم وتعطون من مئة واحد^(٤)

(١) ديوان دعبل الخزاعي: ص ١٤١.

(٢) في مقاتل الطالبين: «لذاك بني العباس يصبر مثلكم ويصبر للموت»، ص ٥١٨.

(٣) في مقاتل الطالبين: «أكل أوان»: ص ٥١١، والقصيدة طويلة مطلعها:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج
(٤) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢١٢.

وكيف لا ينتقصون قوماً يقتلون بني عمهم جوعاً وسغباً ويملاًون ديار الترك والديلم فضة وذهباً، يستنصرون المغربي والفرغاني، ويجفون المهاجري والأنصاري، ويولون أنباط السواد وزارتهم، وتلف العجم والطاطم قيادتهم، ويمنعون آل أبي طالب ميراث أمهم، وفيء جدتهم، يشتهي العلوي الأكلة فيحرمها، ويقترح على الأيام الشهوة فلا يطعمها، وخراج مصر والأهواز وصدقات الحرمين والحجاز تصرف إلى ابن أبي مريم المدني، وإلى إبراهيم الموصل، وابن جامع السهمي، وإلى زلزل الضارب، وبرصوما الزامر، وأقطع بختيشوع النصراني قوت أهل بلد، وجاري بغا التركي، والافشين الاشروسي كفاية أمة ذات عدد.

والمتوكل زعموا يتسرى باثني عشر ألف سرية، والسيد من سادات أهل البيت يتعفف بزنجية أو سنديّة، وصفوة مال الخراج مقصورة على أرزاق الصفاة، وعلى موائد المخاتنة، وعلى طعمة الكلابين، ورسوم القرايين، وعلى مخارق وعلوية المغني، زرزر، وعمر بن بانه المهلي، ويخلون على الفاطمي بأكلة أو شربة، ويصارفونه على دائق وحبّة، ويشترون العوادة بالبدر، ويجرون لها ما يفي برزق عسكر.

والقوم الذين أحل لهم الخمس وحرمت عليهم الصدقة وفرضت لهم الكرامة والمحبة يتكفون ضراً، ويهلكون فقراً، ويرهن أحدهم سيفه، ويبيع ثوبه، وينظر إلى فيئه بعين مريضة، ويتشدد على دهره بنفس ضعيفة. ليس له ذنب إلا أن جده النبي، وأبوه الوصي، وأمه فاطمة، وجدته خديجة، ومذهبه الإيوان، وإمامه القرآن.. وحقوقه مصروفة إلى القهرمانه والمضرطة، وإلى المغزمة، إلى المزرة، وخمسه مقسوم على نقار الديكة الدمية، والقردة، وعلى روس اللعبة واللعبة، وعلى مرية الرحلة.

وماذا أقول في قوم حملوا الوحوش على النساء المسلمات، وأجروا العبادة وذوي الجرايات، وحرثوا تربة الحسين عليه السلام بالفدان، ونفوا زواره إلى البلدان. وما أصف من قوم هم نطف السكارى في أرحام القيان؟ وماذا يقال في أهل بيت منهم نبع البغا، وفيهم راح التخنيث وغدا، وبهم عرف اللواط؟! كان إبراهيم

بن المهدي مغنياً، وكان المتوكل مؤثماً موضعاً، وكان المعتز مخنثاً، وكان ابن زبيدة معتوهاً مفركاً، وقتل المأمون أخاه، وقتل المنتصر أباه، وسم موسى بن المهدي أمه، وسم المعتضد عمه. ولقد كان في بني أمية مخازي تذكر، ومعائب تؤثر.

وبعد أن عدد بعض مخازي بني أمية ومعائبهم قال:

وهذه المثالب مع عظمها وكثرتها ومع قبحها وشنعها صغيرة وقليلة في جنب مثالب بني العباس الذين بنوا مدينة الجبارين، وفرقوا في الملاهي والمعاصي أموال المسلمين.. إلى آخر ما قال.^(١)

(١) انظر: حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١٠٠-١٠٦. ضحى الإسلام: ج ٣، ص ٢٩٧.

الفصل الثالث

سياسة العباسيين مع الرعية

نظرة عامة

لا نريد هنا أن نعرض لأنواع القبائح التي كان العباسيون يمارسونها، فإن ذلك مما لا يمكن الإمام به واسقتصاؤه في هذه العجالة، وإنما نريد فقط أن نعطي لمحة سريعة عن سيرتهم السيئة في الناس، ومدى اضطهادهم وظلمهم وجورهم في الرعية، الأمر الذي أسهم إسهاماً كبيراً في كشف حقيقتهم وبيان واقعهم أمام الملأ.

حتى قال الشعراء في وصف الحالة العامة في زمن خلفائهم الشيء الكثير، فمن ذلك قول سليم العدوي في الثورة على الوضع القائم:

حتى متى لا نرى عدلاً نسرّ به ولا نرى لولاة الحق أعوانا
مستمسكين بحق قائمين به إذا تلوّن أهل الجور ألوانا
يا للرجال لداء لا دواء له وقائد ذي عمى يقتاد عمياناً^(١)
وقال سديف:

إننا لنأمل أن ترتد ألفتنا بعد التباعد والشحناء والإحن
وتنقضي دولة أحكام قادتها فينا كأحكام قوم عابدي وثن
فكتب المنصور إلى عبد الصمد بن علي بأن يدفنه حياً، ففعل.^(٢)

وقد ذكر أبو الفرج أبياتاً كثيرة بالإضافة إلى هذين البيتين، ونسبها يحيى بن

(١) المستطرف: ج١، ص ١٦٠ وطبيعة الدعوة العباسية، ص ٢٧٢. وضحي الإسلام: ج ٢، ص ٣٧.

(٢) العقد الفريد: ج ٥، ص ٨٧-٨٨.

عبد الله بن الحسن بحضرة هارون إلى عبد الله بن مصعب الزبيري، ومن جملتها قوله:

فطالما قد بروا في الجور أعظمتنا بري الصناعات قداح النبع بالسفن^(١)
وقال آخر وهو أحمد بن أبي نعيم الذي نفاه المأمون بسبب هذا البيت إلى
السند:

لا أحسب الجور ينقضي وعلى الـ أمة وإل من آل عباس^(٢)
وقد تقدم قول أبي عطاء السندي والمتوفى سنة ١٨٠ هـ:

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار^(٣)
وقال الدكتور أحمد محمود صبحي: لكن ذلك المثل الأعلى للعدالة والمساواة
الذي انتظرهما الناس من العباسيين، قد أصبح وهماً من الأوهام، فمدرسة المنصور
والرشيد وجشعهم وجور أولاد علي بن عيسى وعبثهم بأموال المسلمين يذكّرنا
بالحجاج وهشام ويوسف بن عمرو الثقفي، وعم الاستياء أفراد الشعب بعد أن
استفتح أبو عبد الله المعروف بـ «السفاح» وكذلك المنصور بالإسراف في سفك
الدماء على نحو لم يعرف من قبل.

ويقول العاملي نقلاً عن صاحب إمبراطورية العرب: إنه بالرغم من أن جيش
خراسان هو الذي أوصل العباسيين إلى الملك فإنّ الفتن في خراسان ظلت قائمة في
عهد العباسيين كما كانت في عهد الأمويين. وكان الشعار الذي رفعه الخراسانيون:
أنّهم هم الذين أوصلوا «آل البيت» إلى الحكم لإقامة عهد من الرحمة والعدل، لا
لإقامة عهد آخر من الطغيان المتعطش إلى سفك الدماء.. إلى أن يقول:

(١) مقاتل الطالبين: ص ٣٩٨. شرح نهج البلاغة: ج ١٩، ص ٩٣.

(٢) وفيات الأعيان: ج ٦، ص ١٥٣، ترجمة يحيى بن أكثم، ومروج الذهب: ج ٣، ص ٤٣٥. ضحى
الإسلام: ج ٢، ص ٣٨. نهاية الإرب: ج ٨، ص ١٧٥. طبيعة الدعوة العباسية: ص ٢٧٣. في
العقد الفريد: ج ٦، ص ٤١٨، قد نسب يحيى بن أكثم هذا البيت إلى دعلب وفيه: أنه هو الذي
نفي إلى السند.

(٣) طبيعة الدعوة العباسية: ص ٢٧٢. حياة الإمام الرضا: ص ١٠٨.

لكن الشيء الذي لا ريب فيه هو أنّ الأحلام بإقامة عهد السلام والعدل التي كانت السبب في الثورة العامة ضد الأمويين قد تبخرت الآن، ولو لم يكن العباسيون أسوأ حالاً من الأمويين فإنهم لم يكونوا على أي حال خيراً منهم. وقريب منه كلام غيره.^(١)

ولعل قصيدة أبي العتاهية التي مطلعها:

من مبلغ عني الإمام نصائحاً متواليّة^(٢)
تعبّر تعبيراً صادقاً عن الحالة العامة التي كانت سائدة آنذاك، وهي معروفة ومشهورة، ومذكورة في ديوانه وهي بحق من الوثائق الهامة المعبرة عن واقع الحياة في تلك الفترة من الزمن.

مشاهد من مواقف الخلفاء

إذا ما أردنا أن نقف عند بعض جنایات وجرائم كل واحد من خلفاء بني العباس فعلياً أن نتناول واحداً بعد واحد، إلا أننا نكتفي ببعض منهم:

١- السفاح

وهو الذي لقب نفسه بالمهدي تمويهاً وخداعاً^(٣)، يقول عنه المؤرخون أنه: كان سريعاً إلى سفك الدماء، فاتبعه عماله في ذلك في المشرق والمغرب، واستنوا بسنته. مثل: محمد بن الأشعث بالمغرب، وصالح بن علي بمصر، وخازم بن خزيمة، وحميد بن قحطبة، وغيرهم.^(٤)

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ج ٢، ص ١٦٢. وانظر: ضحى الإسلام: ج ١، ص ١٢٧ - ١٣١.

(٢) أبو العتاهية أشعاره وأخباره: ص ٤٣٩. وهي قصيدة طويلة مطلعها:

أين القرون الماضية تركوا المنازل خالية
(٣) البداية والنهاية: ج ١، ص ٦٩، والتنبيه والإشراف: ص ٢٩٢. حيث قال: وقد كان قد لُقّب أولاً بالمهدي.

(٤) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٣٥٠ - ٣٦٠. وتاريخ الخلفاء: ص ٢٠٨.

حتى خرج عليه شريك بن شيخ المهري الذي كان على ما يظهر من دعاة العباسيين، خرج عليه ببخارى في أكثر من ثلاثين ألفاً، فقال: ما على هذا بايعنا آل محمد، تسفك الدماء، ويعمل بغير الحق. فوجه إليه السفاح أبا مسلم فقتله ومن معه^(١). كما قتل عامله وهو أخوه، وقيل: ابن أخيه يحيى جمعاً كثيراً من أهل الموصل، حيث ذبح الآلاف الكثيرة منهم في المسجد وهذه في قضية معروفة ومشهورة.

وقد نص المؤرخون على أنه لم يبق من أهل الموصل على كثرتهم إلا اربعمائة إنسان، صدموا الجند فأفرجوا لهم، كما أنه أمر جنده فبقوا ثلاثة أيام يقتلون النساء؛ لأنه سمع أنهن يبكين رجالهن، وينص المؤرخون أيضاً: على أن نفوس أهل الموصل قد ذلت بعد تلك المذبحة، ولم يسمع لهم بعدها صوت، ولا قامت لهم قائمة.

وعندما سألت السفاح زوجته أم لسمة بنت يعقوب بن سلمة: لأي شيء استعرض ابن أخيك أهل الموصل بالسيف؟ قال لها: وحياتك ما أدري^(٢).

٢- المنصور

وهو الذي أظهر نفسه في صورة مهدي للأمة كما يظهر من قول أبي دلامة مخاطباً أبا مسلم الذي قتله المنصور:

أبا مجرم ما غير الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبد

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٤٤٨، ذكر أحداث سنة ١٣٣ للهجرة. تاريخ البعقوبي: ج ٢، ص ٣٥٤، ذكر أيام أبي العباس السفاح. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٥٦. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤٠٢.

وفي كتاب طبيعة الدعوة العباسية: ص ٢٣٠ قال: إنه «لذلك نقل ولاءه للعلويين وثار ببخارى وانضم إليه أنصار العلويين في خراسان، وكذلك ولاية العباسيين على بخارى وبرزم وكانت حركته شعبية. وجابه أبو مسلم صعوبات كبيرة في القضاء عليها...». وفي رواية الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ١٦٦، إن الخارج هو شريك بن عون الهمداني، وقد خرج على أبي جعفر المنصور العباسي.

(٢) النزاع والتخاصم: ص ٧٢.

أفي دولة المهدي حاولت غدرة ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد^(١) وهو الذي قتل خلقاً كثيراً حتى استقام له الأمر.^(٢) فأمره في الظلم والجور وانتهاك الحرمات أشهر من أن يذكر، حتى لقد أنكر عليه ذلك رجل من أعظم الدعاة قدراً وأعظمهم غناء، وهو أبو الجهم بن عطية، مولى باهلة، وهو الذي أخرج أبا العباس السفاح من موضعه الذي أخفاه فيه أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال، وحرسه، وقام بأمره حتى بويع بالخلافة، فكان أبو العباس يعرف له ذلك، وكان أبو مسلم يثق به، ويكاتبه، فلما استخلف أبو جعفر المنصور وجر في أحكامه قال أبو الجهم. ما على هذا بايعناهم، إنما بايعناهم على العدل، فأسرّها أبو جعفر في نفسه، ودعا ذات يوم، فتغدى عنده، ثم سقاه شربة من سويق اللوز، فلما وقعت في جوفه هاج به وجع، فتوهم أنّه قد سم، فوثب، فقال له المنصور: إلى أين يا أبا الجهم؟ فقال: إلى حيث أرسلتني، ومات بعد يوم أو يومين فقال:

احذر سويق اللوز لا تشربته فإن سويق اللوز أردى أبا الجهم^(٣) وأنكر عليه ذلك أيضاً جماعة من قواده، فقاموا عليه، ودعوا الناس إلى موالاته أهل البيت عليهم السلام، فحاربهم عبد الرحمن الأزدي سنة ١٤٠ هـ، فقتل طائفة منهم، وحبس آخرين.^(٤)

وقال الطبري في حوادث سنة ١٤٠ هـ: وفيها ولي أبو جعفر عبد الجبار بن عبد الرحمن خراسان، فقدمها، فأخذ بها ناساً من القواد، وذكر أنّه اتهمهم بالدعاء إلى ولد علي بن أبي طالب عليه السلام منهم: مجاشع بن حريث الأنصاري، وأبو المغيرة

(١) عيون الأخبار: ج١، ص٢٦. الكنى والألقاب: ج١، ص١٥٨. ويحتمل أن يقصد بالمهدي هنا: السفاح.

(٢) تاريخ الخلفاء: ص٢٠٨. تاريخ الخميس: ج٢، ص٣٢٤. الأعلام: ج٤، ص١١٧، ترجمة المنصور العباسي.

(٣) النزاع والتخاصم: ص٧٦-٧٧.

(٤) البداية والنهاية: ج١٠، ص٧٥، ذكر أحداث سنة ١٤٠ للهجرة.

مولي لبني تميم، واسمه خالد بن كثير وهو صاحب قوهستان، والحريش بن محمد الذهلي ابن عم داود، فقتلهم، وحبس الجنيد بن خالد بن هريم التغلبي، ومعبد بن الخليل المزني، بعد ما ضربها ضرباً مبرحاً، وحبس عدة من وجوه قواد أهل خراسان.^(١)

ولعل من الأمور الجديرة بالملاحظة هنا: أن المنصور كان يعاشر الراوندية القائلين بألوهيته، ولا ينهاهم ولا يردعهم عن مقالتهم تلك، وعندما سأله أحد المسلمين عن ذلك قال له (على ما في تاريخ الطبري): يدخلهم الله النار في طاعتنا ويعتلمهم، أحب إليّ من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا.^(٢)

ولكنه عندما ثاروا عليه في الهاشمية وضع فيهم السيف وقتلهم، ولكن لا لأجل مقالتهم الشنيعة تلك، وإنما لأجل عدم طاعتهم له.

وعندما قال لعبد الرحمن الأفريقي رفيق صباه: كيف رأيت سلطاني من سلطان بني أمية؟ أجابه عبد الرحمن: ما رأيت في سلطانهم شيئاً من الجور إلا رأيت في سلطانك.^(٣)

وعندما قدم عليه عبد الرحمن هذا من أفريقيا ودخل عليه بعد أن بقي ببابه شهراً لا يستطيع الوصول إليه قال له عبد الرحمن: ظهر الجور ببلادنا، فجتت لأعلمك، فإذا الجور يخرج من دارك، ورأيت أعمالاً سيئة وظلماً فاشياً ظننته لبعده البلاد منك، فجعلت كلما دنوت منك كان الأمر أعظم. فغضب المنصور، وأمر بإخراجه.^(٤)

وقال لابن أبي ذؤيب: أي الرجال أنا؟ فأجابه: أنت والله عندي شر الرجال، استأثرت بهال الله ورسوله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين وأهلك

(١) تاريخ الطبري: ج٧، ص٥٠٣، ذكر أحداث سنة ١٤٠ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج٧، ص٥٠٧، ذكر أحداث سنة ١٤١ للهجرة.

(٣) تاريخ الخلفاء: ص٢١٥-٢١٦. ضحى الإسلام: ج٢، ص٣٩.

(٤) تاريخ بغداد: ج١٠، ص٢١٥. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ج٢، ص٤٧٩.

الضعيف، وأتعبت القوي، وأمسكت أموالهم.^(١)
 وحج أبو جعفر فدعا ابن أبي ذئب، فقال: نشدتك الله، ألسنت أعمل بالحق؟
 أليس تراني اعدل؟ فقال ابن أبي ذئب: أما إذا نشدتني بالله فأقول: اللهم لا، ما
 أراك تعدل، وإنك لجائر، إنك لتستعمل الظلمة، وتدع أهل الخير.^(٢)
 ولا بأس بمراجعة ما قاله له عمرو بن عبيد في موعظته الطويلة له، ومن جملتها:
 إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور، والله، ما يحكم وراء بابك بكتاب الله، ولا
 بسنة نبيه.. إلى آخره.^(٣)

ولقي أعرابياً بالشام فقال له المنصور: احمد الله يا أعرابي الذي دفع عنكم
 الطاعون بولايتنا أهل البيت، فأجابه الأعرابي: إن الله أعدل من أن يجمعكم علينا
 والطاعون، فسكت، ولم يزل يطلب له العلل حتى قتله.^(٤)
 وقد كتب له سديف الذي كان من المتحمسين للدولة العباسية:

أسرفت في قتل الرعية ظالماً فاكفف يديك اظلمها «مهديها»^(٥)
 ويريد بـ «مهديها» محمد بن عبد الله بن الحسن على ما يظهر.

ومن ظلم المنصور ما ورد في قضية الرجل الهمداني الذي أراد عامل المنصور
 أن يسلبه ضيعته، فأبى عليه ذلك، فكبّله بالحديد، وسيّره إلى المنصور، فأودعه

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ١٧٣ - ١٧٤.

(٢) صفة الصفوة: ج ٢، ص ١٧٥.

(٣) الأخبار الطوال: ص ٣٨٤. المحاسن والمساوي: ص ٣٨٣. عيون الأخبار: ج ٢، ص ٣٣٧.

(٤) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ١٢٣ ذكر أحداث سنة ١٥٨. تاريخ الخلفاء: ص ٢١٣، وفيه: إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل، ولا يتكم والطاعون. وفي طبيعة الدعوة العباسية: ص ٢٧٣، إن الذي قال للمنصور ذلك هو منصور بن جعونة الكلابي وإن قوله له هو: «إن الله أعدل من أن يسلب علينا الطاعون والعباسيين معاً». تاريخ دمشق: ج ١١، ص ٢٤٦، ترجمة جعونة بن الحارث.

(٥) العقد الفريد: ج ٥، ص ٨٨. ويقال: إن هذا هو سبب قتل سديف. تاريخ دمشق: ج ٢٠، ص ١٥١، ترجمة سديف بن ميمون المكي.

السجن أربعة أعوام لا يسأل عنه أحد، والقضية معروفة ومشهورة.^(١) وعندما بنى مدينة (المصيبة) قد أخذ أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فضلاً.^(٢) وعندما أراد أن يبني مدينة أخرى ثار الناس عليه ووقع القتال؛ لأنهم علموا أنه سوف لا يبقي عندهم فضلاً أيضاً. وأما ما فعله عبد الوهاب ابن أخي المنصور في أهل فلسطين فذلك يفوق كل وصف ويتجاوز كل بيان.^(٣)

بعض ما يقال عن المنصور

وأخيراً فقد قال عنه البيهقي: إنه كان يعلّق الناس من أرجلهم حتى يؤدوا ما عليهم.^(٤) هذا وقد وصف الياضي والذهبي المنصور بأنه كان فيه جبروت وظلم.^(٥) ووصفه السيد أمير علي بأنه كان غادراً خداعاً لا يتردد البتة في سفك الدماء - إلى أن قال: - وعلى الجملة كان أبو جعفر سادراً في بطشه مستهتراً في فتكه، وتعتبر معاملته لأولاد علي عليه السلام من أسوأ صفحات التاريخ العباسي.^(٦) ولا بأس بمراجعة ما قاله الريان مولى المنصور لجعفر بن أبي جعفر، حيث ينص على أنه قتل من أهل الدنيا ممن لا يعد ولا يحصى، وأنّ فرعون لا يقاس به.^(٧)

٣- المهدي

وهو الذي اتخذ الزندقة ذريعة للفتك بالأبرياء، وقد كفانا الجهشياري مؤونة

(١) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٣٨٧.

(٣) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٦.

(٤) المحاسن والمساوي: ص ٣٨٣ - ٣٨٤، باب محاسن المواعظ.

(٥) مرآة الجنان للياضي: ج ١، ص ٣٣٤. حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٧.

(٦) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٧.

(٧) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٧.

الحديث عنه حيث قال: إنه في زمن المهدي هذا، كان أهل الخراج يعدّون بصنوف من العذاب، من السباع، والزناير والسنانير.^(١) وقد خرج عليه يوسف البرم بخراسان منكرًا عليه أحواله وسيرته وما يتعاطاه.^(٢)

٤- الهادي

كان يتناول المسكر، ويجب اللهو والطرب، وكان ذا ظلم وجبروت.^(٣) وكان سيّء الأخلاق، قاسي القلب، جباراً، يتناول المسكر، ويلعب.^(٤) وقد قال عنه الجاحظ: كان الهادي شكس الأخلاق صعب المرام وسيّء الظن. قلّ من توقّاه وعرف أخلاقه إلا أغناه، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للمغني بالمال الخطير الجزيل.^(٥)

وقال الجهشياري: كان فظاً قاسياً غير مأمون على وفاء بوعد.^(٦) نعم، لقد كان يأمر للمغني بالمال الجزيل الخطير من بيت مال المسلمين كما يقول الجاحظ، وقد بلغ من إسرافه في إجازة الخلعاء والمغنين أن دفع إسحاق الموصلي لأن يقول: لو عاش لنا الهادي لبينا حيطان دورنا بالذهب والفضة.^(٧) وأخيراً، فقد قال عنه الذهبي: قد كان جباراً ظالم النفس.^(٨)

٥- هارون

وسيرته تكفي عن كل بيان، ويكفيه أنّه - كما ينص المؤرخون - يشبه المنصور في

(١) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٧.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ١٣١، ذكر أحداث سنة ١٦٠ للهجرة.

(٣) تاريخ الخميس: ج ٢، ص ٣٣١، ذكر خلافة موسى الهادي.

(٤) تاريخ الخلفاء: ص ٢٢٤.

(٥) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٨.

(٦) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٨.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٨.

كل شيء إلا في بذل المال^(١) حيث يقولون: إن المنصور كان بخيلاً. وقد تسلط بالمنصور بعد مدة من خلافته على الأمور، فأفسد الصنایع، وأحب جمع الأموال.^(٢)

وكان جباراً سفاكاً للدماء على نمط من ملوك الشرق المستبدین.^(٣) وقد عسف عامله أهل خراسان، وقتل ملوكها ووجوه أهلها وأشرفها وصناديدها، وأخذ أموالهم، فأرسلها إلى هارون، الأمر الذي كان سبباً في انتقاضها عليه.^(٤)

وكان يعذب الناس في الخراج، حيث أخذ العمال والدهاقين وأصحاب الصنایع والمبتاعين للغلات والمقبلين، وكان عليهم أموال مجتمعة، فولى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم بن سام، فطالبهم بصنوف من العذاب إلى أن دخل عليه ابن عياض، فرأى الناس يعذبون في الخراج فقال: ارفعوا عنهم، إني سمعت عن رسول الله ﷺ يقول: من عذب الناس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة، فأمر بأن يرفع العذاب عن الناس، فرفع.^(٥)

وكان قد ولى رجلاً يضرب الناس ويحبسهم ليؤدوا ما عليهم من الخراج.^(٦) وقال أبو يوسف في عرض وصيته لهارون بشأن عمال الخراج: «بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل، أو الوالي جماعة، منهم من له حرمة، ومنهم من له إليه وسيلة، ليسوا بأبرار ولا صالحين، يستعين بهم، ويوجههم في أعماله، يقتضي بذلك الذمامات، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه، ولا ينصفون من يعاملونه، إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو من أموال الرعية.

(١) ولكن لا في سبيل الله، وإنما على ملذاته وشهوته، وعلى المغنين والمتزلفين.

(٢) التنبيه والإشراف: ص ٢٩٩.

(٣) هذا قول الأمير شكيب أرسلان، في تعليقه على حاضر العالم الإسلامي.

(٤) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١١٩.

(٥) تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٤١٥، ذكر أيام هارون الرشيد.

(٦) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ١٨٤، ذكر أحداث سنة ١٨٤ للهجرة.

ثم إنهم يأخذون ذلك كله - فيما بلغني - بالعسف والظلم والتعدي.^(١)
وقال: وبلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس، ويضربونهم الضرب
الشديد، ويعلقون عليهم الجرار، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم
عند الله، شنيع في الإسلام.^(٢)

وبعد، فقد كان في قصره، أربعة آلاف امرأة من الجوارى والحظايا.^(٣)
وكان على حد تعبير بعضهم: حريصاً على اللذات المحرمة وسفك الدماء
وغضب حقوق الناس، وكان ظالماً لأهل البيت عليهم السلام وكانت جوائزه خاصة
لأهل اللهو واللعب والمغنين والراقصات.

وستأتي عبارة (فان فولتن) عنه.. وحسب هارون رسالة سفيان التي أرسلها
إليه من غير طي ولا ختم، والتي تلقي لنا ضوءاً على جانب من سيرته وسلوكه.
وقد تمادى هارون بقسوته وجبروته وتعاليه وبغضه للعلويين، خصوصاً الإمام
موسى بن جعفر عليه السلام ثم أنهى حياته باغتياله بالسم.

وقد ذكر المأمون موقفاً له مع والده هارون عن مدى تجبره واستبداده بالسلطة،
وسحق كل ما من شأنه أن يهدده في أطماعه بها في قصة مفصلة إجمالاً أنّ المأمون
ذكر يوماً دخول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على هارون في المدينة وتواضع
هارون له وتعظيمه إياه بما ألفت نظر المأمون. قال - أي المأمون -: فلما خلا المجلس
قلت: يا أمير المؤمنين، من هذا الرجل الذي عظمته وأجللته، وقمت من مجلسك

(١) الخراج: ص ١٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٥٩.

(٣) البداية والنهاية: ج ١، ص ٢٢٠. ذكر أحداث سنة ١٩٣ للهجرة. وفي الجزء نفسه من البداية
والنهاية، ص ٢٢٢، قال: «قال بعضهم: إنه كان في داره أربعة آلاف جارية سراري حسان»
وجاء في ضحى الإسلام: ج ١، ص ٩: أنه «كان للرشيد زهاء ألفي جارية من المغنيات، والخدمة
في الشراب في أحسن زي، من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر..» وإذن فكيف بالسراري
الذين هم أربعة آلاف وبقية الجوارى اللواتي يحتاج إليهن في كثير من الشؤون.. فالرقم الحقيقي
أكثر من أربعة آلاف بكثير، بل لعله يزيد عما كان عند المتوكل، الذي كان يتسرى باثني عشر ألف
سرية، كما نص عليه الخوارزمي فيما تقدم.

إليه، فاستقبلته وأقعدته في صدر المجلس، وجلست دونه، وأمرتنا بأخذ الركاب له؟ قال: هذا إمام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته في عبادته، فقلت: يا أمير المؤمنين أليست هذا الصفات كلها لك وفيك؟ فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق. والله يا بني إنَّه لأحق بمقام رسول الله مني ومن الخلق جميعاً، والله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك؟ فإن الملك عقيم.^(١)

قتل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

من الأسباب التي أدت إلى تجرؤ هارون على قتل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام هذه القصة، ورد في المناقب قائلًا: في كتاب أخبار الخلفاء: أن هارون كان يقول لموسى بن جعفر عليه السلام خذ فدكاً حتى أردتها إليك، فيأبى حتى ألح عليه، فقال عليه السلام: لا آخذها إلا بحدودها. قال وما حدودها: قال: إنَّ حدَّتها لم تردّها. قال: بحق جدك إلا فعلت. قال: أما الحدّ الأول فعدن، فتغير وجه الرشيد، وقال: إيهاً!. قال: والحدّ الثاني سمرقند، فأربد وجهه. قال: والحدّ الثالث افريقية، فاسودّ وجهه. وقال: هنيه.^(٢)

قال: والرابع سيف البحر ما يلي الخزر وأرمينية. قال الرشيد: فلم يبق لنا شيء، فتحول إلى مجلسي. قال موسى بن جعفر عليه السلام: قد أعلمتك أنّي إنَّ حدَّتها لم تردّها، فعند ذلك عزم على قتله.^(٣)

وفي رواية ابن أسباط أنه قال: أمّا الحدّ الأول فعريش مصر، والثاني: دومة

(١) بحار الأنوار: ج ٤٨، ص ١٣١، ح ٤. المناقب: ج ٤، ص ٣١٠، في علمه عليه السلام.
 (٢) كذا، والظاهر أنها: هيه، كما في المصدر، ولعل ما في (س) يقرأ كذلك، قال في النهاية في غريب الحديث: ج ٥، ص ٢٩٠: هيه بمعنى إيه، فأبدل من الهمزة هاء، وإيه: اسم سمي به الفعل ومعناه الأمر، فتقول للرجل: ايه - بغير تنوين - إذا استزدته من الحديث المعهود بينكما، فإن نونت استزدته من حديث ما غير معهود، فإذا سكنته وكففته قلت: أيها - بالنصب - فالمعنى زدني. أقول: وأما هنيه - بالهاء المهملة - فلم أجد لها معنى، وبالتالي - أي هنيهة - فلها معنى لا يناسب المقام.

(٣) المناقب: ج ٤، ص ٣٢٠، في باب معالي أموره عليه السلام. بحار الأنوار: ج ٤٨، ص ١٤٤، ح ٢٠.

الجنديل: والثالث: أحد، والرابع: سيف البحر، فقال هذا كله هذه الدنيا! فقال عليه السلام: هذا كان في أيدي اليهود بعد موت أبي هالة فأفاه الله ورسوله بلا خيل ولا ركاب، فأمره الله أن يدفعه إلى فاطمة عليها السلام.

ولا يخفى أن الرواية تضمنت الإشارة إلى معنيين: الأول: المعنى الحقيقي وهو البساتين التي وهبها المصطفى لفاطمة عليها السلام وهي بخيبر، والثاني: المعنى الكنائي وهي الخلافة لرسول الله ﷺ فإن فذك غصبت على هذا الأساس، ولذا قال الإمام عليه السلام: «إذا حددتها لم تردّها» لأن الملك عقيم في منطق العباسيين وسائر الملوك.

قال الفيروآبادي^(١) فذك (محرّكة) موضع بخيبر.^(٢)

وقال في مصباح اللغة: بلدة بينها بين مدينة النبي ﷺ يومان وبينهما وبين خيبر دون مرحلة، وهي مما أفاء الله على رسوله وتنازعها عليّ والعباس في خلافة عمر. فقال علي عليه السلام جعلها النبي ﷺ لفاطمة وولدها، وأنكره العباس فسلمها عمر لهما.^(٣)

وهذه القصة وما قبلها تكفي لإثبات مدى دموية هارون ومجافاته للحق، وهذا نهج عام في سياسة هذه الدولة.

إذ تؤكد الوثائق التاريخية أن بعض العباسيين قتل أخاه في سبيل السلطة، وبعض عمّه وبعض أباه، ونقض كثير منهم العهود ونكث الأيمان، وبعض قرّب من أجلها الفاسق، وأبعد الناسك، وأغدق عطاء لمن انتقد في مجلسه زعماء العلويين، ونال منهم، ولفق له الأدلة على أن العباس أحق بالخلافة من ابن أخيه علي عليه السلام وأنها وراثية، والعباس أولى بالارث وأحق به. كان منها ما حكاه الذهبي أن وفداً جاء إلى أبي العباس السفّاح ضمّ أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة فحلفوا له أنّهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية

(١) في القاموس: ص ١٢٢٦.

(٢) المناقب: ج ٤، ص ٣٢١، في باب معالي أموره ﷺ.

(٣) المصباح المنير: ج ٢، ص ٤٦٥، مادة فذك.

حتى ولي السفاح الخلافة.^(١)

ومنها أيضاً ما ذكره أبو بكر الصولي قال: عاتب أبان البرامكة في إعطاء الرشيد الأموال للشعراء وفقره مع خدمته لهم وموضعه منهم، فقال له الفضل: إن سلكت مذهب مروان بن أبي حفصة - وكان من مذهبه هجاء آل أبي طالب وذمهم - أوصلت شعرك، وبلغت إرادتك. قال أبان: والله ما استحل ذلك، فقال له الفضل: كلنا يفعل ما لا يجل له، ولك بنا وبسائر الناس أسوة، فقال أبان:

نشدت بحق الله من كان مسلماً أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعم نبي الله أقرب زلفة إليه أم ابن العم في رتبة النسب؟
وأيهما أولى به وبعهده ومن ذا له حق التراث بما وجب؟
فإن كان عباس أحق بتلكم وكان علي بعد ذلك على سبب؟
فأبناء عباس هم يرثونه كما العم لابن العم في الإرث قد حجب^(٢)

إلى آخر الأبيات، ثم جاء بها إلى الفضل وقال له قد اقترحت فوفر عليّ الجاري، فقال الفضل: ما بقيت وما يرد على أمير المؤمنين اليوم شيء أعجب إليه من أبياتك. فركب أبان، وأنشدها هارون، فأمر له بعشرين ألف درهم، واتصل به بعدها، والوقائع في ذلك كثيرة وسنكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها.

عن الأوضاع السياسية في عهد هارون وردت رسالة ومرسلها هو إمام مكة سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ عن إحدى وتسعين سنة، ولعل الراوي قد اشتبه على الأمر عفواً أو عمداً لحاجة في نفسه قضاها.

وأياً ما كانت الحقيقة فإن هذه الرسالة تعتبر وثيقة تاريخية هامة؛ لأنها تصور لنا حقيقة الوضع في تلك الفترة من الزمن، وشأنها شأن رسالة الخوارزمي، ورسالة عبد الله بن موسى إلى المأمون تعطينا صورة واضحة عما كان يمارسه خلفاء ذلك الوقت من مآثم، وما يرتكبونه من موبقات.

(١) سير أعلام النبلاء: ج ٦، ص ٧٩، ترجمة السفاح.

(٢) الأغاني: ج ٢٧، ص ٩٣١٧، أخبار أبان اللاحقي ونسبه.

نص الرسالة:

وملخص حكاية هذه الرسالة هو: إن هارون العباسي أرسل إلى سفيان الثوري - وقد قلنا إن الظاهر أنه ابن عيينة - كتاباً يتودد إليه فيه، ويطلب منه أن يقدم عليه، فلما وصل الكتاب إلى سفيان رماه من يده، وقال لإخوانه: ليقرأه بعضكم، فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً مسه الظالم، فلما قرؤوه أمرهم أن يكتبوا إلى الظالم في الجواب ما يلي:

من العبد الميت سفيان إلى العبد المغرور بالآمال هارون الذي سلب حلاوة الإيمان، ولذة قراءة القرآن.

أما بعد، فإني كتبت إليك أعلمك أنني قد صرمت حبلك، وقطعت ودك، وقليت موضعك، وأنتك جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه، وأنفذته بغير حكمه، ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني، حتى كتبت إلي تشهدني عن نفسك، فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وأخواني الذين حضروا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل.

يا هارون، هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم. هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله، والمجاهدون في سبيل الله، وابن السبيل، أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل؟ أم رضي بذلك خلق من رعيتك؟

فشد يا هارون مئزرك، وأعدّ للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً، واعلم أنك ستقف بين يدي الله الحكم العدل، فاتق الله في نفسك، إذا سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذة قراءة القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً، وللظالمين إماماً.

يا هارون، قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستوراً دون بابك، وتشبهت بالحجة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويحدون الشارب، ويزنون ويحدون

الزاني، ويسرقون ويقطعون السارق، ويقتلون ويقتلون القاتل.
 أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس؟ فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله احشروا الظلمة وأعوانهم من الظلمة، فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك، وأنت لهم إمام، أو سائق إلى النار.
 وكأني بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك، بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً ﷺ في أمته.
 واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته.
 وإياك ثم إياك أن تكتب إلي بعد هذا، فإني لا أجيبك والسلام.^(١)
 ثم بعث بالكتاب منشوراً من غير طي ولا ختم.

٦- الأمين

وهو الذي رفض النساء، واشتغل بالخصيان، ووجه إلى البلدان في طلب الملهين، واستخف حتى بوزرائه وأهل بيته.^(٢)
 فقد كان قبيح السيرة، ضعيف الرأي، سفاكاً للدماء، يركب هواه، ويهمل أمره، ويتكل في جليلات الأمور على غيره^(٣)... إلى آخره.
 ويضيف هنا القلقشندي قوله: منهمكاً في اللذات واللهاو.^(٤)
 ويكفيه أن كلاً من العبري وابن الأثير الجزري يقول عنه: إنه لم يجد للأمين

(١) حياة الحيوان: ج ٢، ص ١٨٨. حياة الإمام موسى الكاظم عليه السلام: ج ٢، ص ٥٥، القرشي.

(٢) مآثر الأنافة: ج ١، ص ٢٠٥. وتاريخ الخلفاء: ص ٢٣٨. الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ٢٩٣، ذكر أحداث سنة ١٩٨ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٥٠٨، ذكر أحداث سنة ١٩٨ للهجرة.

(٣) التنبيه والإشراف: ص ٣٠٢. مآثر الأنافة: ج ١، ص ٢٠٤.

(٤) مآثر الأنافة: ص ٢٠٤، تاريخ الخلفاء: ص ٢٣٩. حياة الحيوان: ج ١، ص ٧٢.

شيئاً من سيرته يستحسنه فنذكره.^(١)
ولقد كانت أيامه على الناس أيام حروب وويلات وسلب ونهب وما إلى ذلك
مما لا تقرّه شريعة، ولا يرضى به خلق كريم.

٧- المأمون

فإنّه لم يكن في كل ما ذكرناه أفضل من أسلافه، ولا كانت أيامه بدعاً من تلك
الايام؛ إذ إن حال الرعية في أيامه كان قد تناهى في السوء، وبلغ الغاية في التدهور.
وقد عرف عهده بالتعسف والاضطهاد السلطوي والأساليب القاسية البعيدة عن
الرحمة حتى مع أقرب الناس إليه، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يعدون عصر
المأمون بداية النهاية للدولة العباسية وسقوطها.

إذ إن المأمون قتل أخاه الأمين في صراع على السلطة بصورة بشعة وعده انتصاراً
عسكرياً له! إلا أنّه كان في الحقيقة ذا نتائج سلبية وعكسية ليس بالنسبة للمأمون
وأهدافه ومخططاته فقط، بل للدولة العباسية أجمع، سيما بملاحظة الأساليب
التي اتبعها المأمون للتشفي من أخيه الأمين الذي كان قد أصدر الأمر لطاهر بن
الحسين بأن يقتله^(٢)، حيث رأيناه قد أعطى الذي جاءه برأس أخيه بعد أن سجد
لله شكراً^(٣) ألف ألف - أي مليون درهم - ثم أمر بنصب رأس أخيه على خشبة
في صحن الدار، وأمر كل من قبض رزقه أن يلعنه، فكان الرجل يقبض ويلعن
الرأس، ولم ينزله حتى جاء رجل لعن الرأس ولعن والديه وما ولدا، وأدخلهم في
- كذا وكذا من أمهاتهم. وذلك بحيث يسمعه المأمون، فتبسم، وتغافل وأمر بحط
الرأس.^(٤)

(١) الفخري: ص ٢١٢.

(٢) لقد نص الأستاذ علي غفوري في كتابه الفارسي «ياد بود هشتمين إمام» ص ٢٩ على أن المأمون
«لم يرض بقتل الأمين فحسب، بل أنه هو الذي أمر بقتله..».

(٣) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٤٨٨، ذكر أحداث سنة ١٩٨ للهجرة. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٢٤٣،
ذكر أحداث سنة ١٩٨ للهجرة. حياة الحيوان: ح ١، ص ٧١.

(٤) مروج الذهب: ج ٣، ص ٤٢٣.

ولم يكتف بكل ذلك. بل إنه بعد أن طيف برأس الأمين بخراسان^(١) أرسل إلى إبراهيم بن المهدي يعنفه ويلومه على أنه أسف على قتل الأمين، ورثاه.^(٢) فماذا تنتظر بعد هذا كله وبعدهما قدمناه أن يكون موقف العباسيين والعرب، بل وسائر الناس منه.

إن أيسر ما نستطيع أن نقوله هنا: أنه كان لقتله أخاه وفعاله الشائنة تلك أثر سيء على سمعته، ومن أسباب زعزعة ثقة الناس به، وتأكيد نفورهم منه، سواء في ذلك العرب أو غيرهم، وقد استمر ذلك الأثر أعواماً كثيرة حتى بعد أن هدأت نائرة الناس، ورجع إلى بغداد.

فقد جلس مرة يستاك على دجلة من وراء ستر، فمر ملاح، وهو يقول: أتظنون أن هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه؟ قال: فسمعه المأمون، فما زاد على أن تبسم، وقال لجلسائه: ما الحيلة عندكم حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل.^(٣) وقال له الفضل بن سهل عندما عزم على الذهاب إلى بغداد: ما هذا بصواب، قتلت بالأمس أخاك، وأزلت الخلافة عنه، وبنو أبيك معادون لك وأهل بيتك والعرب.. إلى أن قال: والرأي أن تقيم بخراسان حتى تسكن قلوب الناس على هذا، ويتناسوا ما كان من أمر محمد أخيك.^(٤)

المأمون في الحكم

وإذا ما أردنا أن نعطف نظرنا على ناحية أخرى في سياسة النظام المأموني فإننا سوف نرى أنه لم يكن موفقاً في سياسته مع الناس، سواء في ذلك العرب

(١) تاريخ الخلفاء: ص ٢٣٩.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٢٤٣، ذكر أحداث سنة ١٩٨ للهجرة. تاريخ الخلفاء: ص ٢٤١.

(٣) تاريخ بغداد: ج ١٠، ص ١٨٩، باب ترجمة المأمون العباسي. البداية والنهاية: ج ١، ص ٢٧٧، باب ذكر أحداث سنة ٢٢٧ للهجرة. تاريخ الخلفاء: ص ٢٥٧.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٩، باب ١٤ في سائر ما جرى بينه وبين المأمون. ومسند الإمام الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٩٠. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ١٧٠. الكنى والألقاب: ج ٢، ص ١٤٩، الجلودي.

أو الإيرانيون بالأخص أهل خراسان، حيث لم يحاول أن يتجنب سياسة الظلم والعسف والاضطهاد التي كان يمارسها أسلافه مع الرعية بل لعله زاد عليهم، وسبقهم أشواطاً بعيدة في ذلك.

أما سياسته مع العرب والإيرانيين

فالمأمون فشل في مهمة الفوز بثقة العرب، خصوصاً إذا لاحظنا ما نالهم منه ومن عماله من صنوف العسف والظلم - عدا ما فعلته فيهم تلك الحروب الطاحنة التي شنّها ضد أخيه الأمين - فإن ذلك يفوق كل وصف، ويتجاوز كل تقدير. حتى لقد وصف: «ديونيسيوس» جباة الخراج في العراق في سنة (٢٠٠ هـ) بأنهم: قوم من العراق والبصرة والعاقولاة وهم عتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان شر من الأفاعي يضربون الناس ويجسسونهم، ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يكاد يموت.^(١)

والإيرانيون أيضاً لم يكونوا أحسن حالاً، ولم يكن حال الإيرانيين من هذه الجهة بأفضل من حال أهل العراق.

يذكر الجاحظ: أن المأمون ولى محمود بن عبد الكريم التضيف، فتحامل على الناس، واستعمل فيهم الأحقاد والدمن، فحفض الأرزاق، وأسقط الخواص، وبعث في الكور، وأنحى على أهل الشرف والبيوتات؛ حسداً لهم، وإشفاءً لغيليل صاحبه منهم، فقصد لهم بالمكروه والتعنت، فامتنت طائفة من الناس من التقدم إلى العطاء، وتركوا أساءهم، وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان، فسقط بذلك السبب بشر كثير.^(٢)

يقول الجنرال جلوب وهو يتحدث عن المأمون: وراح يلقي خطبته الأولى في الناس، فيعدهم بأن يكون حكمه فيهم طبقاً للشرع، وأن يكرس نفسه لخدمة الله وحده، وقد أثارت هذه الوعود التقية حماسة عند الناس وكانت من أهم أسباب

(١) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١٧٩، للعالمي.

(٢) رسائل الجاحظ: ج ٢، ص ٢٠٧-٢٠٨.

انتصاره، لكن هذه الوعود ما لبثت أن تحولت إلى فجيرة نزلت بالناس؛ إذ أن الخليفة ما لبث أن نسيها..^(١)

ويكفي أن نشير هنا إلى المجاعة التي أصابت أهل خراسان والري وإصبهان، وعزّ الطعام ووقع الموت وذلك في سنة ٢٠١ للهجرة.

المأمون مع الرعية عموماً

وعن حالة المأمون العامة مع الناس يقول فان فلوتن:

ولم يكن جور النظام العباسي وعسفه منذ قيام الدولة العباسية بأقل من النظام الأموي المختل، وتذكرنا شراة المنصور والرشد والمأمون وجشعهم وجور أولاد علي بن عيسى وعبثهم بأموال المسلمين بزمن الحجاج وهشام ويوسف بن عمر الثقفي. ولدينا البراهين الكثيرة على فجيرة الناس في هذا العرش الجديد ومقدار انخداعهم به. ثم يضرب أمثلة من الخارجين على سياسات العباسيين تلك، ثم يقول: كل ذلك يبين أن ما كان يشكو منه المسلمون من الجور والعسف لم يزل على ما كان عليه في عهد بني أمية الأول.^(٢)

قال ابن الجراح: إن إبراهيم بن المهدي كان يرمي المأمون بأمه^(٣) وإخوته وأخواته ومن أيسر ذلك قوله:

صدّ عن توبة وعن إخبات ولهاً بالمجون والقيينات
ما يبالي إذا خلا بأبي عيسى وسرب من بدّن أخوات
أن يغص المظلوم في حومة الجور بداء بين الحشا واللهاة^(٤)
وما يهمننا هنا هو البيت الأخير، أما ما قبله فلا نملك إلا أن نقول: أهل البيت أدري بالذي فيه.

(١) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١٧٩.

(٢) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١٨٠.

(٣) ولكن أمه كانت قد ماتت أيام نفاسها به!! ولعله يريد أن أمه كانت متهمه، فكان يعير بها.

(٤) حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١٨٠.

وعلى كل حال فإننا لا نستغرب على المأمون صفة الظلم والعسف والجور بعد أن رأينا أنه عندما عرضت عليه سيرة أبي بكر وعمر وعثمان علي عليهم السلام يأبى أن يأخذ بها جميعاً؛ لأنه كان يجد في آخر كل منها: أنهم كانوا يأخذون الأموال من وجوهها، ويضعونها في حقوقها. لكنه قبل سيرة معاوية الذي أراد الإعلان ببراءة الذمة ممن يذكره بخير؛ لأن في آخرها يقول: إنه كان يأخذ الأموال من وجوهها، ويضعها كيف شاء، وقال المأمون حينئذ: إن كان فهذا. ^(١) وفي رسالة عبد الله بن موسى للمأمون نفسه ما فيه الكفاية.

وهكذا فإن المأمون كان يحسب أنه إذا قتل أخاه وتخلص من أشياعه ومساعديه، وبعد أن توتى الحملة الدعائية ضدهم ثمارها - كان يحسب ويقدر - أن الطريق يكون قد مهد له للاستقرار في الحكم، وأنه سوف يستطيع بعد هذا أن يطمئن، وينام قرير العين، ولكن فاله قد خاب، وانقلبت مجريات الأمور في غير صالحه، فإن الإيرانيين الذين كانوا دعامة السلطة العباسية وحزبها القوي قد انفضوا بعد الحرب الأهلية المفجعة بين الأمين والمأمون عن تأييد العباسيين. ^(٢) انفضوا عنه لينحوا العلويين عطفهم ومحبتهم وتأييدهم؛ لأنهم يعرفون أنهم هم الذين يقيمون العدل، ويعملون بشريعة الله، وما موقف نيسابور وصلاتا العيد إلا الدليل الواضح والقاطع على تلك العاطفة، وذلك الحب والتقدير، وأيضاً انفضوا عنه لأنه قد كشف لهم عن وجهه الحقيقي، وعرفهم بواقعه الأثافي البشع، وخصوصاً بعد أن عانوا ما عانواهم وغيرهم من صنوف الظلم والجور والاضطهاد في ظل نظام الحكم الذي طالما عملوا من أجله، وضحوا في سبيله.

وحتى لو أنهم كانوا لا يزالون على تأييدهم له فإنه لا يستطيع بعد هذا أن يعتمد على ذلك التأييد، وعلى ثقتهم به طويلاً، فإنه كان من السهل بعد أن فعل بأخيه وأشياعه وغيرهم ما فعل أن يكتشفوا أن ذلك منه ما كان إلا سياسة ودهاء.

(١) انظر: المحاسن والمساوي: ص ٤٨٩.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٥٢٨، ذكر أحداث سنة ١٩٩ وما بعدها من الأحداث. تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٤٤٤ - ٤٧٠، ذكر أيام المأمون العباسي.

كما أنه أصبح من الصعب عليهم بعد تجربتهم الأولى معه ومع وعوده التي ما أسرع ما نسيها أن يقتنعوا منه بالأقوال التي لا تدعمها الأفعال، ولسوف لا يطمئنون إليه، ولن ينقادوا له بعد هذا بالسهولة التي كان يتوقعها.

وصية إبراهيم الإمام

وبعد كل الذي قدمناه لم يعد يخفى على أحد كم سفك العباسيون من الدماء البريئة لا سيادما بني عمهم العلويين، نزيد هنا أن إبراهيم الإمام أرسل إلى أبي مسلم يأمره بقتل كل من شك فيه، أو وقع في نفسه شيء منه، وإن استطاع أن لا يدع بخراسان من يتكلم بالعربية فليفعل، وأي غلام بلغ خمسة أشبار يتهمه ليقتله، وأن لا يخلي من مضر دياراً.^(١)

ولعل سر أمره له بقتل كل عربي يرجع إلى أنه كان يعلم أن ذلك يرضي الخراسانيين الذين كانوا مضطهدين على أيدي العرب، كما أنه كان يعلم أن بعض العرب لن يستجيبوا له استجابة واسعة ضد الأمويين؛ لأن الدولة الأموية كان ترضي غرور العربي، وتؤكد اعتزازه بجنسه ومحتده. يضاف إلى ذلك ما كان يعانیه العرب من الانقسامات الداخلية التي كانت تمزق صفوفهم وتوهن قوتهم. وأما المضرية فقد كانوا جماعة نصر بن سيار الموالي للأمويين؛ واليهانية كانوا جماعة ابن الكرمانى المناهض لنصر.^(٢)

أبو مسلم ينفذ الوصية

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ وصية إبراهيم الإمام كل الحرص حتى لقد قتل كما يقول الذهبي واليا فعي خلقاً لا يحصون محاربة وصبراً، وكان حجاج زمانه.^(٣)

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢٦٧-٢٦٨. الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ١٥٦، خروج أبي مسلم الخراساني. النزاع والتخاصم: ص ١٣٥.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ١٥٩.

(٣) مرآة الجنان: ج ١، ص ٢٨٥. حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ١٢٣، للعاملي.

ويقول المؤرخون: إنَّ من قتلهم أبو مسلم صبراً قد بلغ ستمائة ألف نفس من المسلمين من المعروفين، سوى من لم يعرف ومن قتل في الحروب وتحت سنابك الخيل.^(١)

وقد اعترف المنصور نفسه بذلك عندما عاتب أبا مسلم ثم قتله، فكان من جملة ما عاتبه به قوله: فأخبرني عن ستمائة ألف من المسلمين قتلهم صبراً؟ ولم ينكر أبو مسلم ذلك، وإنما أجابه بقوله: لتستقيم دولتكم.^(٢) واعترف جعفر البرمكي بذلك أيضاً.^(٣)

وأبو مسلم نفسه نراه قد اعترف بمائة ألف منها أيضاً في مناسبة أخرى.^(٤) وأما من قتلهم في حروبه مع بني أمية وقواده، فقد أحصوا فوجدوا ألف ألف وستمائة ألف.

وكل ذلك غير بعيد إذا ما عرفنا أن ثورة أبي السرايا قد كلفت جيش المأمون فقط (٢٠٠) ألف جندي، وكذلك إذا لاحظنا ما يذكره المؤرخون عن عدد القتلى في الوقائع المختلفة التي خاضها أبو مسلم.

وبعد هذا فإننا نرى أبا مسلم نفسه يقول في رسالة منه للمنصور: فوترت أهل الدنيا في طاعتكم، وتوطئة سلطانكم.^(٥) وفي رسالة أخرى منه له أيضاً يقول: إنَّ أخاك أمرني أن أجرد السيف، وآخذ

(١) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٧٢، ذكر أحداث سنة ١٣٧ للهجرة. طبيعة الدعوة العباسية: ص ٢٤٥. تاريخ يعقوبي: ج ٢، ص ٣٦٧، ذكر أيام أبي جعفر المنصور. مآثر الأنافة: ج ١، ص ٢١١-٢١٢، باب ٥٧. النزاع والتخاصم: ص ٨٠.

(٢) طبيعة الدولة العباسية: ص ٢٤٥. الكنى والألقاب: ج ١، ص ١٥٧، ترجمة أبي مسلم الخراساني.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢، ص ٤٣٥.

(٤) تاريخ يعقوبي: ج ٣، ص ١٠٢، وتاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ٢٣١، باب مقتل أبي مسلم الخراساني.

(٥) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٦٩، ذكر أحداث سنة ١٣٧ للهجرة. الفتوح: ج ٨، ص ٢٢٣، ذكر كتاب أبي مسلم إلى المنصور.

بالظنة، وأقتل على التهمة، ولا أقبل المذرة، فهتكت بأمره حرمت حتم الله صونها، وسفكت دماء فرض الله حقنها، وزويت الأمر عن أهله، ووضعت في غير محله.^(١)

يقصد بـ«أهله» أهل البيت عليهم السلام وقد أوضح ذلك في رسالته الأخرى للمنصور التي يقول فيها: إن أخاه قد استخف بالقرآن وحرفه، وإنه أوطأه في غيرهم من أهل بيتهم العشوة بالإفك والعدوان، وإنه ظن له بصورة مهدي، أي إن أخا المنصور قد حرف الآيات الواردة في أهل البيت عليهم السلام لتنطبق على العباسيين، وإنه بذلك تمكن من إغراء أبي مسلم بالعلويين، ففعل بهم ما فعل بالإفك والعدوان، ويصرح بذلك في رسالة أخرى للمنصور.

فيقول: وأوطأت غيركم من كان فوقكم من آل رسول الله بالذل والهوان، والإثم والعدوان يشير بذلك إلى العلويين.^(٢)

وقال المقرئ: وقتل - يعني أبو مسلم - زياد بن صالح من أجل أنه بلغه عنه أنه يقول: إنما بايعنا على إقامة العدل وإحياء السنن، وهذا جائر ظالم يسير بسيرة الجبابرة وإنه مخالف.

وكان لزياد بلاء في إقامة الدولة فلم يرع له، فغضب عيسى بن ماهان مولى خزاعة لقتل زياد، ودعا لحرب أبي مسلم سراً، فاحتال عليه بأن دس إليه بعض ثقاته... إلى آخره. ثم ذكر كيفية احتيال أبي مسلم وقتله إياه.^(٣)

وقد قال أبو مسلم ليونس بن عاصم عندما قال له: هذا جزائي؟! ومن جازيناه

(١) تاريخ بغداد: ج ١٠، ص ٢٠٨، ذكر ترجمة عبد الرحمن بن مسلم الخراساني. والبداية والنهاية: ج ١٠، ص ٦٤، ٦٩، ذكر أحداث سنة ١٧٣ للهجرة. النزاع والتخاصم: ص ٧٧. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ج ٢، ص ٥٣٣.

(٢) طبيعة الدعوة العباسية: ص ٣٣. الفتوح: ج ٨، ص ٢٢٣، ذكر كتاب أبي مسلم إلى المنصور. ولا بأس بمراجعة الرسائل المختلفة المعبرة عن ذلك فيما تقدم من المراجع. وانظر: الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ج ٢، ص ٥٣٣. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٦٩، ذكر أحداث سنة ١٣٧ للهجرة.

(٣) النزاع والتخاصم: ص ٦٨.

بجزائه، وضعت سيفي فلم يبق بر ولا فاجر إلا قتلته.^(١)
وقال أبو مسلم أيضاً: إني أطفيت من بني أمية جهرة، وأهبت من بني العباس
نيراناً، فإن أفرح بالإطفاء فواحزناً من الإلهاب.^(٢)
وقال أبو مسلم أيضاً: إني نسجت ثوباً من الظلم لا يبلى ما دامت الدولة لبني
العباس.^(٣)

كل ذلك يدل دلالة قاطعة على مدى الظلم الذي كان يمارسه العباسيون مع
الناس بصورة عامة، ومع العلويين بشكل خاص، والمتتبع للأحداث التاريخية
يرى أن الأمة كانت تعيش في رعب دائم ومستمر، خصوصاً وأن كل واحد كان
يرى ويعلم كيف أن الآلاف من الناس كانوا يذبحون لأتفه الأسباب وأحقرها.
كانت تلك لمحة خاطفة عن حالة العباسيين مع الناس عامة ومع العلويين
خاصة، وأما حياتهم الخاصة، وما كان يمتزج بها من رذائل وقبائح يندى لها جبين
الإنسان الحر ألماً وخجلاً، ويقطر قلبه لها دمماً، فتلك حدث عنها ولا حرج، وقد
جاء في رسالة الخوارزمي وغيرها بعض ما يشير إلى ذلك.
وحيث أن الاستقصاء في هذا الموضوع مما تنوء به العصبه أولوا القوة؛ لذا
نكتفي بالقليل.

ولعل الكلمة التي تجمع صفات بني العباس الخلقية هي الكلمة التي كتبها
المأمون وهو في مرو في رسالة منه للعباسيين بني أبيه في بغداد.

البيت العباسي

والمأمون: هو من أهل هذا البيت الذين هم أدري من كل أحد بما فيه؛ لأنهم
عاشوا في خضم الأحداث، وشاهدوا كل شيء، وكل القضايا عن كثب. يقول
المأمون في تلك الرسالة: وليس منكم إلا لاعب بنفسه، مأفون في عقله وتدييره،

(١) المصدر نفسه: ص ٦٩.

(٢) المحاسن والمساوي: ص ٣٣٨.

(٣) المحاسن والمساوي: ص ٣٣٨. الكنى والألقاب: ج ١، ص ١٥٨، ترجمة أبي مسلم الخراساني.

إما مغن، أو ضارب دف، أو زامر، والله، لو أنّ بني أمية الذين قتلتموهم بالأمس
نشروا، فقيل لهم: لا تأنفوا من عائب تنالوهم بها لما زادوا على ما صيرتموه لكم
شعاراً وداراً، وصناعة وأخلاقاً.

ليس منكم إلا من إذا مسّه الشر جزع، وإذا مسّه الخير منع. ولا تأنفون، ولا
ترجعون إلا خشية، وكيف يأنف من بيت مركوباً، ويصبح بإثمه معجباً، كأنّه قد
اكتسب حمداً، غايته بطنه وفرجه، لا يبالي أن ينال شهوته بقتل ألف نبي مرسل،
أو ملك مقرب. أحب الناس إليه من زين له معصية، أو أعانه في فاحشة، تنظفه
المخمورة.... إلى آخره.

فهذه القطعة تبين لنا بجلاء كما يتبين من كثير أمثالها كيف كان خلفاء العباسيين
منغمرين في الملذات والشهوات، وتبين لنا نظرتهم للحياة وأهدافهم منها، ولولا أن
المقام يطول لأوردنا سيلاً من الشواهد والدلائل على مدى استهتارهم وانتهاكهم
للحرمات وارتكابهم للموبقات؛ ليعلم أن أقوال المأمون هذه، وكذلك أقوال
الخوارزمي، وغيرهما مما تقدم غير مبالغ فيها، وأنّ الحقيقة هي أعظم من ذلك
بكثير، وأنّ ذلك ليس إلا غيضاً من فيض، وكتب التاريخ والأدب خير شاهد
على ذلك وإن حاولت بعض الأيدي الأثيمة تشويه الحقيقة والتستر على واقعهم
ذاك المزري المهين.

مواقف العباسيين على لسان المأمون

كتب العباسيون كتاباً إلى المأمون، وطلبوا منه الإجابة عليه، فأجابهم بما يلي:
بسم الله الرحمن الرحيم: والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل
محمد على رغم أنف الراغمين.

أما بعد، عرف المأمون كتابكم وتدبير أمركم ونخص زبدتكم، وأشرف على
قلوب صغيركم وكبيركم، وعرفك مقبلين ومدبرين وما آل إليه كتابكم قبل
كتابكم في مراوضة الباطل، وصرف وجوه الحق عن مواضعها، وبذكم كتاب الله
والآثار وكلما جاءكم به الصادق محمد ﷺ، حتى كأنكم من الأمم السالفة التي

هلكت بالخشفة والغرق والريح والصيحة والصواعق والرجم.
أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ والذي هو أقرب إلى المأمون من
حبل الوريد، لولا أن يقول قائل: إن المأمون ترك الجواب عجزاً لما أجبتمكم من
سوء أخلاقكم وقلة أخطاركم وركاكة عقولكم ومن سخافة ما تأوون إليه من
أرائكم، فليستمع مستمع، فليبلغ شاهد غائباً.

أما بعد، فإن الله تعالى بعث محمداً على فترة من الرسل وقريش في أنفسها
وأموالها، لا يرون أحداً يساميهم، ولا يباريهم، فكان نبينا ﷺ أميناً من أوسطهم
بيتاً، وأقلهم مالاً، فكان أول من آمن به خديجة بنت خويلد، فواسته بما لها، ثم آمن
به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ سبع سنين لم يشرك بالله شيئاً طرفه عين،
ولم يعبد وثناً، ولم يأكل رباً، ولم يشاكل الجاهلية في جهالاتهم، وكانت عمومة
رسول الله إما مسلم مهين أو كافر معاند إلا حمزة، فإنه لم يمتنع من الإسلام، ولا
يتمتع الإسلام منه، فمضى لسبيله على بينة من ربه.

وأما أبو طالب فإنه كفله ورباه، ولم يزل مدافعاً عنه، ومانعاً منه، فلما قبض الله
أبا طالب فهم القوم، وأجمعوا عليه ليقتلوه، فهاجر إلى القوم الذين تبوءوا الدار
والإيمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما
أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك
هم المفلحون.

فلم يقيم مع رسول الله ﷺ أحد من المهاجرين كقيام علي بن أبي طالب ﷺ،
فإنه أزره ووقاه بنفسه، ونام في مضجعه. ثم لم يزل بعد مستمسكاً بأطراف الثغور،
وينازل الأبطال، ولا ينكل عن قرن، ولا يولي عن جيش، منيع القلب، يؤمر على
الجميع، ولا يؤمر عليه أحد، أشد الناس وطأة على المشركين، وأعظمهم جهاداً في
الله، وأفقههم في دين الله، وأقرأهم لكتاب الله، وأعرفهم بالحلال والحرام.

وهو صاحب الولاية في حديث غدیر خم وصاحب قوله: أنت مني بمنزلة
هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي، وصاحب يوم الطائف، وكان أحب
الخلق إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﷺ، وصاحب الباب، فتح له، وسد أبواب

المسجد، وهو صاحب الراية يوم خيبر، وصاحب عمرو بن عبد ود في المبارزة، وأخو رسول الله ﷺ حين آخى بين المسلمين.

وهو منيع جزيل، وهو صاحب آية: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ وَسَكِينًا وَيَنِيْمًا وَأَسِيرًا﴾^(١). وهو زوج فاطمة ؓ سيدة نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنة، وهو ختن خديجة ؓ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ، رباه وكفله، وهو ابن أبي طالب في نصرته وجهاده، وهو نفس رسول الله ﷺ في يوم المباهلة، وهو الذي لم يكن أبو بكر وعمر ينفذان حكماً حتى يسألانه عنه، فما رأى إنفاذه أنفذه، وما لم يراه رداه، وهو دخل من بني هاشم في الشورى، ولعمري لو قدر أصحابه على دفعه^(٢) عنه كما دفع العباس (رضوان الله عليه) وودوا إلى ذلك سبيلاً لدفعوه.

فأما تقديمكم العباس عليه فإن الله تعالى يقول: ﴿أَجْعَلُمُ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣). والله، لو كان ما في أمير المؤمنين من الناقب والفضائل والآية المفسرة في القرآن خلة واحدة في رجل من رجالكم أو غيره لكان مستأهلاً متأهلاً للخلافة، مقدماً على أصحاب رسول الله بتلك الخلة.

ثم لم تزل الأمور تتراقى به إلى أن ولي أمور المسلمين، فلم يعن بأحد من بني هاشم إلا بعبد الله بن عباس، تعظيماً لحقه ووصلة لرحمه، وثقة به، فكان من أمره الذي يغفر الله له.

ثم، نحن وهم يد واحدة كما زعمتم حتى قضى الله تعالى بالأمر إلينا، فأخفناهم، وضيعنا عليهم، وقتلناهم أكثر من قتل بني أمية إياهم، ويحكم، إن بني أمية إنما قتلوا من سل منهم سيفاً، وإنا معشر بني العباس قتلناهم جملاً، فتسألن أعظم الهاشمية بأي ذنب قتلت، وتسألن نفوس ألقيت في دجلة والفرات، ونفوس

(١) سورة الإنسان: الآية ٨.

(٢) في الترجمة الفارسية هكذا: «على دفع علي ؓ عنها الخ...» عنه ؓ كما دفع العباس رضوان الله عليه، ووجدوا إلى ذلك سبيلاً لدفعوه.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٩.

دفنت ببغداد والكوفة أحياء، هيهات، إنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وأما ما وصفتم في أمر المخلوع وما كان فيه من لبس فلعمري ما لبس عليه أحد غيركم؛ إذ هونتم عليه النكث، وزينتم له الغدر، وقتلتم له: ما عسى أن يكون من أمر أخيك وهو رجل مغرب، ومعك الأموال والرجال، نبعث إليه، فيؤتى به، فكذبتهم، ودبرتم، ونسيتم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَغَىٰ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾^(١).

وأما ما ذكرتم من استبصار المأمون في البيعة لأبي الحسن الرضا عليه السلام فما بايع له المأمون إلا مستبصراً في أمره، عالماً بأنه لم يبق أحد على ظهرها أبن فضلاً، ولا أظهر عفة، وأروع ورعاً، ولا أزهد زهداً في الدنيا، ولا أطلق نفساً، ولا أرضى في الخاصة والعامة، ولا أشد في ذات الله منه. وإن البيعة له لموافقة رضا الرب عز وجل، ولقد جهدت وما أجد في الله لومة لائم.

ولعمري، ولو كانت بيعتي بيعة محاباة لكان العباس ابني وسائر ولدي أحب إلى قلبي، وأجلى في عيني، ولكن أردت أمراً وأراد الله أمراً فلم يسبق أمري أمر الله. وأما ما ذكرتم مما مسكم من الجفاء في ولايتي فلعمري ما كان ذلك إلا منكم بمظافرتكم عليه علي، وممايلتكم إياه، فلما قتلته وتفرقتم عباديد، فطوراً أتباعاً لابن أبي خالد، وطوراً أتباعاً لأعرابي، وطوراً أتباعاً لابن شكلة، ثم لكل من سل سيفاً علي، ولولا أن شيمتي العفو وطبيعتي التجاوز ما تركت على وجهها منكم أحداً، فكلكم حلال الدم محل بنفسه.

وأما ما سألتكم من البيعة للعباس ابني أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟! ويلكم، إن العباس غلام حدث السن، ولم يؤنس رشده، ولم يمهل وحده، ولم تحكمه التجارب، تدبره النساء، وتكفله الإماء، ثم لم يتفقه في الدين، ولم يعرف حلالاً من حرام إلا معرفة لا تأتي به رعية، ولا تقوم به حجة، ولو كان مستأهلاً قد أحكمته التجارب وتفقه في الدين وبلغ مبلغ أمير العدل في الزهد في الدنيا

(١) سورة الحج: الآية ٦٠.

وصرف النفس عنها. ما كان له عندي في الخلافة إلا ما كان لرجل من عك وحمير، فلا تكثروا من هذا المقال، فإنّ لساني لم يزل مخزوناً عن أمور وأنباء كراهية أن تخنث النفوس عندما تنكشف، علماً بأنّ الله بالغ أمره، ومظهر قضاه يوماً. فإذا أبيتم إلا كشف الغطاء وقشر العطاء فالرشيد أخبرني عن آبائه وعمه وجد في كتاب الدولة وغيرها أنّ السابع من ولد العباس لا تقوم لبني العباس بعده قائمة، ولا تزال النعمة متعلقة عليهم بحياته، فإذا أودعت فودّعها، فإذا أودع فودعها، وإذا فقدتم شخصي فاطلبوا لأنفسكم معقلاً، وهيئات مالكم إلا السيف، يأتيكم الحسنى الثائر البائر، فيحصدكم حصداً، أو السفينى المرغم، والقائم المهدي يحقن دماءكم إلا بحقها.

وأما ما كنت أردته من البيعة لعلي بن موسى بعد استحقاق منه لها في نفسه واختيار مني له فما كان ذلك مني إلا أن أكون الحاقن لدمائكم والذائد عنكم باستدامة المودة بيننا وبينهم. وهي الطريق أسلكها في إكرام آل أبي طالب ومواساتهم في الفياء بيسير ما يصيبهم منه.

وإن تزعموا أنّي أردت أن يؤول إليهم عاقبة ومنفعة فإنّي في تدبيركم والنظر لكم ولعقبكم وأبنائكم من بعدكم.. وأنتم ساهون لاهون تائهون في غمرة تعمهون، لا تعلمون ما يراد بكم، وما أظلمتم عليهم من النعمة وابتزاز النعمة، همة أحدكم أن يمسي مركوباً، ويصبح مخموراً، تباهون بالمعاصي، وتبتهجون بها، وأهتكم البرابط، مخنثون، مؤنثون، لا يتفكر متفكر منكم في إصلاح معيشة، ولا استدامة نعمة، ولا اصطناع مكرمة، ولا كسب حسنة يمد بها عنقه، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم..

أضعتم الصلاة، وأتبعتم الشهوات، وأكببتم على اللذات عن النعمات، فسوف تلقون غياً.

وأيم الله، لربما أفكر في أمركم فلا أجد أمة من الأمم استحقوا العذاب حتى نزل بهم لخلّة من الخلال، إلا أصيب تلك الخلّة بعينها فيكم مع خلال كثيرة لم أكن أظن أن ابليس أهدي إليها، ولا أمر بالعمل بها. وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز

عن قوم صالح: أنه كان فيهم ﴿تَسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(١). فأياكم ليس معه تسعة وتسعون من المفسدين في الأرض، قد اتخذتموهم شعاراً وداراً استخفافاً بالمعاد وقلة يقين بالحساب؟ وأيكم له رأي يتبع، أو روية تنفع؟ فشاهت الوجوه، وعفرت الحدود. وأما ما ذكرت من العثرة كانت في أبي الحسن عليه السلام نور الله وجهه فلعمري أنها عندي للنهضة والاستقلال الذي أرجو به قطع الصراط والأمن والنجاة من الخوف يوم الفرع الأكبر، ولا أظن عملاً هو عندي أفضل من ذلك إلا أن أعود بمثلها إلى مثله، وأين لي بذلك؟ وأنى لكم بتلك السعادة؟

وأما قولكم إنني سفهت آراء آبائكم وأحلام أسلافكم فكذلك قال مشركو قريش: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾^(٢).

ويلكم إن الدين لا يؤخذ إلا من الأنبياء، فافقهوا، وما أراكم تعقلون. وأما تعييركم إياي بسياسة المجوس إياكم فما أذهبكم الأنفة من ذلك ولو ساستكم القردة والخنازير ما أردتم إلا أمير المؤمنين، ولعمري، لقد كانوا مجوساً فأسلموا كآبائنا وأمهاتنا في القديم، فهم المجوس الذين أسلموا، وأنتم المسلمون الذين ارتدوا، فمجوسي أسلم خير من مسلم ارتد، فهم يتناهون عن المنكر، ويأمرون بالمعروف، ويتقربون من الخير، ويتباعدون من الشر، ويذبون عن حرم المسلمين، يتباهجون بما نال الشرك وأهله من النكر، ويتباشرون بما نال الإسلام وأهله من الخير، منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

وليس منكم إلا لاعب بنفسه، مأفون في عقله وتدبيره، إما مغن، أو ضارب دف، أو زامر، والله، لو أن بني أمية الذين قتلتموهم بالأمس نشروا، فليل لهم: لا تأنفوا من معائب تنالونهم بها، لما زادوا على ما صيرتموه لكم شعاراً وداراً وصناعة وأخلاقاً.

(١) سورة النمل: الآية ٤٨.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

ليس منكم إلا من إذا مسه الشر جزع، وإذا مسه الخير منع، ولا تأنفون، ولا ترجعون إلا خشية، وكيف يأنف من بيت مركوباً، ويصبح بإثمه معجباً، كأنه قد اكتسب حمداً، غايته بطنه وفرجه، لا يبالي أن ينال شهوته بقتل ألف نبي مرسل، أو ملك مقرب، أحب الناس إليه من زين له معصية، أو أعانه في فاحشة، تنظفه المخمورة، وتربده المطمورة، فشتت الأحوال.

فإن ارتدعتم مما أنتم فيه من السيئات والفضائح وما تهذرون به من عذاب ألسنتكم وإلا فدونكم تعلوا بالحديد، ولا قوة إلا بالله، وعليه توكلي، وهو حسبي.^(١)

(١) بحار الأنوار: ج ٤٩ ص ٢٠٨ - ٢١٤، تاريخ الإمام الرضا عليه السلام. حياة الإمام الرضا عليه السلام: ص ٤٥٣ - ٤٦٠.

الفصل الرابع

تحليل للأوضاع الإدارية
والسياسية
في العهد العباسي

يمكن قراءة الأوضاع الإدارية والسياسية للدولة العباسية من خلال عددٍ من الركائز التي كانت تقوم عليها، وهي عديدة نلخص المهم منها فيما يلي:

الركيزة الأولى: الثروة

الثروة الإسلامية لم تنضج إلا في العصر العباسي، وعليه سيكون مدار كلامنا، وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبقى في بيت مالها من دخلها بعد النفقات. ولنبداً بالثروة في أوائل الدولة فالخليفة الأول أبو العباس السفاح لم يحكم إلا أربع سنوات (من سنة ١٣٢ هـ - ١٣٦ هـ) قضاها في الحروب ولم يجمع مالاً، ولما مات لم يجدوا في بيته إلا تسع جباب، وأربعة أقمصه، وخمسة سراويل، وأربعة طياليسه، وثلاثة مطارف خز.^(١)

وأما المنصور فإنه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ هـ - ١٥٨ هـ) وكان رجلاً شديداً الحرص على المال واختزانته، فلما مات خلف في بيت ماله (٦٠٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠) درهم و (١٤ / ٠٠٠ / ٠٠٠) دينار، وبتحويل هذه الدينار إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهي قيمته في ذلك العصر تقريباً كان مجموع ما خلفه المنصور (٨١٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠) درهم.

وقد كان يصرف المال في مصالح نفسه وأهله، فإنه بذل لجماعة منهم في يوم واحد (١٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠) درهم، وثروة المنصور قد تعد قليلة بالنظر إلى ثروة

(١) من التمدن الإسلامي: ص ١٠٣، باب ثروة الدولة العباسية. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

هارون، فقد خلف في بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣ هـ) ٩٠٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠ درهم ونيقياً، ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما أنفقه هارون وما بذله وأسرف فيه.^(١)

ثروة الدولة العباسية في عصر الانحطاط

لكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة إلى الشيخوخة، فالدولة العباسية بلغت شبابها في أيام هارون والمأمون وهو العصر العباسي الزاهر، ثم أخذت بعدهما في الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة، كما بلغت الدولة الأموية في الشام شبابها في أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، والدولة الأموية بالأندلس بلغت شبابها في أيام الخليفة الناصر وابنه الحكم، والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور في أيام السلطان سليمان، وقس عليه.

وقد علمت مما تقدم أن الدولة العباسية إنما قامت بنصرة الفرس، وخصوصاً أهل خراسان، وهؤلاء لم ينصروها كرامة، بل لدواعي عديدة، منها: الانتقام لأنفسهم من بني أمية لما كان من تعصبهم للعرب واحتقارهم سائر الأمم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين. فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم في ذلك، فقربوهم واستخدموهم في مصالح الدولة، واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب وغيرهم، فضعف شأن العرب، وصاروا ينظرون إلى الدولة نظر المحاذر المراقب، ولا حيلة لهم في إرجاع نفوذهم، فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون إلى شوكتهم وسلطاتهم، ثم مات هارون، واختلف ابناه الأمين والمأمون على الخلافة، والأمين عربي الأبوين لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور، فأخذ أهل بغداد ينصروه، وفيهم جند العرب (الحزبية).

وأما المأمون فأمه فادية، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته، فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده، وانتهى الخلاف بمقتل الأمين وفوز المأمون، فعاد النفوذ إلى الفرس، وعادوا إلى امتهان العرب

(١) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٤٧١، ذكر أحداث سنة ١٣٦ للهجرة.

فلما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله، وكانت أمه تركية الأصل من بلاد السغد في تركستان، فشب محباً للأتراك، وكان قد أصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين، وهي أول مظاهر جراتهم على الخلفاء، ولم يكن له من الجهة الأخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما ساءهم العباسيون بسوط عذاب وهوان، وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم، فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب، وكان مع ذلك على رأي أخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن، فاستخدم العنف والشدّة في تأييده حتى إنّه أحضر أحمد بن حنبل وسأله عن رأيه في القرآن فلم يجب إلى القول بخلقه فأمر به فجلد جلدًا عظيمًا حتى غاب عقله، وقطع جلده، وحبس مقيدًا، فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصاً العرب، وهو لا يكثر بذلك، وإنما كان معتمده على جنده الأتراك.

فقد فسدت النيات، واضطربت الأحوال، وابتدأت الدولة بالتقهقر من ذلك الحين، فأصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة، وعليه معول الخلفاء في تثبيت بيعتهم ومحاربة أعدائهم والدفاع عن حياتهم حتى في داخل قصورهم، ثم إن ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر، فلما كانت الدولة العباسية في أبان عمرائها على عهد هارون والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها، ثم أخذت بالتقهقر بغتة من أيام المعتصم.^(١)

مقدار الجباية في عصر الانحطاط

وإذا نظرنا فيما كان يجتمع بيت المال من بقايا الجباية على توالي الأعوام رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الأولين، على أنهم كانوا إذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئاً ثم يأتي خلفه من يسرف فيضيعه، ومن أمثالهم المأثورة أن ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد أنفقه الأمين سنة (١٩٣ هـ - ١٩٨ هـ) وما جمعه المأمون والمعتصم والواثق أنفقه المتوكل (سنة ٢٣٢ هـ -

(١) من التمدن الإسلامي: ص ١٢٥ - ١٢٦. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢، ص ٣٥٤ - ٣٥٥.

- ٢٤٧ هـ) وما جمعه المنتصر والمعزز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي أنفقه المقتدر (سنة ٢٩٥ هـ - ٣٢٠ هـ).

وبالإجمال فإن الثروة تقهقرت بعد المأمون بتقهقر الدولة، وانحطت بانحطاطها، والثروة كما قدمنا ما يفيض من الدخل على الخرج؛ ولذلك قلما كان يبقى في بيت المال بقية إلا في أحوال خصوصية وبمبالغ صغيرة، فالمعتصم ترك في بيت ماله (٨/٠٠٠/٠٠٠) درهم، والمستعين (سنة ٢٥١ هـ) خلف في بيت المال (٥٠٠/٠٠٠) دينار، والمكتفي (سنة ٢٩٥ هـ) خلف (١٥/٠٠٠/٠٠٠) دينار، والظاهر أنها اجتمعت بتوالي الخلفاء، فلما تولى المقتدر أنفقها كلها، وأنفق ما جمعه في أيامه من أموال المصادر فضلاً عن الخراج حتى قدروا ما أنفقه ضياعاً وتبذيراً بنيف و(٧٠/٠٠٠/٠٠٠) دينار ما عدا نفقات الدولة، واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والغلمان للخلافة أن يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب، وبلغ من فقر بيت المال في أيام المطيع لله سنة ٣٦١ هـ أنه باع ثيابه وأنقاض داره ليدفع (٤٠٠/٠٠٠) درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد.

وكانت أحوال الخلفاء قد تغيرت في أيام الرازي بالله سنة ٣٢٢ هـ، وخرجت قيادة الأمور من أيديهم، ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة، وأسباب انحطاط الثروة العباسية هي: ١- قلة الجباية. ٢- كثرة النفقة. أما أسباب قلة الجباية وهي أمور:

١- ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية أكبر سعتها في أيام هارون والمأمون، ثم أخذت بعض الولايات تنفصل عنها لأسباب يطول شرحها، وأول ما استقل من الولايات العباسية أفريقية، بدأت بالاستقلال في أيام هارون كما تقدم، ثم خراسان في أيام المأمون، ثم مصر في أيام المعتمد في أواسط القرن الثالث للهجرة، ثم فارس وما وراء النهر وغيرها، ولم يمض الربع الأول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة إلى بضعة عشر قسماً كل منها في حوزة دولة من دول المسلمين، على

أنَّ معظم هذه الدول كانت تعد الخليفة العباسي رئيسها الديني، وتؤدي الأموال له بعضها باسم الضمان، والبعض الآخر باسم المصالحة، والآخر باسم الهدية أو غير ذلك، وكان أكثرهم لا يؤدي ما عليه إلا مرة كل بضعة أعوام، وطبيعي أن تشتت المملكة على هذه الصورة يقلل مقدار الجباية.

٢- تخفيض الخراج المضروب

كان من أسباب زيادة الثروة العباسية في أيام زهوها ثقل الضرائب، وخصوصاً العراق، إذ كانت مقاسمة على النصف إلى أيام المأمون، فأدرك هذا الخليفة ثقل هذا الخراج، ورأى الثروة فائضة في بيت ماله والأموال متوفرة فعمد إلى التخفيف عن الناس، فجعل خراج العراق خمسين أي إنه أنقصه عشرين في المائة، وقد ظهر فرق ذلك في ارتفاع جباية العراق حالاً؛ إذا كان في قائمة قدامة (٦٥٠/٤٥٧/١١٤) فصار في قائمة خرداذبة (٣٤٠/٣١٩/٧٨) درهماً؛ لأنَّ الأول قدره على ما يظهر باعتبار النصف والثاني باعتبار الخمسين، واقتدى بالمأمون في تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء، فأبطل الواثق (٢٣٢ هـ) أعشار السفن، وقد كانت ضريبة ذات بال كان يرد منها إلى بيت المال شيء كثير، واقتدى بالواثق خلفه المتوكل، فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين.

«الجزية والزكاة» ومن هذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص بدخول الناس في الإسلام بتوالي الأعوام حتى انحط مقدار ما يجبي منها بمدينة السلام في أوساط القرن الثالث للهجرة إلى (١٣٠/٠٠٠) درهم، وفي قائمة علي بن عيسى أنَّهم جبوها (١٦/٠٠٠) دينار أي نحو ضعفي ذلك.

ويقال نحو ذلك أيضاً في الزكاة، فقد تناقصت بتوالي الأعوام حتى كادت تتلاشى أصبحت المطالبة بها تدعو إلى التذمر.

٣- استئثار العمال بالجباية

فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال إلى ما تطمح إليه أنظارهم من طلب

الاستقلال بالحكم أو الاستئثار بالجباية، واضطر الخلفاء إلى التراضي معهم على مال مضمون وإن يكن أقل مما يجبي، وهو الضمان أو المقاطعة، كما قاطع المأمون بشير بن داود على السند سنة (٢٠٥ هـ) على أن يدفع له (١/٠٠٠/٠٠٠) درهم في العام مع أن ارتفاع جبايتها الحقيقي (١١/٥٠٠/٠٠٠) درهم، وضمن البريدي الأهواز على أيام الراضي كل سنة (٣٦٠/٠٠٠) دينار على أن يدفعها أقساطاً، وخراجها الحقيقي يزيد على أربعة أضعاف هذا المبلغ. ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون إلا قليلاً مما تعهدوا به.

٤- انشغال الناس بالفتن

لما نشأت الفتن وانتشبت الحروب بين طوائف الجند أو بينهم وبين العمال انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم، وتوقف العمال، وغلت الأسعار، وتعطلت الزراعة لضياح الأمن، فقلت الجباية، واحتاج العمال والقواد إلى المال، فظلموا الناس في تحصيلها منهم، فزاد الخراب، وما من هادم للعمران كالظلم، فإنه يغل الأيدي، ويقعد الناس عن السعي، فينشغل به الزارع عن زراعته، والتاجر عن تجارته، والصانع عن صناعته، ووبال ذلك عائد على الدولة إذ لا قوام لها إلا بالرعية.

٥- تحويل أكثر البلاد إلى ضياح

يراد بالضياح عندهم المزارع، ويغلب في الضياح أن تكون لأهل الدولة من الخلفاء أو أقاربهم أو عمالهم أو وزرائهم أو كتابهم أو من يلوذ بهم من أهل النفوذ، فلما انتقلت الدولة الإسلامية من الخلافة الدينية إلى الملك العضوض في أيام بني أمية، اختزن الصحابة الأموال، واتخذوا المصانع والضياح، واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين، وكان أقدمهم على ذلك الخلفاء من بني أمية، فقد أكثروا من المصانع والضياح حتى كان بعض أهلهم يقبضها اغتصاباً من أصحابها، وليس من ينصفهم لغضب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم ولا اعتبار ما فتحوه من

الأرض ملكاً حلالاً لهم، فما أرادوا أخذه أخذوه، وما أرادوا تركه تركوه. فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس سنة (١٣٢ هـ) أعملوا السيف في بني أمية، وفروا وتركوا أموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون، فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والأبنية بحق أو بلا حق، والخلفاء يمنعونهم جهد الطاقة، فإذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسن صادرهم، أو قبضوا أموالهم بعد موتهم، كما فعل هارون بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة وكان مبلغها (٥٠/١٠٠٠/١٠٠٠) درهم سوى الضياع والدور والمستغلات، وكانت غلته (١٠٠/١٠٠٠) درهم في اليوم؛ ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهادونها أو ينعمون بها على الناس جائزة على قصيدة أو خطاب أو نكتة أو غير ذلك، وكان من أبواب اقتناء الضياع عندهم حتى في صدر الدولة العباسية كثرة ما كان من الأرضين المهملة من عهد بني أمية، فيأمر الخليفة بعض أهله أو خاصته بتعميرها وغرسها ثم تصير له كما فعل المنصور بابنه صالح إذ أمره بعمارة بعض المزارع العاطلة في الأهواز، ومن أحميا أرضاً مواتاً فهي له.

«الإلجاء» ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة إلجاء الأهالي ضياعهم ومغارسهم إلى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعزراً بهم من جباة الخراج، فكان صاحب الأرض يلتجئ إلى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه أن يكتب ضيعته أو ضياعه باسمه، فلا يتجرأ الجباة على العنف أو الظلم في اقتناء خراجها، بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير، ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له، ويدون ذلك في دفاتر الحكومة، فتصبح تلك الضيعة بتوالي الأعوام ملكاً للملجأ إليه، ويصبح صاحبها الأصلي شريكاً في غلتها، ومثل هذا الإلجاء يحدث في كل العصور في البلاد التي يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم.

فالضياع على إجمالها قليلة الخراج مع أنها أخصب الأرضين؛ لأن الخلفاء وعمالهم كانوا يغضون عن كثير من الأموال المطلوبة منهم. «الإيغار» وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه «ايغار» ومعناه في

الأصل «استيفاء» فيقولون «أوغر العامل الخراج أي استوفاه» ثم استخدموها بمعنى الإعفاء من الخراج بهال معين يدفعه صاحب الأرض مرة واحدة؛ ولذلك قالوا «أوغر الملك الرجل الأرض: جعلها له من غير خراج».

كثرة النفقات:

وترجع أسبابها إلى عوامل عديدة:

١- إسراف الخلفاء ونسائهم

من الأمور الطبيعية في العمران إذا كثرت الأموال في الدولة أن يسخو الملوك ببذلها، وخصوصاً في الدولة المطلقة، وعلى الأخص في الدولة العباسية، والخليفة مطلق التصرف في بيت المال، ودعاة الخلافة كثيرون لا يقعد فتنتهم غير استرضاء الأحزاب بالمال، أو كسر شوكتهم بالحرب، والأول أسلم عاقبة وأقرب منالاً إذا توفرت الأموال، وقد كانت متوفرة خصوصاً في عصر هارون والمأمون، فلا غرو إذا رأيناها يبذلان الأموال في استكفاف الأذى عن الدولة أو سد أفواه أهل الفتن، لكنهم تجاوزوا ذلك إلى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف، فاقتنوا الجواري، واتخذوا الفرش من الخز، والديباج والحرير والمسامير من الفضة، وابتنوا المتنزهات والقصور والمدن، واقتنوا الندماء وأنشأوا مجالس الغناء، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والريش، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الإسلامي، وأطلقوا أيدي نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم في الأموال.

«ثروة نساء الخلفاء» لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء في أمره، ومع ذلك فإن الخيزران أم هارون كانت هي صاحبة الأمر والنهي في أيام الهادي، وكان وزيره يحيى تحت أمرها، فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها حتى بلغت غلتها في العام (١٦٠/٠٠٠/٠٠٠) درهم، وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك

العهد، وغلة أعظم متمولي العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال، فقد ذكروا أن إيراد روكفلر الثري الأمريكي الشهير ١٠/٥٠٠/٠٠٠ جنيه في السنة، وغلة الخيزران أكثر من ١٠/٥٠٠/٠٠٠ دينار. وقيمة النقود كان تساوي ثلاثة أضعاف اليوم، والدينار نصف جنيه، فتكون غلة روكفلر نحو ثلثي غلة الخيزران.

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغبة في الاستئثار، فلما أنست في ابنها الهادي معارضة لإرادتها دست إليه من قتله، ولما ماتت توسع هارون بأموالها، وأقطع الناس ضياعها.

وقبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز ونحوها نحو (٢/٠٠٠/٠٠٠) دينار نقداً، ومالاً تقدر قيمته من التحف والجواهر مما يقربه المثل: من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين، ونصف مكوك لؤلؤ كبير، ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته (٢/٠٠٠/٠٠٠) دينار، وكانت قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠/٠٠٠) دينار، وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق فقد كانت غلتها (١٠/٠٠٠/٠٠٠) دينار في العام تنفقها في جواربها، وهي نحو غلة الخيزران، وأخرجوا من تربة أم المقتدر (٦٠٠/٠٠٠) كانت مخبأة هناك، ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله، وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الإسلام، فلا عجب والحالة هذه إذا تحول الغنى إلى النساء والخدم والقواد، وهل تستغرب بعد ذلك إذ علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه (١٣٠/٠٠٠/٠٠٠) دينار فيه نقوش

على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر؟ أو إذا قيل لك إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني دراً فباعه بعشرين ألف دينار، أو إذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء؟

«الجواري والغلمان» قالوا: إنه كان في قصر هارون ثلثمائة جارية ما بين جنكية إلى عودية إلى دفية إلى قانونية إلى زامرة إلى مغنية إلى راقصة إلى سنطيرية، فضلاً عن كان في قصره من الندماء والمضحكين كالشيخ أبي الحسن الخليلي الدمشقي، وابن أبي مريم المدني وغيرهم، وما من جارية إلا وثمانها ألف دينار أو عشرة آلاف

دينار إلى مئة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلي، وهي شيء كثير، فقد اشترى هارون خاتماً بمئة ألف دينار، وقس على ذلك.

ناهيك بما كانوا يقتنونه من الممالك والغلمان مما يعدون بالمئات والألوف، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١٠٠٠) خصي من الروم والسودان غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش، فقد بنى المعز داراً في بغداد أنفق عليها (١٣/٠٠٠/٠٠٠) درهم، وبنى الأمير قصوراً في الحيزرانية أنفق عليها (٢٠/٠٠٠/٠٠٠) درهم، واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد، والثانية بصورة الفيل، والثالثة بصورة العقاب، والرابعة بصورة الحية، والخامسة بصورة الفرس، أنفق عليه مالاً عظيماً.

«السخاء» على أن الإسراف كان أكثره فيما يبذلونه كرمياً وسخاء، منه ما ينفق يومياً فرضاً واجباً، فقد كان هارون يتصدق من صلب ماله - على ما قيل - كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم (٦٠٠٠) درهم، فاعتبر مقدار ذلك في السنة فيزيد (٢/٠٠٠/٠٠٠) درهم، وليس هذا بالشيء الذي يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها، فقد فرق المنصور في يوم واحد (١٠/٠٠٠/٠٠٠) درهم على أهل بيته، وفرق المأمون في يوم واحد (١/٥٠٠/٠٠٠) درهم على ثلاثة أشخاص، وقد فرق (٢٤/٠٠٠/٠٠٠) درهم ورجله في الركاب، وأوصى هارون بمبلغ (١٠٠/٠٠٠/٠٠٠) درهم، وتصدق المعتصم في أثناء خلافته بما مجموعه (١٠٠/٠٠٠/٠٠٠) درهم، وبلغ ما أنفقه المقتدر ضياعاً ما خلا الأرزاق (٧٠/٠٠٠/٠٠٠) دينار. فضلاً عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم، وربما بلغت جائزة الشاعر مئة ألف درهم، وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة أو أكثر. وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر أنه نظم قصيدة مدح فيها المهدي وحلف أنه لا يأخذ قيمتها إلا مئة ألف درهم (١٠٠/٠٠٠/٠٠٠) فأعطاه إياها.

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خالد إذ أمره هارون أن يدفع ثمن جارية

(١٠٠٠/٠٠٠) دينار، واستكثر يحيى المال، واعتذر عن دفعه، فغضب الرشيد فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحملة بيت المال من هذا الإسراف فيما لا مصلحة للدولة فيه، فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو (١/٥٠٠/٠٠٠) درهم، فوضعها في الرواق الذي يمر به هارون إذا أراد الوضوء، فلما رأى هارون ذلك المال استكثره، ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك إسرافه، ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غل يديه، فحفظ ذلك في نفسه. ويقال أنه كان من جملة ما حملة على نكبة البرامكة.

واتفق نحو ذلك للوائح بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية، فلما مطلق الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ففعل.

٢- تكاثر أبواب النفقة في الدولة

تدرجت الدولة الإسلامية في مصالحتها منذ كان النبي ﷺ هو الأمير والوزير والقاضي والقائد حتى أصبح موظفو الحكومة في أيام الخلفاء الأربعة نزرأ يسيراً، ثم تزايدوا بتزايد الحضارة واتساع المملكة في أيام بني أمية فبني العباس، وكانت تلك المصالح تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة، وميل الخلفاء ورجال دولتهم إلى الترف والرخاء، فأصبحت في أيام هارون أكثر منها في أيام المنصور، وفي أيام المأمون أكثر منها في أيام الرشيد، وقس على ذلك تكاثرها في أيام من جاء بعدهم من الخلفاء.

٣- زيادة الرواتب

ولم تقتصر زيادة النفقات على تجديد مصالح لم تكن من قبل، ولكن المصالح القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه في أوائل الدولة، وطبيعي إذا كثرت ثروة الدولة أن توسع على رجالها، فتزيد رواتبهم وجوائزهم، فإذا كانت تلك الدولة مؤسسة على أساس ضعيف لا تلبث أن تحط ثروتها، وتبقى الرواتب كما هي، فيقصر بيت المال في تأديتها، فيضطرون إلى ضرب الضرائب الفادحة واستخدام العنف في تحصيلها، فتضعف هممة الناس عن العمل، وتزداد البلاد فقراً.

«رواتب العمال»: كان راتب العامل في أيام عمر (٦٠٠) درهم في الشهر، ثم اختلف باختلاف العمال والأعمال، فقد جعل عمر لمعاوية على الشام ألف دينار في السنة، فربما جعلوا الولاية كلها طعمة لا يدع عنها العامل شيئاً، بل ينالها مكافأة على خدمة قام بها على أن ذلك كان خاصاً بالعمال الكبار كعامل العراقيين أو مصر أو خراسان، وقد بلغ راتب يزيد بن عمرو بن هبيرة أمير العراق في أيامهم (٦٠٠) درهم في السنة وبلغت غلة خالد القسري (١٣/٠٠٠/٠٠٠) درهم.

وقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همدان إلى التبت طولاً ومن بحر فارس إلى بحر الديلم (قزوين) وجرجان عرضاً ويدخل في ذلك كل ما وراء العراق شرقاً إلى الهند، وجعل له عمالة (٣/٠٠٠/٠٠٠) درهم في السنة، وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين، وأعطاه علماً وسماه ذا الرئاستين السيف والقلم، ونقش على سيفه بالفضة من الجانب الواحد «رئاسة الحرب» ومن الجانب الآخر «رئاسة التدبير».

«رواتب الكتاب» وكانت رواتب الكتاب إلى أيام المأمون مثل رواتب العمال الصغار لا يزيد مقدارها في الشهر على (٣٠٠) درهم، فزادها الفضل بن سهل.

«رواتب الوزراء» ألف دينار في الشهر، فإذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر إلى قيمة الفضة والذهب في هذه الأيام زاد هذا الراتب على (١٥٠٠) جنيه، على أن رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف الأعصر والدول، كان راتب الوزير على أيام الناصر الأندلسي (٨٠/٠٠٠) دينار في السنة وهدايا، وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفي في أواسط القرن السادس للهجرة (١٠٠/٠٠٠) دينار وفي السنة، وكان للوزراء فضلاً عن رواتبهم المشار إليها رواتب لأولادهم وإخوتهم وخدمهم، وأتباعهم، وأرزاق ووظائف كثيرة وخصوصاً في مصر، فقد كان راتب الوزير في الدولة الفاطمية (٥٠٠٠) دينار في الشهر، ولمن يليه من ولد أو أخ من (٣٠٠ إلى ٢٠٠) دينار، ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من (٥٠٠ - ٣٠٠) دينار ما عدا الإقطاعات غير ما يجري عليه وعلى أهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة، فقد كان للوزير ابن عمار أيام العزيز بالله الفاطمي بمصر من الجرايات

لنفسه وأهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته (٥٠٠) دينار في الشهر، ومن الفاكهة سلة بدينار، وعشرة أرطال شمع بدينار، ونصف جمل بلح.

«رواتب القضاة» كان راتب القاضي في أيام الخلفاء الأربعة مائة درهم في الشهر ومؤونته من الحنطة، ثم ارتقى في أيام بني أمية مثل سائر الرواتب، فصار راتب قاضي مصر سنة (٨٨ هـ) ألف دينار في السنة، حتى بلغ في أيام المأمون سنة (٢١٣ هـ) ٤٠٠٠ درهم في الشهر، أي نحو (٢٧٠) ديناراً.

«رواتب الخلفاء وأهلهم» قد رأيت أن الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لأهل الوزراء والكتاب فبالأولى أن يفرضوها لأنفسهم وأولادهم، والخليفة هو القابض بيده على بيت المال، لكننا لم نجد قولاً صريحاً بهذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لأهلهم من مناظرتهم في الملك، فيتعاون البيعة بهال يرضون به أهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى إذ اشترى منه البيعة لابنه المهدي بمبلغ (١١ / ٠٠٠ / ٠٠٠) درهم له ولأولاده، أو للتوسعة عليهم واستنصارهم كما فعل مع أعمامه، فإنه أمر كل واحد منهم بمليون درهم تدفع إليهم من بيت المال، وهو أول من فعل ذلك، ويظهر أنها كانت تدفع إليهم في كل عام، ولما توفي ابنه المهدي فرض لأهل بيته كل واحد (٦٠٠٠) درهم في السنة. والظاهر أن هارون زاد في رواتب أهله، وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب في خلافته، وكان أعضاء العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا في أيامه (٣٣٠٠٠) نفس.

«رواتب حاشية الخليفة» ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة أعمالهم بشخص الخليفة وليس بأعمال الدولة كالأطباء والحجاب والحرس الخاص. وإليك راتب جبريل كما وجدوه مدوناً بخط كاتبه، وخاصته في مدة خدمته وهي ٢٣ سنة (٨٨ / ٧٠٠ / ٠٠٠) درهم، وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام، وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة في تلك الأيام، فقد كانت غلة صاحب حرس هارون (٣٠٠ / ٠٠٠) درهم في السنة، وغلة صاحب شرطته (٥٠٠ / ٠٠٠) درهم وغلة حاجبه (١ / ٠٠٠ / ٠٠٠) درهم في السنة.

«رواتب الجند» ولما أفضت الخلافة إلى المعتصم سنة (٢١٨ هـ) وكان ما كان

من اقتنائه الأتراك والفراعنة والمغاربة وتجنيدهم وضعف الخلفاء للأسباب التي قدمناها أصبح مرجع القوة في كل شيء إلى الجند، وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال أمر (بابك الخرمي) في أرمينيا وآذربايجان.

وكان بابك قد ظهر في أيام المأمون يدعو الناس إلى دين جديد أساسه التقمص، فبعث إليه المأمون جنوداً هزمهم غير مرة، فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لأنه أصبح في خطر منه على ملكه، فبعث إليه أترابه بقيادة رجل منهم اسمه الأفشين حيدر بن كاووس سنة (٢٢٠ هـ) ثم أردفه بأخر اسمه بغا الكبير ومعه المال، وآخر اسمه جعفر الخياط، ثم أنفذ إليه أيتاخ ومعه (٣٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠) درهم لنفقات الجند، وبعد حروب سنتين فاز الأفشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال، وجاء ببابك إلى سامراء فخرج الواثق بن المعتصم وسائر أهل المعتصم لاستقباله باحتفال وهم لا يصدقون أنهم نجوا من بابك على يده؛ لأنه كان قد أمعن في البلاد نهياً وقتلاً، فقتل في عشرين سنة (٢٥٥ / ٥٠٠) نفس، وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم.

فلما قبض الأفشين عليه أمر المعتصم أن يركبوه على الفيل، فأركبوه، واستشرفه الناس، وكان بابك عظيم الجثة. ثم أدخلوه على المعتصم في داره، فأمر سياف بابك نفسه أن يقطع يديه ورجليه فقطعها، فسقط بابك، فأمره بذبحة ففعل، وشق بطنه، وأنفذ رأسه إلى خراسان، وصلب بدنه في سامراء، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أمن فيه المعتصم على ملكه، وعرف ذلك الفضل للأفشين ورجاله، وكان لا ينفك وهو يواصل الأفشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه إلى يوم رجوعه.

فكان يرسل إليه كل يوم خلعة وفرساً، ويدفع إليه في أثناء إقامته بإزاء بابك (سوى الأرزاق والإنزال والمعاون) عن كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وعن كل يوم لا يركب في خمسة آلاف درهم.

ولما عاد الأفشين تقدم المعتصم بنفسه، وألبسه وسامين مرصعين بالجواهر، ووصله بعشرين مليون درهم عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها في عسكره، وعقد له على السند، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه.

فالأفشين لم يثبت في محاربة بابك إلا طمعاً بالمال، فإذا اعتبرت هذه النفقات مع أرزاق الرجال وما قد يحتاجون إليه من المؤونة والأخرجة كان المجموع عظيماً جداً.

قال الطبري في حوادث سنة (٢٥٢ هـ): وذكر أن أرزاق الأتراك والمغاربة والشاكرية قدرت في هذه السنة، فكان مبلغ ما يحتاجون إليه في السنة (٢٠٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠) دينار، وذلك خراج المملكة كلها لستين.^(١)

على أن الخلفاء كانوا إذا احتدم القتال وخاف الخليفة أو الأمير ضعفاً صاح في جنده من جاء بأسير فله عشرة دنانير، ومن جاء برأس فله خمسة دنانير.

«رواتب أخرى»: كانت سياسة الملك في تلك العصور تقتضي استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلفاء أقلامهم أو ألسنتهم أو أحزابهم؛ لأن المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لأنفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم، والملك لا يخلو من حساد يترقبون فرصة للانتقام، وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأي العام أكثر ما للصحافة في هذه الأيام.

فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون ملاقة شرور المقاومين بالإحسان إليهم أو الرفق، فيقطعون ألسنتهم بالجوائز الوقتية أو بالرواتب الجارية.

عدد أيام الشهور

شرعت الدولة العباسية في زيادة الرواتب في إبان ثروتها، ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الأموال الواردة على بيت المال، ثم مالبت أن رأت الجباية تتناقص ولم يعد في إمكانها تنقيص الرواتب بعد أن تعود أصحابها الإسراف والبذخ واقتناء الخدم والمماليك اقتداء بخلفائهم، ولا في الإمكان إقالتهم خوفاً من غضبهم، فعمد الوزراء إلى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئاً كثيراً من المال، وذلك أنهم جعلوا الرواتب (مياومة) فإذا أرادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الرواتب ألف دينار في الشهر (مثلاً) فبدلاً من أن يجعلونه ٨٠٠ دينار يبقونه على ما كان

(١) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٣٧١، ذكر أحداث سنة ٢٥٢ للهجرة.

ويزيدون أيام ذلك الشهر فيجعلونها أربعين يوماً أو خمسين.
فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريباً شهر خاص يختلف عدد أيام الشهر عن
الآخرين.

٤ - النفقة على البيعة

رأيت فيما تقدم أنّ الخلفاء في أوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون في تأييد
بيعتهم إلى استرضاء أهل الحرمين، وكانوا يحملون إليهم الأموال، ويبذلون لهم
الأعطية، ويفرقون فيهم الهدايا.

وأما بعد أيام المعتصم فأصبحت البيعة تجارة يناها صاحب المال أو صاحب
الجند والمعنى واحد، وكان الجند يسرون بخلع الخلفاء طمعاً بالمال؛ لأنهم كلما
تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق سنة أشهر أو سنة أو أكثر أو أقل على
قدر مطامعهم، وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة، وأهملت الأعمال بوجه
الإجمال.

وزاد أهل البلاد شقاء أنّ قواد الجند كانوا إذا أعوزهم المال ولم يكن في بيت المال
ما يكفي استخرجوه من الأهالي، وكثيراً ما كان يحدث ذلك في أثناء الحروب بين
فرق الجند في تنازعهم على تولية أحد الخلفاء، فقد نهب جند الديلم أموال الناس في
بغداد في أثناء الخصام بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة (٣٣٤ هـ) بشأن الخليفة
المطيع لله، وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين فقط (١٠٠ / ٠٠٠ / ١٠٠) دينار.

فلم يبق في الدولة العباسية والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها
واستبقاء جندها؛ لأنّ الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد.

٥- استئثار رجال الدولة بالأموال لأنفسهم

إذا بلغت الدولة إلى قمة ثروتها وانغمس الملك في الترف والقصف وتقاعد
عن مباشرة الأحكام بنفسه تحول النفوذ إلى المحيطين به، أو الذين ينوبون عنه، أو

يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكتّاب والحاجب والقائد، وأصبح الأمر والنهي في أيديهم، فيستأثرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا، ويسرفون ويبدخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم.

واعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في أيام هارون وما كان من إحرازهم الأموال لأنفسهم حتى كان يحتاج هارون إلى اليسير من المال، فلا يقدر عليه، فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد نكبهم على ما هو مشهور، كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود، وكان قد استوزره وسلم إليه الأمور. وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكثم القاضي إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو إكرام للبرامكة، ثم لم يكن راضياً عنه؛ ولذلك فلما دنت وفاة المأمون أوصى أخاه المعتصم قائلاً: لا تتخذن وزيراً تلقي إليه شيئاً، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبث سيرته.

«الوزراء» بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء أو بيت المال في أيام الزهر، كأنّ الأموال تحولت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشى، ويقدمون الهدايا رغبة فيها، كما فعل ابن مقله إذ بذل ٥٠٠/٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضي.

ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء أنّ الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة أنّه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة، وأخذ من كل واحد رشوة، فانحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً في بعض الطريق، فقالوا: كيف نصنع؟ فقال أحدهم: ينبغي إن أردتم النصفه أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير، فهو الذي ولايته صحيحة؛ لأنه لم يأت بعده أحد، فانفقوا على ذلك، فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة وعاد الباقيون إلى الوزير ففرقهم في عدة أعمال.

وبالإجمال أنّ الوزراء في عصر التقهقر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعاً باختزان الأموال، فإنّ أبا الحسن بن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات: الأولى سنة ٢٩٦ هـ بقي فيها ثلاث سنين، فكان مقدار ما اجتمع عنده من الأموال

يساوي (٧/٠٠٠/٠٠٠) دينار أخذت كلها مصادرة.

ثم عاد إلى الوزارة سنة (٣٠٤)، وخلع سنة (٣٠٦) ثم عاد ثالثة سنة (٣١١) وخلع سنة (٣١٢) فمجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات، فكان عنده لما خلع أخيراً ما يزيد على (١٠/٠٠٠/٠٠٠) دينار وضياع يستغل منها كل سنة (٢/٠٠٠/٠٠٠) وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالاً طائلة، وانغمسوا في أنواع الترف والبذخ، وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة؛ لأنّ الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق أو في مصر أو الأندلس، فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار قلماً ملكه أحد قبله، وارتفاعها (٤٠٠/٠٠٠) دينار كل سنة سوى الخراج، وقد وهب وأعطى وأفضل، وحج ٢٧ حجة، وأنفق في كل منها (١٥٠/٠٠٠) دينار.

ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جملة أملاكه أقطاع في الشام دخله (٣٠٠/٠٠٠) دينار في السنة، وخلف أملاكاً وضيعاً ورباعاً وخيلاً وبغالاً ونوقاً وغيره ما قيمته (٤/٠٠٠/٠٠٠) دينار غير ما أنفقه في تجهيز ابنته، وهو (٢٠٠/٠٠٠) دينار، وخلف (٨٠٠) حظية سوى جوارى الخدمة، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية. وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك (٦٠/٠٠٠/٠٠٠) دينار عيناً و(٢٥٠) أردب دراهم وهو نقد مصر و (٧٥/٠٠٠) ثوب ديباج أطلس و ٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقي ودواة ذهب فيها جوهر قيمته (١٢/٠٠٠) دينار ومئة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مئة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون الألوان أيما أحب لبسه و(٥٠٠) صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد ما لا يحصيه عد.

أما الأبواب التي كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة من جملتها قبول الرشوة في التوظيف كما تقدم، وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه، ومنها اغتصاب الضياع بهلهم من النفوذ، فيستولون على ما شاؤوا

بغير حساب، ناهيك بما كانوا يمدون إليه أيديهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان، فإن طرق دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره. ومن أبواب الكسب أيضاً أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون إلى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة، ولا سبيل لهم إلى المال، فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناساً يشترون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها، ثم يقبضها هو كاملة.

«المصادرة» كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبصرة والبحرين، وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة، فلما أفضت الأمور إلى بني أمية وكان ما كان من استبداد عمالهم وطمعهم في أموال الجباية أصبح الخلفاء في أواخر الدولة لا يعززون عاملاً عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال، واستخرجوا ما تصل إليه أيديهم من أمواله، وكانوا يسمون ذلك «استخراجاً».

والمصور كان لا يعزل عاملاً إلا قبض ماله وتركه في بيت مستقل سماه «بيت مال المظالم» وتكاثر تعدي العمال في أيام المهدي (سنة ١٥٨ هـ، ١٦٩ هـ) فاضطر هذا الخليفة إلى النظر في المظالم - وما هي إلا مظالم العمال - ثم نظر فيها بعده الهادي فهارون فالمأمون إلى المهدي في أواسط القرن الثالث.

«العمال» وغنى العمال ميسور في تلك الأعصر بالنظر إلى استقلالهم في إدارتهم وشؤونهم وخصوصاً عمال الاستيلاء المفوضين في كل شيء، وأبواب الكسب عندهم كثيرة منها: أن العامل إذا جاء عمله فأول شيء يتوقعه أن يحمل إليه الناس الهدايا، وفيها الدواب والجواري والأموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئاً كثيراً، ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب، وتحصيل بعضها مرتين أو ثلاث مرات تبعاً لما تقتضيه حاجتهم إلى المال في إرضاء الوزراء، أو لادخاره والانتفاع به عند الاعتزال عن المنصب.

ومن أبواب الكسب للمال أن ينفق العامل على بناء بيت أو جسر أو على حفر ترعة أو نهر أو ألف دينار مثلاً ويطالب بعشرة آلاف، أو مئة ألف، وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بستين ألف دينار، فضلاً عن اغتصاب الضياع وغيرها.

فهل من عجب بعد ذلك إذا بلغت أموال محمد بن سليمان عامل هارون على البصرة (٥٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠) درهم سوى الضياع والدور والمستغلات؟ وكان محمد هذا يغل كل يوم (١٠٠ / ٠٠٠) درهم، وبلغت أموال علي بن موسى بن همام (٨٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠) درهم، فلم ير هارون إلا الجنوح إلى الاستخراج، وهو المصادرة، وكان الغالب في بادئ الرأي أن يقبضوا أموال العمال بعد موتهم كما فعلوا بمحمد بن سليمان المذكور، ثم صاروا يستخرجون أموالهم وهم أحياء كما فعل هارون بعلي بن عيسى، فإنه عزله واستصفى أمواله المذكورة، وحملها مع خزائنه وأثاثه على (١٥٠٠) جمل غير (٣٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠) درهم كان ابنه عيسى بن علي قد دفنها في بستان بداره في بلخ.

بدأت مصادرة الوزراء في الدولة العباسية من أولها، ولكنها كانت في أول الأمر على سبيل النكبة، والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية أو التخلص منه لغرض آخر.

ومن هذا القبيل مقتل أبي سلمة الخلال أول وزراء بني العباس، فبعد أن أيد دعوتهم بأمواله كما أيدها أبو مسلم الخراساني بسيفه، وشي إلى السفاح أنه ينوي إخراج الدولة من أيديهم، فأوعز إلى أبي مسلم فقتله، ثم أصاب أبا مسلم من المنصور مثل تلك النكبة.

ويقال نحو ذلك في نكبة البرامكة في أيام هارون، والفضل بن مروان في أيام المعتصم. وفي نكبة الفضل هذا رغبة في قبض أموال لأن المعتصم نكبه سنة ٢٢١ هـ، وأخذ من داره (١ / ٠٠٠ / ٠٠٠) دينار وأثاثاً وأنية قيمتها (١ / ٠٠٠ / ٠٠٠) دينار، ولما تمكن الانحطاط من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواذ على أموالهم، وبلغت المصادرة معظمها في أيام المقتدر (سنة ٢٩٥ هـ - ٣٢٠ هـ).

وكثر المصادرات في أيام المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدام، وربما زاد مجموع ما قبضه من المصادرة على (٤٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠) دينار على أنهم قدروا جملة ما أنفقه من الأموال تبديراً وتضييعاً في غير وجه نيفاً و (٧٠ / ٠٠٠ / ٠٠٠)

دينار.

«الكتاب»: وهناك فئات أخرى من موظفي الدولة كانوا يستأثرون بأموالها، ومنهم كتاب الخراج، ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الجباية رأساً، وكانت أكثر أموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس حتى اشتهروا بالظلم كما اشتهر الوزراء.

وكان من أبواب الكسب عند الكتاب ارتشائهم للتوسط في تولية العمال أو سواهم كما فعل أحمد بن أبي خالد الأحول كاتب المأمون في توسطه لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين خراسان، وقد شرط له على نجاحه في ذلك (٣/٠٠٠/٠٠٠) درهم.

«الحجاب»: وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة أو وساطة لدى ولاية الأمر، وخصوصاً الحجاب الذين يقفون بأبواب الخلفاء، فإنهم من أكثر الناس دالة عليهم، فكانوا كثيراً ما يستخدمون تلك الدالة لاكتساب الأموال، وكان ذلك شأنهم حتى في العصر الأول.

قال المغيرة بن شعبة: ربما عرق الدرهم في يدي أرفعه ليرى ليسهل اذني على عمر. وقد عرفت أنه يدعو إلى خراب الممالك «الظلم» فإنه يقوض أركان الدول بما يدعو إليه من تقييد الأيدي عن العمل، فيقعد الزارع عن زراعته، والتاجر عن تجارته، والصانع عن صناعته، ولا مال إلا إذا اشتغل هؤلاء؛ ولذلك قالوا: العدل أساس الملك.^(١)

(١) من التمدن الإسلامي: ص ١٢٦ - ١٤٦. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٢، ص ٣٥٤ - ٤١٨.

الركيزة الثانية: سفك الدماء

وتتلخص هذه السياسة في الشواهد التالية:

١- القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بني العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين: الأول أن يجاروا بني أمية ويتغلبوا على أحزابهم، والثاني أن يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم إلى الخلافة، فكان أبو مسلم في سبيل الدعوة يقتل كل من اتهمه أو شك فيه، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة (٦٠٠ / ٠٠٠) نفس قتلوا صبراً بدون حرب في بضع سنين، وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة، وفيهم غير واحد من أجلة النقباء وكبار الدعاة كأبي سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بهاله كما نصرها أبو مسلم بسيفه، وكان يقال له وزير آل محمد، كما يقال لأبي مسلم أمير آل محمد، ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقواد، قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر، حتى سئم الناس فعله، وملوا سفك الدماء، وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى أحدهم إلى مقابلته إلا أوصى وتكفن وتحنط، وثار من ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس، وصاح في رجاله: ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق. فتبعه على رأيه أكثر من (٣٠ / ٠٠٠) رجل، فوجه إليهم أبو مسلم جنداً وقتلهم.

٢ - غدر المنصور والدولة العباسية

فبهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبني العباس، فساعدهم أولاً على إخراجها من بني أمية، ولم يكتف ببيعة أبي العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولكنه حرضهم على قتل من بقي من بني أمية بالإغراء أو التخويف على السنة الشعراء.

ويقال: إنه هو الذي أوعز إلى سديف الشاعر مولى بني هاشم أن يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح، وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان السفاح قد أمنه وأكرمه وأمن سائر بني أمية، فيقال: إن سديفاً دخل يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام، فأنشد سديف قوله:

لا يغرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويما
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويما
فتأثر السفاح، وأمر بسليمان فقتل، ودخل شاعر آخر فقال شعراً آخر، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية فقتلهم، وبسطوا النطوع على جثثهم، فأكلوا الطعام وهم يسمعون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً، وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك، وإن الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السفاح، وهو مشهور بكرهه لبني أمية وشدة نقمته عليهم، ولكن لا خلاف في أنهم قتلوا غدرًا سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الأمراء المماليك بمصر أوائل القرن الماضي.

والغالب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم، فأشار إلى سديف أن يجرضهم على ذلك بشعره، ولم يقل سديف ذلك حباً ببني العباس، بل كرهاً لبني أمية وانتقاماً لآل علي عليه السلام لأنه من الشيعة العلوية، وهو يظن أن الخلافة شورى بين الشيعة. فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك نقم على العباسيين وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور، فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفاً فيدفنه حياً ففعل.

وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأفتهم من سائر البلاد، ولم ينج منهم إلا قليلون أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ففر إلى الغرب، وأسس دولة بني أمية بالاندلس.

وتولى استئصال شأفة الأمويين من بني العباس عبد الله بن علي، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم، ومثل بجثثهم انتقاماً لما فعلوه قبلاً بالأئمة من آل علي عليه السلام وخصوصاً زيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك

من قبره وهو لم يبيل فضربه ثمانين سوطاً ثم أحرقه.

وبعد أن تخلص المنصور من الأمويين لم يدخر أبو مسلم وسعاً في تخلص الدولة له من أقربائه آل العباس أنفسهم، وفي جملةهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره، وقد طمع بالخلافة فحاربه بأمر المنصور، وغلبه وقبض على ما في عسكره من الغنائم والأسلحة، فأراد المنصور أن يوجه همه إلى بني الحسن منافسيه في الخلافة، فاشتغل خاطره بأبي مسلم، وأصبح خائفاً منه على سلطانه بعدما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والقدرة، ولم يكن همه إلا قتله ليتفرغ للعلويين، فاتهمه بأنه ينوي إخراج الملك منهم، فاستحق القتل عملاً بوصية الإمام.

وكان المنصور قد خاف أبا مسلم، وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبي العباس، ولكن أبا العباس لم يرد الإقدام على ذلك، فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي، فضرب عدويه أحدهما بالآخر، فأيهما قتل صاحبه انفراداً، فيسهل على المنصور قتله، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي احتال المنصور في استقدامه إليه من خراسان في حديث طويل وأدخله عليه دخول الزائر الأمين، وقد أكنن له أناساً بالأسلحة وراء الستر، فأخذ سيفه منه وحادثه وتدرج من العتاب إلى التوبيخ حتى إذا أذفت الساعة صفق المنصور، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ، فأمر به فلفوه بالبساط، ثم دعا بعض رجال خاصته وشاورهم في قتله، ولم يقل لهم: إنه قتله، فقال له أحدهم: إن كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم أقتله. فأشار المنصور إلى البساط فلما رأى أبا مسلم فيه تحقق موته. قال: عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك.

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية لعلمه أنه ارتكب بقتله خطراً عظيماً، فما عتم أن ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة، فقتل الراوندية جميعاً، ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة، فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة، ثم عمد إلى تخلص الخلافة من آل علي عليه السلام فحارب

محمد بن عبد الله وقتله.

ثم رأى من آل العباس ما ينازعه عليها منهم عمه عبد الله، وكان أبو مسلم قد غلبه، ولكنه لم يتمكن من قتله، فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه إليه مع ولديه، فجاء فحبسه عنده، ثم علم سرّاً أنّ ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته، وكان والياً على الكوفة، فتجاهل وبعث إليه وقد دبر أمراً كتمه عن رجال بطانته، فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والإكرام، ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية، واستبقاه وحده، وأقبل عليه، وقال: يا ابن العم، إنّي مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي؟

فقال له عيسى: أنا عبد أمير المؤمنين، ونفسي طوع أمره ونهيه.

فقال المنصور: إنّ عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيع دمه، وفي قتله صلاح ملكنا، فخذه إليك واقتله سرّاً. فأطاعه عيسى فسلم إليه عمه، فمضى به إلى الكوفة، وأضمر المنصور أنّ ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به، فيكون قد استراح من الاثنين معاً. أما عيسى فكأنّه شك في نية المنصور والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضاً خوفاً من وصية الإمام، فاستشار بعض ذوي مشورته فحذروه من عاقبة ذلك، فحبس عمه ولم يقتله، ولما طلبه المنصور منه دفعه إليه حياً فقتله في بيت جعل أساسه على الملح.

وأمثله ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة، وكان يعطي الأمان ثم ينكث، فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه المنصور (كما تقدم) فبعث إليه يعرض عليه الأمان ويعدّه خيراً، فأجابه محمد: أي أمان تعطيني، أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبي مسلم؟

وظل المنصور وأبو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك، وكان المنصور أيضاً قدوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني أمية في الأندلس، وقد فر

من العراق فالشام إلى المغرب خوفاً من القتل، فنصره رجاله، وخصوصاً مولى له اسمه بدر سعى في تأييد سلطانه مثل سعي أبي مسلم في الدولة العباسية، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة، وسجنه، ثم أقصاه حتى مات، وفعل نحو ذلك في رؤساء الأحزاب الذين نصره.

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون إلى ذلك إذا أعوزهم الاستدلال به، فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى في نصره أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته كتب الأمين إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم أنه ما قام لنا منذ قمنا بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف، فانظر لنفسك أو دع.^(١) وفي الواقع أن المأمون لما استتب له الأمر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبي مسلم، فأهدى له خادماً كان ربا، وأمره أن يسمه ففعل.

وقد رأيت أن الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا، وفيهم الموالي وأهل الذمة، وكانوا ناقلين على دولة بني أمية، فنصروا أهل البيت انتقاماً منها والجمهور الأهم منهم الفرس.^(٢)

اضطهاد أهل الذمة في العصر العباسي

على أن ذلك لم يمنع تضيق بعض الخلفاء على النصارى، فإن الملوك المستبدين تختلف سياستهم باختلاف أخلاقهم وأطوارهم، فقد يترأى لبعضهم التضيق على النصارى لسبب أو لغير سبب كما فعل هارون والمتوكل من خلفاء بني العباس، فالمتوكل المتوفى سنة ٢٤٧ هـ كان شديد الوطأة على النصارى، ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم؛ لأنه أمر بهدم الكنائس المحدثه بعد الإسلام،

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٤٠٤، ذكر أيام محمد الأمين العباسي. سير أعلام النبلاء: ج ٨، ص ٤٢٧.

(٢) من التمدن الإسلامي: ص ٢٧٧ - ٢٨١. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤٠٠ - ٤٠٥.

ونهى أن يستعان بهم في الأعمال أو أن يظهروا الصليبان في شعائر دينهم، وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب، وأن يلبسوا الطيالسة العسلية، ويشدوا الزنار، ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة أربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الأخرى، ومن خرج من نسائهم تلبس إزاراً عسلياً، ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك.

ولا يستغرب هذا التضييق من المتوكل، فإنه نقم مثل هذه النقمة على سائر أهل الدولة وغيرهم، وشدد النكير على الشيعة، وأهلك العلماء والكتاب، وكان شديد التعصب على الشيعة فاضطهدهم وعذبهم، ولاقى أهل الذمة منه الشدائد، ويقال نحو ذلك فيما صدر في أيام هارون من الأوامر بهدم الكنائس في الثغور، وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم.

وهكذا يقال في مضايقة النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم، وأقدم ما قاسوه من تضييق الحكام في طقوسهم وكنائسهم في أيام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ، وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى في مصالح الدولة في أيامه حتى صاروا كالوزراء، وتعاضموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم، فتزايدت مكابدهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن إبراهيم، فغضب الحاكم بأمر الله، وقد سوغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ، فأخرب الروم بعض جوامع المسلمين، ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية، فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على أهل مذهبهم في بلاده على أن أفطع ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد إنما كان في دور الانحطاط أو التقهقر في الأجيال الإسلامية الوسطى، وخصوصاً بعد الحروب الصليبية؛ لأنها كانت سبباً كبيراً في إثارة التعصب بين الأمتين.

فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الإفرنج سراً، فبالغ

أمراء المسلمين في الفتك بهم، فنصارى «قارا» مثلاً بين دمشق وحمص، وكانوا يسرقون المسلمين في أثناء تلك الحرب ويبيعونهم خفية من الإفرنج، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر في أثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم، واتخذ صبيانهم مماليك، فتربوا بين الأتراك في الديار المصرية، فصار منهم أجناد وأمراء.

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل الذمة في بلادهم حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في أذى الأخرى، ولما كانت الحكومة إسلامية فالنصارى هم المغلوبون.

فإذا احترقت مادة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود بإحراقها، فتأمر الحكومة بإحراقهم أو إحراق كنائسهم، وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة؛ لأنّ الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها، وكثيراً ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل أو يتنصرون، وإذا دخلوا بلداً إسلامياً بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع، ولما تغلب نصارى الأندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن، ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم.^(١)

على أنّ المسلمين في إبان تمدنهم أطلقوا حرية الدين لرعاياهم على اختلاف طوائفهم ونحلهم، فلم يسمع أنّهم أكرهوا طائفة من الطوائف على الإسلام تعصباً للدين، وبالجمله فقد كانت الأفكار من حيث الدين مطلقة الحرية في تلك العصور لا يكره الرجل على معتقده أو مذهبه، فربما اجتمع عدة أخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهبهم، فأولاد أبي الجعد ستة، كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئان واثنان خارجيان.

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤١١-٤١٤.

العصبية العربية في العصر العباسي

وكان همُّ المنصور منصرفاً إلى العرب لأنهم أهل عصبية إذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة، وفعلوا ما أرادوه؛ لما يعلمه من جرأتهم في طلب الحق وتقييح الظلم جهاراً، ولا يحملون ضيماً، وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من الغدر والفتك مما لا تصبر عليه النفوس الأبية.

وقد زاده حذراً منهم ما كان يسمعه من أقوالهم الدالة على إباء الضيم ولو كان فيه ما يسؤه، كما اتفق له وهو في بعض حجاته وكان يطوف بالكعبة ليلاً إذ سمع قائلاً يقول: اللهم أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد، ودعا القائل وسأل عنه قوله، فطلب أن يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه، فقال له: إن الذي حال بين الحق وأهله هو أنت يا أمير المؤمنين. فقال المنصور: ويحكم، وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟ فقال الرجل: لأن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجاباً معهم الأسلحة وأمرتهم أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان، ولم تأمر بإيصال المظلوم.^(١)

الركيزة الثالثة: الدسائس

اشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الأسرار والتكتم فيما ينوونه، وكانوا يفرضون ذلك على مواليتهم ورجال بطانتهم، ولا سيما فيما يحتاجون إليه لتثبيت دعائم دولتهم، فربما كان خادم الرجل أو جاريتة عيناً عليه، وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على أولاده أو أخته، أو يقيم ولاية العهد الرقباء على آبائهم كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم هارون، فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسروراً

(١) من التمدن الإسلامي: ص ٢٨٤ - ٢٨٧. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤٢٠ - ٤٢١.

الخادم، ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطيب، وكانوا يحصون أنفاسه، وبمحافظةهم على الأسرار والتكتم في أعمالهم أشكل على الناس كثير من الحوادث التي جرت في أيامهم ولم يفهموا أسبابها، فنكبة البرامكة مثلاً تكهن المؤرخون في تدوينها رجماً بالغيب، وذهبوا في أسبابها كل مذهب، وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبه مات من أكلة عنب أو تمر أو غير ذلك وإنها قتل مسموماً بدسياسة بعض الخلفاء أو القواد أو ولاة العهد إلى طبيبه أو صاحب داره.

الركيزة الرابعة: التمييز والتفرقة

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ أنسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولوداً من أبوين عربيين، فإذا كان أبوه غير عربي سموه المذرع، أو كانت أمه أعجمية سموه المهجين. وإذا كانت أمه أمة استعبدوه، فإذا أنجب اعترفوا به، وإلا ظل عبداً. أما بنو أمية فظلوا على احتقارهم بني الإمام إلى أواخر دولتهم، وكانوا لا يستخلفونهم، وقالوا: لا تصلح لها إلا العرب.

على أن طبيعة العمران غلبت على ما أراده الأمويون من حفظ النسب العربي، وقضى الاختلاط بالأعاجم باختلاط الأنساب حتى في الخلفاء من بني أمية، فبايعوا في أواخر دولتهم لأبناء الإمام، وأول من تولى الخلافة من الخلفاء المهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ.

أما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي وقد ضعفت في أيامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط، فأصبحوا لا يعدون بالأم على الإطلاق، وكان أكثر خلفائهم من بني الإمام حتى أصبحت العصبية العربية تنسب إلى البلاد، فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلاً يعدون من العرب، وهم بالحقيقة أخلط من العرب والترک والديلم والجركس والروم والفرس والأرمن والكرج وغيرهم، ولكن الرجل إذا نزل بعض هذه البلاد عد في بادئ الرأي غريباً، فإذا قطنها وتناسل فيها

كان أولاده مولدين، فإذا توالى عليهم الأجيال سمووا عرباً.^(١)

الركيزة الخامسة: الاعتماد على الخدم

أقدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم هارون، ولم يكن له شأن كبير، وأول من قرب الخدم واستكثر منهم الأمين، فلما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم، فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه، وعيّن منهم جماعة أسموهم الجرادية، وجماعة من الحبشان ساهم الغرابية. ولم يقرب الأمين الخدم لحمايته أو سياسة دولته، ولكنه فعل ذلك انهماكاً في الترف والقصف، فازداد الخدم نفوذاً وسطوة حتى أصبح الأتراك يخافونهم؛ وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل إلى قيادة الجند أو الإمارة على الأقاليم.

ولما تكاثرت الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقاً تعرف بأسماء خاصة، وفيهم الرومي والتركي والحبشي والأرمني والسندي والبربري والصقلي، في فرق أشبه بفرق الجند، ولهم الرواتب والجواري. وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الأمراء إلى خمسمائة غلام أو ألف أو أكثر، فغلما ن بعا الشرايبي أحد قواد الأتراك بلغ عددهم ٥٠٠، وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠.

وأول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله، تولى سنة (٢٩٥ هـ) وعنده من الخدم والخصيان (١١ / ٠٠٠) خادم من الروم والسودان، وكثير من المال والجوهر، فتمكن من الحكم ٢٥ سنة، رد فيها رسوم الخلافة إلى ما كانت عليه، وكان يقدم الخدم ويستعين بهم، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها.

فالخلفاء إنما لجأوا إلى تحكيم الخدم والخصيان استبقاءً لحياتهم، أو إحياءً لنفوذهم ودفع استبداد جند الأتراك ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية، بل شمل معظم الدول الموازية.

(١) من التمدن الإسلامي: ص ٢٩٥ - ٢٩٦. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤٤١ - ٤٤٤.

الركيزة السادسة: نفوذ النساء في الدولة

للمرأة تأثير كبير في أعمال الرجل مهما يكن نوعها وفي أي عصر كان وأي أمة كانت وإن اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الأمم وآدابها. أما الدولة إذا كانت ملكية مطلقة فللمرأة شأن كبير في سياستها مع شيوع الطعن في آرائهن وقولهم: إن مشاورتهن في الأمور مجلبة للعجز، ومدعاة إلى الفساد. ويعظم أثره على الخصوص في تأثير أمهات الخلفاء على أولادهم، ولا سيما في أواسط الدولة عند احتجاج الخلفاء واستسلامهم إلى الخدم. على أن العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون إلى النساء، فأحرزت المرأة نفوذاً كبيراً، وخصوصاً أمهات الخلفاء، وأول من استبد منه الخيزران أم المهادي وهارون، وهي حرشية، وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها أولادها، ومن خالفها منهم، أو اعترضها قتلته.

وكانت في أيام زوجها المهدي صاحبة الأمر والنهي، وهو يطاوعها، فلما تولى ابنها المهادي أرادت الاستبداد بالأمر دونه، وأن تسلك به مسلك أبيه، فلم يمض أربعة أشهر حتى انشال الناس إليها، وكانت المراكب تغدو وتروح إلى بابها، فسأه ذلك، وكلمته يوماً في أمر فلم يجد إلى أجابتها سبيلاً، فقالت: لا بد من إجابتي إليه، فإنني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب المهادي وقال: ويبي على ابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها، والله لا أقضيها لك. قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة.

قال: لا أبالي. وقامت مغضبة فصاح بها: مكانك، والله أنا نفي من قرابتي من رسول الله لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو خاصتي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك، أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك وإياك لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي.

فانصرفت وهي لا تعقل، ولم تنطق عنده بعدها، ثم إنّه قال لأصحابه: أيها خير أنا أم أنتم، وأمي أم أمهاتكم؟ قالوا: لا بل أنت وأمك خير. قال: فأيكم يجب أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقال: فعلت أم فلان وصنعت؟ قالوا: لا نحب ذلك. قال: فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون بحديثها، فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها، فحقدتها عليه حتى إذا علمت أنه يريد خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر أمرت بعض جوارياها بقتله بالغم والجلوس على وجهه فقتلوه.

فلما كانت أيام هارون استبدت الخيزران في الأحكام، واحتشدت الأموال، فبلغت غلتها في العام (١٦٠) مليون درهم، أي نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد، ولما مات توسع هارون بأموالها. وقس على ذلك ثروة سائر أمهات الخلفاء.

أما من حيث النفوذ فقد كان لأم المقتدر وهي تركية سطوة غربية على رجال الدولة في خلافة ابنها، وكانت تتصرف في الأحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها، ويقال نحو ذلك في أم المستعين بالله المتوفى سنة ٢٥١ هـ، وكانت صقلبية الأصل، فأطلق المستعين يدها في أمور الدولة، ويد اثنين من قواد الأتراك واتامش وشاهك الخادم، فكانت الأموال التي ترد إلى بيت المال من النواحي يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة.^(١)

الركيزة السابعة: غياب القانون ومزاجية الأحكام

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في أيام خلفائها الأوائل، وخصوصاً هارون والمأمون بتدبير الوزراء الفرس، ولا سيما البرامكة، فاتسع سلطانها في أيامهم، وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد، فبلغت الهند شرقاً، والبحر الاطلنطيكى غرباً، وبلا سيبيريا وبحر قزوين شمالاً، وبحر فارس وبلاد النوبة جنوباً.

(١) من التمدن الإسلامي: ص ٣٠٠ - ٣٠٣. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤٤٥ - ٤٦٠.

فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركي في الحكومة أصبحت الأحكام فوضى، وخصوصاً بعد المتوكل؛ لأنهم أقدموا على قتله، وكان ذلك فاتحة جرأتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل، فعجز الخلفاء عن القيام بشؤون الدولة، وهم أصحابها المسؤولون عنها، والأحكام تصدر بأسمائهم وإن كانوا مدفوعين إلى إجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ في بلاطهم من الوزراء أو القواد أو الخدم أو الموالي أو النساء أو غيرهم، فالوزير الذي يتولى أمور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام أو عامين من عزل أو قتل أو حبس لا يهمله غير الكسب من أي طريق كان، ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك، فيما بعد، عملاً بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر، وهي قوله: إن تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب.

وانتبه الخلفاء إلى مطامعهم فأصبحوا إذا عزلوا وزيراً صادروه وأخذوا أمواله، فالوزير يتولى الوزارة عاماً أو عامين ثم يعزل، أو يستقيل وله عدة ملايين من الدينانير فضلاً عن الضياع والمباني، وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من أسباب المظالم.

وكان الوزير لا يولي عاملاً على ولاية ما لم يقبض منه مالاً على سبيل الرشوة يسمونه «مرافق الوزراء» ومن أغرب حوادث التولية بالرشوة أن الخاقاني وزير المقتدر بالله ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة، وأخذ من كل واحد رشوة، ومن أغرب طرق الاغتصاب أن يغتصب العامل أو الوزير أو غيرهما من رجال الدولة ضيعة لبعض الناس فيأخذها بغير ثمن، ويستغلها لنفسه، وإذا استحق عليها الخراج أداه صاحبها الأول مخافة أن يثبت الملك لمغتصبها، إذ يدون خراجها باسمه في الديوان فيبطل حتى مالكها في ملكها، فيضطر المالك إلى دفع الخراج أعواماً ريثما يتوفى إلى من ينصفه ممن يفضي النفوذ إليهم من أهل العدالة، أو يهتدي إلى وساطة أو حيلة.

ناهيك بما كانوا يغتصبون من أموال الرعية باقتضاء خراج الأرض مضاعفاً أو مكرراً.

الجانوسية اللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الأموال أن يقسط الوزير أو من يقوم مقامه على أرباب الدواوين والقضاة أو غيرهم مالا على وجه القرض على أن يسبب لهم عوضه من أهل النواحي، فتقع الخسارة على الرعية، فتضايق أهل الأسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق، وضافت أبواب الرزق على الناس، وأصبحت الحقوق فوضى، ومن استطاع حيلة في اختلاس المال سراً أو جهراً استخدمها، وكثر العيارون والشطار في المدن، وتعددت اللصوص في القرى وفيهم جماعة أصلهم من جنود الدولة طمع الوزراء أو القواد بأرزاقهم، فخرجوا يتعرضون للمارة، ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم، وإذا عوتبوا أو حوكموا احتجوا بذلك، وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار ويأخذون أموالها باعتبار أنها حق لهم.

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الأحكام من الضيق المالي وغلاء الأسعار في المدن، وما انتشب من الفتن بين الأحزاب، ولا سيما السنة والشيعة، وراجت الدسائس، وتكاثرت السعيات برجال الدولة، وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب، وأصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون إليه أخبارهم، فتسابق أسافل الناس إلى السعاية بأفاضلهم، يرفعون إلى الخليفة أو إلى صاحب النفوذ في دولته كتباً يختلقون بها المطاعن على الأبرياء للانتفاع بأذاهم. فلما فسدت الأحكام في دار الخلافة واستبد الوزراء والقواد في شؤون الدولة رأى العمال في الولايات يجترئون من ذلك الاستبداد في ولاياتهم فأخذوا يستقلون، فتشعبت المملكة العباسية إلى ممالك يحكمها الأمراء من الفرس والأتراك والأكراد والعرب وغيرهم.

تشعب المملكة العباسية

وأما استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء أو اختلال شؤون الدولة فالأسبق إليه الفرس ثم الأتراك فالأكراد مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء، وتدرج كل

من هذه الأمم من العمالة إلى الإمارة إلى الملك والسلطنة.^(١)

الخلافة والسلطة

لما ظهر الإسلام كان النبي ﷺ رئيس المسلمين في أمور الدنيا والدين، وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وإمامهم وقائدهم، وكان إذا أولى أحد أصحابه بعض الأطراف خوله السلطتين السياسية والدينية، وأوصاه أن يحكم بالعدل، وأن يعلم الناس القرآن. ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الإسلام يختلف عما في النصرانية؛ لأن النصرانية انتشرت أولاً في عامة الناس، ثم انتقلت إلى رجال الدولة، وأما الإسلام فإنه ظهر أولاً في رجال الدولة، وانتقل منهم إلى العامة؛ لأن أقدم أهل الإسلام الصحابة وهم جند المسلمين وأمرؤهم، وقد نشروا الإسلام في الأرض، وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم، فلما تأيد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الأمراء في السلطة الدنيوية كان منصب الخلافة من أكبر أسباب تغلبهم لتأثير الدين على أذهان الناس في تلك الأيام، فقد كانوا لا يجتمعون إلا تحت رايته، وخصوصاً في الشرق، ولا يزالون على ذلك حتى الآن على أن أهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حداً فاصلاً بين الخلافة والسلطة، فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها أهل المطامع بالدهاء والقوة خالفوه، وأبوا مبايعته، فلما قتل علي عليه السلام وصالح الحسن عليه السلام معاوية لم ير المسلمون بداً من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك، لكنهم استنكفوا من أن يسموه «خليفة» أو يعترفوا بسلطة دينية، فسموه «ملكاً» وهو يأبى إلا أن يجمع الرئاستين لعلمه أن الرئاسة الدنيوية وحدها لا تفيده شيئاً.

ذكروا أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية بعد أن استقر الأمر له وقال: السلام عليك أيها الملك، فضحك معاوية، وقال: وما عليك لو قلت يا أمير المؤمنين؟ فقال: تقول لها جذلان ضاحكاً؟ والله ما أحب أني وليتها بما وليتها به.

(١) من التمدن الإسلامي: ص ٣٠٣ - ٣٠٥، للشيرازي. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤٦١

فيظهر من ذلك أتمها كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء الذي سلكه بنو أمية، ويعتقدون أن بني أمية نقلوا الإسلام من الدين إلى العصبية بالمال والسيوف، ثم إلى الملك البحت، كما وقد مرت عليك بعض الشواهد في القسم الأول.

الركيزة الثامنة: السمة الدينية

لا يتأيد الحكم المطلق ولا يتسع نطاقه ويطول مكثه إلا بالدين أو ما يقوم مقامه، إذا توفرت شرائط التوازن في القوى، ووزعت القدرات في الدولة توزيعاً منصفاً يحفظ حق الجميع في الرأي والحكم والإدارة.

فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها إلا وفي سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين بأن تجعل للوكها مزية على سائر الناس. وإذا أريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى مدعومة بالتعددية والتكامل في ميزان القوى، وهي أفضل الحكومات وأطولها عمراً، وإلا فإنها تحل سريعاً، ويكفي لانحلالها أن يتولى شؤونها ملك قليل التدبير ناقص الاختبار، فيغتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده.

وإذا تدبرت تاريخ الدول الإسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيراً كبيراً في طول بقائها واتساع نطاقها؛ ولذلك ان بين الخلفاء الأولين وعلماء الدين الإسلامي كالحفاظ والمحدثين والفقهاء علاقة متبادلة، وكل منهم يتقوى بالآخر، ومعنى ذلك أن الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية، فهو أمير الناس في السلم، وقائدهم في الحرب، وإمامهم في الصلاة، وهو قاضيهم وفقههم كما كان النبي ﷺ في أول الإسلام.

فلما اتسعت الفتوح وأمست الحاجة إلى تقسيم الأعمال بمقتضى سنة العمران عمد الخليفة إلى أنابة من يتولى تلك الأعمال عنه، فالوالي إنَّما هو نائب الخليفة في العمل الذي يتولاه، والقاضي نائبه في القضاء، وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة، وقس على ذلك سائر المناصب الإدارية والسياسية والقضائية.

وكذلك في المهن الدينية فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون أعمالهم بالنيابة عن الخليفة، فكما يحتاج الخليفة إلى نصره العمال والقواد والقضاة في تأييد سلطته الدنيوية فهو يفتقر أيضاً إلى نصر الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية؛ ولذلك رأيت الخلفاء يقربون أهل العلم، ولا سيما في أوائل الإسلام.

فلما طمع بنو أمية بالخلافة والتمسوها من طريق الدهاء والبطش كان في جملة ما أهملوه الأخذ بأقوال أهل العلم؛ لأنهم لو أطاعوهم ما تيسر لهم الملك، فقاى العلماء في أوائل دولة الأمويين عذاباً شديداً من المقاومة والضغط، فاضطر بعضهم للإفتاء بما يرضي أهل الدولة، وأبى البعض الآخر إلا الحق، فاضطهدوهم وضيقوا عليهم، دأبوا بذلك من أيام عثمان والعمال يومئذ من بني أمية، وقد أخذوا يمهدون السبيل لسلطانهم بجمع الأموال والاستئثار بالنفوذ.

وفي حكاية أبي ذر الغفاري مع معاوية بن أبي سفيان دليل ناطق على ما كان من جرأة أهل العلم على الخلفاء وإنكار الأمويين ذلك، فلما استتب الأمر لبني أمية حسبت الأفكار، وتقيدت الألسنة، ولم يتقدم من العلماء في مناصب الدولة إلا المتملقون، فظل الأحرار من الفقهاء في زوايا الإهمال معظم أيام بني أمية.

فلما تسلط العباسيون وأظهروا أنهم يريدون إحياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الأمويين ظهر أهل الأفكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد، وقربهم الخلفاء، وأكرمهم، فعادوا إلى جرأتهم في خطاب من يؤانسون منه الإصغاء.

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامية مثل توسط الأمراء والقواد في تأييد السيادة الدنيوية، وقد يغني الفقهاء عن الواسطتين جميعاً؛ لأن عامة المسلمين ينقادون إلى فقهاءهم، ويستسلمون إليهم، كما ينقاد عامة النصارى إلى كهنتهم، فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون إلى الفقهاء للاستعانة بهم على إخضاع العامة وامتلاك قلوبهم، وكذلك كان يفعل السلاطين والأمراء لنفس هذا السبب أو لسبب آخر.

والنفع متبادل بين الفئتين؛ لأن الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالاً

وجاها، ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى، فرسخ احترام الخلفاء في قلوب العامة، وتمسكوا بهم، وعظموهم باسم الدين.

وكان الخلفاء يدعون للعامة باسم الدين أيضاً، ولم يكن للخلفاء بد من إظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية لئلا يفسد عليهم العامة، ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك، وذكروا أن الوليد بن يزيد الأموي مع اشتغاره بالخلاعة والتهتك كان إذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطوية، ثم يتوضأ، فيحسن الوضوء، ويؤتى له بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة فيصلي فيها أحسن صلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود، فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب.

الدول الإسلامية والخلافة

فلهذا السبب كان الأمراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالإدارة والسياسة لضعف الخليفة عن حرهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين؛ إذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم، فإذا أراد أحدهم الاستقلال بولاية أو فتح بلد أو إنشاء إمارة لنفسه بعث إلى الخليفة في بغداد يباعه، ويطلب منه أن يعطيه تقليداً أو عهداً بولاية ذلك البلد، أو أن يلقيه ويخلع عليه، وإذا أبى الخليفة أن يجيبه غضب وعد ذلك تحقيراً له، وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تسيته.

وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يعرفون حاجة الأمراء المسلمين إلى رضاهم، فإذا ساءهم أحد منهم هددوه بالخروج من بغداد، فيضطر إلى استرضائهم؛ لأن خروجهم يغضب العامة، ويجرئهم على خلع الطاعة لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ؛ ولذلك لم يكن من سبيل إلى نزع سلطته أو الاعتراض عليها إلا من وجه ديني، فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين، فيلبسون الصوف، ويدعون إلى المعروف، أو يعلقون في أعناقهم المصاحف أو نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة، وإذا أراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامة أصلحه بالتقوى.

فعندما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون أو صاه بإظهار الورع والدين

ليتميل القواد، ولما رأى أبو مسلم الخراساني أهل اليمن في قلة قال: أي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة. يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء.

فلم يكن للممالك الإسلامية بد من خليفة تبايعه ليثبت ملكها، وقد يستاء بعض الأمراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم، ولا يخلع بيعته إلا إذا رأى خليفة آخر يبايعه. فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة بغداد وبايعت الفاطميين في القاهرة.

فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله توقف شأن الخلافة، فاضطربت أحوال مصر، وبذل سلاطينها جهودهم في إيجاد خليفة يبايعونه ولو أعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحداً ليحكموا العامة به على أنهم ما زالوا يبحثون بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد حتى ظفروا بالهاربين منهم، فاستقدموهم إلى القاهرة، وفرضوا لهم الرواتب، واحتفلوا بهم احتفالاً عظيماً، وبالغوا في احترامهم وإكرامهم مع علمهم أن أولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئاً، ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم.

وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الإسلام بالأطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسي بالقاهرة، ويطلبون التقليد منه، أو المنشور لإثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك.

من الذي بعث أولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة طريد شريد لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في أذهان العامة؟
ولا ننكر أن بعضهم ربما كان يطلب بيعة الخليفة تديناً، ولكن الأكثرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها.

أما المبايعه بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة إسلامية مهمة قبل العثمانيين، فلما فتح السلطان سليم مصر وجد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم، فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣ هـ.^(١)

(١) من التمدن الإسلامي: ص ٣٠٩ - ٣١٤. تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٤، ص ٤٧٦ - ٤٨٤.



الفصل الخامس

مواقف العباسيين من المعارضة

تفاقت الأزمات السياسية في المجتمع الإسلامي، وساءت الأحوال، وخيم التعسف والاضطهاد الديني على كل المجالات جراء السياسة القمعية التي مارسها العباسيون ضد خصومهم السياسيين أو المذهبيين، فنشبت ثورات مسلحة معارضة لحكمهم في أكثر من مكان باتت تهدد الدولة بالسقوط، ولكن الأساليب اللاإنسانية التي اتبعتها خلفاء بني العباس في قمع هذه الثورات كانت تقضي عليها في غالب الأحيان، حيث كانوا يقتلون كل من يجدون فيه حساً ثورياً أو اتجاهاً مخالفاً لاتجاه السلطة، فيأخذون بالتهمة، ويقتلون بالظنة.

وسنقل إليك بعض الصور والمواقف المأساوية عن تلك الأحداث، ابتداءً من ثورة المدينة التي قادها محمد ذو النفس الزكية، وهي في المدينة العاصمة السياسية التي شاد فيها الرسول الأعظم ﷺ دولته الإنسانية العادلة.

حيث أنزل الخليفة المنصور غضبه وسخطه عليها فسجن عبد الله بن الحسن في دار مروان بالمدينة ثلاث سنوات، وقد تألم كثيراً محمد ذو النفس الزكية لما نال أباه وأسرتة من ظلم وجور واضطهاد، فتوجه مع أمه هند سراً متخفياً إلى المدينة، وطلب منها أن تتوجه إلى أبيه عبد الله في سجنه لتقول له:

يقول لك محمد بأنه يقتل رجل من آل محمد ﷺ خير من أن يقتل بضعة عشر رجلاً. قالت: فأتته فدخلت عليه السجن فإذا هو متكئ على بردعة في رجله سلسلة. قالت: فجزعت من ذلك، فقال: مهلاً يا أم يحيى فلا تجزي فما بت ليلة مثلها. (١)

(١) مقاتل الطالبين: ص ١٩٣، ذكر السبب في أخذ عبد الله بن الحسن.

ثم نقلت هند هذه الرسالة الشفهية إلى زوجها من ابنها، فقال عبد الله الوالد بعدما استوى جالساً:

حفظ الله محمداً، لا، ولكن قولي له فليأخذ في الأرض مذهباً، فوالله ما يحتاج عند الله غداً إلا أنا، خلقنا وفينا من يطلب هذا الأمر.^(١)
كان هذا الجواب الذي أرسله عبد الله لولده محمد كافياً ليمضي في طريقه ودعوته جاهداً ساعياً لمواجهة المنصور والدولة العباسية.

وعندما لم يفلح المنصور ولم ينجح بالضغط والإرهاب، ولم يجد نفعاً من سجن عبد الله بن الحسن وأسرته، اتخذ طريق الدهاء والحيلة والمكر؛ ليكشف عن مكان اختفاء محمد النفس الزكية، فوجه رسالة إلى محمد ذو النفس الزكية عن لسان الشيعة يذكرون فيها حبهم وتفانيهم وطاعتهم له، ويطلبون فيها بالمسارعة في إعلان ثورته، وأرفق المنصور الرسالة بأموال طائلة وهدايا كثيرة.

حمل الرسالة رسول من قبل المنصور إلى سجن عبد الله، فأطلعه على ما حمل والرسالة، وأتتها من الشيعة، فقال له عبد الله:

أن ابنه محمد محتف في جبل اسمه (جهينة) وطلب من الرسول أن يذهب إلى علي بن الحسن ليدله على مكان ذو النفس الزكية.

كادت هذه الحيلة التي نسج خيوطها المنصور والخداع الذي خطه أن ينجح، لولا رجل مؤمن من الشيعة كان كاتباً للمنصور مخلصاً في تشييعه كتب إلى عبد الله بن الحسن يخبره ويطلعه على الحقيقة وأتتها خدعة، فبعث عبد الله ببعض خاصته يحدرون علي بن الحسن ومحمداً ذو النفس الزكية من رسول المنصور، فخابت مكيدة المنصور، وانكشفت حيلته، ولم تنجح المحاولة.

وكان زياد بن عبيد الله الحارثي الوالي على المدينة قد تعهد للمنصور قبل رحيله للعراق أن يبحث عن مكان اختفاء محمد ذو النفس الزكية، ولكنه تباطأ بالبحث عنه؛ لأنه يعلم بأن المنصور سيقتل محمداً إن ظفر به، ولم يطب للوالي أن يلقي دمه

(١) مقاتل الطالبين: ص ١٩٣.

على عاتقه رغم حث الوالي على البحث عليه والكشف عن مكان اختفائه.. وبعد فترة قدم محمد النفس الزكية إلى المدينة، واستقبله واليه زياد بن عبيد الله مرحباً وأعطاه الأمان، وتواعدا على مواجهة الناس في سوق المدينة، ووقف زياد يقول:

يا أيها الناس، هذا محمد بن عبد الله بن الحسن، فتصايح أهل المدينة: المهدي المهدي، ثم وجه زياد الحديث إلى محمد فحدث الناس، وبعد انتهائه من الحديث قال له زياد:

ألحق بأي بلاد الله شئت، وتوجه محمد إلى عدن؛ ثم إلى السند فالكوفة، وعاد أخيراً إلى المدينة.

جن جنون الخليفة المنصور لموقف واليه زياد من محمد، وغضب غضباً شديداً؛ إذ عصى الخليفة، وخرج عن ولائه للدولة العباسية.

فكتب الخليفة المنصور إلى قاضي المدينة وكان يوم ذاك عبد العزيز بن عبد المطلب بن عبد الله بالقبض على زياد، فنفذ القاضي أوامر الخليفة، وصادر أمواله، وكبله بالأغلال، وعزل أنصاره ورجاله، وأخذهم إلى المنصور، ووجد في بيت المال خمسة وثمانين ألف دينار، وقال زياد: والله ما أعرف لي عند أمير المؤمنين ذنباً غير أنني أحسبه وجد عليّ في ابني عبد الله، ووجد دماء بني فاطمة علي عزيزة.^(١)

الوالي الجديد

بعد عزل زياد بن عبيد الله الحارثي ولى على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري، وأمره بالجد والبحث عن محمد، ومهد له كل شيء، وبسط يده في النفقة في طلبه.

قدم المدينة هلال رجب سنة ١٤١ هـ ولم يعلم به أهل المدينة، فوجد في بيت المال سبعين ألف دينار، وألف ألف درهم أنفق المال كله في طلب محمد والبحث

(١) تاريخ الطبري: ج٧، ص ٥٢٩ - ٥٣٠، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج٥، ص ٥١٨ - ٥١٩، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة.

عنه، ومضت ليال وأيام استبطأه المنصور في إنجاز مهمته واتهمه. فكتب إليه أبو جعفر المنصور يأمره بكشف المدينة وأعراضها ولكنه امتنع^(١)، كان كسلفه يكره إراقة دماء بني الحس، فكتب إلى المنصور يعلمه بأن محمد بن الحسن قد غادر المدينة قبل وصوله إليها، فغضب الخليفة عليهم لعصيانه وأمره بعدم اضطهاد بني الحسن وإراقة دمائهم والتنكيل بهم، فعزله عن ولاية المدينة.

رياح بن عثمان والياً آخر

ثم استدعى رياح بن عثمان بن حيان وولاه على المدينة وهو ابن عم مسلم بن عقبة، قائد من قواد يزيد بن معاوية الذي حاصر المدينة، وقاتل أهلها في وقعة الحرة الشهيرة الذي قتل فيها الكثير من أهلها، وعمل فيها قتلاً ونهباً، وهتك في الأعراض، وأباحها لجنده ثلاثة أيام، وقيل أكثر، حتى ما بقيت بكر من بنات المدينة إلا وافتضت، كما روي.

ويروى عن مسلم بن عقبة أنه لم يكتف بذلك، بل قتل النساء والأطفال، وقتل ثمانية من صحابة الرسول ﷺ وأفنى البدرين، وقتل من القرشيين والأنصار سبعمائة فضلاً عن عشرة آلاف من سائر الناس.^(٢)

وبعد أن ولى المنصور رياح بن عثمان المدينة شرح له مهمته، وحدثه عن أعمال زياد وابن القسري وتقصيرهما وتلكؤهما في البحث عن محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، وأمره بالإسراع إلى المدينة، فخرج مسرعاً حتى قدمها يوم الجمعة لسبع ليال بقين من شهر رمضان سنة ١٤٤ هـ.

فتوجه فوراً إلى دار مروان، وعندما دخلها قال لبعض من معه، هذه دار مروان؟ قالوا: نعم.

قال: هذه المحلال المظعان، ونحن أول من يظعن منها. وعندما تفرق الناس

(١) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٣١، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥١٩، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٢١٦.

عنه - وعبد الله بن الحسن محبوبس في قبة دار على الطريق - بعث رياح الحسن بن زيد إلى عبد الله بن الحسن في سجنه يطلب منه الكشف عن مكان اختفاء ابنه محمد، فقال عبد الله: يا ابن أخي، والله لبليتي أعظم من بلية إبراهيم عليه السلام وإن الله عز وجل أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وهو لله طاعة.

قال إبراهيم: إن هذا هو البلاء المبين، وإنكم جئتموني في أن آتي بإبني هذا الرجل فيقتلها، وهو لله عز وجل معصية.

وعندما لم ينجح رسول رياح في مهمته قال لحاجبه: يا أبا البختری خذ بيدي ندخل على هذا الشيخ، فأقبل متكئاً عليه حتى وقف على عبد الله بن الحسن فقال:

أيها الشيخ، إن أمير المؤمنين والله ما استعملني لرحم قريبة ولا يد سلفت إليه، والله لا لعبت بي كما لعبت بزياد وابن القسري، والله لأزهقن نفسك أو لتأتيني بابنيك محمد وإبراهيم.^(١)

كذلك لم ينجح رياح بهذه المحاولة، فبدأ رياح ينزل سخطه وغضبه، فتناوله محمد بن خالد القسري فبسط عليه العذاب، وكان يضربه في كل غب خمسة عشرة سوطاً مغلولة يده إلى عنقه من بكره إلى الليل^(٢)، واستمر الضرب، واستمر العذاب حتى أخرجه يوماً من الأيام عمر بن عبد الله الجذامي - وكان خليفة صاحب الشرطة - وهو يريد ضربه، وما بين قدمه إلى قرنه قرحة، فقال له: هذا يوم غبك، فأين تحب أن نجلدك؟

قال: والله ما في بدني موضع لضرب، فإن شئت فبطون كفي، فأخرج كفيه فضرب في بطونها خمسة عشر سوطاً.^(٣)

(١) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٣٢ - ٥٣٣، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٢٠، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٣٣، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٢٠، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٣٣، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة.

ثم ذهب رياح إلى المسجد، وصعد المنبر، فخطب بأهل المدينة خطبة تذكرونا بالخطبة التي خطبها الحجاج بن يوسف الثقفي في مسجد الكوفة، ومما جاء في خطبة رياح قوله: يا أهل المدينة، أنا الأفعى بن الأفعى بن عثمان بن حيان، وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراكم، المفني رجالكم، والله لأدعها بلقعا، لا ينبح فيها كلب.^(١)

أوجرت هذه الكلمات النار في نفوس أهل المدينة، واستشاطوا غضبا، وزادوا سخطا، وأهبت مشاعرهم، حيث ما زالت الفضائع والجرائم وهتك الأعراس وسفك الدماء البريئة ماثلة في أذهانهم يوم وقعة الحرة.

فصاحوا بأجمعهم في وجه رياح الوالي العباسي الجديد بقولهم: يا ابن المجلود حدين، لتكفن أو لنكفنك عن أنفسنا.^(٢) وفي هذا الوصف دلالة على مستوى هذا الوالي الذي استخلفه المنصور على مدينة النبي ﷺ وأهلها.

فكتب رياح إلى أبي جعفر يخبره بما جرى وبسوء طاعة أهل المدينة، فأرسل أبو جعفر إلى رياح رسولا، وكتب معه كتابا إلى أهل المدينة يأمره أن يقرأه عليهم، ومما جاء في الكتاب: أما بعد، يا أهل المدينة، فإن واليكم كتب إلي يذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم واستمالتكم على بيعة أمير المؤمنين، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا لبيدلكم بعد أمنكم خوفا، وليقطعن البر والبحر عنكم، وليبعثن عليكم رجلا غلاظ الأكباد، بعاد الأرحام، إلى أن يقول: يفعلون ما يؤمرون ولاسلام.

فصعد رياح المنبر وقرأ الكتاب، فلما بلغ «ذكر غشكم» صاحوا من كل جانب: كذبت يا ابن المجلود حدين، ورموه بالحصى، وغادر المقصورة فأغلقها.^(٣) وحاول رياح عبثا الكشف عن محمد بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، فلما أعياه البحث والطلب ولم يجد من ينزل عليه سخطه غير أهل المدينة أخذ يسب

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٣٧٥، ذكر أيام أبي جعفر المنصور.

(٢) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣٧٥، ذكر أيام أبي جعفر المنصور.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣٧٥، ذكر أيام أبي جعفر المنصور.

محمدًا وإبراهيم على المنبر، ووصفها بالفاسقين الخالعين للطاعة، ثم هجا أمهما (هند) ابنة أبي عبيدة هجاء فاحشاً مما أثار سخط أهل المدينة، فاحتجوا عليه.

فقال مهرداً: ألصق الله بوجوهكم الذل والهوان، أما والله لأكتبن إلى خليفتم فلاعلمنه غشكم وقلة نصحكم. فثار الناس عليه، وصاحوا في وجهه: الناس لا تسمع منك يا ابن المحدود، وبادروه بالحصى، فبادر واقتحم دار مروان، وأغلق عليه الباب^(١)، واحتشد الناس حول الدار يوجهون إليه أقذع الشتائم والسباب. كل هذه المحاولات التي قام بها المنصور لم تثمر شيئاً، ولم تنجح، بل زادت على الطين بله، اضطربت النفوس النائرة بنار السخط والثورة والتهبت.

وعندما انتهى موسم الحج سنة ١٤٤ هـ قرر المنصور أن لا يدخل المدينة النائرة، بل حل خارجها مسافة ثلاثة أميال عنها، فلحق رياح واليه عليه، يصف له ما عاناه من تمرد أهلها وعصيانهم له حسب زعمه، فأمره الخليفة المنصور بإحضار المسجونين من بني الحسن فأحضرهم وهم مكبلون بالأغلال، وشعر عبد الله بن الحسن بالعطش الشديد، فقال: يا معشر الناس، من يسقي ابن رسول الله ﷺ شربة ماء؟ فلم يجد مجيباً.^(٢)

وعندما مثلوا أمام المنصور قال عبد الله بن الحسن للخليفة: يا أبا جعفر، والله ما هكذا فعلنا بأسرائكم يوم بدر^(٣)، فأخسأه أبو جعفر، وتفل عليه ومضى،^(٤) وسألهم عن مكان محمد فلم يظفر منهم بجواب، فأخذ ينكل بهم وينفهم ويهينهم.

ثم أمر المنصور بإنفاذهم إلى الكوفة على ظهر إبل بدون وطاء، وعندما وصلوا الكوفة أنزلوا في سجن قصر بن هبيرة قرب الهاشمية، وكان السجن سرداباً تحت

(١) تاريخ الطبري: ج٧، ص٥٣٧، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة. تاريخ يعقوبي: ج٢، ص٣٧٥، ذكر أيام أبي جعفر المنصور.

(٢) تاريخ الطبري: ج٧، ص٥٤٢، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة.

(٣) يذكره بوقوع العباس بن عبد المطلب أسيراً يوم بدر.

(٤) تاريخ الطبري: ج٧، ص٥٤٢، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة.

الأرض لا يرون فيه النور، ولا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل^(١)، ولقي كثير منهم حتفه في هذا السجن المظلم، وكان منهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، فاحتزوا رأسه، وبعثوا به مع جماعة إلى خراسان، فطافوا بالرأس وهم يزعمون أنه رأس محمد ذو النفس الزكية، وهم يخلفون بالله إنه لمحمد بن عبد الله بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ. قال عمر: فسألت محمد بن جعفر بن إبراهيم في أي سبب قتل محمد بن عبد الله بن عمر؟ قال: احتيج إلى رأسه.^(٢)

ووصف الجاحظ حكم بني العباس وما لحق ببني الحسن بقوله: ومضى المنصور ببني الحسن إلى الكوفة فسجنهم، ثم بنى عليه اسطوانة وهو حي، وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً، ثم قتل أكثر من معه من بني الحسن، وكان إبراهيم الغمر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام فيمن حمل مصفداً بالحديد من المدينة إلى الأنبار. وكان يقول لأخويه عبد الله والحسن: تمنينا ذهاب سلطان بني أمية، واستبشرنا بسلطان بني العباس، ولم يكن قد انتهت بنا الحال إلى ما نحن عليه.^(٣)

بعد كل ما اقترفه المنصور من قتل وظلم وجور على الشيعة وخاصة على أبناء الإمام الحسن عليه السلام وجماعتهم أدرك خطورة هذا العمل الشنيع، مع العلم أن السجون مملوءة بالكثير من آل علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان يعلم بأن كثيراً من أهل خراسان وفارس يحبون أهل البيت ويوالونهم؛ لذا استدرك الموقف خوفاً من ثورة عارمة ضده تحرق الأخضر واليابس، وبالفعل بدأت بدايتها، وانطلقت شرارتها من مسجد الرسول ﷺ ومن المدينة المنورة بالذات.

صعد المنبر بالهاشمية خطيباً مبرراً مواقفهم وما اقترفت يدها بخطبة طويلة ابتدأ بها بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد عليه السلام بقوله: يا أهل الخراسان، أنتم

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣١٦، ذكر أيام عبد الله بن أبي جعفر المنصور.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٤٨، ذكر أحداث سنة ١٤٤ للهجرة.

(٣) النزاع والتخاصم: ص ٧٤.

شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا، إنَّ ولد ابن أبي طالب تركناهم، والذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير.^(١)

ثم أخذ يسرد في خطبته ما جرى مع علي عليه السلام من موقف الحكمين وانقسام جيشه وشهادته.

وما لاقاه الإمام الحسن عليه السلام من معاوية والصلح، ثم خذلان الكوفة للإمام الحسين عليه السلام مما أدى إلى قتله وقتل آله وأنصاره.

وتحدث عن ثورة زيد بن علي، ثم ما لاقاه بنو العباس من اضطهاد الأمويين لهم، إلى أن ذكر في خطبته موقف الشيعة من الدولة العباسية فقال: فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسداً منهم لنا، وبغياً علينا بما فضلنا الله بهم عليهم، وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه، وجنباً من بني أمية وجرأة علينا، وإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر من جهالة ولا عن ظنة.^(٢)

الثورة

ودخل محمد بن عبد الله بن الحسن ذو النفس الزكية المدينة المنورة، وأخذ البيعة من أهلها بالخلافة، وأعلن الثورة على دولة بني العباس، وذلك في أول يوم من رجب سنة ١٤٥ هـ.

فتح السجون، أخرج الشيعة وأنصاره، واستولى على بيت المال، وأمر بالوالي على المدينة من قبل المنصور رياح وابن مسلم فحبسا معاً في دار ابن هشام^(٣) واعتقل الكثير من أنصارهما.

ثم توجه نحو المنبر والجماهير قد احتفت به مستبشرة بالعهد الجديد، مؤيدة

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣١١، ذكر أيام عبد الله أبي جعفر المنصور.

(٢) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣١٢، ذكر أيام عبد الله أبي جعفر المنصور.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٥٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

له مهللة مكبرة حامدة مساندة، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله: أما بعد، أيها الناس فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر المنصور ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه، وتصغيراً للكعبة الحرام، وإنما أخذ الله فرعون حين قال: ﴿أَتَارِكُكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١).

وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار الموسين. اللهم إنهم قد أحلوا حرامك، وحرّموا حلالك، وآمنوا من أخفت، وأخافوا من أمنت، اللهم فأحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً. أيها الناس إنّي والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة، ولكنني اخترتكم لنفسي. والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي فيه البيعة.^(٢)

ويذكر المؤرخون روايات عديدة مختلفة عن سبب إعلان ثورته، فالطبري يذهب إلى أن سبب إعلان الثورة في هذا الوقت هو ملاحقة رياح والي المدينة لمحمد وتبعه له، فاضطر للظهور وإعلان الثورة.^(٣)

أما المؤرخ المسعودي فيرى أنّ ما لحق بني الحسن عليه السلام على يد المنصور كان هو الدافع إلى إعلان الثورة، حيث شدد الضغط على بني الحسن والتنكيل بهم ومضايقتهم وإهانتهم بشكل لم يسبق لها مثيل^(٤)، وهناك آراء أخرى لمؤرخين آخرين.

وبعد أن قويت شوكته في المدينة من حيث العدة والقوة اقتحم سجن المدينة برفقة مائتين وخمسين من رجاله أطلقوا سراح المسجونين فيه، وطافوا بالجميع في

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٥٨، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٣١، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٥٢، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٢٩، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

(٤) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٠٦، ذكر أيام عبد الله بن أبي جعفر المنصور.

أزقة المدينة وطرقاتها يكبرون ويهللون ويصيحون في كل جهة من جهاتها، يعلنون الثورة بقيادة أحد أحفاد الرسول ﷺ ضد بني العباس الذين هتكوا الحرمات، وأباحوا المحرمات، واستغلوا، واحتكروا، واستبدوا، وجاروا، وظلموا.

المنصور والثورة العلوية

خرج من المدينة مسرعاً إلى بغداد أوس العامري، فقطع المسافة في تسعة أيام حاملاً معه أخبار الثورة وتفاصيلها إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، فوصل إلى دار المنصور ليلاً وهي على شاطئ دجلة، حيث كان يشرف على بناء بغداد، فأدخله الحاجب الربيع بن يونس بعد إلحاح شديد ومشادة، فسر المنصور لوصول الرسول في أيام قليلة، ومنحه تسعة آلاف درهم جائزة عن كل ليلة ألف درهم قضاه في السفر، فتوقف المنصور عن بناء عاصمته الجديدة بغداد بعد أن ارتفع بناء سورها بالقصب قدر قامة، وترك البناء ليتفرغ للقضاء على الثورة، فخرج المنصور إلى الكوفة بعد أن استشار عمه عبد الله بن علي في هذا الأمر الخطير، وقد اشتهر بين العباسيين بالرأي السديد، فتوجه له بالنصيحة وما قاله له:

ارتحل الساعة حتى تأتي الكوفة فاجثم على أكبادها فإثم شيعه هذا البيت وأنصارهم، ثم أحففها بالمسالح، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه، أو أتاها من وجه من الوجوه فاضرب عنقه، وابعث إلى سلم بن قتيبة ينحدر عليك حيث كان بالري واكتب إلى أهل الشام فمرهم أن يحملوا إليك أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد، فأحسن جوائزهم، ووجههم مع سلم.

ثم وجه إليه نصيحة أخرى مع خاصته فقال: إنَّ البخل قد قتله فمروه فليخرج الأموال، فليعط الأجناد، فإن غلب ما أوشك أن يعود إليه ماله، وإن غلب لم يقدم صاحبه على درهم واحد^(١)، وكان المنصور معروفاً بالبخل مقتراً حريصاً على الدائق، فاشتهر بالدوانيقي وقيمتها ما يعادل مليم أي أقل من فلس.

(١) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٦٤ - ٥٦٥، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

رسائل متبادلة

أرسل المنصور رسالة إلى محمد ذو النفس الزكية، قيل الغاية منها التبرير للرأي العام لما هو مقدم عليه من قتاله، ولكي يظهر ذو النفس الزكية أمام الناس أنه الثائر على الدولة العباسية والخارج عليها بدون سبب. فصدر المنصور رسالته وبدأ بآيات من القرآن الكريم تحمل التهديد والتحذير منها:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾.

ثم قال: ولك علي عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسول الله ﷺ إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أو منك وجميع ولدك وأخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال، وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبي من أهل بيتك، وأن أو من كل من جاءك وبائعك واتبعتك، أو دخل معك في شيء من أمرك.

ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً، فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلي من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به والسلام. (٢)
وكتب على العنوان من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.
ثم رد عليه محمد بن عبد الله الحسيني المعروف بالنفس الزكية برسالة بدأها من

(١) سورة المائدة: الآيات ٣٣ و ٣٤.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٦٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٣٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٨٤ - ٨٥، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

القرآن الكريم تذكر فرعون وطغيانه، ثم افتخر فيها محمد على المنصور بانتسابه إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ وإلى السيدة خديجة زوج النبي ﷺ وإلى الحسن والحسين ابني علي عليه السلام، ثم عير المنصور لأنه ابن أمة، ثم سخر محمد بن الحسن من الأمان الذي عرضه المنصور عليه؛ لأنه اشتهر بنكته لعهوده، وإليك نص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد.

﴿طَسَمَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مِوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ (١)

وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت علي، فإن الحق حقنا، وإننا ادعيتكم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا علياً كان الوصي، وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا.

لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل، وإننا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم، إن الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبيين محمد ﷺ، ومن السلف أولهم إسلاماً علي عليه السلام، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة، وأول من صلى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين

سيدا شباب أهل الجنة، وإن هاشمياً ولد علياً مرتين، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين، وإن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل حسن وحسين، وإنني أوسط بني هاشم نسباً، وأصرحهم أباً، لم تعرق في العجم، ولم تنازع في أمهات الأولاد، فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام، حتى اختار لي في النار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذاباً في النار، وأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار.

ولك الله علي إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي، أن أومنك على نفسك ومالك، وعلى كل أمر أحدثته، إلا حداً من حدود الله، أو حقاً لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك، وأوفى بالعهد؛ لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجلاً قبلي، فأبي الأمانات أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم؟^(١)

وعندما استلم الرسالة وفضها وقرأها انفعل المنصور، وانتفخت أوداجه، وغضب غضباً شديداً، وأسرع للإجابة عليها بنفسه رغم معارضة أبي أيوب المرياني وزيره، حيث عرض عليه أن يريح المنصور من الإجابة، ويتولى هو الإجابة، فأصر الخليفة المنصور، وكتب رسالة مطولة حشاها فخراً بالآباء والأمهات والأنساب والأعمام بدأها وضمن فيها مغالطات كثيرة تنم عن تجاهله للحقيقة، بقوله: أما بعد، فقد بلغني كلمك، وقرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفأة والغوغاء.

وبعد سرد طويل حاول أن يدفع عن نفسه ما غيره به محمد من أنه ابن أمة جارية، فذكر له بعض زعماء الشيعة الذين انحدروا من أمهات أولاد.^(٢) ثم نفى المنصور عن محمد ذو النفس الزكية من أنه ابن رسول الله ﷺ بذكر

(١) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٦٧ - ٥٦٨، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٣٦ - ٥٣٧، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٨٥، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

(٢) أم ولد: المقصود بها الجارية التي أنجبت لسيدها.

الآية الكريمة ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾^(١).

وذكر أن محمداً هو ابن بنت رسول الله ﷺ ولكنها لا تحوز الميراث، ولا تراث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة، فكيف تورث بها؟

ثم ذكر المنصور في رسالته الجوابية:

إن المسلمين اختاروا الخلفاء الثلاثة، الأول أبا بكر، وعمر، وعثمان، خلفاء دون علي بن أبي طالب عليه السلام.

ثم عدد المنصور مواقف المسلمين من زعماء الشيعة العلويين الذي ينتسبون إلى علي عليه السلام وكيف انتهى مصيرهم بالقتل، إلى أن قال:

ثم خرج عمك حسين بن علي عليه السلام على ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه، وأتوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران، ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان، وقتلوا رجالكم، وأسروا الصبية والنساء، وحملوهم بلا وطء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم.

ثم أشاد بأجماده في الجاهلية والإسلام، وإنه هو وريث الرسول ﷺ وأشاد بجده العباس بن عبد المطلب، وأنه كان ينفق على علي بن أبي طالب وأولاده خلال الأزمة التي أصابتهم، وأنه فدى عقيل بن أبي طالب يوم بدر.

وختم المنصور الرسالة بقوله:

فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدرکوا لأنفسكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.^(٢)

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٦٨ - ٥٧١، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٣٨ - ٥٤٢، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٨٥ - ٨٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

القضاء على الثورة

عند ذلك صمم المنصور على إجهاض ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن مهما كلفت وطالت فأمر الجيوش للاستعداد، وهياً للحرب ما تحتاجه، وعهد إلى عيسى بن موسى ولي عهده بقيادة الجيش، فقال عيسى للمنصور شاور عمومك، فقال له: امض أيها الرجل، فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما إلا أن تشخص أو أشخص.^(١) وقد خيم على أبي جعفر المنصور الخوف من حرب محمد بن الحسن لما به لأنه يتصف بالشجاعة والقوة وكثرة الجند والسلاح.

فدعا المنصور جعفر بن حنظلة البهراني وكان أبرص طوالاً، أعلم الناس بالحرب، وقد شهد مع مروان حرابه فقال له: يا جعفر، قد ظهر محمد فما عندك؟ قال: وأين ظهر؟ قال المنصور: بالمدينة. قال: فاحمد الله ظهر حيث لا مال، ولا رجال، ولا سلاح، ولا كراع، ابعث مولى لك تثق به، فليسر حتى ينزل بوادي القرى، فيمنعه مبرة الشام، فيموت مكانه جوعاً، ففعل.^(٢)

ويعلل المؤرخون سبب اختياره لعيسى بن موسى لقيادة الجيش دون غيره إلى أنه كان كارهاً لتوليته ولاية العهد؛ لأن المنصور كان يرجو ويأمل أن تؤول الخلافة إلى ولده محمد المهدي، ويستدلون بأنه قال لأصحابه عندما بعثه لقتال ذو النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن وحرابه: لا أبالي أيهما قتل صاحبه.

ويعتبر المؤرخون أن سياسة المنصور هي رمي خصمين ببعضهما البعض كما فعل بين عبد الله بن علي عمه وأبي مسلم الخراساني.

وكان الجيش الذي تزعمه وقاده عيسى بن موسى أربعة آلاف مقاتل، ومدته أيضاً بخمسة آلاف مقاتل بقيادة حميد بن قحطبة الطائي، ومزودين بكل ما يحتاجونه من مؤن وسلاح وخيل وبغال.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٤٣، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٧،

ص ٥٧٧، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. مقاتل الطالبين: ص ٢٣٥.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٧٧-٥٧٨، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

وعندما وجهه إلى القتال أوصاه بوصايا وخطط، ورسم له الطريق، ومن جملة وصاياه قال له:

إن ظفرت وانتصرت لا تبيح لجيشك المدينة كما أباحها يزيد بن معاوية لجيشه ثلاثة أيام؛ لأتّمهم جيران قبر الرسول ﷺ، واشملهم بالعفو، فإنّهم الأهل والعشيرة.

وأوصاه أيضاً بأهل مكة فقال له:

لا تفعل ما فعله الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حينما حاصر عبد الله بن الزبير في الكعبة، ووضع المجانيق على الكعبة وهدمها وظلم وفجر، وقد حفظ لنا التاريخ سجلاً حافلاً من تلك الأعمال المخزية الجائرة، وأراد بهاتين الوصيتين أن لا يجدد في ذاكرة الناس أفعال بنية أمية في أهل المدينتين الشريفتين، فيسقط من أنظارهم ويعدونه على شاكلتهم، وهو في ظروف كان يفتقر إلى الشرعية وإلا الاستقرار والتهدئة، سيما وأن أهل المدينة كانوا ضده، ومتحمسين لمخالفته.

وحينما وصل عيسى بن موسى قرب المدينة بعث برسالة إلى محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف ذو النفس الزكية يمنحه الأمان، وبرسائل أخرى لغيره من وجوه المدينة، وقد حمل تلك الرسائل محمد بن يزيد، وعندما أشرف على البيوت خاطب أهل المدينة بقوله: يا أهل المدينة، أنا محمد بن يزيد، والله لقد تركت أمير المؤمنين حياً، وهذا عيسى بن موسى قد أتاكم وهو يعرض عليكم الأمان، فقال أهل المدينة له: لقد خلعنا أبا الدوانيق.^(١)

ثم رد محمد بن الحسن بعدما قرأ الكتاب بكتاب إلى عيسى يدعوه إلى طاعته، ويعطيه الأمان، وقد علم محمد بن عبد الله بن الحسن أنه لا فائدة من دعوة للإطاعة وحقن الدماء، وقد عسكر بجيش ضخّم على مشارف المدينة.

لذا هياً نفسه ودعا الناس للحرب لقتال جيش أبي جعفر المنصور بقيادة عيسى

(١) مقاتل الطالبين: ص ٢٣٦، أمر محمد بن عبد الله ومقتله.

بن موسى، فلبت الجماهير مندفعة بحماس هائل، وانضم إلى جيش محمد بن الحسن الكثير من القبائل، كقبيلة جهينة، وبنو بكر، وفقار، ومزينة، وأسلم، وسليم، ثم حفر خندق حول المدينة ليحميها من الغازين كما فعل رسول الله ﷺ حينما غزت الأحزاب المدينة.

الحرب

حاصر عيسى بن موسى المدينة من جميع جهاتها عدا جهة مسجد أبي الجراح، تركها ليخرج من أراد ترك محمد بن عبد الله بن الحسن ومفارقتة، ثم وجه عيسى نداء لأهل المدينة يدعوهم للتسليم، ومما قاله في ندائه:

يا أهل المدينة إن الله قد حرم دماء بعضنا على بعض، فهلّموا إلى الأمان، فمن قام تحت رايتنا فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن خرج من المدينة فهو آمن، خلوا بيننا وبين صاحبنا فإما لنا أو له.^(١)

فكان رد أهل المدينة السباب والشتائم وقالوا له: يا ابن الشاة، يا ابن كذا يا ابن كذا، فانصرف يومه ذاك فعاد إلى مركزه، وعاد من الغد مرة أخرى في اليوم الثاني وكرر ما قاله في اليوم الأول، ذلك واجهه أهل المدينة بنفس الأسلوب، ثم عاد إلى معسكره.^(٢)

وفي اليوم الثالث خرج بأعداد كبيرة من الرجال والفرسان مزودين بالسلاح لإرهاب أهل المدينة وقادتهم، فلما قرب منها أرسل عيسى بن موسى إلى محمد القاسم بن الحسن بن زيد يدعوه إلى الرجوع عما هو عليه، ويخبره أن أمير المؤمنين قد آمنه وأهل بيته، فقال محمد القاسم والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك؛

(١) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٨٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٤٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٨٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٤٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

لأنِّي لم أرك منذ كنت غلاماً في فرقتين خير وشر إلا كنت مع الشر على الخير. وقبل أن يتقابل الفريقان عرض محمد بن الحسن على عيسى بن موسى عرضاً للاستسلام وحقن الدماء، ولكنه رفض وأبى، فأرسل إبراهيم بن جعفر برسالة جاء فيها:

يا هذا، إن لك برسول الله قرابة قريبة، وإنِّي أدعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه والعمل بطاعته، وأحذرك نقمته وعذابه، وإنِّي والله ما أنا بمنصرف عن هذا الأمر الذي ألقى الله عليه، فإياك أن يقتلك من يدعوك إلى الله فتكون شر قتيل، أو تقتله فيكون أعظم لوزرك وأكثر لمأثمك.

وعندما قرأ الرسالة عيسى بن موسى قال لإبراهيم ارجع إلى صاحبك فقل له: ليس بيننا إلا القتال.^(١)

وبدأت المعركة بين الفريقين، واشتعلت نار الحرب، فسقط عدد كبير من القتلى والجرحى، وأبلى محمد بن عبد الله ذو النفس الزكية مع جيشه ورجاله بلاءً حسناً، استبسوا في القتال استبساً عز نضيره، وقتل محمد بن الحسن وحده من أعدائه سبعين رجلاً حسب ما يروي ابن الأثير^(٢) حتى صاح عيسى بن موسى معيداً ومكرراً ما قاله من عرض الأمان على محمد بن الحسن، وبذل له كثيراً من الوعود، وأعطاه ما يريد من شروط، ولكن محمد رفض وصمم وأصر على مواصلة القتال.

ومما قاله عيسى في ندائه لمحمد: أيا محمد إنَّ أمير المؤمنين أمرني أن لا أقاتلك حتى أعرض عليك الأمان، فلك على نفسك وأهلك وولدك وأصحابك، وتعطى من المال كذا وكذا، ويقضى عنك دينك، ويفعل بك ويفعل. فصاح محمد اله عن هذا، فوالله لو علمت أنه لا يثني عنكم فزع ولا يقربني

(١) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٨٤، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٤٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٤٧، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٥٨٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

منكم طمع ما كان هذا.^(١)

وبعد قتال مرير وفر وكر انقلب القتال لصالح الجيش العباسي، فعبروا الخندق، وبدأ القتال في الأزقة والطرقات، ودب الخوف، ورأوا أن لا جدوى من القتال في المدينة، فغادروها إلى أطرافها، وإلى الجبال المحيطة بها، فأدرك محمد بن الحسن ذو النفس الزكية حرج الموقف، فذهب لدار مروان فاغتسل وتحنط، وتقدم عبد الله بن جعفر ينصحه بالخروج إلى مكة فأبى ورفض، وقال له: يا أبا جعفر، والله لو خرجت لقتل أهل المدينة، والله ارجع حتى أقتل أو أقتل.^(٢)

ثم أشار عليه بن خضير بالخروج إلى البصرة فرفض ذلك، عند ذلك سمح لأصحابه بالخروج من المدينة والنجاة بأنفسهم، واستمر محمد بن الحسن يقاتل ويجاهد حتى قتل، وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ١٤٥ هجرية.

ثم ارتفعت الرايات السوداء على منارة مسجد رسول الله ﷺ تعلن استيلاء الجيش العباسي على المدينة، واحتز حميد بن قحطبة رأس محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، وحمله إلى عيسى بن موسى.

وعندما وضع بين يديه سألهم ما تقولون في هذا، فحاول بعض الإساءة، فنهاهم عيسى عن ذلك، وأقبل عليهم قائده فقال: كذبتم والله، وقتلتم باطلاً، ما على هذا قاتلنا، ولكنه خالف أمير المؤمنين، وشق عصا المسلمين، وإنه كان لصواماً قواماً، فسكت القوم.^(٣)

ثم حمل الرأس إلى المنصور بالكوفة، فأمر أن يطاف بالرأس في أزقة الكوفة وشوارعها.

(١) تاريخ الطبري: ج٧، ص٥٨٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

(٢) تاريخ الطبري: ج٧، ص٥٩٠ - ٥٩١، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج٥، ص٥٤٧، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

(٣) تاريخ الطبري: ج٧، ص٥٩٧، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. البداية والنهاية: ج١٠، ص٨٩ - ٩٠، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

وتقدمت زينب أخت محمد ذو النفس الزكية وابنته فاطمة من عيسى بن موسى يطلبان الإذن بدفن الشهيد، فسمح لهما، فدفن بالبقيع. وبعد ذلك قام عيسى بن موسى وصادر أموال بني الحسن، وقتل كثيراً من أنصار محمد، وصلبت جثثهم ما بين ثنية الوداع إلى دار عمر بن عبد العزيز، فاستمر ذلك ثلاثة أيام، عند ذلك ضج الناس بالشكوى، فأمر عيسى بإلقاء الجثث، فألقوا على المفرح من سلع وهي مقبرة لليهود.^(١)

ثورة البصرة

وبنفس الأساليب والطرق الدموية تعامل المنصور مع ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أخ محمد ذو النفس الزكية الذي يكنى بأبي الحسن الذي اختار البصرة مركزاً له عندما قبض على أبيه عبد الله بن الحسن وسجن، حيث غادر الحجاز ناجياً بنفسه، وتنقل في كثير من الأقطار والمدن كالكوفة وبغداد والأنبار والموصل وعدن والسند وغيرها حتى استقر في البصرة سنة ١٤٣ هجرية مختفياً خوفاً من أبي جعفر المنصور.

وعندما ظهر أمر أخيه محمد ذو النفس الزكية اتخذ من دار أبي فروة في البصرة مركزاً للدعوة، وأقبل عليه كثير من وجوه البصرة وأعيانها يبايعون أخاه محمداً. وبعد فترة وجيزة أحصى ديوانه أربعة آلاف من شباب الشيعة في البصرة من شخصياتها ووجوهها، عند ذلك انتقل إلى دار أبي مروان في وسط البصرة، واستمر في دعوته والناس تؤيد وتبايع حتى فوجئ برسالة من أخيه يخبره فيه بإعلان الثورة في المدينة.

فتألم إبراهيم، واغتم لسرعة أخيه حيث إن الدعوة لم تنضج بعد. رغم ذلك فقد ثابر إبراهيم بهمته ولم يتوان حتى انضم كثير من أهل الكوفة

(١) تاريخ الطبري: ج٧، ص٦٠٠، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج٥، ص٥٥١، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. البداية والنهاية: ج١٠، ص٩٠، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

لدعوته، وكانت الرقابة والعيون من قبل المنصور شديدة على أهل الكوفة، كان كثير من المؤيدين والمحبين يتسللون إليه متخذين طرقاً ملتوية. فبقوا على حماسهم وتفانيهم ولم يثنهم عن عزمهم ظلم المنصور وجوره، فقد قتل كثير من هؤلاء الذين خرجوا إلى البصرة، واحتز رؤوسهم فنصبها في بعض طرقات الكوفة لإرهاب أهلها.^(١)

وأقام المنصور الحواجز من الجند على الطرقات الرئيسية يرغمون كل من مر بهم أن يقسم بالطلاق والعتاق والحلال والحرام أنه ليس لإبراهيم شيعة، ولا يهوى هواه.^(٢)

ولشدة خوف المنصور من زعماء الشيعة وثوراتهم يروي المسعودي في مروج الذهب قال:

وفي سنة خمس وأربعين ومائة كان ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن علي بن أبي طالب عليه السلام بالمدينة، وكان قد بويع له في كثير من الأمصار، وكان يدعى بـ «ذو النفس الزكية» لزهده ونسكه، وكان مستخفياً من المنصور، ولم يظهر حتى قبض المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله وعدتهم.

ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة دعا المنصور إسحاق بن مسلم العقيلي وكان شيخاً ذا رأي وتجربة فقال له:

أشر علي في خارجي خرج علي؟ قال: صف الرجل؟ قال: رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ ذو علم وزهد وورع. قال: فمن تبعه؟ قال: ولد علي وولد جعفر وولد عقيل وولد عمر بن الخطاب وولد الزبير بن العوام وسائر قريش وأولاد الأنصار. قال: له صف لي البلد الذي قام به؟ قال: بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة، ففكر ساعة ثم قال: اشحن يا أمير المؤمنين البصرة

(١) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٩٢، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٢٩٠، ذكر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن.

بالرجال، فقال المنصور في نفسه: قد خرف الرجل، أسأله عن خارجي خرج بالمدينة يقول لي: اشحن البصرة بالرجال، فقال له: انصرف يا شيخ. ثم لم يكن إلا يسير حتى ورد الخبر أن إبراهيم قد ظهر بالبصرة، فقال المنصور: عليّ بالعقيلي، فلما دخل عليه أدناه ثم قال له: إنّي كنت قد شاورتك في أمر خارجي خرج بالمدينة فأشرت علي أن أشحن البصرة بالرجال، أو كان عندك من البصرة علم؟

قال: لا، ولكن ذكرت لي خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد، ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه، فإذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش، فقلت: إنّه رجل سيطلب غير موضعه، ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة، والشام والكوفة كذلك، وفكرت في البصرة فخفت عليها منه لخلوها، فأشرت بشحنها، فقال له المنصور: أحسنت وقد خرج بها أخوه.^(١)

واضطرب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ليتخذ من مدينة البصرة مركزاً لدعوته وثورته بسبب ما حتمته الأوضاع السياسية في الأقطار الإسلامية، مع العلم أنّ الكوفة هي الأصلح للثورة والدعوة الشيعية، لأنّها معقل مهم للتشيع والشيعية منذ العصر الأول، وهي المدينة التي اتخذها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حاضرة الدولة الإسلامية.

ولكن إبراهيم رغم إدراكه لصلاحياتها التامة للدعوة الشيعية إلا أنه لم يكن يستطيع اتخاذها مركزاً لهذه الدعوة، حيث إنّ أبا جعفر المنصور مقيم في الهاشمية على مقربة منها.

أما الشام وما والاها فلم تكن تصلح بحال من الأحوال مركزاً لدعوة شيعية، فأهلها رغم قيام الدولة العباسية ما زالوا على ولائهم لبني أمية، فقد ارتبطت الشام وما والاها بالأمويين ارتباطاً وثيقاً.

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٠٦ - ٣٠٧، ذكر أيام عبد الله أبي جعفر المنصور. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٦٢٨ - ٦٢٩، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

ومن المعلوم أنّ أهالي الشام وقفوا وراء معاوية بن أبي سفيان في صراعه مع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام موقفاً حاقداً أعمى، كما استعان الخلفاء الأمويون بجند الشام في إخماد جميع ثورات الشيعة وتحركاتهم.

ومصر لم تكن أرضاً صالحة لبذر التشيع والمذهب الشيعي فيها. وخراسان كذلك لأنّها مركز لشيعه بني العباس، حيث شهدت أرضها تطور الدعوة العباسية ونموها حتى أثمرت قيام دولة بني العباس، كما حرص الخلفاء العباسيون على الارتباط بأهل خراسان ارتباطاً وثيقاً جعل من العسير الابتعاد عنهم، حيث كانوا يحسنون إليهم، ويمتدحونهم، ويتملقون لهم. وقد وصف الأصمعي أحوال الأقطار الإسلامية واتجاهاتها فقال: البصرة كلها عثمانية، والكوفة كلها علوية - أي شيعة لعلي - والشام كلها أموية، والجزيرة كلها خارجية، والحجاز كلها سنية.

وذكر الأصفهاني في مقاتل الطالبين أنّه قدم قوم من الدهجرانية أصحاب الضياع وهو في البصرة فقالوا لإبراهيم:

يا ابن رسول الله، إنّنا قوم لسنا من العرب، وليس لأحد علينا عقد ولا ولاء، وقد أتيناك بمال فاستعن به، فقال إبراهيم لهم: من كان عنده مال فليعن به أخاه، فأما أن آخذه فلا، ثم قال: هل هي إلا سيرة علي بن أبي طالب عليه السلام أو النار. ^(١)

وتحدث المسعودي في مروج الذهب عن اتساع دعوة إبراهيم فقال: ومضى إبراهيم إلى البصرة وظهر بها، فأجابه أهل فارس والأهواز وغيرهما من الأمصار، وسار من البصرة في عساكر كثيرة من الزيدية، وجماعة ممن يذهب إلى قول البغداديين من المعتزلة وغيرهم، ومعه عيسى بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام. ^(٢) وعيسى بن زيد بن علي هذا هو زعيم الزيدية في ذلك الحين.

(١) مقاتل الطالبين: ص ٢٨٧، ذكر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن.

(٢) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٠٨، ذكر أيام عبد الله بن أبي جعفر المنصور.

تأييد أبي حنيفة لإبراهيم

كما أنّ أبا حنيفة النعمان أعلن تأييده لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن، فقال الأصفهاني في مقاتل الطالبين: كان أبو حنيفة في أمر إبراهيم جهوراً شديداً، ويفتي الناس بالخروج معه.^(١)

وجاء عن هشام بن محمد أنه قال:

ولى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن هارون بن سعد واسطاً، وضم إليه جيشاً كثيفاً من الزيدية، فأخذها، وتبعه الخلق ولم يتخلف أحد من الفقهاء، وكان ممن تبعه عواد بن العوام ويزيد بن هارون وهشيم، وكان موقف هشيم في حروبه مشتهراً، وقتل ابنه معاوية وأخوه الحجاج بن بشير في بعض الوقائع.^(٢)

فأدى موقف أبي حنيفة من ثورة إبراهيم بن الحسن إلى غضب الخليفة المنصور عليه؛ لذا فقد عزم المنصور على قتله.

فقد روى أبو نعيم حيث قال: دعا أبو جعفر أبا حنيفة إلى الطعام فأكل منه، ثم استسقى فسقى شربة عسل مجدوحة - أي مخلوطة - وكانت مسمومة فمات من غد، ودفن في بغداد في المقابر المعروفة بمقابر الخيزران.^(٣)

وبينما كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يتلقى تأييد القبائل والرؤساء والوجوه والمدن وبعض الأقطار وإذا يفاجأ بنياً استشهاد أخيه محمد ذو النفس الزكية في المدينة، فكان لهذا النبأ أسوأ الأثر في نفسه، فبكى أخاه طويلاً، وكان ذلك قبل عيد الفطر بأيام، وخرج يوم الفطر للصلاة بالناس وهم يعرفون فيه الانكسار^(٤) وأخبر الناس بقتل أخيه محمد فازدادوا في قتال أبي جعفر المنصور

(١) مقاتل الطالبين: ص ٣١٠.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٣٠٨، ذكر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن.

(٣) مقاتل الطالبين: ص ٣١٦، ذكر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٦٣٨، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٥٦٥، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة.

تأهباً واستعداداً، وزادهم إصراراً وحماساً واستبسلاً، فعزموا جميعاً على الأخذ
بثأر الشهيد من العباسيين.

حتى أعلنوا ثورتهم ضد المنصور، ولكن الأساليب الوحشية البعيدة عن
الإسلام التي مارسها المنصور مع الشعب واستخدامه لشتى الوسائل والطرق
التي من شأنها أن تعينه في القضاء على الثورة أدت إلى انتصاره على الثوار فعلاً،
حيث مكنته سيف القمع والإرهاب وسياسة الترغيب في إبعاد الناس عن الثوار
حتى يخدم أنفاس الثورة ثانية، ويصفي كل أنصارها تصفية جسدية عنيفة بعد أن
قاد دولته معها إلى الانهيار، وأسقط مكانتها من قلوب الناس.

ثورة فخ

وفي عهد الخليفة موسى الهادي رابع الخلفاء العباسيين حدثت ثورة شيعية
جديدة تزعمها الحسين بن علي بن الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن
أبي طالب عليه السلام وكان من رجال بني هاشم وساداتهم وفضلائهم. وقد أخبر
النبي صلى الله عليه وآله عن مقامه وبكاه قبل مولده.

روى الأصفهاني في مقاتل الطالبين روايات كثيرة تصفه بأنه عالم تقي وورع
سخي كريم، فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وآله عندما وصل إلى (فخ) وأخبره جبرئيل بأنه
سيقتل ولد من أولادك هاهنا ظلماً، فقال: مر النبي صلى الله عليه وآله (بفخ) فنزل فصلى ركعة،
فلما صلى الثانية بكى وهو في الصلاة، فلما رأى الناس النبي صلى الله عليه وآله يبكي بكوا، فلما
انصرف قال: ما يبكيكم، قالوا: لما رأيناك تبكي بكينا يا رسول الله. قال: نزل عليّ
جبرئيل عليه السلام لما صليت الركعة الأولى، فقال: يا محمد، إن رجلاً من ولدك يقتل
في هذا المكان، وأجر الشهيد معه أجر شهيدين.^(١)

وروي عن الحسن بن هذيل قال: كنت أصحب الحسين بن علي بن الحسن
صاحب (فخ) فقدم إلى بغداد فباع ضيعة له بتسعة آلاف دينار، فخرجنا فنزلنا
سوق أسد، فبسط لنا على باب الخان، فأتى رجل معه سلة فقال له: مر الغلام

(١) مقاتل الطالبين: ص ٣٣٦ - ٣٣٧، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

يأخذ مني هذه السلة، فقال له: وما أنت؟ قال: أنا أصنع الطعام الطيب، فإذا نزل هذه القرية رجل من أهل المروءة أهديته إليه. قال: يا غلام، خذ السلة منه، وعد إلينا لتأخذ سلتك، ثم أقبل علينا رجل عليه ثياب رثة، قال: أعطوني مما رزقكم الله، فقال لي الحسين: ادفع إليه السلة، وقال له: خذ ما فيها ورد الإناء، ثم أقبل علي، وقال: إذا رد السائل السلة فادفع إليه خمسين ديناراً، وإذا جاء صاحب السلة فادفع إليه مائة دينار، فقلت: أبقاء مني عليه جعلت فداك؟ بعت عيناً لك - أي الضيعة - لتقضي ديناً عليك، فسألك سائل فأعطيته طعاماً هو مقنع له فلم ترض حتى أمرت له بخمسين ديناراً، وجاءك رجل بطعامه لعله يقدر فيه بدينار أو دينارين فأمرت له بمائة دينار.

فقال: يا حسن، إن لنا رباً يعرف الحسنات. إذا جاء السائل فادفع له مائة دينار، وإذا جاء صاحب السلة فادفع إليه مائتي دينار، ثم قال: والذي نفسي بيده إنني لأخاف أن لا يقبل مني، لأن الذهب والفضة والتراب عندي بمنزلة واحدة.

انحدر من أبوين كريمين شريفين، فأبوه كما عرفت الحسن بن الحسن بن الإمام الحسن الذي يكون أخ عبد الله بن الحسن، وأمّه زينب بنت عبد الله بن الحسن شقيقة محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية وإبراهيم الذين ثاران على أبي جعفر المنصور كما مر سابقاً.

وشهدت كل ما مر على إخوتها وأبيها وأعمامها وزوجها من قتل وظلم وحبس، وقد قضت حياتها في حزن وبكاء... وكانت تندبهم حتى يغشى عليها، ومن جراء هذه الأحداث وشريطها المأساوي انطبع في نفس ولدها الحسين كره بات يتطلع للثأر لقتل آل علي.^(١)

وكان الخليفة العباسي الرابع موسى الهادي الذي تولى الخلافة آخر محرم سنة ١٦٩ هجرية الموافق لـ ٧٨٥ ميلادية بعكس والده محمد المهدي الخليفة العباسي الثالث، حيث كان يعلم أنّ دماء العلويين الشيعة هي وقود لنيران تشب وتهب

(١) جهاد الشيعة: ص ٢٦٠. مقاتل الطالبين: ص ٣٦٤، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

فتخلق حركات شيعية ثورية.

فقد بدأ الهادي عهده بالضغط على الشيعة والتنكيل بهم، وكان موسى الهادي شخصية غريبة قلقة تجمع بين المتناقضات.

وقد وصفه المسعودي في مروج الذهب بقوله: كان موسى قاسي القلب شرس الأخلاق صعب المرام.^(١)

وقال عنه الذهبي: كان يتناول السكر ويلعب ويركب حماراً فارهاً. وقال غيره: كان جباراً وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرفهة والأعمدة، وألقى الموترة، فأتبعه عماله به في ذلك، وكثر السلاح في عصره.^(٢) وقد خيب ظن والده المهدي حيث عمل على أن يعد ابنه الهادي للخلافة، كما أعدده أبوه المنصور من قبل لهذا المنصب الخطير، ولكن الهادي قد انصرف لشرب الخمر، وقضى معظم أوقاته مع الندماء، مما أثار غضب المهدي عليه، فبدأ يفكر في تقديم أخيه الأصغر هارون عليه في ولاية العهد لولا أن عاجلته المنية.^(٣) أما الحسين فقد كان محبوباً مقدرًا إذا مكانة عالية في نفوس أهل المدينة وغيرها لما عرف عنه من نبل وعلم وورع وتقى، وكان سخياً جواداً، فهذه الصفات أكسبته محبة الناس وتقديرهم.

ومن جملة تلك الصفات إثارة الغير على نفسه وخاصته، فقد ذكر الأصفهاني عن الحسن بن هذيل قوله: ابتعت من الحسين بن علي صاحب (فخ) حائطاً وفي رواية أخرى بيتاً بأربعين ألف دينار، فنشرها على بابه، فما دخل إلى أهله منها حبة، كان يعطيني كفاً كفاً فأذهب به إلى فقراء أهل المدينة.^(٤)

وجاء عن يحيى بن سليمان، قال:

اشترى الحسين بن علي صاحب (فخ) ثوبان، فكسا أبا حمزة وكان يخدمه ثوباً

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٣٥، ذكر أيام موسى الهادي العباسي.

(٢) جهاد الشيعة: ص ٢٥٩، بتصرف.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥٩، بتصرف.

(٤) مقاتل الطالبين: ص ٣٦٨، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

منهما، وارتدى هو بثوب، فأتاه سائل وهو ذاهب إلى المسجد، فسأله فقال: أعطه يا أبا حمزة ثوبك.

قال: فقلت له: أمشي بغير رداء؟ فلم يزل بي حتى أعطيته، ثم مشى السائل معه حتى إذا أتى منزله نزع رداءه، وقال: ائتزر برداء أبي حمزة وارتد بهذا، فتبعته فاشترت الثوبين منه بدينارين وأتيته بهما فقال: بكم اشتريتهما؟ قلت: بدينارين، فأرسل الحسين إلى السائل يدعوه، فقلت له: امرأتي طالق إن رددتها عليه أو دعوته، فحين حلفت تركه.^(١)

بداية الثورة

بدأت بوادر الثورة منذ أن تولى الخلافة الهادي بن المهدي، فقد كان شديداً قاسياً بطاشاً معادياً للشيعة كارهاً لهم.

واعتقد أن سياسة الاضطهاد والتنكيل تخضع شباب الشيعة ورجالها، فأخذ يتتبع عثرات واهية لكي يظهر لهم بطشه وقسوته لإرهابهم وتخويفهم.

فاستدعى علي بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وكان يلقب بالجرزي، تزوج رقية بنت عمرو العثمانية وكانت هذه إحدى زوجات والده المهدي، فتظاهر بالغضب والسخط، فوبخه ولامه وأهانته.

وقال: أعيالك النساء، إلا امرأة أمير المؤمنين؟

فقال علي: ما حرم الله خلقه إلا نساء جدي رسول الله صلى الله عليه وآله فأما غيرهن فلا ولا كرامة، فشجه بمخصرة كانت في يده، وأمر بضربه خمسمائة سوط فضرب، وأراده أن يطلقها فلم يفعل.^(٢)

لأجل هذه السياسة التي اتبعها الهادي رأى والي المدينة الذي عينه الخليفة المهدي إسحاق بن عيسى أن يقدم استقالته من منصبه، فذهب إلى بغداد وقابل

(١) مقاتل الطالبين: ص ٣٦٨ - ٣٦٩، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٢١٩، ذكر أحداث سنة ١٧٠ للهجرة. جهاد الشيعة: ص ٢٦١. الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ١٠٤، ذكر أحداث سنة ١٧٠ للهجرة.

الخليفة الجديد الهادي، وطلب إعفائه من منصبه، فاستجاب لرغبته، وعين بعده فوراً عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.^(١) فبدأ الوالي الجديد بسياسة الإرهاب والضغط والاضطهاد، فحمل على الشيعة وأتباعهم والطلبيين فأساء وأهان وأفرط.

وطالب العلويين الشيعة بالعرض كل يوم، وكانوا يعرضون في المقصورة، وأخذ كل واحد منهم بكفالة قريبه ونسيبه، فضمن الحسن بن علي ويحيى بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن.^(٢)

ولم يكتف بذلك، بل صعد من ضغطه في الإساءة إليهم فاتهمهم بشتى أنواع التهم، وذلك إضعافاً لمعنوياتهم وقدراتهم وإرهابهم وإذلالهم.

فاتهم عمر بن عبد العزيز الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندب الهذلي الشاعر وعمر بن سلام مولى عمر بن الخطاب بشرب الخمر فأمر بضر بهم.

فضرب الحسن ثمانين سوطاً، وضرب ابن جندب بخمسة عشر سوطاً، وضرب مولى عمر بن الخطاب بسبعة أسواط، ثم أمر فجعل في أعناقهم حبال، وطيف بهم في المدينة مكشفي الظهر.^(٣)

وقد احتج بنو هاشم على هذا الفعل الشنيع، ثم قابل الحسين بن علي والي المدينة ينفي عن العلويين الشيعة اتهامهم بشرب الخمر، وطلب منه إطلاق سراح المسجونين، ولكن الوالي رفض ولم يجب الحسين إلى طلبه. وعندما أصر الحسين أطلق الوالي سراحهم.

وقد عهد الوالي عمر بن عبد العزيز لمولى من الأنصار هو أبو بكر بن عيسى

(١) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٩٢ - ١٩٣، ذكر أحداث سنة ١٧٠ للهجرة.

(٢) مقاتل الطالبيين: ص ٣٧٢، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

(٣) مقاتل الطالبيين: ص ٣٧٣، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ. تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٩٤،

ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ٩٠، ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة.

الحايك مهمة تفقد العلويين في كل يوم ومراقبتهم.
 وحدث أنّ الحسن بن محمد قد تزوج وتغيّب ثلاثة أيام، وعندما جاء العلويون
 إلى مسجد المدينة لأداء صلاة الجمعة، وبعد الفراغ حبسهم أبو بكر بن عيسى
 الحايك في المسجد، وأخذ ينادي بأسمائهم واحداً واحداً فلم يجد الحسن بن محمد
 بينهم، وطلب منهم إحضاره، وهددهم بالإهانة والسجن.
 ثم اشتبكوا مع ابن الحايك ومعهم شيعة آخرون جاؤوا في ذلك الموسم لأداء
 فريضة الحج في جدال عنيف حتى تبادلوا السباب والشتائم، فخرج الحايك إلى
 الوالي غاضباً يحكي له ما حدث في المسجد.

كان هذا الموقف ومواقف أخرى من إهانة وضغط على الشيعة، والحوار الذي
 دار في مجلس والي المدينة هو الشرارة الأولى التي أدت إلى اندلاع ثورة الحسين
 بن علي بن الحسن، وغضب كل منهما على الآخر، ولكن الحسين كتم غضبه
 وغيظه وسخطه على الحكم والحكومة والظالمين، فأراد أن يخفف من ثورة الوالي
 وغضبه، فقال له الحسين: أنت مغضب يا أبا حفص؟ انتفض الوالي وقال: أتهزأ
 بي وتخاطبني بكنتي؟ فقال الحسين: كان أبو بكر وعمر وهما خير منك يخاطبان
 بالكنى فلا ينكران ذلك، وأنت تكره الكنية وتريد المخاطبة بالولاية؟ فغضب
 وازداد غضباً، فقال: آخر قولك شر من أوله، فقال الحسين: معاذ الله، يابى الله
 لي ذلك، ومن أنا منه، فقال الوالي: أفأنا أدخلتك إلي لتفاخري وتؤذيني، وتدخل
 حينئذ يحيى بن عبد الله في الحديث؟ فصاح في وجه الوالي غاضباً فما تريد منا؟
 فأجاب الوالي: أريد أن تأتياني بالحسن بن محمد، فقال: يحيى ساخراً من الوالي
 لا تقدر عليه، هو في بعض ما يكون في الناس، فابعث إلى آل عمر بن الخطاب
 فاجمعهم كما جمعنا، ثم أعرضهم رجلاً رجلاً فإن لم تجد فيهم من قد غاب أكثر من
 غيبة الحسن عنك فقد أنصفتنا.^(١)

ثم تفرقوا:

(١) مقاتل الطالبيين: ص ٣٧٣ - ٣٧٤، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

واستمرت ثورة الوالي عمر بن عبد العزيز وغضبه وحقده، كما أقسم على أن يحرق دار الحسين، ويخرّبها، ويضربه ألف سوط إن لم يحضر الحسن إليه في يوم وليلة، كما أقسم أن يقتل الحسن إذا وقعت عيناه عليه.^(١)

الثورة

تجمعت رجالات الشيعة وتكاثرت في دار الحسين بن علي بن الحسن، ويحيى وسليمان وإدريس بنو عبد الله بن الحسن ومعهم عبد الله بن الحسن الأبطس وإبراهيم بن إسماعيل طباطبا وعمر بن الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن الحسن وعبد الله بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ووجهوا إلى فتیان من فتیانهم ومواليهم، فاجتمعوا ستة وعشرين رجلاً من ولد علي عليه السلام وعشرة من الحجاج، ونفر من الموالي^(٢)، كما انظم إليهم كثير من الحجاج الشيعة الذين قدموا من الكوفة لأداء فريضة الحج، وبعد جلسة طويلة استعرضوا فيها قواهم العسكرية عدداً وعدة، ودرسوا كما رسموا خطط المعركة.

وعندما تكاملت عندهم الرؤى الواضحة وما تجنيه من خسران ونصرة خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن مع جماعة من الشيعة إلى دار مروان، وهي دار الإمارة، فلم يجدوا الوالي عمر بن عبد العزيز بها، وفتشوا عنه في أماكن أخرى حتى دار عبد الله بن عمر فلم يجدوه.

فيذكر الطبري: أنه عندما علم باجتماع الشيعة وخاصة العلويين أي أبناء علي عليه السلام تواری عنهم^(٣). ثم خرجت الجماهير من الشيعة إلى مسجد المدينة قبيل الفجر، وترددت صيحاتهم: (أحد أحد)^(٤) وتهليلاً وتكبيراً، وأمروا المؤذن بأن

(١) مقاتل الطالبين: ص ٣٧٤، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٣٧٥، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٩٣، ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة.

(٤) مقاتل الطالبين: ص ٣٧٥، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

يؤذن بأذان الشيعة وهو حي على خير العمل.^(١)
 وجلس الحسين بن علي بن الحسن على المنبر وعليه عمامة بيضاء، وجعل الناس
 يأتون المسجد، فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنة
 نبيه محمد ﷺ للمرتضى من آل محمد.^(٢)
 ثم خطب الحسين، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال في آخر كلامه: يا أيها الناس،
 أنا ابن رسول الله ﷺ في حرم رسول الله وفي مسجد رسول الله ﷺ، وعلى منبر
 نبي الله، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن لم أف لكم بذلك فلا بيعة لي في
 أعناقكم.^(٣)

الصدام في المسجد

اقتحم المسجد في المدينة فرقة من الجنود العباسيين قوامها مائتا رجل بقيادة
 خالد البربري، وانضم إليهم والي المدينة عمر بن عبد العزيز حيث كان مختفياً
 خوفاً من الثوار الشيعة، فدخلوا المسجد من باب جبرئيل شاهرين سيوفهم، فاتجه
 خالد نحو الحسين بن علي بن الحسن وهو يصيح: قتلي الله إن لم أقتلك، واعترضه
 يحيى بن عبد الله بن الحسن لمنعه من الوصول إلى الحسين بضربة بالسيف على أنفه
 فقطعها، وسالت دماؤه، ولكنه استمر في المقاومة حتى ضربه إدريس بن عبد الله
 بن الحسن ضربة قضت على حياته، فارتاع المهاجمون فجنبوا، وخافوا، وحملوا جثة
 قتيلهم، وانسحبوا بها فيهم والي المدينة عمر بن عبد العزيز.
 ثم اقتحم الثوار بيت المال في المدينة، واستولوا على نحو سبعين ألف دينار،^(٤)

(١) المصدر نفسه.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٩٤، ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ٩١، ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٢٠١، ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة. مقاتل الطالبين: ص ٣٧٨، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٩٥، ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ٩١، ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة.

وحدثت معارك جانبية بين الفريقين في المدينة وقع فيها كثير من القتلى والجرحى، ثم تهباً الحسين بن علي بن الحسن مع أصحابه للرحيل إلى مكة لأداء فريضة الحج، فخرج في ٢٤ من ذي الحجة الحرام سنة ١٦٩ هجرية مع أصحابه وأهله ومواليه، وكان عددهم ثلاثمائة نفر، واستخلف على المدينة دينار الخزاعي.

وعلم الخليفة العباسي (الهادي) بحركة الحسين وثورته، فأرسل كتاباً إلى محمد بن سليمان يأمره بالقضاء على حركة الشيعة، فتوجه في عدة من الرجال والسلاح، وانضم إليه العباس بن محمد بن سليمان وموسى بن علي بن موسى مع جماعتهم وأصحابهم، وعسكروا في (ذي طوى)^(١) وانضم إليهم كذلك كثير من شيعة ولد العباس ومواليهم.

القضاء على الحسين وثورته

استعد العباسيون وجمعوا قواتهم العسكرية حتى بلغ عددهم نحو أربعة آلاف فارس، وقيل أكثر، وتوزعت القيادة العسكرية على الشكل التالي.

قاد محمد بن سليمان ميمنة الجيش، وقاد العباس بن محمد وموسى بن عيسى ميسرة الجيش، وقاد معاذ بن مسلم وسط الجيش، ورابطوا عند (فخ)^(٢).

وصل الحسين بن علي بن الحسن مع أصحابه وشيعته إلى (فخ) قبل طلوع الفجر، وعندما رأى الحسين تجمع العباسيين واستعدادهم أقعد رجلاً من أصحابه على جمل يحمل سيفاً يلوح به، وأخذ الحسين يملئ عليه بعض الكلمات ينادي بها القوم، ومما قاله بصوت رفيع:

يا معشر الناس، يا معشر المسودة، هذا الحسين بن رسول الله ﷺ وابن عمه، يدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.^(٣)

ولكنهم لم يستجيبوا ولم يكثرثوا.

(١) تقع ذي طوى: بين مكة والمدينة وأقرب ما تكون إلى مكة.

(٢) فخ: موقع قرب مكة تبعد تسعة أميال عنها.

(٣) مقاتل الطالبين: ص ٣٧٧، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

ثم تقابل الفريقان، ودارت معركة رهيبة قاتل فيها الحسين بن علي بن الحسن حتى استشهد، فقتل الحسين وأكثر من كان معه، وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السباع والطير، وكان معه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام وضربت رقبتة بمكة صبراً، وقتل معه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام وأسر الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام وضربت عنقه صبراً^(١) كذلك، وغيرهم بين قتل وحبس.

ولم يكتف العباسيون بقتله، بل حزوا رأسه ورؤوس أكثر من مائة من أصحابه والشيعية المواليين له، وقدموا بالرؤوس إلى قادة الجيش العباسي، وكان عندهم جماعة من ولد الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب عليه السلام فلم يتكلم أحد منهم بشيء إلا موسى بن جعفر عليه السلام فأشار عليه السلام إلى الرأس وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مضى والله مسلماً صالحاً صوّاماً قوّاماً آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، ما كان في أهل بيته مثله، فلم يجيبوه بشيء^(٢).

أما البقية من أنصار الحسين وشيعته فنجوا، حيث اختلطوا بالحجاج الذين قدموا إلى مكة رغم تتبع الجيش العباسي وتفتيشه عنهم، ما عدا قلة وقعوا بالأسر فقتلوا.

وأخذ الأمان لعبد الله بن الحسن بن علي وللعسين بن علي، ولكنها حبساً عند جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، وقتلاً بعد ذلك^(٣).

أما موسى بن عيسى فقدم إلى بغداد ومعه ستة من الأسرى منهم أربعة من أهل الكوفة، فطلب الخليفة العباسي (المهادي) من موسى أن يمثل الأسرى بن يديه، فطلب موسى من الخليفة أن يعفو عنهم؛ إذ قد تعهد لهم بذلك، وأمنهم على أنفسهم، ولكن الخليفة أمر بقتل أسيرين منهم، وعفا عن الباقين.

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٣٦-٣٣٧، ذكر أيام موسى المهادي. تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٩٧، ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٣٨٠، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ.

(٣) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٣٧، ذكر أيام موسى المهادي.

أما واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز عندما علم بمقتل الحسين وأصحابه عمد إلى أموالهم وصادرها، كما أحرق دورهم في المدينة.^(١) وهذه صورة صادقة أخرى من عشرات الصور التي يذكرها التأريخ عن حكم الخلفاء العباسيين وجورهم، وتتبعهم لأولاد رسول الله ﷺ خوفاً على الجاه والسلطان والملك.

ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن

كان يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام محبوباً مقدرًا وقد وصفه الأصفهاني في مقاتل الطالبين بقوله: وكان حسن المذهب والهدى، مقدماً في أهل بيته، بعيداً عما يعاب على مثله، وقد روى الحديث وأكثر الرواية عن جعفر بن محمد، وروى عن أبيه وعن أخيه محمد، وعن أبان بن تغلب.^(٢) وقال أيضاً:

كان موضع تقدير الإمام مالك بن أنس، فقد روى عن موسى الفزاري قال: رأيت يحيى بن عبد الله بن الحسن جاء إلى مالك بن أنس بالمدينة، فقام له عن مجلسه، وأجلسه إلى جنبه.^(٣) ومن المعلوم أنه كان من كبار شخصيات البيت العلوي في ذلك الوقت، وله منزلة كبيرة في قلوب الشيعة.

توارى يحيى عن الأنظار بعد موقعة (فخ) وظل مختفياً ينتقل من بلد إلى بلد يطلب موضعاً يلجأ إليه حتى استقر في بلاد الديلم، وعلم بمكانه الفضل بن يحيى البرمكي، فكتب له منشوراً لا يتعرض له أحد.

(١) مقاتل الطالبين: ص ٣٨٢، ذكر الحسين بن علي صاحب فخ. تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٢٠٠، ذكر أحداث سنة ١٦٩ للهجرة.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٣٨٨، ذكر يحيى بن عبد الله بن الحسن.

(٣) مقاتل الطالبين: ص ٣٨٩، ذكر يحيى بن عبد الله بن الحسن.

وبعد فترة ظهر أمره، حيث كثر أنصاره، وقدم إليه كثير من المحبين والموالين من المناطق المجاورة، واختار مكانه الأخير مركزاً لحركته.

فخاف هارون وقلق عندما علم بنشاط هذا الزعيم العلوي الشيعي، فجعل عليه العيون والجواسيس لمراقبته وإعلامه بكل حركة من حركاته، فبذل في هذا السبيل أموالاً طائلة.

فاتخذ هارون موقفاً حازماً من دعوة يحيى، واستشار وزيره يحيى البرمكي بذلك فأشار عليه بإرساله ولده الفضل لقتاله أو إرغامه على طاعة الخليفة. ويذكر ابن الأثير في كامله قصة ليست غريبة عن ألعيب البرمكي وحيله وهي:

أن يحيى البرمكي زود الزعيم العلوي بكثير من الأموال حتى تستفحل دعوته، ويظهر أمره، فيضطر الخليفة إلى توجيه اهتمامه إليه، فعهد إلى ابنه الفضل بأمره مما يرفع من مكانة الفضل عند الخليفة، وكان هذا تدبيراً من يحيى البرمكي بدون علم الخليفة.

وفعلاً عندما علم هارون بنشاط يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام وأنه ظهر بالديلم، واشتد شوكته، وقوى أمره، ونزع إليه الناس من الأمصار والكور، فتأثر لذلك هارون واغتم، فامتنع عن شرب النبيذ. فندب إليه الفضل بن يحيى وعهد إليه أمره، ومنحه صلاحيات استثنائية وأمده بجيش كبير مؤلف من خمسين ألف جندي وقائد، وولاه كور الجبال والري وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان، وحملت معه الأموال، ففرق الكور على قواده.

فولى المثنى بن الحجاج بن قتيبة بن مسلم طبرستان، وولى علي بن الحجاج الخزاعي جرجان، وأمر له بخمسمائة ألف درهم، وجعل النهرين قاعدة عسكرية له.

وأقبل الأدباء والشعراء يمدحون الفضل بن يحيى والخليفة وبني العباس، ويتوددون إليه، فأهال عليهم الأموال، وأغدق بشكل لم يسبقه مثيل، فكان هذا

الأسلوب من أقوى وسائل الإعلام والدعاية.

فكتب الفضل إلى يحيى بن عبد الله كتاباً بعد أن قويت شوكته وذاع صيته يستميله ويرغبه في محاولة للعدول عن عزمه، كما أنه بنفس الوقت أرسل رسالة إلى صاحب الديلم يخوفه ويحذره من مساعدة الثائر الحسيني الشيعي، ويهدده بالعقاب إن لم يقنعه بالعدول عن عزمه، كما أرفق برسالته ألف ألف درهم - أي مليون درهم - على أن يسهل له خروج يحيى.^(١)

فنجح الفضل بإرغام صاحب الديلم عن مناصرة الثورة العلوية الشيعية بزعامه يحيى بن عبد الله بن الحسن والتخلي عنها.

حيثئذ أدرك الثائر العلوي يحيى بن عبد الله خطورة الموقف، كما عمد الفضل إلى سد الطرقات والمنافذ بجيش كثيف، وعلم يحيى بذلك فقال: اللهم أشكر لي إخافتي قلوب الظالمين، اللهم إن تقض لنا النصر عليهم فإنما نريد إعزاز دينك، وإن تقض لهم النصر فبما تختار لأوليائك وأبناء أوليائك من كريم المآب وسني الثواب. فبلغ ذلك الفضل فقال: يدعو الله أن يرزقه السلامة فقد رزقها.^(٢)

ولعله كان يكره إراقة دماء الشيعة لولا السلطان والجاه والمال.

وبعد حساب دقيق لقواه العسكرية وقوى أعدائه رأى بأن النصر مستحيل، فاستجاب يحيى بن عبد الله لدعوة السلام بشرط أن يكتب له هارون ولسبعين رجلاً من قواده عهد أمان، ويشهد على صك العهد القضاة والفقهاء وشيوخ بني هاشم.

وبالفعل سر هارون بذلك، وعظم موقعه عنده، وارتفعت مكانة الفضل، فكتب أماناً ليحيى بن عبد الله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وأجلة بني هاشم ومشائخهم، منهم عبد الصمد بن علي والعباس بن محمد ومحمد بن إبراهيم

(١) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٢٤٢، ٢٤٣، ذكر أحداث سنة ١٧٦ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ١٢٥، ذكر أحداث سنة ١٧٦ للهجرة. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ١٦٧، ذكر أحداث سنة ١٧٦ للهجرة.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٣٩٣، ذكر يحيى بن عبد الله بن الحسن.

وموسى بن عيسى^(١) وغيرهم، وأرفق هذا الصك بجوائز وهدايا ضخمة. وتوعز بعض المصادر التاريخية إلى أن الذي دفع يحيى بن عبد الله للكف عن المضي في ثورته وانتهاج سياسة سلمية إلى عدة عوامل، أهمها: عدم اطمئنانه إلى صاحب الديلم بعدما خضع لتهديد العباسيين وقبل هباتهم؛ إذ كما رأينا أن الفضل بعث إليه بمليون درهم واستلمها، مع العلم أن يحيى بن عبد الله كان يعتمد في ثورته على الديلم، حيث كانوا مهئين للثورة والقتال، ساخطين على الحكم العباسي، وهناك أسباب أخرى يطول شرحها.

وفي سنة ١٧٦ هجرية قدم يحيى بن عبد الله مع الفضل إلى بغداد، واستقبلها هارون وحاشيته بالحفاوة والتكريم والترحاب، فهياً لنزول يحيى بن عبد الله دار يحيى البرمكي، وكان البرمكي يقوم بخدمته بنفسه، ثم نقل إلى قصر أعده هارون له، ومدّه بأموال، وسمح للناس بزيارته والتردد عليه.

وسرعان ما تغيرت هذه السياسة التي انتهجها هارون، وتبدلت وانقلبت، فأساء هارون معاملة الزعيم الشيعي العلوي، فوضع رقابة على القصر، فكانت العيون والجواسيس تنقل إليه أخبار الزوار والمترددین عليه، وكانوا كثيرين.

ثم أخذ يمارس الضغط على الزعيم الشيعي، فطلب هارون أسماء السبعين رجلاً الذين عفا عنهم هارون بموجب العهد، فرفض يحيى الإفشاء بأسمائهم، مما أثار غضب هارون، فقال هارون لخاصته: إن هذا لم يسم أصحابه، فكلما أردت أخذ إنسان يبلغني عنه بشيء أكرهه ذكر أنه ممن أمنت.

وهكذا استمرت ضغوط هارون على يحيى والتضييق عليه حتى أمر بسجنه ونقض الأمان والعهد الذي بذله له.

اتهام يحيى

يذكر المؤرخون قصة لا تخلو من طرافة، وقد أدت إلى آية سهاوية، وهي أن عبد

(١) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٢٤٣، ذكر أحداث سنة ١٧٦ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ١٢٥، ذكر أحداث سنة ١٧٦ للهجرة.

الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير حاول خلق فرية يريد منها التقرب إلى هارون، كما أنه يريد من هارون في نفس الوقت أن يزيد من ضغطه وظلمه على يحيى، فاتهم يحيى بن عبد الله بأنه دعاه إلى البيعة له.

ورأى هارون أن يواجه المدعي عبد الله بن مصعب مع المدعى عليه المتهم وهو يحيى بن عبد الله، ودار حوار وجدال عنيف بينهما أمام هارون، فنفى يحيى هذا الاتهام جملة وتفصيلاً.

ثم أراد يحيى أن يخرج مصعباً، فذكر هارون بموقف آل الزبير من بني هاشم عامة ومن بني العباس خاصة، ثم ذكر يحيى هارون بأن مصعباً هذا كان قد انضم إلى ثورة أخيه محمد ذو النفس الزكية ضد جده المنصور، وأنه هو الذي أنشد:

قوموا ببيعتكم نهض بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بني حسن
من قصيدة طويلة...

ثم تبادلوا الشتائم والسباب، وتفاخرا بالآباء والأنساب، ثم قال يحيى: وليس سعائته يا أمير المؤمنين حياً لك، ولا مراعاة لدولتك، ولكن بغضاً لنا جميعاً أهل البيت، ولو وجد من يتصر به علينا جميعاً لكان معه، وقد قال باطلاً، وأنا مستحلفه، فإن حلف أيّ قلت ذلك فدمي لأمر المؤمنين حلالاً.^(١)

ثم طلب يحيى من هارون أن يكون الفضل بن الربيع في الأمر - أي يشرف على القسم - فاستدعى عبد الله بن مصعب بن الزبير ليقسم اليمين البراء^(٢)، فتلكأ وامتنع عن القسم، فقال يحيى: قد تقلدت الحول والقوة دون حول الله وقوته إلى حولي وقوتي إن لم يكن ما حكيتته عني حقاً فحلف له عبد الله بن مصعب الزبيري اليمين، وعندما أقسم اليمين طلب يحيى بن عبد الله أن يمهل هارون ثلاثة أيام ليرى ما يصنع الله به، فإذا لم يحدث شيئاً كان دم يحيى للخليفة حلال.

حيث ورد عن رسول الله ﷺ ما حلف أحد بهذا اليمين وهو كاذب إلا عجل

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٥١-٣٥٢، ذكر أيام هارون العباسي.

(٢) لهذا اليمين: القسم صور عديدة يذكر إحداها الأصفهاني في مقاتل الطالبين: ص ٣٩٩.

الله له العقوبة قبل ثلاثة.

فقال هارون للفضل: خذ بيد يحيى^(١) فليكن عندك حتى أنظر في أمره.

قال الفضل: فوالله ما صليت العصر من ذلك اليوم حتى سمعت الصراخ من دار عبد الله بن مصعب، فأمرت من يتعرف خبره، فعرفت أنه قد أصابه الجذام^(٢)، وأنه قد تورم واسود، فصرت إليه.

فوالله ما كدت أعرفه؛ لأنه صار كالزق العظيم، ثم اسود حتى صار كالفحم. فصرت إلى هارون فعرفته خبره، فما انقضى كلامي حتى أتى خبر وفاته، فبادرت بالخروج، وأمرت بتعجيل أمره والفراغ منه، وتوليت الصلاة عليه، فلما دلوه في حفرة لم يستقر فيها حتى انخسفت به، وخرجت منه رائحة مفرطة النتن، فرأيت أحمال الشوك تمر في الطريق فقلت: عليّ بذلك الشوك، فأتيت به، فطرح في تلك الوهدة، فما استقر حتى انخسفت ثانية، فقلت عليّ بألواح ساج فطرح علي موضع قبره، ثم طرح التراب عليها.

وانصرفت إلى هارون فعرفته الخبر وما عاينت من الأمر، فأكثر التعجب من ذلك، وأمرني بتخليفة يحيى بن عبد الله بن الحسن، وأن أعطيه ألف دينار. ثم طلب هارون أن يحضر يحيى فاحضر، فقال له: لم عدلت عن اليمين المتعارفة بين الناس؟ قال: لأننا روينا عن جدنا عن النبي ﷺ من حلف بيمين مجد الله فيها استحيا الله من تعجيل عقوبته، وما من أحد حلف بيمين كاذبة نازع الله فيهما حوله وقوته إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث..^(٣)

ورغم مكانة يحيى بن عبد الله بن الحسن عند الناس، ورغم هذه المعجزة والآية السماوية العظيمة قتل يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن

(١) وينقل المسعودي: أن القصة حدثت بين عبد الله الزبيري وموسى بن عبد الله بن الحسن، وليس يحيى بن عبد الله بن الحسن: ج ٣، ص ٣٥٢.

(٢) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٥٢. ويروي الطبري: ج ٨، ص ٢٤٦. أنه أصيب بالفالج فمات من ساعته. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ١٦٨، ذكر أحداث سنة ١٧٦ للهجرة.

(٣) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٥٢-٣٥٣، ذكر أيام هارون العباسي.

أبي طالب عليه السلام في الحبس شر قتلة، ويروي المسعودي رواية أخرى وهي: أن يحيى ألقى في بركة فيها سباع قد جوعت، فأمسكت عن أكله، ولاذت بناحية، وهابت الدنو إليه، فبني عليه ركن بالحصى والحجر وهو حي.^(١) وتقول المصادر التاريخية أن سبب غضب هارون على يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي أدى إلى إهانته وحبسه وقتله هي: إقبال عامة الناس عليه من بغداد وتردهم على قصره، كما ما زال أنصاره وأعوانه في الديلم متعاونين متكاتفين يثيرون الاضطرابات طالبين عودته.

كما أن الشيعة في الحجاز وزعماءهم يترقبون فرصة الثأر من العباسيين، يناصرهم عدد ضخم من أهل الحجاز غير الشيعة، إلى جانب ذلك إعلان أخيه إدريس بن عبد الله في بلاد المغرب عن ثورة تزعمها ناشراً دعوته، مهدداً للنفوذ العباسي في تلك البلاد.

لذا اتخذ هارون سياسة البطش والشدة والقسوة دون سياسة اللين والصبر والحلم؛ لأن السياسة الأخيرة تحتم عليه ترك العرش وإرغامه بالتنحي عن الخلافة، وخاصة عندما تتوجه القوى الشيعية المنتشرة في كثير من البلدان الإسلامية كما ذكرنا.

لذا أمر بسجن يحيى بن عبد الله بن الحسن رغم ما بينهما من صك على نفسه وعهد بالأمان من الأذى والجور والظلم له ولأنصاره حسب الاتفاق. فما كان من هارون حتى دعا القضاة والفقهاء ليجدوا مخرجاً ليتحلل من العهد الذي بذله ليحيى؛ ليوهم أنه مرتبط بشرع ودين حتى ينقض الأمان الذي منحه له.

فحضر القاضي محمد بن الحسن صاحب أبي يوسف والحسن بن زياد اللؤلؤي وأبو البحري وهب بن وهب، ثم بعث هارون بإحضار يحيى بن عبد الله من سجنه ليشهد هذا المجلس، فبدأ المجلس فقدم - مسرور خادم هارون - العهد

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٥٣، ذكر أيام هارون العباسي.

لمحمد بن الحسن صاحب أبي يوسف القاضي ليدي رأيه فيه، فقال بعد قراءة نص الأمان مؤكداً أنه لا حيلة فيه، فتألم الخليفة، وغضب، وعارض الرأي. انتزع مسرور عهد الأمان من يدي أبي الحسن، وأعطاه لأبي البحرني فنظر فيه لحظة ثم قال: هذا باطل منتقض، قد شق عصا الطاعة، وسفك الدم، فاقتله ودمه في عنقي.

وأبدي هارون ارتياحه وسروره، وقال لأبي البحرني: أنت قاضي القضاة، وأنت أعلم بذلك، ومزق أبو البحرني الأمان. وصاح بكار^(١) بن عبد الله بن مصعب الزبيري في وجه يحيى بن عبد الله متملقاً للخليفة هارون قال: شقت العصا، وفارقت الجماعة، وخالفت كلمتنا، وأردت خليفتنا^(٢)، ثم أمر هارون بإعادة يحيى إلى السجن.

نهاية مؤلمة

نقل المؤرخون روايات مختلفة عن مصير يحيى بن عبد الله بن الحسن، فروى الطبري أن يحيى كان حين حضر هذا المجلس الذي أشرنا إليه عليلاً، وقد لاحظ هارون ذلك، فقال لمجالسيه بعد انصراف يحيى: أما ترون به أثر علة، هذا الآن إن مات قال الناس: سموه، فما مكث يحيى بعد هذا إلا شهراً حتى مات.^(٣) أما المسعودي، فذكر رواية غريبة عن مصير يحيى ذكرناها آنفاً.^(٤) وأما اليعقوبي: روى أن الموكل به منعه من الطعام أياماً فمات جوعاً.^(٥) وأما الأصفهاني في مقاتل الطالبين فقال: فبينما نحن ذات ليلة.. فإذا هارون قد أقبل على بردون له، ثم وقف وقال: أين هذا - يعني يحيى بن عبد الله بن الحسن -

- (١) يروي الطبري في تاريخه: وكان بكار شديد البغض لآل أبي طالب، وكان يبلغ هارون عنهم ويسيء أخبارهم. تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٢٤٤، ذكر أحداث سنة ١٧٦ للهجرة.
- (٢) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٢٤٧، ذكر أحداث سنة ١٧٦ للهجرة.
- (٣) تاريخ الطبري: ج ٨، ص ٢٤٧، ذكر أحداث سنة ١٧٦ للهجرة.
- (٤) وهي أنه قتل في بلاد الديلم ما حاربه عامل هارون: مروج الذهب: ج ٣، ص ٣٥٣.
- (٥) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٤٠٨.

قالوا: في هذا البيت. قال: عليّ به، فأذني إليه، فجعل هارون يكلمه بشيء لم أفهمه، فقال: خذوه، فأخذوه فضرب مائة عصا، ويحيى يناشد الله والرحم والقراة من رسول الله ﷺ ويقول: بقرابتي منك، فيقول ما بيني وبينك قرابة.

ثم حمل فرد إلى موضعه. قال: كم أجرئتم عليه؟ قالوا: أربعة أرغفة وثمانية أرطال ماء. قال: اجعلوه على النصف.

ثم خرج ومكثنا ليالي ثم سمعنا وقعاً فإذا نحن به حتى دخل فوقف فوقه فقال: عليّ به، فأخرج، ففعل به مثل فعله ذلك، وضربه مائة عصا أخرى، ويحيى يناشده الله، فقال: كم أجرئتم عليه؟

قالوا: رغيفين وأربعة أرطال ماء. قال: اجعلوه على النصف.

ثم خرج وعاد الثالثة، وقد مرض يحيى بن عبد الله وثقل، فلما دخل قال: عليّ به، قالوا: هو عليل مدنف لما به. قال: كم أجرئتم عليه؟ قالوا: رغيفاً ورطلين ماء. قال: فاجعلوه على النصف.

ثم خرج: فلم يلبث يحيى بن عبد الله أن مات، فأخرج إلى الناس ودفن «رضوان الله عليه»^(١).

وقال ابن عمار في خبره عن علي بن محمد بن سليمان: إنّه دس إليه في الليل من خنقه حتى تلف.^(٢)

قال: وبلغني أنه سقاه سماً.

وقال: علي بن إبراهيم عن إبراهيم بن بنان الخثعمي، عن محمد بن أبي الخنساء، أنه أجاج السباع، ثم ألقاه إليها فأكلته.^(٣)

وهناك مرويات كثيرة أخرى يرويها غير هؤلاء من المؤرخين كالخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وغيره.

ويستفاد من ذلك كله أنّ يحيى بن عبد الله بن الحسن لم يمّت موتة طبيعية، بل

(١) مقاتل الطالبين: ص ٤٠٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٤٠٣.

مات بإحدى هذه الصور، ولم يمت في ميادين القتال كأسلافه من زعماء الشيعة الذين ثاروا وأعلنوا الثورة في وجه خلفاء الدولة العباسية. ولكنهم اتفقوا في أنهم مات في سجن هارون، إما سماً، أو جوعاً، أو ضرباً حتى الموت، وإنما سالم وسلم لاطمئنانه بأمانة هارون وعهده الذي كتبه ومزقه. وبعد إعلان موته أمر هارون العباسي بسجن ثلاثة من أبرز وأخلص أصحاب يحيى بن عبد الله بن الحسن وهم: يحيى بن مساور وعبد ربه بن علقمة ومخول بن إبراهيم النهدي، فحبسهم جميعاً في المطبق، فمكثوا فيه اثني عشرة سنة^(١) وبعد أربع سنوات من سجنهم دخل هارون عليهم في السجن وهددهم بالتعذيب والتنكيل إن لم يدلوه على بقية أصحاب يحيى بن عبد الله، فأعلموه أنهم قد مضت سنوات أربع وهم مسجونون، ولا يعلمون عن هؤلاء الأصحاب شيئاً.^(٢) هذه قراءة سريعة لسياسة خلفاء العباسيين وسيرتهم، وقد عرفت أنها في مجملها كانت سيرة هلو وفسق وفجور وسفك للدم، وما استقرت يوماً حتى أذن الله سبحانه بزوال دولتهم وسقوطها، وبها قد انتهت حقبة دموية أخرى من تاريخ الحكام الظالمين الذين تمردوا على الإسلام، وحطموا بلاد المسلمين.

(١) المصدر نفسه: ص ٤٠٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٠٥.

الفصل السادس

صور بشعة من ظلم الأمراء
وجورهم عبر العصور

لم يعرف المسلمون للتعذيب والقتل والاستبداد معنى في حكومة الرسول ﷺ وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام التي هي الميزان الوحيد للحكومة الإسلامية العادلة كما تقدمت لك بعض صورها، وأما غيرها من الحكومات العديدة التي تعاقبت على بلاد الإسلام فلم تكن تتعدى عن كونها نوعاً من الاغتصاب والتعدي على الحقوق الإسلامية والإنسانية للناس.

إنّ المشاهد البشعة التي نراها من التعذيب الوحشي وسفك الدماء وهتك الأعراض اليوم لم تكن سوى ممارسات استوردها المسلمون من الآخرين؛ وذلك لأنّ الإسلام هو دين الرحمة والإنسانية، ولا يوجد مبدأ على وجه الأرض أرأف من الإسلام بالإنسان واحتراماً لحقوقه، وهو الذي قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(١).

ووردت الروايات المتواترة في كتب العامة والخاصة عن رسول الله ﷺ في النهي عن التعذيب والإيذاء، فقد روي بأنّه مر هشام بن حكيم على أناس من الأنباط بالشام قد أقيموا في الشمس، فقال ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا» ودخل على حاكم فلسطين فحدثه بالحديث فأمر بهم فخلوا.^(٢)

وفي جملة من الروايات: «لا تغلوا ولا تمثّلوا» وفي بعضها «لا تغدروا ولا تمثّلوا».^(٣)

(١) سورة الإسراء: الآية ٧.

(٢) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٦٦. مسند أحمد: ج ٣، ص ٤٠٣، باب حديث هشام بن الحكم.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ٥٨، باب ١٥ من أبواب جهاد العدو، ح ١٩٩٨٥. الكافي: ج ٥، ص ٢٧، ح ١، باب وصية رسول الله.

وفي جملة من الروايات أنه ﷺ قال: «ألا أخبركم بشرار الناس؟ ثم قال: من أكل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده»^(١).

وفي رواية أخرجه بعض العامة أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ صارخاً، فقال رسول الله ﷺ: «مالك؟» قال: سيدي رأني أقبل جارية له فجبّ مذاكيري^(٢). فقال النبي ﷺ: «عليّ بالرجل» فطلب فلم يقدر عليه. فقال رسول الله ﷺ للعبد: «اذهب فأنت حر»^(٣).

وفي رواية أخرى قال الراوي: كنا نبيع البن في دار سويد بن مقرن فخرجت جارية وقالت لرجل منا كلمة فلطمها، فغضب سويد وقال: لطمت وجهها لقد رأيتني سبع سبعة من إخواني مع رسول الله ﷺ ما لنا إلا خادمة واحدة، فلطمها أحدنا، فأمرنا رسول الله ﷺ فأعتقناها^(٤).

وفي حديث: «من لطم مملوكه فكفارته أن يعتقه»^(٥).

وفي حديث آخر: أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الصبر، فوالذي نفسي بيده لو كانت دجاجة ما صبرتها (والمراد بقتل الصبر هو القتل البطيء بوسائل التعذيب ونحوه)^(٦).

وهناك الأحاديث الكثيرة التي يجدها من شاء في كتب العامة والخاصة، خصوصاً في أبواب الجهاد والصيد والذباحة.

ولكن انحراف المسلمين عن الإسلام بعد حكومة الرسول الأعظم ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام واستيلاء الحكام المستبدين الذين لم تكن همهم من الدنيا

(١) الحقوق، الفقه: ج ١٠٠، ص ٣٦٧، تحف العقول: ص ٢٦. بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ١٢٢، ح ٣٤.

(٢) نيل الأوطار: ص ١٢٢٩، كتاب العتق، ح ٢٦٠٤. والمذاكير: هي الأعضاء التناسلية.

(٣) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٦٧. شرح رسالة الحقوق: ص ٤٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ج ١٠٠، ص ٣٦٧. مسند أحمد: ج ٥، ص ٤٤٤. باب حديث سويد بن مقرن. صحيح مسلم: ج ٣، ص ٤٨٢، باب صحبة المالك، ح ١٦٥٨.

(٥) نيل الأوطار: ص ١٢٣٠، كتاب العتق: ح ٢٦٠٥. صحيح مسلم: ج ٣، ص ٤٨٠، ح ١٦٥٧.

(٦) سنن أبي داود: ج ٢، ص ٥١٢، باب في من جب مملوكاً على مولاه.

والدين سوى مصالحهم وملذاتهم هو الذي أدى إلى انحطاط بلادنا الإسلامية وانهازم المسلمين يوماً بعد آخر، وهذه الحالة المأساوية التي نعيشها نحن المسلمون في كل يوم من انهيار مادي ومعنوي شامل ما هو إلا نتيجة للسياسات الظالمة والحكومات المستبدة التي حكمت وتحكم بلادنا إلى اليوم، وما تمارسه من أساليب قمعية كابته للشعب وساحقة لكل قيمه ومبادئه وحقوقه، وإليك بعض ألوان التعذيب والأحكام الاعتبارية التي كان يرتكبها من سموا أنفسهم بالخلفاء والأمراء الذين قفزوا على المسلمين بقوة السلاح والنار بدون أية مشروعية أو انتخابات حرة، الأمر الذي منع من انتشار الإسلام وحطم المسلمين مما نرى آثاره جلياً في الحال الحاضر، حيث إن الضعف الذي أصاب بلاد الإسلام من جراء أولئك الخلفاء وأمرائهم انتهى إلى الحالة المؤلمة التي نشاهدها في بلاد المسلمين من الانحطاط والتأخر والتفرق وغلبة الأعداء عليهم.

صور من التعذيب والدموية

منع ابن زياد الوالي الأموي التجول في البصرة ليلاً فجيء إليه بفلاح خرج ليلاً للبحث عن بقرة الضائعة، ولم يكن سمع بقرار منع التجول في الليل فقتله بعد تصديقه أنه لم يكن يعرف ذلك الحكم، ولكن قال: لئلا يتجرأ الناس بمخالفة الأمر.^(١)

وفي الكوفة عندما سير الناس إلى قتال الإمام الحسين عليه السلام جيء له بغريب دخل البلد لدين له يتقاضاه ولم يكن سمع بأمر ابن زياد فأمر بقتله، رغم الأيمان المغلظة التي أتى بها الرجل التي تؤكد عدم علمه بقرار الحكومة، إلا أنها لم تجد نفعاً، إذ قال له: إني أعلم أنك صادق في عدم علمك بأمرى، وأنت غريب، لكنني أقتلك لئلا يتجرأ غيرك، ولا يخرج إلى قتال الحسين.^(٢)

كما أن قتل النساء وهو محظور في الإسلام كان يمارسه الأمويون وأمثالهم.

(١) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) المصدر نفسه.

فإنّ وكيل زياد على البصرة وهو سمرة بن جندب صاحب (قصة النخلة) أعدم ثمانية آلاف من أهلها تطبيقاً لمبدأ القتل على التهمة.^(١)

وقد أمر زياد بقطع لسان رشيد الهجري وصلبه؛ لأنّه تكلم بما لا يرضيه.^(٢) والحجّاج الذي حكم الكوفة عن الأمويين كان نسخة أخرى عن زياد وابن زياد، وقد أنشأ سجن «الدياس»^(٣) المشهور، وكان بلا سقف، وقدّر عدد من كان فيه عند وفاته بعشرات الآلاف من الرجال والنساء، وكان التعذيب يطبق على الأسرى والمعتقلين حسب رغبة الحجّاج كما أن القتل الكيفي كان شائعاً في مجلسه كل يوم تقريباً، فيأمر بالنطع فيفرش ويقطع رأس الضحية بالسيف.^(٤)

كما أنّه كان الحجّاج يصلب بعد القتل الأشخاص الذين لهم مكانة خاصة في حركة المعارضة أو ما أشبه ذلك كما في صلب ابن الزبير،^(٥) وكان من ضحايا هذا الإجراء ميشم التمار مع جماعة آخرين من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام.^(٦) كما أنّ هشام بن عبد الملك في الشام وولاته على الأقاليم كانوا يقتلون الناس الأبرياء بمجرد أنّهم كانوا يخالفون نظر الخليفة أو واليه، وكانوا يقطعون أيدي الناس وأرجلهم، وقد قتل غيلان بن مسلم الدمشقي بتهمة القول بالقدر،^(٧) وبنفس التهمة قتل خالد القسري عامله على العراق الجعدة بن درهم.^(٨)

وكان خالد القسري قبل ذلك والياً على الحجاز، وأصدر عند ذلك تحذيراً لمن يتكلّم حول الخليفة، أن يصلبه في الحرم أي في داخل المكان المقدّس لدى

(١) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٢٣٧، ذكر أحداث سنة ٥٠ للهجرة.

(٢) إرشاد القلوب: ج ٢، ص ٢٢٦، باب إخباره بالغيث.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١٨، ص ٢٦. الطبقات الكبرى: ج ٦، ص ٢٨٥، ترجمة إبراهيم التميمي.

(٤) البداية والنهاية: ج ٩، ص ١١، سنة ٧٥ للهجرة.

(٥) مروج الذهب: ج ٣، ص ١٢٢، ذكر أيام عبد الملك بن مروان.

(٦) الإصابة: ج ٦، ص ٢٤٩، باب ترجمة ميشم التمار. الأعلام: ج ٨، ص ٢٩٤، باب ترجمة ميشم

التمار. الإرشاد: ج ١، ص ٣٢٣، حديثه عليه السلام مع ميشم التمار.

(٧) الأعلام: ج ٥، ص ٣٢٠، ترجمة غيلان بن مسلم الدمشقي.

(٨) البداية والنهاية: ج ٩، ص ٣٩٤، ذكر أحداث سنة ١٢٤ للهجرة.

المسلمين كافة، ورغم أنّ الشريعة الإسلامية حرمت حتى قتل الصيد أو أذاه في هذا المكان.^(١)

وفي أيام هشام كان بعض الناس يحرقون حرقاً وهم أحياء كالمغيرة بن سعيد العجلي الذي ظهر خارج الكوفة في أيام ولاية خالد القسري.^(٢) كما أنّ أبا مسلم الخراساني الذي مهّد الدولة للعباسيين وكان من عملائهم قتل حسب رواية الطبري في المشرق ستمائة ألف بين رجل وامرأة و غلام، وقد كانت وصيته إلى عماله: أن اجعلوا أسواطكم السيف، وسجنكم القبر.^(٣) كما أنّ أحدهم كتب إلى عامله أن يقتل أي غلام بلغ خمسة أشبار إذا شك في ولاءه^(٤)، وقد قتل المنصور بعض العلويين بدفنهم أحياء.

كما أنّه قد تطوّر القتل لدى هؤلاء بالتقطيع في أوصال الضحية، فبعد أن كانت الأيدي والأرجل تقطع دفعة واحدة صارت تقطع إلى عدة أوصال، ويضم إليها أجزاء أخرى من الجسم، وقد أبلغها هارون العباسي إلى أربع عشرة قطعة مع تطوير في الوسيلة، تضمنت استعمال مديّة غير حادة بدلاً من السيف. وكانوا يضربون الناس، ويحلقون الشعور لأجل أخذ الأموال منهم، وقد أصبح التعذيب قاعدة متّبعة في الجباية لدى هؤلاء.^(٥)

ولما رأى الفضيل بن عياض المحدث المشهور لدى العامة أناساً يعذبون في الخراج في عهد هارون استنكره بالإسناد إلى حديث نبوي في النهي عن التعذيب،^(٦) وقد كانوا يقيمون الهارب عن الجيش في حالة مأساوية في مكان عام

(١) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٧٠.

(٢) البداية والنهاية: ج ٩، ص ٣٦٣، ذكر أحداث سنة ١١٩ للهجرة.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٤٩١، ذكر أحداث سنة ١٣٧ للهجرة.

(٤) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٧٠، شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢٦٧. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٣٤٤، ذكر أحداث سنة ١٢٨ للهجرة. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٢٨، ذكر أحداث سنة ١٢٨ للهجرة.

(٥) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٧٠.

(٦) تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٤١٥، أيام هارون العباسي.

للتشهير به،^(١) وقد أضاف مصعب بن الزبير في العراق إلى ذلك نزع العمامة وحلق الرأس واللحية.^(٢)

وفي ولاية بشر بن مروان للعراق فرض التعذيب الجسدي، فكان الهارب يرفع عن القاع، ويسمّر في يديه مساران في حائط، ويترك لشأنه، فربما بقي معلّقاً حتى يموت، وربما حرق المسمار كفه فسقط وسلم من الموت.^(٣)

كما أنّهم كانوا يسملون العيون، وقد طال ذلك جملة من الخلفاء، حيث إنّهم كانوا يأخذون الخليفة ويسملون عينيه ويتركونه في الشارع^(٤)، وقد قال أحد الشعراء في خوفه من التعذيب بالمسار هذين البيتين:

لولا مخافة بشر أو عقوبته وأن ينوط في كفيّ مسمار
إذا لعطلت ثغري ثم زرتكم إنّ المحب لمن يهواه زوّار^(٥)
كما أنّهم كانوا يحملون الرأس من بلد إلى بلد تمثيلاً بالميت وإرهاباً لأهالي البلاد، ويقال إنّ أول رأس حمل في الإسلام هو رأس عمرو بن الحمق^(٦) أحد أتباع الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام)، وقد قتله زياد بن أبيه، وحمل رأسه إلى معاوية مع غيره من رؤوس أصحاب علي (عليه الصلاة والسلام) الذين قتلهم صبراً.^(٧)

ومن الحوادث المشهورة المفجعة في هذا الباب حمل عمر بن سعد وأتباعه رأس الحسين (عليه الصلاة والسلام) ریحانة النبي ﷺ ورؤوس أهل بيته وأصحابه بعد

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ٥٤، باب ولاية الحجاج على العراق.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ٥٤، باب ولاية الحجاج على العراق.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ٥٤، باب ولاية الحجاج على العراق.

(٤) مروج الذهب: ج ٤، ص ٣١٣، ذكر أيام القاهر العباسي.

(٥) الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٧٠ - ٣٧١. شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٤٥. تاريخ دمشق: ج ١٠، ص ٢٥٨، ترجمة بشر بن مروان بن الحكم.

(٦) الاستيعاب: ج ٣، ص ١١٧٢. ترجمة عمرو بن الحمق الخزاعي. الإصابة: ج ٢، ص ٥٣٢ - ٥٣٣، ترجمة عمرو بن الحمق الخزاعي.

(٧) البداية والنهاية: ج ٨، ص ٥٢، ذكر أحداث سنة ٥٠ للهجرة.

قتلهم في كربلاء إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى الشام إلى يزيد، وقد أهان ابن زياد رأس الحسين (عليه الصلاة والسلام) بضربه بالقضيب، وكذلك فعل يزيد. وقطع زيد عليه السلام وصلب جسده، ثم إنزله عن المصلبة بعد سنوات، وحرق جسده أمر مشهور يندى منه الجبين.

وقد جعل أحدهم حديقة في قصره لزرع الرؤوس المقطعة، كما أن أحدهم جعل خزانة في بيته للاحتفاظ بالرؤوس المقطوعة والأيدي والأرجل.^(١) وكانوا يضربون الناس باليد صفعاً على القفا والوجنتين^(٢)، كما كانوا يضربون بالهراوة على الكتفين والظهر والأرداف، أما المقرعة فقد كانت للرؤوس، ومن الواضح أنه كان أشد إيلاً من اليد والهراوة.^(٣)

أما الضرب بالسوط للناس جلدًا بدون ذنب فقد كان سائداً وعملاً يومياً لكل الخلفاء وأمرائهم، وينفذ في المضروب واقفاً أو مبطوحاً، وقد يقطر ويضرب، وهو ما اختاره والي المدينة في جلد مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي، وكان قد أفتى بعدم شرعية البيعة للمنصور؛ لأنها أخذت بالإكراه، فأمر الوالي بتأديبه، وتم ذلك برفعه من يديه ورجليه بعد أن قلبوه على وجهه، وأخذ بجلده على الظهر.^(٤)

وفي رواية لابن الأثير أن قائداً من الخوارج يدعى محمد بن عبادة أسر في أيام المعتضد بالله، فسلخ جلده كما تسلخ الشاة^(٥)، كما نقل أيضاً حادثاً آخر كان ضحيته أحمد بن عبد الملك بن عياش، وكان السلاجقة قد حاصروا القلعة التي كانت فيها الضحية بقيادة السلطان محمد بن ملك شاه، ثم افتتحوها وأسروا صاحبها ابن عياش.

(١) وهو المنصور العباسي والرؤوس لمجموعة من الطالبين. النزاع والتخاصم: ص ٧٦.

(٢) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٧٢، باب العباسيون والتعذيب.

(٣) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٧٢.

(٤) الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ١٧٧ - ١٧٨.

(٥) الكامل في التاريخ: ج ٧، ص ٤٦٤، ذكر أحداث سنة ٢٨٠ للهجرة.

يقول ابن كثير: فسلخ جلده حتى مات، ثم حشي جلده تبناً.^(١) ومن الواضح أنه كان غرضهم من حشو الجلد بالتبن عرضه على الناس بعد ذلك للتشهير والتخويف، وبيان أنهم قد تخلصوا من هذا العدو بزعم السلطان الذي يعد كل عدو له عدواً للأمة. ومن الواضح أن السلخ من أشنع أنواع التعذيب، وقد استعمل الأمويون الحرق بالنار والضحية في حال الحياة.^(٢)

والعباسيون أيضاً

كما أن العباسيين أيضاً قد اقتفوا أثرهم، فقد قتلوا الكاتب المشهور عبد الله بن المقفّع حرقاً بالنار، بأن قطعوه قطعة قطعة وهو حي، كانوا يلقون كل قطعة في تيّور مسجر بالنار^(٣) وطوره العباسيون في وقت لاحق إلى شوي الضحايا فوق نار هادئة، وهو ما فعله المعتضد بحق محمد بن الحسن المعروف بشميلة.^(٤) وكان المعتضد قد أعطاه الأمان ثم لم يف بوعده، فأمر بنار فأوقدت، ثم شده على خشبة من خشب الخيم، وأدير على النار كما يدار الشواء حتى تقطع جلده، وشوى لحمه، وبعد ذلك ضربوا عنقه، كما أنهم كانوا يجمعون أحياناً أصنافاً من التعذيب، فالمعتضد عذب ابن أبي الفوارس بأنواع من العذاب، فقلعت أضراسه أولاً، ثم خلعت إحدى يديه بشدها إلى بكرة متحركة، وعلقت بالأخرى جندلة، وترك على حالته تلك من نصف النهار إلى المغرب، ثم قطعت يده ورجلاه في الصباح، وقطع رأسه، وصلب في الجانب الشرقي من بغداد، وحملت جثته بعد أيام إلى محلة تدعى الياسرية، كانت تعلّق فيها جثث المخالفين للدولة. كما أن الحسين بن زكرويه جيء به مع جماعة من أصحابه إلى بغداد بقصد

(١) البداية والنهاية: ج ١٢، ص ٢٠٥، ذكر أحداث سنة ٥٠٠ للهجرة.

(٢) كتاب الفقه، الحقوق: ص ٣٧٣، باب إرهاب الأمراء.

(٣) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٩٦، ذكر أحداث سنة ١٤٥ للهجرة. الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٤) معجم المؤلفين: ج ٩، ص ١٩٣ - ١٩٤، باب محمد.

تعذيبهم وقتلهم، فبنيت دكة في مكان عالٍ، ونودي على الناس لحضور حفلة القتل، وبدأوا يقتادون الأسرى واحداً واحداً، فكان الرجل يؤخذ ويبطح، فتقطع يمينه، ويحلق بها ليراها الناس، ثم تقطع رجله اليسرى ويحلق بها لنفس الغرض، وترمى، ثم يسرى يديه ويمنى رجله، ثم يقطع رأسه ويرمى به مع جثته إلى أسفل تلك الدكة.^(١)

وقدم الحسن بن زكرويه فضرب مائة سوط، وقطعت يداه ورجلاه، وكوي بالنار، فأخذوا أخشاباً أضرمت فيها النار، ووضعت في خواصره وبطنه، ثم ضربوا عنقه، ورفع رأسه على خشبة.

تنور المسامير

وابتكر الزيّات وزير الواثق تنوراً كان في داخله مسامير حادة، وفي وسطه خشبة معترضة يجلس عليها المعذب، وقد عدّب فيه نفس ابن الزيّات بعد عزله في زمن المتوكل.^(٢)

وقد وصف المؤرخون تعذيبه بأنّه حبس أولاً، ثم منع من النوم، فوكل به سجان ينخسه بمسلة كلما أراد أن يغفو، ثم ترك بعد ذلك حتى نام وانتبه، ثم أعيد إلى المساهرة، نقل بعدها إلى التنور حيث مكث زماناً كلما أراد أن يغفو سقط على مسمار فانتبه، فكان يضطر إلى البقاء فوق الخشبة المعترضة مقاومة للنوم، حيث إن هذا التنور فكرة صانعه الذي وقع فيه، بأن يكون للمعذب أحد خيارين إما النوم

(١) الفقه، الحقوق: ص ٣٧٤. في زمن المكتفي العباسي. البداية والنهاية: ج ١١، ص ٩٦، ذكر أحداث سنة ٢٩٠ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ١٠، ص ١١٤، ذكر أحداث سنة ٢٩١ للهجرة. مروج الذهب: ج ٤، ص ٢٨٠، ذكر أيام المكتفي العباسي. الأعلام: ج ٢، ص ٢٥٦ - ٢٥٧، ترجمة الحسين زكروية.

(٢) مروج الذهب: ج ٤، ص ٨٨، أيام المتوكل العباسي. تاريخ الطبري: ج ٩، ص ، ذكر أحداث سنة ٢٣٣ للهجرة. التنبيه والاشراف: ص ٣١٤، ذكر خلافة المتوكل. البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٣١١، ذكر أحداث سنة ٢٣٣ للهجرة. تاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ٣٤١، ذكر نكبة الوزير ابن الزيّات.

على المسامير أو السهر طيلة إقامته في التنور، لكن الإنسان لا يتمكن أن يقاوم السهر، فيقع على المسامير، فتجرح أعضائه، وأخيراً مات هناك في أبشع حالة. وإبراهيم الإمام زعيم الدعوة العباسية قتل على يد مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين بهذه الكيفية، حيث وضع رأسه في جراب مليء بالنورة، وشد عليه بإحكام، وقد ترك على هذه الحالة إلى أن مات محتقناً.^(١)

وذكروا في أحوال عبد الملك بن مروان أنه خطب ابنة التابعي سعيد بن المسيب وكانت مشهورة بجمالها لابنه الوليد، فرفض سعيد لورعه ومعارضته لسياسة الأمويين، فأمر عبد الملك بتأديبه فضرب مائة سوط في يوم بارد، وألبس جبة صوف، ثم صبت عليه جرة ماء بارد.^(٢)

وقد ارتكب عمر بن عبد العزيز إجراءً مماثلاً بحق حبيب بن عبد الله بن الزبير حين كان والياً على المدينة، وكان خالد القسري والياً من قبل، ثم غضب عليه، فأمر بقتله فوضع عوداً غليظاً على قدميه، وقام عليها عدد من الجلادين، فكسرت قدماه، ثم وضع العود على ساقيه فكسرتا بنفس الطريقة، ثم نقل إلى فخذيته، ومنها إلى حقويه، وانتهى العود إلى صدره فكسر.^(٣)

قرض اللحوم

وكان بعضهم يقرض لحوم الضحايا بالمقاريض قطعة قطعة حتى يموت، وذكروا في أحوال المعتضد أنه كان شديد الرغبة في أن يمثل بمن يقتله، وذكروا من وسائل قتله بالتعذيب والتمثيل أنه إذا غضب على أحد أعوانه أو الذي يختصه من غلمانهم أمر أن يتحفر له حفيرة، ثم يدلى رأسه فيها، ويطح التراب عليه، ويبقى نصفه الأسفل ظاهراً فوق التراب، ثم يداس التراب بالأرجل حتى تخرج روحه

(١) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٤٠، ذكر سنة ١٣٢ للهجرة.

(٢) البداية والنهاية: ج ٩، ص ١١٢، ذكر سنة ٩٤ للهجرة.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ج ٣، ص ١٢١، باب ولاية يوسف بن عمر الثقفي. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٢٢٣، ذكر أحداث سنة ١٢٠ للهجرة.

بعد أن سدت كل المنافذ التي يمكن أن تخرج بواسطتها روحه ليزداد عذاباً.^(١)

القتل بالمنافخ

وكان أيضاً يقتل بكيفية أخرى، وهو يأخذ الرجل فيكتف، ويؤخذ القطن فيحشى في أذنيه وخيشومه وفمه، ثم توضع منافخ في دبره حتى ينتفخ ويتضخم جسده، ثم يسد الدبر بشيء من القطن، وبعدها يفصد من العرقين فوق حاجبيه حتى تخرج الروح من ذلك الموضع معانياً أشد آلام العذاب.^(٢)

وأمر هشام بإحضار رجل كان يسمى بعمارة الكلبى، فقلعوا أظفار يديه وأضراسه، وكان يقول بعد ذلك - وهو يندب نفسه حيث كان يلاقى الآلام الشديدة من جراء ذلك العذاب - هذا الشعر:

عذبوني بعذاب قلعوا جوهر راسي

ثم زادوني عذاباً نزعوا عني طساسي

بالمدى حزز لحمي وبأطراف المواسي^(٣)

(والطساس الأظافر في لغة اليمن).^(٤)

توصيل الضحية

وقد أمر الحجاج بتعذيب الخطيط فعري من ملابسه، ولفوه بقصب مشقوق، ثم أخذوا يجزّون القصب فوق جسده قصبه قصبه، وبعد ذلك ولزيادة إيلاجه كانوا يذرون الملح ويصبون الخل على الجروح التي يسببها القصب، وبعد ذلك قطعوا رأسه.^(٥)

(١) مروج الذهب: ج ٣، ص ٢٣٣، ذكر أيام المعتضد العباسي.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تاريخ بغداد: ج ١٤، ص ٤٢٨، ترجمة أبي الياس الراوية. تاريخ دمشق: ج ٦٠، ص ١٤٠، ترجمة مقاس الأسدي.

(٤) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٧٦.

(٥) تاريخ دمشق: ج ١٢، ص ١٨٢، ترجمة الحجاج.

كما أن من أقسام تعذيبهم النفسي كان حلق الرأس واللحى ثم تركيب المعذب على حمار والطواف به في المدينة ومعه أشخاص ينادون بجريتمه.^(١)
كما أن عبيد الله بن زياد أركب يزيد بن مفرغ الحميري على دابة، وأمر بسقيه مادة مسهلة، فكان راكباً على تلك الدابة بالقسر مشدوداً رجلاه ويسلح على نفسه أثناء الطواف زيادة في التنكيل به.^(٢)

والمهدي قتل بيده صالح بن عبد القدوس الشاعر المشهور، فشطره نصفين بضربة على هامته، وعلق بنصفيها جثته في إحدى ساحات بغداد، وقد كان شيخاً وأدركه العمى.^(٣)

ولما أراد هارون قتل بشير بن الليث استدعى جزّاراً، وأمر أن لا يشحذ مديته، ثم أحضروا الضحية، فأخذ الجزّار يقطع أوصاله بمديته الكليلة حتى فصله إلى أربع عشرة قطعة.^(٤)

مآسي السجون

ويقول المسعودي: إنّه مات في حبس الحجاج خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهم ستة عشر ألف امرأة مجردة، وكان يجبس النساء والرجال في مكان واحد.^(٥)

وفي سجون يزيد بن معاوية كانوا يضربون السجين، وأحياناً تشتت عينه، أو ما أشبهه، كما فعلوا بالمختار بن أبي عبيدة. وكان محمد بن هشام والي هشام بن عبد الملك يسجن ويقيّد ويضرب ضرباً مبرحاً حتى يموت السجين.

والحجاج كان يجبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر

(١) الفقه، الحقوق: ج ١٠٠، ص ٣٧٦.

(٢) وفيات الأعيان: ج ٦، ص ٣٤٩-٣٥٠. الكنى والألقاب: ج ١، ص ٤١٩.

(٣) الأعلام: ج ٣، ص ٣٧٧، ترجمة صالح بن عبد القدوس. تاريخ بغداد: ج ٩، ص ٣٠٣، ترجمة صالح بن عبد القدوس.

(٤) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٢١٢-٢١٣، ذكر أحداث سنة ١٩٣ للهجرة.

(٥) مروج الذهب: ج ٣، ص ١٧٥-١٧٦، ذكر أيام الوليد بن عبد الملك.

يستر من الشمس في الصيف، ولا من المطر والبرد في الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب.^(١)

وركب يوماً يريد الجمعة، فسمع ضجعة، فقال: ما هذا؟ فقيل له: المحبسون يضحون ويشكون مما هم فيه من البلاء، فالتفت إلى ناحيتهم وقال: ﴿أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾.^{(٢) (٣)}

وكان سجنه حائطاً محوطاً لا سقف له، فإذا أوى المسجونون إلى الجدار يستظلون بها من حر الشمس رمتهم الحرس بالحجارة، وكان يطعمهم خبز الشعير مخلوطاً بالملح والرماد، وكان لا يلبث الرجل في سجنه يسيراً حتى يتغير وجهه حتى إن غلاماً حبس فيه فجاءت إليه أمه بعد أيام تتفقد خبره، فلما تقدم إليها أنكرته، وقالت: ليس هذا ابني، هذا بعض الزنج، فقال: لا والله يا أمه أنت فلانة بنت فلانة، وأبي فلان، فلما عرفته شهقت شهقة كان فيها نفسها.^(٤)

أقسام السجون

وكانت السجون في كثير من الأمان غاية في الوساخة والسوء، فمنها السجون الخاصة بالحجر المظلمة التي سجن فيها أبو الحسن بن أبي طاهر مع أبيه، ومنها ما هو شبيه بالقبر مملوء بالبق والأفاعي والحشرات كالمكان الذي سجن فيه إبراهيم الموصلية من قبل المهدي العباسي^(٥)، ومنها المطامير^(٦) التي لا يعرف فيها الليل من النهار كالمكان الذي حبس فيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عند السندي بن

(١) التنبيه والأشراف: ص ٢٧٥.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠٨.

(٣) مروج الذهب: ج ٣، ص ١٧٦، ذكر أيام الوليد بن عبد الملك. الكنى والألقاب: ج ١، ص ٢٦٠، ترجمة الحسين بن الحجاج.

(٤) الكنى والألقاب: ج ١، ص ٢٦٠، ترجمة الحسين بن الحجاج.

(٥) الأغاني: ج ٥، ص ١٨٠٥، باب نسب إبراهيم الموصلية وأخباره.

(٦) المطامير: حفر تحفر تحت الأرض توسع أسافلها تحباً فيها الحبوب. لسان العرب: ج ٤، ص ٥٠٢، حرف الراء.

شاهك من قبل هارون العباسي^(١)، ومن ذلك حبس الوراق لسليمان بن وهب كاتب إيتاخ، وأخذه بمائتي ألف درهم، - وقيل دينار - فقيد وألبس مدرعة من مدارع الملاحين، وأمره بلبس السواد.^(٢)

وأحياناً كان العباسيون يسجنون في الكنيف كما سجن سليمان بن وهب، وقيل: إنّه سجن من قبل إسحاق بن إبراهيم، وأغلق عليه خمسة أبواب حتى لا يعرف الليل من النهار، وكما سجن محسن بن أبي الحسن الفرات في كنيف داخل الحجرة، ودلى رأسه في البئر بعد أن قيّد وألبس جبة صوف غمست بالنفط.^(٣) ويظهر من كتاب أبي يوسف إلى هارون العباسي أنّ هذا الأسلوب الذي نهاه عنه كان متبعاً. قال له:

وأغنهم عن الخروج في السلاسل يتصدّق عليهم الناس، فإنّ هذا عظيم أن يكون قوم مسلمين قد أذنبوا، أو أخطئوا، أو قضى الله عليهم ما هم فيه فحبسوا، يخرجون في السلاسل يتصدق الناس عليهم، وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين في أيديهم، فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل الإسلام، وإنّما صاروا إلى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع، فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا.

وقد أخذ إسحاق بن إبراهيم إيتاخ ببغداد فقيدته بقيد ثقيل، وألبسه جبة صوف، وأقام كذلك نحو عشرين يوماً لا يفتح عليه الباب إلا مرة واحدة في كل يوم وليلة يدفع له فيها خبز شعير وماءً حاراً.^(٤)

وحبس يعقوب بن داود من قبل المهدي العباسي في بئر، وكان يدلي إليه في كل

(١) حياة الإمام موسى الكاظم عليه السلام: ج ٢، ص ٤٨٦ - ٤٨٧.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٩، ص ١٢٨، ذكر أحداث سنة ٢٣٠ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٧، ص ١٠، ذكر أحداث سنة ٢٢٩ للهجرة.

(٣) الفرج بعد الشدة: ج ٢، ص ٤٦، الباب ٥، ابن الفرات يتحدث.

(٤) الفرج بعد الشدة: ج ١، ص ٢٠٩، الباب ٣.

يوم برغيب من الخبز وكوز ماء.^(١)

وقيد جعفر البرمكي قبل قتله بقيد ثقيل، ثم قتل بعد ذلك.^(٢)
وحبس بختشوع الطبيب بالمطبق، وضرب مائة وخمسين مفرعة، وأثقل
بالحديد.^(٣)

وحبس محمد بن القاسم العلوي في سجن بستان موسى، وأُكب على وجهه في
أسفل بيت منه، فأصابه من الجهد لضيقه وظلمته ورطوبته ما كاد يتلفه.^(٤)
ولما سجن المعتز العباسي بعد خلعه دفع إلى من يعذبه، ومنع من الطعام
والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة من ماء البئر فمنع منها، ثم جصصوا سرداباً
بالجص السخين، وأدخلوه به، وأغلقوه عليه، فأصبح ميتاً.^(٥)

(١) الفرج بعد الشدة: ج ٢، ص ٢٣٤، الباب ٦. تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٥٨، ذكر أحداث سنة ١٦٦ للهجرة.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ١٩٠، ذكر أحداث سنة ١٨٧ للهجرة. الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ١٧٨، ذكر أحداث سنة ١٨٧ للهجرة.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٧، ص ٨٥، ذكر أحداث سنة ٢٤٤ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٩، ص ٢١١، ذكر أحداث سنة ٢٤٤ للهجرة.

(٤) مروج الذهب: ج ٤، ص ٥٢، ذكر أيام المعتصم العباسي. مقاتل الطالبين: ص ٤٧٠ - ٤٧٣، ترجمة محمد بن القاسم العلوي. الفرج بعد الشدة: ج ٢، ص ١٧٦، الباب ٥، العلوي الصوفي.

(٥) البداية والنهاية: ج ١١، ص ١٦، ذكر أحداث سنة ٢٥٥ للهجرة. تاريخ الطبري: ج ٩، ص ٣٩٠، ذكر أحداث سنة ٢٥٥ للهجرة.

مشاهد أخرى

قتل الأعوان

وقتل والي سوريا من قبل الخليفة العثماني قاضي قضاة المنطقة، وحيث كان الوالي مرتبطاً بالخليفة نسباً عفا الخليفة عنه، فأرسل إليه شيخ الإسلام في تركيا قاضياً ثانياً، وبعد مدة قتل الوالي القاضي الثاني أيضاً، ومكانته من الخليفة منعت أن يقتص منه، فأراد شيخ الإسلام أن يرسل قاضياً ثالثاً لكن القضاة أبوا؛ لأنهم ما آمنوا الوالي، غير أن أحد المرشحين للقضاء كان فقيراً معدماً، ففكر في نفسه أن يكون قاضياً في سوريا، وحيث تصوّر أن قتل الوالي للقاضيين كان بسبب عدم طاعتها له عزم على طاعته حرفياً، فجاء القاضي الجديد واستقبله الوالي كعادته استقبالاً حافلاً، فاستقر في مكانه يقضي بين الناس، وينصب القضاة في القرى والأرياف كعادة تلك الأيام، وفي ذات يوم سأل القاضي الوالي وقال: أيها الوالي، إنني سمعت أنك قتلت قبلي قاضيين، وإنني نويت أن أطيعك في كل الأمور، فما كانت معصية القاضيين لك حتى قتلتها؟ فإنني أريد أن أعرف ذلك كي أتجنب معصيتك؟

قال الوالي: إن القاضيين لم يكن لهما أية معصية، وإنما قتلتها لأنني رأيت في المنام أن القاضي الأول وكذلك القاضي الثاني أرادا بي سوءاً ولما انتبهت من النوم أمرت

بقتلها من غير جرم أو عصيان أو ذنب، ولما سمع القاضي الجديد هذا الحديث خرج من عند الوالي، وركب فرسه مسرعاً نحو الاستانة مقر الخليفة، ولما وصل إليها سئل عن سبب رجوعه، فنقل لهم القصة وقال: إني كنت أتمكن من ضمان يقظة الوالي بأن لا أخالفه، لكنني ما كنت أتمكن من ضمان نومه أن لا يرى أنني قصدت به سوءاً فيقتلني بدون سابق إنذار.^(١)

التعذيب والإهانة

ضرب الوليد بن عبد الملك علي بن عبد الله بن عباس بالسياط مرتين، وشهّره بين الناس يدار به على بعير ووجهه مما يلي ذنب البعير وصائح يصيح عليه هذا علي بن عبد الله بن عباس الكذاب.^(٢)

السلخ

ومن أساليب الحكام السابقين أنهم كانوا يعذبون الذين يخالفونهم بمختلف أنواع التعذيب مثل: تشميع المعذب، وكانت كيفية ذلك أن تثقب مواضع من بدن المعذب، ويجعل في كل ثقبه شمعة مشتعلة، ثم يركبونه الحمار، ويشدون رجله من تحت الحمار، ويطوفون به في الشوارع والأزقة في زفة واجتماع يصفقون حوله، ويعلمون أنه المجرم.

والمعذب من ألم الجراحات والنار كان يموت أحياناً في أثناء الطريق، لكنهم لا يتركونه وشأنه حتى يمروا به كل طرق المدينة، ثم يؤمر به فيدفن في حفرة، وأحياناً كانوا يسودون نصب وجه المعذب مؤرباً، ويركبونه الحمار، ويشدون رجله تحت الحمار، ويطوفون به المدينة في زفة حوله.

وكان من أقسام تعذيبهم أن يأخذ نفران قويان رجلي المعذب وهو منكس، أو يشدون الأرجل بالسقف أو نحوه، ثم يأمر السلطان بأنه يشق شقين من أسفل

(١) ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين: ص ٣٣١.

(٢) العقد الفريد: ج ٥، ص ١٠٣. مكاتيب الرسول: ج ٢، ص ٧٠.

بدنه بواسطة ساطور قوي يضربه الجلواز في أسفل بدنه ويخرجه من عنقه.^(١)

الصلب المنكوس

وكان من أساليب بعض الحكام أنه يصلب من يريد قتله منكوساً إمعاناً له في التعذيب والإهانة، كما أن ابن زياد والحجاج كانا يصلبان الناس على جذوع النخيل بعد أن يقطعاً أيديهم وأرجلهم وأستتهم.^(٢)

دفن الأحياء

وأبو العباس السفاح قتل جماعة بسبب عمارة بناها على الملح، فأحضر أنصار الحكام السابقين في تلك العمارة، ثم أمر بفتح الماء على مبانيها، ولما ذاب الملح انهدمت عليهم جميعاً وماتوا.^(٣)

الضحايا تحت المائدة

وكان الحجاج يقتل الناس أمامه، ثم يفرش على أجسامهم المائدة، ويجلس هو وأصحابه أطرافها، ويأخذون في الأكل والقتل تحت المائدة يرفسون بأيديهم وأرجلهم، فكان ذلك يسبب فرحه وسروره.^(٤) ومن غريب ما حصل أن رجلاً جاء بطبق إلى الملك، فأمر الملك بضرب عنقه، فضربوا عنقه، ولما سألوا الملك عن سبب قتله؟ قال: إنني كنت لصاً قبل أن أصل إلى الملك، ودخلت بستان هذا الرجل في ذلك الوقت وسرقت من بستانه بعض الفواكه، ولما جاء هذا الرجل ونظر إليّ عرف أني ذلك السارق القديم، فأردت قتله لستر الفضيحة حتى لا ينجر أحداً بذلك.^(٥)

(١) ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين: ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٣٦. تاريخ الطبري: ج ٦، ص ٢٦، أحداث سنة ٦٦ للهجرة. نهايتها. مقتل الحسين: ص ١١٩، لأبي مخنف.

(٣) ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين: ص ٣٣٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٣٩.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٣٩.

ضحية العيد

وهذه قصة أخرى تكشف حال الحكام المستبدين ووحشيتهم وتلاعبهم بدماء المسلمين وأموالهم:

قال الشعبي: كنت بواسط وكان يوم أضحي، فحضرت صلاة العيد مع الحجاج خطبة بليغة، لما انصرفت جاءني رسوله يدعوني فأتيته جالساً مستوقراً. قال: يا شعبي، هذا يوم أضحي، وقد أردت أن أضحي فيه برجل من أهالي العراق، وأحببت أن تسمع قوله، فتعلم أنني قد أصبت الرأي فيما أفعل به، فقلت: أيها الأمير، أو ترى أن تستن بسنة رسول الله ﷺ وتضحى بما أمر أن يضحى به، وتفعل مثل فعله، وتدع ما أردت أن تفعله في هذا اليوم العظيم إلى غيره. قال: يا شعبي، إنك إذا سمعت ما يقول صوبت رأبي فيه؛ لكذبه على الله وعلى رسوله وإدخال الشبهة في الإسلام. قلت: أفيرى الأمير أن يعفيني من ذلك؟ قال: لا بد منه.

ثم أمر بنطع فبسط، وبالسياف فأحضر، وقال: احضروا الشيخ فأتوا به، فإذا هو يحيى بن يعمر وكان يحيى بن يعمر تابعياً عالماً بالقرآن والسنة، وكان شيعياً يتشيع لأهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وكان إمام القراء بالبصرة عالماً بالقرآن فقيهاً نحوياً لغوياً أدبياً.

قال الشعبي: فاغتممت غماً شديداً، وقلت في نفسي: وأي شيء يقوله يحيى مما يوجب قتله؟ فلما أحضر قال له الحجاج: أنت تزعم أنك زعيم العراق؟ قال يحيى: أنا فقيه من فقهاء العراق. قال: فمن أي فقهك زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ. قال: ما أنا زاعم بذلك بل قائله بحق. قال: وبأي حق قلته؟ قال بكتاب الله عز وجل، فنظر إليّ الحجاج، وقال: اسمع ما يقول، فإن هذا مما لم أكن سمعته عنه، أتعرف أنت في كتاب الله عز وجل أن الحسن والحسين من ذرية محمد رسول الله ﷺ؟ فجعلت أفكر في ذلك، فلم أجد في القرآن شيئاً يدل على ذلك، وفكر الحجاج ملياً ثم قال ليحيى: لعلك تريد قوله الله عز وجل:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ

وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهَلُ فَنَجْعَلُ لَمَنْتَ اللَّهُ عَلَى الْكَذِبِينَ ﴿١﴾.

وإن رسول الله ﷺ خرج للمباهلة ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين. قال الشعبي: فكأنما أهدي إلى قلبي سروراً، وقلت في نفسي: قد خلص يحيى، وكان الحجاج حافظاً للقرآن، فقال له يحيى: والله إننا لحجة على ذلك بليغة، ولكن ليس بها أحتج، لما قلت، فاصفر وجه الحجاج، وأطرق ملياً، ثم رفع رأسه إلى يحيى وقال له: إن أنت جئت من كتاب الله عز وجل بغيرها في ذلك فلك عشرة آلاف درهم، وإن لم تأت فأنا في حل من دمك.

قال: نعم. قال الشعبي: فغممني ذلك، وقلت في نفسي: لقد رد الحجاج الآية التي كان ليحيى بها إثبات قوله والتخلص من فتكه، مع أن الحجاج قد عرف الآية، فإن جاءه بعد هذا بشيء لم آمن أن يدخل عليه من القول ما يبطل به حجته، لئلا يقال قد علم ما قد جهله.

فقال يحيى للحجاج: قول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ (٢) من عنى بذلك؟ قال الحجاج: إبراهيم عليه السلام قال: فداود وسليمان من ذريته؟ قال: نعم. قال يحيى: ومن نص الله عليه بعد هذا أنه من ذريته؟ فقرأ الحجاج: ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤) وَرَكَرِيًّا وَيَحْيَى وَعِيسَى. قال يحيى: ومن أين كان عيسى من ذرية إبراهيم ولا أب له؟ قال: من قبل أمه مريم. قال يحيى: فمن أقرب مريم من إبراهيم؟ أم فاطمة من محمد عليه السلام؟ وعيسى من إبراهيم أم الحسن والحسين من رسول الله عليه السلام؟

قال الشعبي: فكأنما ألقمه حجراً، فقال: أطلقوه، قبحه الله، وادفعوا إليه عشرة آلاف درهم لا بارك الله له فيها، وخرج يحيى يوزع المال على الفقراء ويقول: وهذا أيضاً من بركات الحسن والحسين عليهما السلام.

ثم أقبل الحجاج على الشعبي فقال: قد كان رأيك صواباً ولكننا أبيناه، ودعا

(١) سورة آل عمران: ٦١.

(٢) سورة الأنعام: ٨٤.

(٣) سورة الأنعام: ٨٤-٨٥.

بجزور فنحره، وقام فدعا بالطعام فأكل وأكلنا معه وما تكلم بكلمة حتى انصرفنا، ولم يزل مما احتج به يحيى بن يعمر واجماً، ثم نفى يحيى إلى خراسان.^(١)

ويكمل الطبري باقي صور الهمجية في سيرة الحجاج مع يحيى بن يعمر إذ روى في تاريخه: أنه كتب يزيد بن المهلب إلى الحجاج ببعض الفتوح، وكانت كتب يزيد إلى الحجاج يكتبها يحيى بن يعمر العدواني، وكان حليفاً لهليل فكتب: إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة، وأسرنا طائفة، ولحقت طائفت برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأحضان الغيطان وأثناء الأنهار.

فقال الحجاج: من يكتب ليزيد؟ فقيل: يحيى بن يعمر، فكتب إلى يزيد يرسله إليه، فحمله على البريد، فقدم عليه فإذا هو من أفصح الناس، فقال له: أين ولدت؟ فقال: بالأهواز. قال: فهذه الفصاحة من أين؟ قال: حفظت كلام أبي وكان فصيحاً. قال: من هناك فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد. قال: نعم كثيراً. قال: ففلان؟ قال: نعم. قال: فأخبرني عني ألحن؟ قال: نعم، تلحن لحناً خفياً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل «إن» في موضع «أن» و«أن» في موضع «إن».

قال: قد أجلتلك ثلاثاً، فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك، فاضطر يحيى إلى الرجوع إلى خراسان.

مكافأة العلماء

وينقل عن سبب عمى محمد بن زكريا الرازي الطبيب أنه ألف كتاباً في الكيمياء، فوصل كتابه إلى طاغ من طغاة زمانه، فقرأ الكتاب، ولما لم يعرف صنعه طلب زكريا وقال له: لا بد وأن تصنع الكيمياء كما كتبت حتى نتمكن من تذهيب النحاس، لكن زكريا كان قد كتب كتاباً علمياً ولم يكن قد كتب كتاباً تجريبياً خارجياً، ولما أبى عن ذلك معتذراً بأنه كتاب علمي وليس بكتاب عمل، أمر الملك بأن يؤخذ الكتاب - وكان كتاباً ضخماً مجلداً - ويضرب على رأسه حتى

(١) شرح الأخبار: ج ٣، ص ٩٢، ١٠٢١. العقد الفريد: ج ٥، ص ٢٠، أخبار الحجاج. بحار الأنوار: ج ١٠، ص ١٤٧، باب ١١ في احتجاج أهل زمانه على المخالفين.

تتمزق الأوراق والجلد قطعة قطعة، وهكذا فعلوا بهذا الطبيب الرفيع المنزلة حتى عمي تحت ضربهم، وبقي أعمى إلى آخر حياته.

كما تدين تدان

ونتيجة لسياستهم الوحشية كان المستبدون أنفسهم وذويهم يتعرضون للتعذيب بعد العزل، وهذا القانون طبيعي في الحياة، إذ كما «تدين تدان» و«من سل سيف البغي قتل به» وقد نقل التأريخ أنّ ثلاثة من خلفاء العباسيين فقئت أعينهم وألقوا في الشارع حتى اضطروا إلى التكفف من الناس.

يقول أحد المؤرخين: رأيت على باب الجامع ببغداد رجلاً يتكفف وقد فقئت عيناه وعلى جسمه قباء خلق ويقول في تكففه: ارحموني أيها المسلمون، فإني كنت بالأمس أمير المؤمنين واليوم من فقراء المسلمين، فسألت من هو؟

قالوا: القاهر بالله العباسي. كان خليفة يحكم على البلاد، لكنه عتى وتكبر، وطغى وتجبر، واستبد وأذل حتى اضطر أهله أن يلقوا القبض عليه، ويفقؤوا عينيه، ويلقوه في الشارع، وحيث لم يكن له مال اضطر لأن يتكفف^(١)، وهكذا فعلوا بخليفة ثان نفس الفعلة حيث قلعوا عينيه وألقوه في الشارع، وفعلوا بخليفة ثالث نفس الفعلة، فقلعوا عينيه وألقوه في الشارع، ولما اجتمع الثلاثة أخذ الأول يقول: الحمد لله الذي لم يجعلني وحيداً حتى ألحق بي صديقين آخرين صنع بهما مثل ما صنع بي.^(٢)

ويحدثنا الطبري وابن الأثير: أنّ الوليد بن يزيد الأموي جلس للناس ويوسف بن عمر عنده، فأرسل الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري أن يوسف يشترك بخمسين ألف فإن كنت تضمنها وإلا دفعتك إليه.

فقال خالد: ما عهدت العرب تباع، فدفعه إلى يوسف، فنزعه يوسف ودّرعه

(١) البداية والنهاية: ج ١١، ص ١٧٨، ذكر أحداث سنة ٣٢٢ للهجرة.

(٢) البداية والنهاية: ج ١١، ص ١٧٨، ذكر أحداث سنة ٣٢٢ للهجرة. سير أعلام النبلاء: ج ١١، ص ٥٥٠، ترجمة القاهر العباسي.

عباءة، ولحفه بأخرى، وحمله في محمل بغير وطاء، ثم ارتحل به نحو الخيرة، فلما وصل أتى بخالد فدعا بعود فوضع على قدمي خالد، ثم قامت عليه الرجال تضربه حتى تكسرت قدماه، ثم على ساقيه حتى كسرتا، ثم على حقويه، ثم على صدره حتى مات ودفن بعباءته بناحية الخيرة سنة ١٢٦ هـ.^(١)

طعام الهرة والكلاب

وقد قتلوا مروان الحمار شر قتلة، وبعد القتل قطعوا لسانه، وألقوه أمام هرة فأكلته، بعد أن أمر مروان أن يقطع لسان إنسان بريء ويلقى إلى هرة فأكلته الهرة.^(٢) كما قتل سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة جماعة من بني أمية عليهم الثياب الموشية المرتفعة، وأمر بهم فجرّوا بأرجلهم، فألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب.^(٣)

عاقبة المتوكل

وينقل في أحوال المتوكل العباسي الذي قتله ولده المستنصر شر قتلة وقد كان يظلم الناس ويسبند أيما استبداد، وقد هدم قبر الإمام الحسين عليه السلام وهدم البيوت المحيطة بالقبر الشريف عدة مرات في قصص مشهورة، وهاك واحدة من قضاياها: ذات مرة دعا طبيباً مسيحياً فقال له: هل تعرف سماً يقتل الإنسان؟ قال الطبيب: لا أعرف، وقد أراد المتوكل قتل الإمام الهادي عليه السلام بذلك السم، لكن الطبيب أبى أن يعطيه السم قائلاً: إننا معشر الأطباء لا نعرف السموم، وأمانة المهنة تمنع من إيذاء الناس، حتى إذا كان المريض عدونا، وإننا غاية الأمر أن لا نداوي العدو إذا مرض، فأمر المتوكل أن يسجن في المطبق وهو سرداب مظلم مرطوب لا منفذ للنور إليه، فسجن كذلك سنة في الأغلال والقيود، وبعد سنة أخرجوه إلى المتوكل، فرآه وقد تغيّرت حالة الطبيب، فقد اصفرّ وجهه، وضعف

(١) تاريخ الطبري: ج ٧، ص ٢٥٩، ذكر أحداث سنة ١٢٦.

(٢) الفخري: ص ١٤٨. الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٤٢٧، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٥، ص ٤٣١، ذكر أحداث سنة ١٣٢ للهجرة.

جسمه، وطال شعر رأس لحيته وسائر جسده، وأثر القيد في عنقه ويديه ورجليه، فقال له: هل تعرف الآن السم الذي طلبته منك قبل سنة؟ قال الطبيب: لا، لا أعرفه كما قلت لك.

فقال المتوكل: عليّ بالنطع والسيف، فأحضر النطع والسيف، وأجلس الطبيب على النطع، وقال المتوكل للسيّاف: اضرب عنقه إلا إذا استعد أن يعطينا السم الذي طلبناه.

فلما أُجلس الطبيب على النطع تحت السيف - وبعد ذلك الإذلال الهائل له في السجن والأغلال - توجه الطبيب إلى السماء، وقال للمتوكل: إنك تريد قتلي ظلماً لكن لي رباً يأخذ بحقي منك.

نعم، كان للطبيب رب أخذ بحقه وحق غيره منه، حيث قتل المتوكل شر قتلة، وصار لعنة للتاريخ إلى هذا اليوم وهذه إرادة الله سبحانه وتعالى في الطغاة يمهلمهم ولا يمهلمهم. يقول الشاعر:

لا تظلمنّ إذا ما كنت مقتدراً فالظلم آخره يفضي إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم^(١)

بطش الجبارين

لما بنى عبيد الله بن زياد داره المسماة بالبيضاء أمر أصحابه أن يجبروه بما يقوله الناس في ذلك، فجاؤوه برجل فقيل له: إن هذا قرأ - وهو ينظر إليها - ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿^(٢) فقال له: ما دعاك إلى هذا؟ فقال: آية من كتاب الله عرضت لي، فقال: لأعلمنّ بك بالآية الثالثة: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾^(٣). ثم أمر فبني عليه ركن من أركان القصر.^(٤)

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ص ٩٢، قافية الميم.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٢٨ - ١٢٩.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٣٠.

(٤) معجم البلدان: ج ١، ص ٥٣٠، حرف الباء، البيضاء.

قتل ونهب

من موالى آل الخشخاش (فيروز) كان أعظم مولى بالعراق خرج مع ابن الأشعث، فقال الحجاج: من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم. فقال فيروز: من جاءني برأس الحجاج فله مائة ألف درهم، فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان، فأخذه يزيد بن المهلب فبعث به إلى الحجاج، فقال له: أظهرني على أموالك. قال: على أن تؤمنني. قال: لا، فنأدى: ألا من كان لفيروز عنده مال فهو في حل منه، ثم أمر بقصب فنصفوه، وأمر بشدها عليه بعد أن جردوه من ملابسه، ثم أخذ يسله قصبه قصبه حتى سال الدم من جسمه، ثم صب الملح والخل على جراحاته حتى مات.^(١)

ضرب متكرر

عن الحسين بن الضحاك قال: ضربني هارون العباسي في خلافته لصحبتني ولده الأمين، ثم ضربني الأمين لمهايلة ابنه عبد الله، ثم ضربني المأمون لميلي إلى أخيه الأمين، ثم ضربني المعتصم لمودة كانت بيني وبين العباس بن المأمون، ثم ضربني الواثق لذهابي إلى المتوكل، ثم أحضرني المتوكل وأمر شفيعاً بالولع بي فتغاضب المتوكل عليّ فقلت له: إن كنت تريد أن تضربني كما ضربني أبأؤك فأخر ضرب ضربته بسببك، وهذا جزاء من يركن إلى الظالمين.

خمسون سوطاً لجريمة وهمية

مرّ الحجاج ليلة بمكان فيه لبّان^(٢) وعنده قنينة فيها لبن وهو يقول مع نفسه أبيع هذا اللبن وأشتري كذا وكذا فيثري مالي، ويحسن حالي، فأخطب بنت الحجاج فتلد غلاماً، وأدخل بها يوماً فتأخضمني فأضربها برجلي هكذا، ورفس قنينته فانكسرت، وتبدد اللبن ففرع الحجاج الباب فأخذه وجلده خمسين سوطاً، وقال لو رفست ابنتي لأفجعتني فيها.

(١) تاريخ الطبري: ج ٦، ص ٣٧٩، ذكر أحداث سنة ٨٣ للهجرة.

(٢) أي بائع اللبن.

حنق الأصوات

كان خالد بن صفوان إذا مر به موكب بلال بن أبي بردة - وكان قد كف بصره - يقول: ما هذا؟ فيقال له: الأمير، فيقول: سحابة صيف عن قليل تقشع، فقيل ذلك لبلال، فمر به مرة أخرى، فقال خالد: ذلك، فقال له بلال: لا تقشع حتى يصيبك منها بشؤبوب برد، فضر به مائة سوط.^(١)

نبش القبور

قال عمرو بن هاني الطائي: خرجت مع عبد الله بن علي لنبش قبور بني أمية في أيام السفّاح، فانتبهينا إلى قبر هشام فاستخرجناه صحيحاً ما فقدنا منه إلا عرين أنفه، فضر به عبد الله بن علي ثمانين سوطاً ثم أحرقه، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئاً إلا رأسه وأضلاعه، وصلب فأحرقناه، وفعلنا مثله بغيرهما من بني أمية، وكانت قبورهم بقنسرين، ثم انتبهينا إلى دمشق فاستخرجنا الوليد فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً، واحتفرنا نبش عن عبد الملك، ثم عن يزيد فلم نجد منه إلا عظماً واحداً، ووجدنا من موضع نحره إلى قدمه خطأً واحداً أسود كأنها خط بالرماد في طول لحده، وتتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم.^(٢)

قال ابن أبي الحديد: قرأت هذا الخبر على النقيب يحيى بن أبي زيد العلوي سنة (٦٠٥ هـ) وقلت له: أما إحراق هشام بإحراق زيد فمفهوم، فما معنى جلده ثمانين جلدة؟ قال: أظن أنه ضربه حد القذف لأنه يقال: إن هشاماً قال لزيد: يا بن الزانية، وذلك لما سب أخاه الباقر عليه السلام فسبه زيد قائلاً له: سماه النبي ﷺ الباقر وتسميه البقر لشد ما اختلفتما، ولتخالفنه في الآخرة كالدنيا، فيرد الجنة وترد النار. قال: وهذا استنباط لطيف.^(٣)

(١) تاريخ دمشق: ج ١٠، ص ٥١٥، ترجمة بلال بن أبي بردة. الغدير: ج ٢، ص ٢١٠.

(٢) مروج الذهب: ج ٣، ص ٢١٩، ذكر أيام هشام بن عبد الملك بن مروان.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٧، ص ١٣٢.

إحراق الجسد

في وقعة عبد الملك مع مصعب قتل ابن الأشتر وحمل رأسه إلى عبد الملك^(١)، وأما جسده فقد أحرقه موالي الحصين بن نمير.^(٢)

رأس برأس

لما قتل مروان قال الحسن بن قحطبة: أخرجوا إليّ أحد بنات مروان، فأخرجوها وهي ترتعد، فأجلسها ووضع رأس مروان في حجرها فصرخت، فقيل له: ماذا أردت بهذا؟ قال: فعلت بهم فعلهم يزيد بن علي لما قتلوه جعلوا رأسه في حجر أخته زينب بنت علي بن الحسين عليه السلام.^(٣)

التمثيل بالضحية

حمل جسد شبيب الخارجي لما أخرج من دجيل الأهواز إلى الحجاج، فأمر بشق بطنه، واستخرج قلبه، فإذا هو كالحجر إذا ضربت به الأرض نبا عنها.^(٤)

منطق الإرهاب

قتل يحيى بن زيد عليه السلام بالجوزجان من خراسان، وحمل رأسه إلى الوليد، وصلب جسده وأبقوه إلى أن ظهر أبو مسلم فأنزله ودفنه، وأظهر أهل خراسان في جميع أعمالهم النياحة عليه سبعة أيام، ولم يولد تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمي بيحيى أو يزيد.^(٥)

تسفير عام

رفع إلى الهادي أن رجلاً من بلاد المنصورة من السند من آل المهلب ربي غلاماً

(١) الكامل في التاريخ: ج٦، ص١٥٨، ذكر أحداث سنة ٧١ للهجرة. الأعلام: ج١، ص٥٣، ابن الأثير.

(٢) أنساب الأشراف: ج٧، ص٩١، باب مقتل مصعب بن الزبير.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج٧، ص١٥٣.

(٤) الكامل في التاريخ: ج٤، ص٧٧، ذكر أحداث سنة ٧٧ للهجرة.

(٥) مقاتل الطالبين: ص١٥٠، ترجمة يحيى بن يزيد.

سندياً، وأن الغلام هوى مولاته فراودها، فجب ذكر الغلام وخصاه، ثم عاجله إلى أن برى، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع، فصعد الغلام بهما إلى أعالي سور الدار، فدخل المولى فقال: عرضت ابني للهلاك. قال: دع ذا عنك، والله لو لم تجب نفسك بحضرتي لأرمين بهما، فقال له: الله فيّ وفي ابني. قال: دع عنك هذا، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح بها من شربة ماء، فأهوى ليرمي بهما فأسرع مولاه فأخذ مدية فجب نفسه، فلما رآه جبّ نفسه رمى بهما فتقطعا وقال: ذلك لفعلك بي، وقتل هذين زيادة، فأمر الهادي بقتل الغلام وبإخراج وتهجير كل سندي في مملكته، ففعلوا كما أمر. (١)

قساوة جاهلية

في أول محرم سنة ٢٨٩ صلب وصيف الخادم بلا رأس، وأطلي جسمه بالصبر وغيره من الأطلية القابضة والماسكة لأجزاء الجسم حتى لا يتناثر، فبقي مصلوباً على الجسر لا يبلى إلى سنة ٣٠٠ هـ زمان المقتدر. (٢)

جبروت المستبدين

لما قبض عبد الملك صعد الوليد على المنبر فدعا الناس إلى البيعة، فلم يختلف عليه أحد، ثم أول ما ظهر من أمره أن أمر بهدم كل دار ومنزل بين دار عبد الملك وبين قبره، فهدمت من ساعتها وسويت بالأرض لئلا يعرج بجنازة عبد الملك في طريقها إلى القبر يميناً وشمالاً. (٣)

قتل جماعي

ذكر في تاريخ بغداد (في باب ابنته): وأما دار خازم وهو خازم بن خزيمة النهشلي وهو أحد الجبابرة قتل في وقعة سبعين ألفاً، وأسر بضعة عشر ألفاً، فضرب أعناقهم، وذلك بخراسان.

(١) ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين: ص ٣٩٠-٣٩١.

(٢) مروج الذهب: ج ٤، ص ٢٦٩، ذكر أيام المعتضد العباسي.

(٣) ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين: ص ٣٩٤. الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ٦٨.

إبادة شاملة

قالوا: غزا المعتصم سنة ٢٢٣ هـ عمورية فقتل فيها ثلاثين ألفاً، وسبى ثلاثين ألفاً (فيهم ستون بطريقاً) وأحرقها من سائر نواحيها، وجاء ببابها إلى بغداد.^(١)

من يجرؤ على الكلام؟

كان حيان الأسدي قاضي المتوكل، فقال يوماً: إن عرفة قطع أنفه يوم الكلاب، وكسر الكلاب، وكان له مستمل يقال له: كحة، قال: أيها القاضي إنما هو يوم الكلاب - بالضم - فغضب عليه، وأمر بحبسه، فدخل الناس عليه في الحبس، فقالوا: ما دهاك؟ فقال: قطع أنف عرفة في الجاهلية وامتحننت أنا به في الإسلام.^(٢)

منطق الاستبداد

وروي أن أبا مسلم كان يخطب فقام إليه رجل فقال: ما هذا السواد الذي أرى عليك؟ فقال: حدثني أبو الزبير عن جابر أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء، وهذه ثياب الدولة وثياب الهيبة يا غلام اضرب عنقه، وكان قد أخذ الصغير والكبير بلبس السواد.^(٣)

وبعد الخلع أيضاً

ال خليفة الراشد أكثر الظلم فاجتمع الناس عليه، وأحضروا القضاة والأعيان والعلماء، وكتبوا محضراً فيه شهادتهم بما جرى منه من الظلم، وأخذ الأموال، وسفك الدماء، وشرب الخمر، والزنا، والفساد، وسائر الموبقات، فأفتى الفقهاء بجواز خلعه، فحكم عليه بخلعه قاضي البلد، وبايعوا عمه المقتفي، ولما خلع خرج إلى آذربايجان وكان معه جماعة، فقسطوا على مراغة مالا، وعاشوا هناك، ومضوا

(١) مروج الذهب: ج ٤، ص ٦٠، ذكر أيام المعتصم العباسي.

(٢) تاريخ بغداد: ج ٨، ص ٢٧٩، ترجمة حيان بن بشر الأسدي المخارقي.

(٣) البداية والنهاية: ج ١٠، ص ٦٧، ذكر أحداث سنة ١٣٧ للهجرة.

إلى همدان، وأفسدوا بها، وقتلوا جماعة، وصلبوا آخرين، وحلقوا لحي جماعة من الأخيار، ثم مضوا إلى إصبهان فحاصروها، ونهبوا القرى، وهكذا أخذوا يفعلون في كل مكان يصلون إليه.

قتل البريء السقيم

خطب ابن زياد أهل البصرة - لما كتب إليه يزيد أن يأتي الكوفة من البصرة فيقتل مسلماً عليه السلام أو ينفيه - وقال: فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه، ولأخذن الأذنى بالأقصى حتى تسمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق. أنا ابن ازياد أشبهته من بين من وطئ الحصى، ولم ينزعني شبه خال ولا ابن عم.^(١)

ابن الضحية

مر الحجاج بن يوسف بشخص من عماله كان قد صلبه، فوجد عند خشبته صبياً صغيراً، فاستنطقه الحجاج، فقال له: يا صبي، ما تقول في هذا الراكب؟ فقال: أيها الأمير! هو زرع نعمتك، وحصيد نعمتك. فسأل عن الغلام فوجده ابن ذلك المصلوب، فقربه، وأقعه مقعه.^(٢)

المناصب بالإكراه

في عهد بني أمية طلب واليهم على الكوفة من أبي حنيفة تولي منصب القضاء، فأبى أبو حنيفة، ورفض ذلك، فضربه يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان مائة سوط وزاد عشرة، وفي عهد العباس حلف المنصور بأنه يتولى القضاء، فأبى أبو حنيفة ذلك، فأمر بسجنه على أن يضرب عشرة أسواط يومياً وفي اليوم العاشر من سجنه انتهت حياته، وهناك رواية تقول بأنه سم في السجن.^(٣)

(١) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٣٥٨، ذكر أحداث سنة ٦٠، مراسلة الكوفيين للحسين. البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٧١، ذكر أحداث سنة ٦٠ للهجرة.

(٢) ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين: ص ٤٠٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٤١١.

سطور عن سيرة العثمانيين مع شيعة آل البيت عليهم السلام

واستولت الدولة العثمانية على معظم البلاد العربية خلال القرن السادس عشر، فالسلطان سليم تاسع السلاطين فتح سوريا والحجاز ومصر، ثم أتم خليفته وولده سليمان القانوني فتح سائر البلاد العربية الأخرى، وكان في هذا القرن ثلاثة دول إسلامية كبيرة: الدولة العثمانية وعاصمتها القسطنطينية، والدولة الصفوية وعاصمتها تبريز، ودولة المماليك وعاصمتها القاهرة، وأقام الشاه إسماعيل الصفوي نفسه حامياً للمذهب الشيعي، وتولى السلطان سليم زعامة السنة، واستحصل على فتوى من شيوخ السوء بأن الشيعة خارجون على الدين يجب قتلهم، ولذلك أمر بقتل كل من كان معروفاً بالتشيع داخل بلاده.

وفي أعيان الشيعة أن السلطان سليم قتل في الأناضول وحدها أربعين ألفاً، وقيل: سبعين، لا لشيء إلا أنهم شيعة.^(١) وفي الفصول المهمة أن الشيخ نوح الحنفي أفتى بكفر الشيعة، ووجوب قتلهم، فقتل من جراء هذه الفتوى عشرات الألوف من شيعة حلب، حتى لم يبق فيها شيعي واحد، وكان التشيع فيها راسخاً ومنتشراً منذ كانت حل عاصمة الدولة الحمدانية، وقد نشأ في حلب منذ القديم

(١) أعيان الشيعة: ق ١، ج ١، ص ٣٠.

عديد من كبار العلماء وأئمة الفقه، كبنّي زهرة وآل أبي جرادة، وغيرهم ممن جاء ذكرهم في كتب السير والتراجم خصوصاً كتاب «أمل الآمل».

وقتل العثمانيون الشهيد الثاني المشهور بفضله وورعه وكتبه العلمية الجليلة التي يدرس بعضها حتى اليوم في الجامعة العلمية الشيعية.^(١)

وفعل الجزائر والي عكا بجبل عامل فعل الحجاج في العراق، فبعد أن قتل الشيخ ناصيف النصار رئيس البلاد العاملة قبض الجزائر على عدد من العلماء والرؤساء وقتل جماعة، منهم العالم السيد هبة الدين الموسى، والسيد محمد آل شكر، والشيخ محمد العسيلي، ومنهم الشيخ علي خاتون الفقيه الطيب، قال صاحب أعيان الشيعة. كان عالماً فاضلاً فقهياً جليلاً متبحراً في علم الطب، وهو من علماء عصر الشيخ ناصيف النصار الوائلي، شيخ مشايخ جبل عامل، قبض عليه أحمد باشا الجزائر فيمن قبض من علماء ووجوه جبل عامل، وحبسه في عكا، وعذبه، ثم قتله، وكان يحمي له الساج حتى يحمّر، ثم يضعه على رأسه.^(٢)

وانتهب الجزائر أموال العاملين ومكتباتهم، وكان في مكتبة آل خاتون خمسة آلاف مجلد، وبقيت أفران عكا توقد أسبوعاً كاملاً من كتب العاملين، ولم يسلم من ظلم الجزائر إلا من استطاع الفرار، وفي عهده هاجر علماء جبل عامل مشردين في الأقطار، ومن هؤلاء العالم الشاعر الشيخ إبراهيم يحيى هرب من الجزائر إلى دمشق، وفي نفسه لوعة وحسرة، وذكرى فظائع الجزائر لا تفارقه بحال، وقد صورها وهو شاهد عيان في قصائد تدمي الأفتدة والقلوب منها قصيدة طويلة مطلعها:

مضى ما مضى والدهر بؤس وأنعم وصبر الفتى إن مسه الضر أحزم

* * *

(١) الشهيد الأول وهو محمد بن مكي، قتل في عهد برتوق أول ملوك الجراكسة، وذلك سنة ٧٨٦هـ، فقد أفتى برهان الدين المالكي وابن جماعة الشافعي بقتله بحجة أنه يستحل أشياء حرمها الدين.

فحبس سنة كاملة في قلعة دمشق، ثم قتل بالسيف، ثم رجم ثم أحرق بالنار.

(٢) أعيان الشيعة: ق ٨، ج ٤١، ص ٢٣٥.

يعز علينا أن نروح ومصرنا
منازل أهل العدل منهم خلية
لفرعون مغنى يصطفيه ومغنم
وفيها لأهل الجود جيش عرمرم

* * *

وعاثت يد الأيام فينا ومجدنا
ولست ترى إلا قتيلاً وهارباً
وكم علم في عامل طوحت به
وأصبح في قيد الهوان مكبلاً
وكم من عزيز ناله الضيم فاغتنى
وكم هائم في الأرض تهفو بلبه
ولما رأيت الظلم طال ظلامه
ترحلت عن دار الهوان وقلمها
تملكها والملك لله فاجر
عتل زنيم يظهر الدين كاذباً
بالرغم مني أن أقول مهدم
سليماً ومكبولاً يغل ويرغم
طوائح خطب جرحها ليس يلام
وأعظم شيء عالم لا يعظم
وفي جيده حبل من الذل محكم
قوادم أفكار تغور وتتهم
وأن صباح العدل لا يتبسّم
يطيب الثوى في دار والجار أرقم
سواء لديه ما يحل ويحرم
وهيهات أن يخفى على الله مجرم^(١)
فهذه وثيقة تاريخية لا تقبل الشك تعكس بعض ما جرى.

الظالم: الصاعقة

ومن الحكام الظلمة السلطان سليم العثماني الذي حكم تركيا، وأقام فيها دولة على الدماء، وضرب قوانين الإسلام عرض الحائط، وكان يلقب (بياوز) وهو باللغة التركية بمعنى (الصاعقة) فلم يكن يقف أمامه شيء، فكان طاغوتاً جباراً سفاكاً للدماء، سلاباً للأرواح، يهتك الأعراض، وينهب الأموال، ويخون باليهود؛ آمن أهل حلب على دمائهم وأموالهم، ثم فرض عليهم ضريبة سماها (مال الأمان) كادت تستغرق عامة أموالهم، وقتل جماعة كبيرة من المسلمين لأنهم يخالفونه في الاعتقاد، حيث كان هو سني المذهب على زعمه وأولئك من الشيعة،

(١) الشيعة والحاكمون: ص ١٩٦.

حتى إنه قتل في موقعة واحدة أربعين ألفاً من الشيعة بمجرد كونهم مخالفين له في المذهب.

وأرسل إلى السلطان الغوري يطلب منه الدعاء، ثم أمر بقتله، ثم قتل القاتل الذي تجرأ فنفذ الأمر بقتله.

وهو الذي أباد أهل الرملة كلهم لوشاية واش أخبره بأنهم قتلوا جندياً من جنوده وكان القتل أهون شيء عليه، لا يعرف قريباً ولا غريباً ولا عدواً ولا صديقاً ولا مسلماً ولا كافراً، وقد خنق أخوته لما خشي أن يزاموه على الملك، وقتل سبعة عشر من أهل بيته وسبعة من وزرائه، ولما رد عليه رئيس وزرائه (يونس باشا) كلمة كان الحق فيها أمر بضرب عنقه، فضربت عنقه قبل أن يتم جملة.

وكان دائم الغضب، لا يضحك أبداً، والسيافون بين يديه، وهم رهن إشارته في إزهاق الأنفس، ولما ترك (للشراكس) في مصر أوقفهم قال له رئيس وزرائه ويسمى (بري باشا): يا مولانا فني مالنا وعساكرنا في حربهم وتبقي لهم أوقفهم يستعينون بها علينا؟ وكانت رجل السلطان في الركاب، فأشار إلى الجلاد بقطع رأسه، فضرب الجلاد عنق رئيس الوزراء، فصار رأسه على الأرض قبل أن يصير السلطان على الفرس.

وكان من عادة وزرائه أنهم إذا انتخبهم للوزارة كتبوا وصيتهم، وأعدوا كفنهم، وودّعوا أهلهم، فلا يدرون كلما ذهبوا ليقابلوا السلطان أيعودون أحياء أو يحملون على الجنائز.

وكان الوزراء والمقربون إليه يرتجفون خوفاً منه، وكان إذا قتل أناساً أمر بأن تنصب رؤوسهم على الرماح الطوال، وكثيراً ما رأوا أهل البلاد جيشاً يأتي وبأيدي الجيش الرماح الطوال، وعلى تلك الرماح الرؤوس المقطوعة.

ولقد كان من عادة الدكتاتوريين وابتداء من معاوية - حيث قال الإمام مشيراً إليه: «وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة»^(١) - وإلى آخر خليفة عثماني أنهم إذا ظفروا

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢، ص ٢٦٤.

بعدوهم قطعوا رؤوس كبارهم، وأداروها في البلاد لإرهاب الناس، ثم أبردوا بها إلى العاصمة، وحيث إن الرؤوس تتن في الصيف كانوا يهثون أكياساً مملوءة بالثلج، فيضعون الرؤوس فيها حتى لا تتغير معالمها، وتصل بيد الخليفة الفاتح واضحة السمات والمعالم؛ ليشفي منها غيظه، ويشمت بها، ويفتخر بالانتصار عليها.

نعم أمثال هؤلاء الذين سمو أنفسهم بالخلفاء من الأمويين والعباسيين والعثمانيين ومن الالههم هم الذين سببوا ضياع الإسلام وتسلط أعدائه عليه، كما سببوا اشمزاز نفوس غير المسلمين من الإسلام، وهؤلاء هم الذين وقفوا دون انتشار الإسلام، وإلا فلو اتبعت سيرة الرسول ﷺ معياراً للأمر لكان نور الإسلام في هذا اليوم يضيء كل العالم وراياته منشورة في ربوع الأرض.

وبالتالي فإن الحديث لا ينتهي عن مظالم العثمانيين في البلاد العربية والإسلامية عموماً، وتعصبهم ضد الشيعة خصوصاً، فقد أقصوهم عن جميع وظائف الدولة كبيرها وصغيرها حتى الوظائف الدينية، ومنعوهم من ممارسة شعائرهم المذهبية في بلاد الشام وغيرها، وامتد تنكيل العثمانيين بالشيعة طوال سيطرتهم على العرب التي دامت من سنة ١٥١٦ م إلى ١٩٢٨ م أي أربعة قرون وستتان.

أما غير الشيعة فالحديث فيه ذو شجون أيضاً، وسنختم الحديث هنا أملاً في أن نفرده كتاباً خاصاً يشرح حقيقة حياتهم وأساليبهم المعادية للدين والإنسانية.

الأبناء على سيرة الآباء

الملك عقيم

ينقل أن رضا قلي ميرزا هو ولي عهد إيران وابن نادر شاه أفشار قد عميت عيناه بأمر من أبيه نادر شاه الذي كان يريد بهذا الأمر قطع الأمل الذي قد يخالج ابنه رضا قلي ميرزا من الثورة والانقلاب عليه، وأخذ السلطة منه.

وكان نادر شاه يوقع أشنع التعذيب وأشد التنكيل بالمخالفين في حكومته، بشكل يجعل أقوى الناس عزماً وأكثرهم جلدًا يرتعش لهذه الأساليب القمعية، وكان يمارس ضد الأمراء المخالفين ثلاثة أنواع من التعذيب والانتقام والقتل.

١- إحراق الأمير المخالف حياً حتى الموت والاستحالة إلى فحم ورماد.

٢- إيجاد ثقب في جسده وجعل شموع مشتعلة في تلك الثقوب.

٣- كان يضعه في قفص حديدي صغير لا يتمكن فيه من الحركة، ويعلق على شجرة ونحوها، وفي كل يوم يقدم له قطعة من الخبز ويسيراً من الماء، وتستمر الحالة هكذا إلى أن يموت بسبب التعب المفرط من أثر البقاء على وضع واحد، ومن ألم التلوث.

الدكتاتور وذووه

بعدما قتل نادر شاه على يد جلاوزته قفز إلى الحكم علي قلي ميرزا وهو أحد

المقربين لنادر شاه وحاكم خراسان، وسمى نفسه عادل شاه، وتربع على كرسي الحكم، أما أبناء نادر شاه فإنهم قد قتلوا أو خنقوا خنقاً شنيعاً، وذلك بأن كان الجلادون يأخذون الشخص ويفتحون فمه ويجعلون منديلاً ملفوفاً في فيه ويدفعونها إلى حلقه بواسطة قضيب خشبي ويوضع على المنديل وهو في الحلق، وبواسطة خشبة تشبه المطرقة يطرق بها على القضيب الخشبي حتى يدخلون المنديل الملفوف في القصبة الهوائية، فيؤدّي ذلك إلى موته بعد لحظات من هذه العملية.

تعذيب جاهلي

محمد خان قاجار في الوقت الذي كان تحت إمرة كريم خان زند في طهران كان يشتري ما يحتاجه من الدهن للطبخ من رجل بقال، وكان هذا البقال يبيعه دهناً رديئاً غير صالح للاستعمال، وفي مرة من المرات قال الخواجة محمد قاجار للبقال: لماذا تعطيني دهناً رديئاً ولا تعطيني جيداً؟ فرد عليه البقال: لو لم يعجبك ذلك فامض إلى بقال آخر واشتر الدهن منه، فتألم الخواجة من البقال، وحقده عليه حقداً أخفاه لليوم الموعود.

بعد أن أخذ زمام الحكم وتربع على العرش أمر بإحضار البقالوذكّره بالجرم السابق، ثم قال له: الآن حان لي أن أنتقم منك، فأمر بإحضار قدر كبير وملاءه بدهن من البقال نفسه، وأشعلت النار تحته، حتى إذا غلا أمر بالرجل البقال فربطت يده ورجلاه بالحبال، وهو لا يفتأ يبكي ويسأل العفو والتوبة، ويقسم على محمد خان قاجار بالمقدّسين وأصحاب الكرامات أن ينصرف عن هذه العقوبة والانتقام، إلا أن الخواجة لم يترحم عليه، ولم يمن له، بل أمر فألقي في هذا القدر المغلي، فصار الرجل من شدة حرارة الدهن المغلي يصيح بأعلى صوته، ويستنجد، ويتظلم بصوت يتقطع له القلب، لكن بلا جدوى، ثم أخذ صوته يضعف حتى استحال إلى أنين، ثم ضعف حتى ابتلعه أزيز الغليان، أما محمد خان قاجار فقد أشرف على هذا المنظر المؤلم من أوله إلى نهايته ولم يبد عليه أدنى تأثر أو ترحم.

الدكتاتور لا يرحم أحداً

أحد سلاطين إيران بسبب سوء ظنه بابنه وبدون أن تصدر منه أية خيانة أو فعل يوم خيانتته أمر بقطع رأس الابن، ووضع في صحن كبير من الذهب، ثم وضع الصحن بين يديه بجانب مائدة طعامه، وأكبّ هو على تناول غذائه، وكان هذا السلطان فضلاً عن قتل هذا الابن قد أعمى عيني اثنين آخرين من أولاده لمجرد سوء ظنه بهما.

ضرائب روحية ومالية

بعد وفاة كريم خان زند ففز إلى كرسي السلطنة ابنه أبو الفتح خان، ولأن الابن كان رجلاً محباً للدنيا يقضي أكثر أوقاته بين القيان والندماء في لهو ورقص ولعب آلت أمور الحكم إلى عمه زكي خان زند، وكان من قصد هذا الأخير الاستيلاء على أصفهان، وإخراجها من سيطرة محمد خان قاجار، وضمها إلى حكومته، لذلك فقد شكل جيشاً وتوجه إلى أصفهان، وكان كلما صادف قرية دخلها وأخذ منها ما يحتاجه من المال والجنود عنوة وبلا رحمة حتى إذا وصل إلى منطقة تسمى بـ «ايزد خواست» طلب من أهلها مالاً، وما كان بإمكان أهلها الاستجابة لهذا الطلب ولا تهيئة الأموال التي يحتاجها العسكر لسد ما يلزمه، فمضى على تلك الحال يومان وما وجد أعيان هذه المنطقة سبيلاً لجمع الأموال لعدم توافره لديهم، فغضب لذلك زكي خان غضباً شديداً، وانتفخت أوداجه، فأمر بأن يأتوا بثمانية عشر رجلاً من أعيان «ايزد خواست» فيقتلونهم ويجعلونهم عبرة للآخرين، ولما أحضروهم قام اثنان من الجلادين فقطعوا رؤوسهم، ورميا أجسادهم في الصحراء لتكون لقمة سائغة للحيوانات المفترسة، ثم أمر زكي خان بإحضار عالمهم الديني وكان شيخاً مسناً، فألقى اللوم عليه، وجعله مسؤولاً عن عدم إعطاء أهل بلده المال الذي طلبه منهم، وقال: إنني أحضرتك من أجل أن أعاقبك على تقصيرك هذا، مجازاتك وعقوبتك أن أمر بشق بطنك وإخراج أحشاءك أمام عينيك،

صاح في جلاديه فتناوشه أحدهم وطعنه بسكين في بطنه وشققها، وأخرج أمعاءه واحشائه، ورفعها أمام عيني العالم، وكانت تستولي عليه آلام لا تحتمل بسبب هذا التعذيب، ثم فاضت روحه، وفارق الدنيا، وكانت هذه الواقعة بين يدي زكي خان وبمرأى من بعض الجنود الذين تأثروا من هذا المنظر، واغرورقت عيون بعضهم بالدموع.

ضحايا الجاه والمقام

بعد أن مات كريم خان زند تسلم السلطة ابن أخيه أبو الفتح خان الذي كان يحب الترف واللهو، وأمور الحكم كانت جميعها في يد عمه وهو زكي خان يعني كانت الحكومة ظاهراً بيد أبي الفتح خان وواقعاً بيد زكي خان، وكانت الحال هكذا حتى قتل زكي خان زند على يد أحد خدمه، فاحتل مكانه في السلطة صادقي خان وهو أخو كريم خان زند، فحقد عليه علي مراد خان زند وهو أحد أمراء آل زند وحاكم أصفهان، فشكل عسكرياً، وتوجه به إلى شيراز، وبعد صعوبة كثيرة فتحها، ثم قرر أن ينتقم من صادقي خان، فأمر بإحضاره، وكذلك أحضر ابنه علي نقى خان الذي كان قائداً في جيش أبيه صادقي خان، وأمر الجلاد بأن يقطع رأس صادقي خان زند أمام ناظري ابنه علي نقى خان.

قال الجلاد: هل أذهب به إلى باحة القصر وأقطع رأسه؟ فقال علي مراد خان: بل اقطع رأسه هنا، ثم قال الجلاد: فذاك نفسي إن المكان مفروش وهذا السجاد الثمين سوف يغرق بالدم، فأجابه علي مراد خان وكلماته تفيض غيظاً وحنقاً: لقد أمرتك أن تقطع رأسه هنا.

أما صادقي خان فكانت يدها مغلولتان من وراء ظهره، فأخذ الجلاد حبلاً وربط به ركبتي صادقي خان حتى لا يملك حراكاً، ويكون أطوع لقطع رأسه، ثم أخذ لباساً مخصوصاً كالذي يلبسه الطباقون أو القصابون، فلبسه حتى لا تتساقط قطرات الدم النافرة على ملبسه، وهو لباس مخصوص بالجلادين يشعر الناظر إليه بقشعريرة واشمئزاز يغطي مقدم البدن من السرة إلى أسفل الركبتين، بحيث

يتجاوز نصف الساق قرب المفصل، ثم أخرج خنجره من غمده، فسمع له صوت يتناثر من شرر الموت، ثم أخذ رأس صادقي خان من أنفه، وسحبه إلى خلفه حتى بانت رقبته بشكل واضح وبحركتين قاسيتين سريعتين صار الرأس يتدحرج على الأرض، وفار الدم من رقبته، إنَّ الجلاد كان ماهراً، ويعرف كيف وأين يضع سكينه بين فقرات رقبته ليفصلها تماماً عن بعضها، ثم أخذ الرأس وعرضه على علي مراد خان، فأمر أن يضعه بين يدي علي نقبي خان، أما بدن صادقي فكان جاثماً على ركبتيه حال قطع رأسه والدماء تسيل بغزارة من أوداجه، فكان يشكل منظراً مريعاً، وبعد ذلك أمر علي مراد خان أن تقلع عينا علي خان ويعمى.

ثم إنَّ علي مراد خان فضلاً عن إعماء عيني علي نقبي خان أمر بإسبال عيون جميع أولاد كريم خان زند الذكور بدون استثناء حتى لا تطمع أنفسهم على أخذ السلطة والحكم يوماً ما.

من أنواع التعذيب

كان القتل بتنصيف الإنسان طويلاً من أفضع أنواع التعذيب الجسدي الذي كان متداولاً في تلك الأيام، وهي طريقة متفنتة بالتعذيب، وكانت تكون بهذا الشكل:

يؤخذ المحكوم عليه بالإعدام ويعلق منكوساً، رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى بين شجرتين أو عمودين متجاورين، ويفرج بين ساقيه مهماً أمكن، ثم يأتي الجلاد حاملاً ساطوراً حاداً فينهال ضرباً بساطوره على وسط الإنسان المعلق بكل قوة حتى يجعله شقين طوليين متطابقي الشكل ينفر كل منهما إلى طرف العمود المشدود به، وهذا النوع من التعذيب كان من أشد أنواع التعذيب المعروف آنذاك، وكان يجري بشكل يوقع الخوف والرعب في نفوس المشاهدين، ويجعلهم يرتجفون لهذا المنظر القاسي.

ضحايا القدرة الاستبداد

لطف علي خان زند أحد أبناء سلاطين آل زند قام بثورة ضد محمد خان قاجار، وحاربه في أماكن متعددة إلا أن الفشل كان حليفه في كل مرة، ومن جملة مواجهاته الفاشلة مع عساكر محمد خان قاجار مواجهته في كرمان حيث ولى على أثرها هارباً، وعندما استولى محمد خان على مدينة كرمان ودخلها أمر بإعفاء عيون جميع رجال المدينة وإباحة جميع النساء من قبل الجيش، وكان المعروف قبل ذلك أنه إذا حكم على أحد بالعمى نفذ بهذه الطريقة: يؤخذ قضيب حديد خفيف ويضعونه في النار حتى يلتهب ويصير ناراً، فيرفعه الجلادون ويضعونه على حدقة عين المحكوم عليه للحظات، فيصيبها من أثر ذلك جرح صغير مع توالي الأيام يلتئم الجرح حتى يزول أثره، فتصبح عين المحكوم طبيعية في الشكل كأعين الآخرين الصحيحة، إلا أنه لا يرى بها شيئاً.

أما الطريقة التي أمر بها محمد خان قاجار أن تجري على رجال كرمان فهي أن تقلع العين من حدقتها فيحدث في وجه المحكوم عليه حفرتان تحت الحاجبين، ولم يستعمل الجلادون لإخراج العين لا سيفاً ولا خنجرأً ولا حتى سكيناً بل يعمدون في ذلك إلى أصابعهم حيث التعذيب أقوى وأشد، ففي البداية يشلون حركة المحكوم عليه بربط يديه ورجليه، ويلقى على ظهره في الأرض، ثم يضع الجلاد أصابعه تحت العين على الأجناف السفلى، ويضغط تحتها بقساوة حتى تقفز العين إلى خارج الحدقة، وفي هذه اللحظة كانوا يستفيدون من السكين أو الخنجر؛ وذلك لأن العين مربوطة بتجويفها بواسطة ألياف عضلية وعصبية فيقطعونها بالسكين أو الخنجر، وما كان للجلادين وقت فائض لرفض الحبال من أيدي وأرجل الرجال؛ لأنهم كان عليهم أن يقلعوا عيوناً كثيرة في وقت ضيق، فلذا كانوا يتركون المعنى يتلوى ألماً في قيده، ويصرخ صراخاً يفت القلب، وإذا ما استطاع أن يتدحرج من شدة الألم تراه يصطدم بزملائه الذين يشاركونه ويتقاسمون الألم، ومن تمكن من فرط الألم أن يفلت يديه من القيد يقوم فيتعثر بأقرانه، ويتدمرون

من تساقط بعضهم عليهم.

وهذا العمل كان يقوم به الجلادون بمرأى ومسمع من نسائهم وأطفالهم، وبعد أن ينتهوا من ذلك في محلة ما يجمعون العيون المقلوعة ويحبسونها ويعدونها؛ لأنّ عليهم أن يسلموها إلى محمد خان قاجار عن كل كرمانى اثنين، ولم يكن يسمح الجلادون للنساء والأطفال أن يأخذوا هؤلاء المساكين - أزواجهم وأبنائهم - أو يرفعوهم عن الأرض، ويقودهم إلى بيوتهم، بل كانوا يأمرون بالصبر حتى ينتهوا من جميع أهل المحلة، وقبل أن ينصرفوا إلى محلة أخرى يعمدون إلى فك الحبال والقيود بقسوة وضراوة، ولم يكن الفك من باب الترحم عليهم والشفقة بهم، بل لأنهم كانوا يحتاجون الحبال إلى المحلات الأخرى لنفس الغرض.

قبور فوق الأرض

ومن تعذيب محمد خان قاجار القاسي أنّه كان يدفن الناس أحياء حيث ألقى القبض على مائة واثنين وستين تركمانياً في حادثة ترتبط بقطاع الطرق، فأخذهم ودفنهم في قبور فوق الأرض بواسطة الجص على جانب من طريق خراسان العام، ومن كان يسير في ذلك الطريق العام يرى على جانبه أبراجاً بيضاء عددها مائة واثنين وستين برجاً ذات الارتفاع القليل لا يتجاوز طول الإنسان إلا قليلاً.

من أساليب التعذيب أيضاً

ومن أساليبه أيضاً أنّه كان يأمر بتعذيب المحكومين بواسطة الرصاص المذاب، وتتم طريقة التعذيب على نحوين: النحو الأول: أنّه كان يصب الرصاص في موضع مخصوص من بدن المحكوم عليه على شكل تدريجي حيث إن الألم في الدفعات التالية يكون أشد وأقسى.

النحو الثاني: وهو أكثر إيلاماً أنّه يأمر بأن يجعل رأس المحكوم مغطى بالرصاص بأن يراق على رأسه إلى أن يغطيه ويصير الرأس قاعدة له حافة الإناء إلى أعلى، ثم يأتي بالرصاص المذاب ويصب في هذا الإناء حتى يغطى الرأس ويتقوّل عليه.

ولقد طبق محمد خان قاجار هذين النحويين الشنيعين من التعذيب على شاهرخ ميرزا حفيد نادر شاه أفشار، وبواسطتها تمكن من الاستيلاء على كنز جده بأخذه منه عنوة.

ممارسات قمعية

وبعض الملوك الذين كان بحوزتهم الفيلة كانوا يأمرون بأن تغلّ يدا ورجلا المحكوم عليه، ويلقى بين أقدام الفيلة حتى تتحطم جمجمته وعظامه ويهلك. ومن أنواع التعذيب الذي كانوا يمارسونه ضد النساء هو أنّهم كانوا يأخذون النساء ويقطعون أثدائهن.

تغيير خلق الله

ومن أنواع التعذيب أنّهم كانوا يأخذون الرجل ويسلون خصيتيه، فيرق صوته، ويتساقط شعر لحيته وشاربه، ويصير أقرب إلى النساء منه إلى الرجال في طبعه وسلوكه ومظهره الخارجي. ومحمد خان قاجار نفسه كان مسلول الخصيتين؛ ولذلك كان رقيق الصوت ناعمه، وليس له شعر في وجهه.^(١)

وفي القبر تعذيب أيضاً

وينقل عن البهلوي الأول أنّه إذا مات بعض السجناء المحكوم عليهم بالقيود أمر أن يدفن بغله، ويجعل طرف الغل خارج القبر لإرهاب الناس.

(١) ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين: ص ٤٣٠ - ٤٣٨.

ممارسات جديدة

وفي القرن الحاضر قرن التطور والرقى نجد ممارسات التعذيب أسوء من سابقاتها نفسياً وجسدياً^(١)، وللاختصار نذكر منها:

١- ممارسة الفاحشة مع الرجال والنساء في السجون لأجل تعذيبهم نفسياً، بالإضافة إلى أنه كثيراً ما يسبب تعذيبهم الجسدي أيضاً، فقد ذكر شاهد عيان أن عشرة من الجلّاوزة مارسوا الجنس مع شاب سجين، فسبب له النزيف، وعلى أثره نقلوه إلى المستشفى، لم يعرف مصيره، وكان اعتداؤهم هذا أمام أعين السجناء وذلك بقصد إرهابهم والتنكيل بهم.

٢- ممارسة الجنس مع الأطفال من بنين وبنات أمام أعين الآباء حتى يموت الطفل؛ وذلك تنكيلاً بأبائهم المجاهدين.

٣- هاجم الجلّاوزة مجاهداً في داره، فأرعبت زوجته الحامل وأخذتها حالة الطلق، فألقوا القبض على الزوج، وتركوها وهي في حالة مخاض، وبعد مدة جاء الجيران فرأوا أن المرأة ميتة وإلى جانبها طفلها ميت أيضاً.

٤- ساق الجلّاوزة الأب والأم إلى السجن، وكان لهما ثلاثة أطفال، وبعد مدة جاء الجيران ليروا أن الرضيع مات في المهد، وأن الطفل الثاني جاء إلى السلم ولم

(١) ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين: ص ٣٣٤. شخصية الطاغوت: ص ٢٤٠ - ٢٥٠.

يقدر على النزول منه فوق وخزّ ميتاً، وأما الثالث وهو الطفل الأكبر فكان قد مات وراء باب الدار، حيث ظهر أنّه جاء خلف الباب يريد أمه وأباه لكن بدون جدوى، فبقي هناك إلى أن مات جوعاً مقروناً بالخوف والرعب.

٥- يجعل الجلاوزة السجين بعدما يعرفونه من كل ملابسه في برميل مملوء بكسرات الزجاج، ثم يدحرجون البرميل بعنف وشدة مما يسبب ذهاب الزجاج في جميع جسمه وسيلان الدم منه.

٦- يسلطون الكلاب الجائعة على السجين حتى تنهش لحمه وتشرب دمه.

٧- يدرّبون الدب على اللعب العنيف مع خصيتي السجين، وذلك بعد إجلاسه على كرسي مثقب، وإخراج خصيتيه من ثقبه وربطه بالكرسي ربطاً وثيقاً بحيث لا يتمكن من التحرك، وفي أثناء هذه العملية يغشى على السجين مرات ومرات.

٨- ما نقله أحدهم من أنّه أدخلوه في مكان مظلم بعد أن عصبوا عينيه بعصا، وأنزلوه من درجات سلم، إلى أن أوصلوه إلى حوض فيه سائل وصل إلى قريب حزامه، فحسبه ماء لزجاً، وكانت يده حرة يحرّكها في مختلف الاتجاه لكيلا يصطدم بحائط أو حاجز، وفجأة وقعت يده على جمجمة إنسان فذعر منها وتركها، لكن صادفت يده يد إنسان مقطوعة، فتجنبها، وإذا به يلمس ساق إنسان مفصولة، وهكذا حتى نزعوا العصا التي كانت تغطي عينيه فوجد نفسه وسط بركة من الدماء، ولا يعلم هل كانت حقيقة مملوءة بالدماء، أو لا، وإنّما ملئت بالماء المصبوغ بالدم لأجل إرعاب السجين وإرهابه، وفي ذلك الحوض جثث العديد من الموتى وجمجم وأيدي وأرجل مفصولة. قال: فما كان مني إلا أن أغمي علي من الرعب والصدمة الروحية، ثم وجدت نفسي بعد يومين أو ثلاثة أيام في مستشفى وأنا منهك الأعصاب.

٩- إحراق الأطفال الصغار من الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات إلى أربع سنوات أو ما أشبه أمام آبائهم وأمهاتهم وذويهم بعد ربط الآباء والأمهات بالجدران ونحوها، حيث يصبون النفط على الطفل، ثم يشعلون فيه النار مما يسبب له الهرولة والبكاء والصراخ والصياح إلى أن يحترق كله أمام أعين ذويه.

١٠- يصب الجلاوزة مسحوق الغسيل مع الماء على أرض الغرفة حتى تصبح زلقة لا تستقر عليها قدم، عند ذلك يقف أربعة من الجلاوزة في زوايا الغرفة ويأمرون السجين بالمشي على هذه الأرض الزلقة، وإذا ما ذهب إلى جانب ضربه الجلاوز بالسوط وأوجعه حتى يركض إلى الجانب الآخر فتزلق قدمه ويقع، وربما تكسرت يده أو رجله أو رأسه أو بعض عظامه، وهكذا يفعلون به حتى يغمى عليه.

١١- إفراغ غازات سامة في بعض الزنانات الانفرادية أو السجون الجماعية، وجعل السجناء فيها بعد غلقها عليهم، مما يؤدي إلى موتهم.

١٢- قطع أجزاء من لحم السجين وأمره بأكله، وإن لم يفعل ضربوه أشد الضرب، وهكذا حتى يموت أو يغمى عليه.

١٣- جبر المعذبين بإطلاق الرصاص على أصدقائهم المعذبين، وإلا قتلوهم جميعاً فيما إذا حكم عليهم بالإعدام.

١٤- وضع الجلاوزة في ملابس بعض المعذبين بعد ربط أيديهم وأرجلهم عقارب أو حيات حتى تلدغهم.

١٥- ذرّ الأسيد في عيون المعذبين.

١٦- ذرّ الأسيد في أفواههم.

١٧- بقر الجلاوزة بطون الحاملات وذبح أطفالهن الأولاد، وذلك فيمن يراد إعدامهن من النساء.

١٨- قطع اليد والرجل بالمنشير الكهربائية.

١٩- نفخ البطن من الأسفل أو الفم حتى ينفجر ويموت المعذب.

٢٠- إلقاء الناس في القبر وهم أحياء، ثم يملأ القبر بالتراب حتى يموتوا هناك.

٢١- إلقاؤه في حوض من الماء الحار.

٢٢- جعله تحت قطرات ماء بارد أو ماء حار، وذلك مما يسبب أشدّ التعذيب على الذي تلقى القطرات على رأسه.

- ٢٣- فقأ العين.
- ٢٤- قطع اللسان.
- ٢٥- صلّم الأذن.
- ٢٦- جدد الأنف، وهذه غالباً من التعذيبات التي يصبونها على الذين يريدون قتلهم بعد ذلك.
- ٢٧- قطع آله الرجولية وشفرات النساء.
- ٢٨- قطع أشفار العين.
- ٢٩- إصاق شفرة العين على الحاجب حتى لا يتمكن من تغميض عينيه.
- ٣٠- قطع الشفة.
- ٣١- كسر الأسنان بواسطة القبضات الحديدية، أو الذين كانوا يلعبون الكراتيه، فيتمكنون من الكسر بالضرب الشديد.
- ٣٣- تسليط الأصوات المزعجة والمرعبة ليلاً نهاراً على السجناء، وأحياناً يسلطون الصوت والسجين في حالة النوم فيفزع من النوم مرعوباً.
- ٣٤- صب البول والغائط على رؤوس السجناء.
- ٣٥- إعطاؤه بعض الأدوية المسببة للجنون المؤقت، وذلك يسبب له تعذيباً جسدياً ونفسياً بعد صحوه عن الجنون؛ لأنه فعل أفعالاً غير مناسبة أمام أصدقائه.
- ٣٦- تعليق النساء من أثدائهن.
- ٣٧- تنويم المعذب في تابوت ضيق لا يتمكن من الحركة فيه.
- ٣٨- تبريد الغرفة تبريداً شديداً أو تسخينها بدرجة عالية.
- ٣٩- عدم الإذن للسجين بأن ينام أو يجلس أربعاً وعشرين ساعة أو أكثر بواسطة جلاوزة يتراوحن على تعذيب السجناء ومراقبته.
- ومن أساليب تعذيب إحدى الحكومات المعاصرة أخذت فتاة إلى السجن، وبعد ساعتين أرجعوا الفتاة إلى ذويها فرأوا أنّها اختلطت، وأخذت تهذي، ولما راجعوا الطبيب لم يعرفوا سبب جنونها، وكانت تصيح وتصيح حتى يغمى عليها

وهكذا، وأخيراً التجؤا بسبب الرشاوى والوسائط إلى أن يتعرفوا على سبب جنونها، حيث لم يكن الفاصل بين أخذها وبين إرجاعها أكثر من ساعتين، فقالوا: إنهم ملؤوا كيساً من الوزغ، وجعلوا ذلك الكيس في رأسها إلى رقبتها، ولشدة الهول وتحرك الوزغ على عينها وأذنها وفمها وأنفها أصابها ما أصابها من الجنون، ولم تنفع معالجة الطبيب لها شيئاً.

هذه أساليب أخذت من ظلمة القرن المعاصر، فإن من أقسام تعذيب هتلر وماو تسيتونغ كما جاء في بعض الكتب أنهم كان يسلخون الجلد من المعذب، ثم يصنعون من جلده الحقائق والجنط، كما أن ما تسيتونغ كان يجعل من القتلى سماً لأجل المزارع، وبوكاسا الذي حكم أفريقيا الوسطى كان إذا غضب على إنسان أمر بأن يقتل، ثم يسلم جثته إلى طبائخه ليطبخه لهم، ويحشوه بالتوابل والكشمش والبصل، ثم يحضر هو ووزراؤه ومن إليهم ويأكلون المقتول على عاداتهم القديمة في أكل الأموات.

التعذيب الماركسي!!

وكان من أساليب تعذيب الشيوعيين في العراق في أيام عبد الكريم قاسم أنهم كانوا يملأون القناني بالعقارب، ثم يمدون المعذب على الأرض بعد أن يعروه عن ثيابه ويشدوا يديه ورجليه، ثم يفرغوا تلك القناني الممتلئة من العقارب على جسمه، كما أنهم كانوا يقتلون الإنسان بربط الحبل برجله، ويجرونه في الشوارع والأزقة حتى يتقطع قطعاً قطعاً، أو أنهم بعد قتله يرفعونه على قنارة القصابين ويقطعونه قطعة قطعة، أو أنهم كانوا يشدون رجلي المعذب بسيارتين متخالفتين في الحركة فتسرعان في السير إحداهما إلى ذات اليمين والأخرى إلى ذات الشمال حتى ينشق المعذب من وسطه نصفين.

مناثر من رؤوس!!

كان بعض حكام أفغانستان وبعض البلاد الأخرى يقطعون الرؤوس،

ويصنعون منها المنائر، وأماكنها موجودة إلى الآن في أفغانستان يعرفها الأهالي، ويشيرون إليها إذا مروا على تلك الأماكن.

وكان الأوزبك حين هجموا على خراسان يقتلون الرجال، ويعلقون رؤوسهم على أعناق خيولهم، ويربطون حبلاً بعنق زوجته أو ابنته أو أخته أو أمه، ويشدون ذلك الحبل بالفرس، ثم يهيجونه فيعدو سريعاً، والمرأة تزحف من ورائه يميناً وشمالاً ورأس قريبتها معلق على رقبة الفرس.

وهناك وسائل وممارسات أبشع وأشد تنكيلاً بالإنسان مما لا يقرها الإسلام، ولم يرتضها، أحجمنا عن ذكرها خوف الإطالة.

خاتمة

هذه كانت حقيقة الأوضاع السياسية في العصر الأول والأموي والعباسي والعثماني وما بعدها من أحقاب مظلمة، استبداد وتعصب ودموية وابتعاد عن الدين، فمع أنّ الصور الحقيقية للمواقف السياسية العادلة التي يرتضيها الإسلام رسمها رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليّ السلام طاهرة ناصعة لا تؤمن بغير الرحمة والإنسانية، ولا تلتزم بغير الحرية والإيمان بحقيقة الإنسان وحقوقه، ولكن مصادرة الحكومة والخلافة السياسية من أصحابها الشرعيين الذين نص عليهم القرآن والرسول الأعظم ﷺ، والمؤامرات الكبيرة التي حيكت ودبرت في جنح الليل من أجل غضبها وتوليبتها طمعاً في الملك والسلطة من قبل الرجال الأوائل في الصدر الأول، كما اعترفوا جميعهم بذلك - وقد ورد عليك بعض شواهد - هو الذي أدى إلى كل ذلك، وقاد حياة المسلمين منذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا إلى الدمار والفشل والاستبداد الشامل على كافة الأصعدة والمجالات، فكل آهة تجرها الأمة الإسلامية اليوم فإنّ المسؤول عنها أولاً ولئلك نفر الذين عقدوا مجلس السقيفة.

ومهدوا لاستيلاء الباطل وقمع الحق على طول التاريخ الإسلامي، وهيؤوا السبل لاستيلاء معاوية والأمويين من بعدهم العباسيين ومن وراءهم العثمانيين الذين لم يكونوا بأقل دموية ووحشية من أسلافهم، ثم من جاء بعدهم، فهؤلاء جميعاً خط واحد طويل مشوّه المعالم، شيطاني النزعة والمواقف، بعيد عن الدين وآراء الإنسانية الصادقة، هؤلاء جميعاً هم الذين شوّهوا الإسلام وحطموا المسلمين.

هذه بعض حقيقة المأساة التي جرت في التاريخ السياسي الإسلامي، وهذا هو واقع الأحداث والمواقف التي واكبها الإنسان المسلم بعد رحيل رسول الله ﷺ في سالف الأيام، ويعيشها كل مسلم في هذا اليوم أيضاً.

قمع وإرهاب وظلم وجهل وتحلف وتعام عن الحق وغيرها وغيرها من القوانين والأنظمة والمبادئ المنحرفة البعيدة عن الدين والإنسانية التي قادتنا إلى ويلات ومأساة حقيقية لا نجاة لنا منها إلا بالعودة إلى الإسلام وأنظمتها الحرة العادلة.

ولأننا لا نريد التطويل في البحث اكتفينا بهذا الفيض القليل من الوقائع والأحداث الكثيرة جداً، ولم تسمح لنا الفرص لنشر حقيقة الأوضاع السياسية في العصر العثماني والاستبداد التركي الذي طال أكثر بلاد الإسلام بأساليب وممارسات قاسية وعنيفة يندى لها جبين كل حر مؤمن بالإنسان والقيم الإنسانية، وهو وباً من الإسهاب اكتفينا ببعض السطور الموجزة تاركين التفاصيل إلى مراجعة كتب التاريخ والسير، أو لفرصة تسمح لنا بالحديث عنها.

هذا ما جرى في الماضي، وأما ما يحدث في بلادنا الإسلامية اليوم فحدث عنه ولا حرج عليك، وعلى أي حال وبعد كل هذا وذاك هل يبقى مجال لأحد لأن يتساءل عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء انهيار المسلمين وانهزام دولتهم العظيمة التي كانت تحكم أقصى الأرض وأدناها؟ وهل يبقى القلم حائراً في تسطير أهم الأسس والعوامل التي تساعدنا اليوم لإعادة كيان الإسلام ومجده العظيم وحكومته العادلة؟

إنه الإسلام الحقيقي الذي يؤمن بالحرية والشورى والتسامح واحترام الإنسان بشرائطها وأساليبها والتي تحدثنا عنها في بعض الكتب التي هي في حقيقتها تشكل أكبر قيمة ضحى من أجلها الإنسان، وأبرز عامل في قوة الدول وبناء الحضارات.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

٢٩ من شهر رمضان المبارك

عام ١٤١٢ هجرية

أسماء أهم المصادر

- ١- المحاسن والمساوي، لإبراهيم بن محمد البيهقي، الناشر دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، عام ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.
- ٢- ديوان الفرزدق، للشاعر العربي همام بن غالب بن صعصعة المعروف بالفرزدق، الناشر دار صادر، لبنان، بيروت.
- ٣- نهاية الإرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، مطبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد في مصر العربية، القاهرة- مصر.
- ٤- القصائد الهاشميات، للشاعر الموالي الكميّ بن زيد الأسدي، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان- بيروت.
- ٥- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، الناشر دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، ١٩٧٠ م.
- ٦- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، محمد رضا، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧- عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الناشر دار الكتاب العربي.
- ٨- تاريخ الأدب العربي، طه حسين، الناشر دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، لبنان- بيروت، عام ١٩٨١.
- ٩- ديوان دعبل الخزاعي، الناشر الشريف الرضي، الطبعة الثانية، إيران- قم، عام ١٤٠٩ هـ.
- ١٠- شعر منصور النمري، المنصور بن الزبيرقان النمري، الناشر، مجمع اللغة العربية، سوريا- دمشق، تحقيق الطيب العشاشي، عام ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.
- ١١- أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، تحقيق الدكتور شكري فيصل، الناشر دار الملاح للطباعة، سوريا- دمشق.
- ١٢- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري، الناشر مؤسسة شعبان للتوزيع، بيروت- لبنان.
- ١٣- عيون أخبار الرضا، للشيخ الصدوق، الناشر جهان، إيران- طهران.
- ١٤- مسند الإمام الرضا، لعلي بن موسى الرضا عليه السلام، الناشر مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان، عام ١٩٨٢ م.

- ١٥- حياة الحيوان، للشيخ كمال الدين الدميري، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ١٦- تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، الناشر مكتبة الحياة، بيروت - لبنان.
- ١٧- من التمدن الإسلامي، السيد محمد الحسيني الشيرازي، الناشر دار الصادق، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، عام ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.
- ١٨- ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين، للسيد محمد مهدي الشيرازي، الناشر مؤسسة الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، عام ١٤١١ هـ، بيروت - لبنان.
- ١٩- شخصية الطاغوت، هادي المدرسي.
- ٢٠- تاريخ الطبري، لابن جرير الطبري، الناشر دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة - مصر.
- ٢١- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، الناشر دار صادر، عام ١٩٨٢ م، بيروت - لبنان.
- ٢٢- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، الناشر دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، ١٩٦٥ م.
- ٢٣- مروج الذهب، للمسعودي، الناشر المكتبة الإسلامية، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت - لبنان.
- ٢٤- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، الناشر دار الفكر العربي، الجيزة - مصر.
- ٢٥- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، الناشر دار الفكر للطباعة والتوزيع.
- ٢٦- تاريخ مدينة دمشق، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، الناشر دار الفكر للطباعة، عام ١٩٩٥ م، بيروت - لبنان.
- ٢٧- أنساب الأشراف، البلاذري، الناشر دار الفكر، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٦، بيروت - لبنان.
- ٢٨- مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثالثة، عام ١٩٩٨ م، بيروت - لبنان.
- ٢٩- الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، الناشر مؤسسة الوفاء، الطبعة الثالثة، عام ١٩٨١ م، بيروت - لبنان.
- ٣٠- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي، الناشر دار صادر، بيروت - لبنان.
- ٣١- معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي، الناشر دار إحياء التراث العربي، عام ١٩٧٩ م، بيروت - لبنان.
- ٣٢- شرح الأخبار، القاضي النعمان بن محمد المغربي، الناشر دار الثقليين، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٤ م، بيروت - لبنان.
- ٣٣- العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، الناشر دار الكتاب العربي، عام ١٩٨٦ م، بيروت - لبنان.

- ٣٤- مقتل الحسين عليه السلام، لابن مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي، تعليق الحسن الغفاري، إيران - قم.
- ٣٥- تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، الناشر دار الفكر، الطبعة الأولى، عام ١٩٨١ م، بيروت - لبنان.
- ٣٦- الفرج بعد الشدة، القاضي علي المحسن بن علي التنوخي، الناشر دار صادر، عام ١٩٧٨ م، بيروت - لبنان.
- ٣٧- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، الناشر دار الشعب، سورية - دمشق، عام ١٩٧٩ م.
- ٣٨- الكنى والألقاب، المؤرخ الشيخ عباس القمي، تقديم محمد هادي الأميني.
- ٣٩- التنبيه والإشراف، المؤرخ أبي الحسن بن الحسين المسعودي، الناشر دار الصاوي للطباعة، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة - مصر.
- ٤٠- الأعلام، خير الدين الزركلي، الناشر المؤلف، الطبعة الثالثة.
- ٤١- وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، الناشر الشريف الرضي، الطبعة الثانية، إيران - قم.
- ٤٢- الفقه، الحقوق، للسيد الشيرازي، الناشر دار العلوم، الطبعة الأولى، عام ١٩٨٩ م، بيروت - لبنان.
- ٤٣- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ٤٤- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، الناشر دار نهضة مصر، القاهرة - مصر.
- ٤٥- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.
- ٤٦- إرشاد القلوب، الشيخ الحسن بن محمد الديلمي، الناشر مؤسسة الأعلمي، الطبعة الرابعة، عام ١٣٩٨ هـ، بيروت - لبنان.
- ٤٧- الطبقات الكبرى، لابن سعد، الناشر دار صادر، عام ١٩٨٥ م، بيروت - لبنان.
- ٤٨- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، الناشر مؤسسة عز الدين، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٧ هـ، بيروت - لبنان.
- ٤٩- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، الناشر دار الحديث عام ١٩٩٩، مصر - القاهرة.
- ٥٠- نيل الأوطار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الناشر دار ابن حزم، الطبعة الأولى، عام ١٤٢١ هـ، بيروت - لبنان.
- ٥١- وسائل الشيعة، المحدث الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، الناشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٣ م، بيروت - لبنان.
- ٥٢- بحار الأنوار، للعلامة محمد باقر المجلسي، الناشر مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية

- المصححة، عام ١٩٨٣م، بيروت - لبنان.
- ٥٣- الكافي، ثقة الإسلام محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، الناشر دار صعب ودار التعارف للمطبوعات، الطبعة الرابعة، عام ١٤٠١ هـ، بيروت - لبنان.
- ٥٤- مسند أحمد بن حنبل، المحدث أحمد بن حنبل، الناشر دار صادر، بيروت - لبنان.
- ٥٥- أعيان الشيعة، السيد محسن الأميني، الناشر دار التعارف للمطبوعات، تحقيق حسن الأمين، عام ١٩٨٣م، بيروت - لبنان.
- ٥٦- الشيعة والحاكمون، محمد جواد مغنية، الناشر دار الهلال - دار الجواد، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.
- ٥٧- ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، الناشر دار الأسوة للطباعة، الطبعة الأولى، عام ١٤١٦ هـ.
- ٥٨- جهاد الشيعة، سميرة الليثي، الناشر دار الجليل، الطبعة الثانية، عام ١٩٧٨م، بيروت - لبنان.
- ٥٩- النزاع والتخاصم، أحمد بن علي بن عبد القادر بن إبراهيم المقرئ الشافعي، الناشر إبراهيم يوسف (مكتبة الإهرام) مصر - القاهرة.
- ٦٠- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، الشيخ أسد حيدر، الناشر دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، عام ١٩٠٩م، بيروت - لبنان.
- ٦١- طيبة الدعوة العباسية، الدكتور فاروق عمر، الناشر دار الإرشاد، الطبعة الأولى، عام ١٩٧٠م، بيروت - لبنان.
- ٦٢- الفتوح، لأحمد بن أعثم الكوفي، الناشر دار الندوة الجديدة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى.
- ٦٣- صبح الأعشى أحمد بن علي القلقشندي، الناشر دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٧.
- ٦٤- مآثر الأنافة في معالم الخلافة، أحمد بن عبد الله القلقشندي، الناشر عالم الكتب، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت - لبنان.
- ٦٥- الفخري للآداب السلطانية والدول الإسلامية، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، الناشر دار صادر.
- ٦٦- تاريخ الخلفاء، للسيوطي، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، لبنان - بيروت، ١٩٨٨م.
- ٦٧- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الناشر دار الفكر، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٧، بيروت - لبنان.
- ٦٨- المصباح المنير، الكفعمي الشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن العاملي، الناشر الرضي.

- ٦٩- مناقب آل أبي طالب، رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب، الناشر مؤسسة علامة، إيران - قم.
- ٧٠- ضحى الإسلام، أحمد أمين المصري، الناشر دار الكتاب العربي، الطبعة العاشرة، بيروت - لبنان.
- ٧١- صفة الصفوة، أبي الفرج ابن الجوزي، الناشر دار المعرفة، الطبعة الثالثة، عام ١٩٨٥م، بيروت - لبنان.
- ٧٢- الأخبار الطوال، أحمد بن داود الدينوري، الناشر الشريف الرضي، الطبعة الأولى، إيران - قم.
- ٧٣- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبشيهي، الناشر دار الندوة، بيروت - لبنان.
- ٧٤- خطط المقرئزي أو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المحدث أحمد بن علي المقرئزي، الناشر دار صادر، بيروت - لبنان.
- ٧٥- إحقاق الحق، القاضي نور الدين الحسيني التستري، الناشر مكتبة السيد المرعشي، قم - إيران.
- ٧٦- مستدرك الوسائل، المحدث ميرزان حسين النوري الطبرسي، الناشر مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، الطبعة الثالثة، عام ١٩٩١م.
- ٧٧- رجال المامقاني المعروف (تنقيح المقال في علم الرجال)، الطبعة الحجرية. طبع بمباشرة الأستاذ محمد رضا.
- ٧٨- القاموس المحيط، اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، عام ١٩٨٦م، بيروت - لبنان.
- ٧٩- الصواعق المحرقة، المحدث أحمد بن حجر الهيتمي المكي، الناشر مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، عام ١٩٦٥م، القاهرة - مصر.
- ٨٠- تذكرة الخواص، سبط الدين ابن الجوزي، الناشر مؤسسة أهل البيت عليه السلام، بيروت - لبنان، عام ١٩٨١.
- ٨١- تاريخ الشيعة، العلامة الكبير محمد حسين المظفر، الناشر مكتبة بصيرتي، إيران - قم.
- ٨٢- حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشي، الناشر دار البلاغة، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٣م، بيروت - لبنان.
- ٨٣- حياة الإمام الرضا عليه السلام، باقر شريف القرشي، الناشر سعيد بن جبير، الطبعة الأولى، إيران - قم.
- ٨٤- حياة الإمام الرضا عليه السلام، جعفر مرتضى العاملي، الناشر دار التبليغ الإسلامي عام ١٩٧٨م.
- ٨٥- نهج البلاغة، للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الناشر دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، الطبعة الثانية، عام ١٩٨٠م.

- ٨٦- جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الناشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية الطبعة الأولى، عام ١٤١٥ هـ، قم - إيران، محمد بن أحمد الدمشقي الشافعي.
- ٨٧- كنز العمال، علاء الدين بن المتقي الهندي، الناشر مؤسسة الرسالة، عام ١٩٧٩، بيروت - لبنان.
- ٨٨- المستدرک، الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، الناشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ٨٩- السيرة النبوية، لابن هشام، الناشر دار إحياء التراث العربي، عام ١٩٨٥ م، بيروت - لبنان.
- ٩٠- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ٩١- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الناشر المكتبة الإسلامية، تحقيق أحمد محمد شاكر.
- ٩٢- المحلى، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، الناشر دار الفكر، بيروت - لبنان.
- ٩٣- الأم، محمد بن إدريس الشافعي، الناشر دار المعرفة، تحقيق محمد زهري النجار، بيروت - لبنان.
- ٩٤- النصائح الكافية، العلامة السيد محمد بن عقيل العلوي، الناشر دار الزهراء، الطبعة الثانية، عام ١٩٨١ م، بيروت - لبنان.
- ٩٥- الغدير، للعلامة عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، الناشر دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران.
- ٩٦- شذرات الذهب، المؤرخ عبد الحي بن العماد الحنبلي، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ٩٧- لسان العرب، لابن منظور، الناشر أدب الحوزة، قم - إيران عام ١٤٠٥ هـ.
- ٩٨- الفصول المهمة في تأليف الأمة، الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، الناشر دار الزهراء، الطبعة السابعة، عام ١٩٧٧ م، بيروت - لبنان.
- ٩٩- المجالس السنوية، السيد العلامة محسن الأمين، الناشر الشريف الرضي، الطبعة الخامسة، ١٩٧٤، إيران - قم.
- ١٠٠- مجمع البحرين، العلامة فخر الدين الطريحي، الناشر مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية المصححة، عام ١٩٨٣ م، بيروت - لبنان.
- ١٠١- بلاغات النساء، أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور، الناشر دار الأضواء، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٩ م، بيروت - لبنان.
- ١٠٢- عمر بن الخطاب، عبد الرحمن أحمد البكري، الناشر دار الإرشاد للطباعة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨ م، بيروت - لبنان.

- ١٠٣- الشيعة هم أهل السنة، الدكتور محمد التيجاني السماوي، الناشر مؤسسة الفجر، الطبعة الأولى، عام ١٩٨٣م، لندن - بريطانيا.
- ١٠٤- وقعة صفين، المحدث نصر بن مزاحم المنقري، الناشر المؤسسة العربية الحديثة، الطبعة الثانية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، عام ١٣٨٢هـ.
- ١٠٥- وقعة الجمل، ضامر بن شدقم بن علي الحسيني المدني، الناشر المحقق، الطبعة الأولى.
- ١٠٦- الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، عام ١٤١٧هـ، بيروت - لبنان.
- ١٠٧- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، الناشر دار المعرفة للطباعة، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان.
- ١٠٨- رسائل الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر.
- ١٠٩- الشيعة في الميزان، محمد جواد مغنية، الناشر دار الجواد - دار التيار الجديد، الطبعة السادسة، عام ١٩٨٦م، بيروت - لبنان.
- ١١٠- النص والاجتهاد، السيد العلامة عبد الحسين شرف الدين، الناشر أبو مجتبي، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٤هـ، إيران - قم.
- ١١١- الإرشاد، الإمام الشيخ محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالمفيد، الناشر مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، عام ١٤١٦هـ، بيروت - لبنان.
- ١١٢- المحبر، محمد بن الحبيب البغدادي، نسخة الأصل الخطية.
- ١١٣- سفينة البحار، الشيخ المحدث عباس القمي، الناشر دار الأسوة، الطبعة الأولى، عام ١٤١٤هـ.
- ١١٤- الاحتجاج، أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، الناشر دار النعمان، عام ١٩٦٦م، العراق - النجف الأشرف.
- ١١٥- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، الناشر دار المعارف النظامية، الطبعة الأولى، حيدر آباد - الهند.
- ١١٦- صلح الإمام الحسن عليه السلام، الإمام المجاهد الشيخ راضي آل ياسين، الناشر دار الكتب العراقية، الطبعة الثانية، عام ١٩٦٥م، العراق - بغداد.
- ١١٧- تطهير الجنان آخر الصواعق المحرقة، أحمد بن حجر الهيتمي المكي، الناشر مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، عام ١٩٦٥م، القاهرة - مصر.
- ١١٨- شيخ المضيرة أبو هريرة، محمود أبو رية، الناشر مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان.
- ١١٩- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الناشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ١٢٠- أحاديث أم المؤمنين، السيد مرتضى العسكري، الناشر كلية أصول الدين، الطبعة السادسة، عام ١٩٩٩م.

- ١٢١- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، الشيخ إسماعيل بن محمد العليجوني الجراحي، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، عام ١٩٨٨ م، بيروت - لبنان.
- ١٢٢- إعلام الوری بأعلام الهدی، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، الناشر دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة.
- ١٢٣- أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٤ م، بيروت - لبنان.
- ١٢٤- الطوائف في معرفة مذاهب الطوائف، العالم رضي الدين بن موسى بن طاوس الحلي، الناشر مطبعة الخيام، عام ١٣٩٩ هـ، إيران - قم.
- ١٢٥- مختصر تاريخ العرب، السيد أمير علي الهندي، الناشر دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، عام ١٩٦٧ م، بيروت - لبنان.
- ١٢٦- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الشيخ محمد الحضري بك، الناشر المكتبة التجارية الكبرى، عام ١٩٦٩ م، مصر - القاهرة.
- ١٢٧- الخراج، القاضي يعقوب بن إبراهيم، الناشر المكتبة الإسلامية، الطبعة الثانية، مصر - القاهرة.
- ١٢٨- تاريخ مرآة الجنان وعبرة اليقضان، المؤرخ عبد الله بن سعد بن علي بن سليمان بن اليافعي اليمني، الناشر مؤسسة الأعلمي، الطبعة الثانية، عام ١٩٧٠ م، بيروت - لبنان.
- ١٢٩- الخلافة والملوك، أبو الأعلى المودودي، الناشر دار القلم، الطبعة الأولى، عام ١٩٧٨ م، الكويت.
- ١٣٠- مكاتيب الرسول ﷺ، علي بن حسين علي الأحمدي، الناشر ياسي، إيران.
- ١٣١- الملل والنحل محمد بن الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الناشر دار صعب، تحقيق محمد سعيد كيلاني، عام ١٩٨٦ م، بيروت - لبنان.

الفهرست

الأمرء والخلفاء في عهد بني أمية

٧	الفصل الأول: عهد معاوية وحكمه السياسة العامة
١٥	من ولاة معاوية
١٥	سمرة بن جندب
١٦	زياد بن أبيه
١٧	بسر بن أرطأة
١٧	شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي
٢١	معاوية يأمر بسب علي <small>عليه السلام</small> ولعنه
٢٨	معاوية وسياسة الإرهاب
٣٣	الفصل الثاني: سيرة معاوية وسياسته
٣٦	سياسته الاقتصادية
٣٦	الحرمان الاقتصادي
٤٠	الرفاه على الشام
٤٠	استخدام المال في تدعيم ملكه
٤١	سياسة التحزب والولاء
٤١	شراء الأديان
٤٣	مصادرة أموال المواطنين
٤٤	ضريبة النيروز
٤٤	نهب الولاة والعمال
٤٥	جباية الخراج
٤٥	شل الحركة الاقتصادية
٤٦	حجة معاوية
٤٧	سياسة التفريق
٤٩	العصبية القبلية
٥٠	سياسة البطش والجبروت
٥١	احتقار الفقراء
٥٢	سياسة الخداع

٥٥	لعبة قميص عثمان
٥٨	إشاعة الانتهازية
٥٩	الخلاعة والمجون
٦١	إشاعة المجون في الحرمين
٦٢	الاستخفاف بالقيم الدينية
٦٣	استلحاق زياد
٦٤	إنكار الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
٦٤	الحقد على النبي <small>صلى الله عليه وآله وسلم</small>
٦٦	تغيير الواقع الإسلامي
٦٧	مع أهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٧٠	حديث مفتعل على الحسين <small>عليه السلام</small>
٧٢	نقض العهد
٧٣	قتله للصالحين من عباد الله
٧٤	سب الإمام أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>
٧٦	ستر فضائل أهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٧٨	التحرّج من ذكر الإمام <small>عليه السلام</small>
٧٩	مع الشيعة
٨٠	القتل الجماعي
٨٠	إبادة القوى الواعية
٨٤	إنكار الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
٨٦	ترويع النساء
٨٧	هدم دور الشيعة وإفقارهم
٨٧	إبعاد الشيعة إلى خراسان
٨٩	الفصل الثالث: معاوية ويزيد والإعداد للخلافة
٩٤	يزيد في سماته الشخصية
٩٨	نصيحة معاوية ليزيد
٩٩	إقرار معاوية لاستهتار يزيد
٩٩	حقد يزيد على النبي <small>صلى الله عليه وآله وسلم</small>
١٠٠	بغضه للأَنْصار
١٠٢	دعوة المغيرة لبيعة يزيد
١٠٤	كلمة الحسن البصري
١٠٤	كلمة ابن رشد والجاحظ
١٠٥	دوافع معاوية
١٠٦	الوسائل الدبلوماسية في أخذ البيعة

١٠٩ خطاب الأحنف بن قيس
١١٠ فشل المؤتمر
١١٠ سفر معاوية إلى المدينة المنورة
١١٤ فزع المسلمين
١١٤ الجبهة المعارضة
١١٧ موقف الأسرة الأموية
١١٩ إيقاع الخلاف بين الأمويين
١٢٠ تجميد البيعة
١٢٠ اغتيال الشخصيات الإسلامية
١٢٢ من المعارضين في المدينة
١٢٢ خطاب الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
١٢٤ إرغام المعارضين
١٢٥ موقف الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
١٢٦ رسالة معاوية للإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
١٢٧ جواب الإمام <small>عليه السلام</small>
١٢٩ مرض معاوية
١٣١ الفصل الرابع: شخصية معاوية تحت العدسة
١٣٣ الغاية تبرر الوسيلة
١٤٥ يومي منك يا حجر طويل
١٤٨ أقواله المأثورة
١٤٩ معاوية في الميزان
١٥٣ الفصل الخامس: أمراء يقرّون بما فعلوا
١٥٥ أبو بكر غضب الخلافة
١٥٥ كتاب محمد بن أبي بكر إلى معاوية
١٥٧ رد معاوية على محمد بن أبي بكر
١٥٩ يزيد: وعمر غضب الخلافة أيضاً
١٦٠ أبو بكر يقر بغضب الخلافة
١٦١ بين أبي بكر.. والعباس
١٦٣ عمر يشيد بعظمة علي <small>عليه السلام</small> وكفاءته
١٦٤ الشورى
١٦٦ عمر يقر باقتدار علي <small>عليه السلام</small>
١٧٣ وأبو سفيان أيضاً
١٧٤ معاوية يطأ طيء لسمو علي <small>عليه السلام</small>
١٧٤ سودة الهمدانية

- ١٧٦ وعند معاوية أيضاً ..
- ١٧٧ وكذلك عند معاوية ..
- ١٧٨ ومع معاوية كذلك ..
- ١٧٩ وفي مجلس معاوية أيضاً ..
- ١٨١ افحام آخر لمعاوية ..
- ١٨٣ عدي ومعاوية ..
- ١٨٤ ضرار يصف علياً عند معاوية ..
- ١٨٥ لمحة من سيرة علي عليه السلام ..
- ١٨٥ علي عليه السلام والسياسة ..
- ١٩٠ سياسة علي عليه السلام .. وسياسة غيره ..
- ١٩٢ ابن عباس ..
- ١٩٣ ابن عمر ..
- ١٩٣ عمرو بن العاص ..
- ١٩٥ معاوية وعمرو أيضاً ..
- ١٩٥ اعتراف آخر ..
- ١٩٥ والعباسيون يعترفون أيضاً ..
- ١٩٦ حكاية وإفحام ..
- ١٩٧ أعلام العامة .. بصرحون بأحقية علي عليه السلام ..
- ١٩٩ **الفصل السادس: الترغيب.. والترهيب الطريق الوحيد إلى الحكم** ..
- ٢٠١ حكومة يزيد ..
- ٢٠٤ بيعة يزيد ٦٠ هـ - ٦٤ هـ ..
- ٢٠٤ معاوية الثاني يتنازل عن السلطة ..
- ٢٠٥ ولاية العهد لعبد الملك وعبد العزيز بن مروان (٦٥ هـ) ..
- ٢٠٦ موت مروان بن الحكم وولاية ابنه عبد الملك (٦٥ هـ) ..
- ٢٠٦ أخبار عن مروان بن الحكم ..
- ٢٠٧ الوليد يستلم ولاية العهد (٨٥ هـ) ..
- ٢٠٨ الحجاج بن يوسف يحكم العراق ..
- ٢٠٩ بين أنس بن مالك والحجاج ..
- ٢١٠ عبد الملك يخطب في الحج ..
- ٢١٠ عبد الملك يفرض البيعة لأولاده ..
- ٢١١ ومن أخبار عبد الملك بن مروان ..
- ٢١٢ عبد الملك بن مروان يشيد بالحجاج ..
- ٢١٣ الوليد بن عبد الملك ..
- ٢١٤ خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ) ..

٢١٥	يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ)
٢١٦	بيعة هشام والوليد (١٠٢ هـ)
٢١٦	سيرة يزيد بن عبد الملك
٢١٧	خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ)
٢١٧	بيعة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ هـ)
٢١٨	سيرة الوليد بن يزيد
٢٢١	الفصل السابع: السياسة الأموية تحت الأضواء
٢٢٤	مزايا الحكم الأموي
٢٣٥	معاوية وعلي <small>عليه السلام</small>
٢٣٦	رغبة بني أمية في السيادة
٢٣٨	التعصب القومي في عصر الأمويين
٢٣٨	العرب وقريش
٢٤٠	تقييد الأفكار في أيام بني أمية
٢٤١	المجاملة الكاذبة
٢٤٢	اللباس
٢٤٢	اصطناع الأحزاب في عصر الأمويين
٢٤٣	عمال بني أمية
٢٤٤	أخذهم الجزية عن المسلمين
٢٤٥	الاستخفاف بالدين وأهله
٢٤٦	الاستهانة بالقرآن والحرمين
٢٤٧	الخلافة والنبوة
٢٤٩	الفتك والبطش في عصر الأمويين
٢٥٢	الموالي وتكاثرهم في عصر الأمويين
٢٥٢	نقمة الموالى على العرب
٢٥٢	زواج الموالى بالعريبات
٢٥٤	أهل الذمة في عصر الأمويين
٢٥٤	عهود أهل الذمة في أول الإسلام
٢٥٥	الأمويون وأهل الذمة
٢٥٨	ثروة الدولة
٢٥٨	بيت المال
٢٦١	جور العمال
٢٦٥	الفصل الثامن: البطش بعاصمة الإسلام وقبلته

الأمراء والخلفاء في عهد بني العباس

٢٨٣ العباسيون يستغلون الظروف
٢٨٤ من هم بنو العباس؟
٢٨٦ السفاح مؤسس الدولة
٢٨٩ الفصل الأول: الدولة العباسية تقوم على الدماء والكذب
٢٩١ أبو مسلم الخراساني
٢٩٩ الفصل الثاني: أمراء بني العباس سماتهم.. ومواقفهم
٣٠١ أبو العباس السفاح
٣٠٤ المنصور
٣١٠ الإمام جعفر الصادق <small>عليه السلام</small> والمنصور
٣١٣ مع العلويين
٣٢١ الإمام الرضا <small>عليه السلام</small> وهارون
٣٢٢ والشعراء يقولون الحقيقة
٣٢٥ والمأمون أيضاً يعترف
٣٢٦ المتوكل
٣٢٩ جانب من رسالة الخوارزمي لأهل نيشابور
٣٣٥ الفصل الثالث: سياسة العباسيين مع الرعية
٣٣٧ نظرة عامة
٣٣٩ مشاهد من مواقف الخلفاء
٣٣٩ ١- السفاح
٣٤٠ ٢- المنصور
٣٤٤ بعض ما يقال عن المنصور
٣٤٤ ٣- المهدي
٣٤٥ ٤- الهادي
٣٤٥ ٥- هارون
٣٤٨ قتل الإمام موسى بن جعفر <small>عليه السلام</small>
٣٥٢ ٦- الأمين
٣٥٣ ٧- المأمون
٣٥٤ المأمون في الحكم
٣٥٥ أما سياسته مع العرب والإيرانيين
٣٥٦ المأمون مع الرعية عموماً
٣٥٨ وصية إبراهيم الإمام
٣٥٨ أبو مسلم ينفذ الوصية

٣٦١ البيت العباسي
٣٦٢ مواقف العباسيين على لسان المأمون
٣٦٩	الفصل الرابع: تحليل للأوضاع الإدارية والسياسية في العهد العباسي ..
٣٧١ الركيزة الأولى: الثروة
٣٧٢ ثروة الدولة العباسية في عصر الانحطاط
٣٧٣ مقدار الجباية في عصر الانحطاط
٣٧٨ كثرة النفقات
٣٩٢ الركيزة الثانية: سفك الدماء
٣٩٦ اضطهاد أهل الذمة في العصر العباسي
٣٩٩ العصبية العربية في العصر العباسي
٣٩٩ الركيزة الثالثة: الدسائس
٤٠٠ الركيزة الرابعة: التمييز والتفرقة
٤٠١ الركيزة الخامسة: الاعتماد على الخدم
٤٠٢ الركيزة السادسة: نفوذ النساء في الدولة
٤٠٣ الركيزة السابعة: غياب القانون ومزاجية الأحكام
٤٠٥ الجاسوسية اللصوصية
٤٠٥ تشعب المملكة العباسية
٤٠٦ الخلافة والسلطة
٤٠٧ الركيزة الثامنة: السمة الدينية
٤٠٩ الدول الإسلامية والخلافة
٤١١	الفصل الخامس: مواقف العباسيين من المعارضة
٤١٥ الوالي الجديد
٤١٦ رياح بن عثمان والياً آخر
٤٢١ الثورة
٤٢٣ المنصور والثورة العلوية
٤٢٤ رسائل متبادلة
٤٢٨ القضاء على الثورة
٤٣٠ الحرب
٤٣٣ ثورة البصرة
٤٣٧ تأييد أبي حنيفة لإبراهيم
٤٣٨ ثورة فح
٤٤١ بداية الثورة
٤٤٤ الثورة
٤٤٥ الصدام في المسجد

٤٤٦	القضاء على الحسين وثورته
٤٤٨	ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن
٤٥١	اتهام يحيى
٤٥٥	نهاية مؤلمة
٤٥٩	الفصل السادس: صور بشعة من ظلم الأمراء وجورهم عبر العصور
٤٦٣	صور من التعذيب والدموية
٤٦٨	والعباسيون أيضاً
٤٦٩	تنور المسامير
٤٧٠	قرض اللحوم
٤٧١	القتل بالمنافخ
٤٧١	توصيل الضحية
٤٧٢	مآسي السجون
٤٧٣	أقسام السجون
٤٧٦	مشاهد أخرى
٤٧٦	قتل الأعوان
٤٧٧	التعذيب والإهانة
٤٧٧	السلخ
٤٧٨	الصلب المنكوس
٤٧٨	دفن الأحياء
٤٧٨	الضحايا تحت المائدة
٤٧٩	ضحية العيد
٤٨١	مكافأة العلماء
٤٨٢	كما تدين تدان
٤٨٣	طعام الهرة والكلاب
٤٨٣	عاقبة المتوكل
٤٨٤	بطش الجبارين
٤٨٥	قتل ونهب
٤٨٥	ضرب متكرر
٤٨٥	خمسون سوطاً لجريمة وهمية
٤٨٦	خنق الأصوات
٤٨٦	نيش القبور
٤٨٧	إحراق الجسد
٤٨٧	رأس برأس
٤٨٧	التمثيل بالضحية

٤٨٧	منطق الإرهاب
٤٨٧	تفسير عام
٤٨٨	قساوة جاهلية
٤٨٨	جبروت المستبدين
٤٨٨	قتل جماعي
٤٨٩	إبادة شاملة
٤٨٩	من يجرؤ على الكلام؟
٤٨٩	منطق الاستبداد
٤٨٩	وبعد الخلع أيضاً
٤٩٠	قتل البريء السقيم
٤٩٠	ابن الضحية
٤٩٠	المناصب بالإكراه
٤٩١	سطور عن سيرة العثمانيين مع شيعة آل البيت <small>عليهم السلام</small>
٤٩٣	الظالم: الصاعقة
٤٩٦	الأبناء على سيرة الآباء
٤٩٦	الملك عقيم
٤٩٦	الدكتاتور وذووه
٤٩٧	تعذيب جاهلي
٤٩٨	الدكتاتور لا يرحم أحداً
٤٩٨	ضرائب روحية ومالية
٤٩٩	ضحايا الجاه والمقام
٥٠٠	من أنواع التعذيب
٥٠١	ضحايا القدرة الاستبداد
٥٠٢	قبور فوق الأرض
٥٠٢	من أساليب التعذيب أيضاً
٥٠٣	ممارسات قمعية
٥٠٣	تغيير خلق الله
٥٠٣	وفي القبر تعذيب أيضاً
٥٠٤	ممارسات جديدة
٥٠٨	التعذيب الماركسي!!
٥٠٨	منائر من رؤوس!!
٥١٠	خاتمة
٥١٢	أسماء أهم المصادر
٥٢٠	الفهرست